الدكتور أحمد مصطفى حليمة

جَوْدَةُ الْعَمَلِيّةِ التّعْلِيْمِيّةِ

آفَاقٌ جَدِيدَةٌ لِتَعْلِيمٍ مُعَاصِرٍ

العقْلُ

التّفْكِيرُ النّقدي

العلْمُ

المُعِلّم

الطّالِبُ

المَادّةُ العلميّةُ

المُؤسّسةُ التّعليميةُ

30 عاماً من العطاء
مجدلاوي للنشر والتوزيع

جَوْدَةُ الْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيْمِيَّةِ

آفَاقٌ جَدِيدَةٌ لِتَعْلِيمٍ مُعَاصِرٍ

جَوْدَةُ العَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ

آفاقٌ جَدِيدَةٌ لِتَعْلِيمٍ مُعَاصِرٍ

* العَقْلُ * التَّفْكِيرُ النَقدي * العِلْمُ * المُعَلّم * الطّالِبُ
* المادّة العلميّة * المؤسّسة التّعليميّة

د. أحمَد مُصطَفَى حَلِيمَة

أستاذ مشارك بكلية الآداب

جامعة الملك فيصل



الطبعة الأولى

2014-2015م

المملكة الأردنية الهاشمية رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2013/8/2775)

371.2

حليمة، أحمد مصطفى

جودة العلمية التعليمية آفاق جديدة لتعليم معاصر/ أحمد مصطفى حليمة

.- عمان:دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2013

(   ) ص.

ر.إ.: (2013/8/2775).

الواصفات: /التعليم// التربية// الإدارة

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9957-02-526-7 (ردمك)

Dar Majdalawi Pub.& Dis.
Telefax: 5349497 - 5349499
P.O.Box: 1758 Code 11941
Amman- Jordan



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع
تليفاكس : ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩
ص . ب ١٧٥٨ الرمز ١١٩٤١
عمان - الأردن

www.majdalawibooks.com
E-mail: customer@majdalawibooks.com

- الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر الدار الناشرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلى

فلـذة كـبدي ولـدي عـبد الـرَّحمن...

وقــرَّة عــيني ولــدي مــصطَفى ...

ومُهجــة فـؤادي ابـنتي جـودي ...

وإلى حبيـبتي زوجـتي الغالـية ....

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	19
الفصل الأول	
العَقْلُ والعِلْمُ	29
■ الواقع الحاليّ	31
■ العَقْلُ وماهيته	32
■ محل العقل	34
■ فضل العقل	36
■ العاقل وسماته	40
■ الأحمق وصفاته	43
■ العقل ودوره في كسب العلم	47
■ العقل والتَّفْكِيْر النَّقْديّ	49
أ- تعريف التَّفْكِيْر النَّقْديّ	55
ب- خصائص المفكّر الناقد	56
1- التواضع الفكري	57
2- الشجاعة الفِكْرِيّة	57
3- التقمُّص الفِكْرِيّ	57
4- الأمانة الفِكْرِيّة	58
5- الصبر والمصابرة الفِكْرِيّة	58
6- العقلانية الفِكْرِيّة	58
7- الاستقلال الفِكْرِيّ	59
ج- مراحل التَّفْكِيْر النَّقْديّ	60

د- عناصر الفكر والتَّفْكِيْر النَّقْدِيّ 63
1- الغرض 64
2- المُشكلة 65
3- المعلومات 65
4- المفاهيم 66
5- الافتراضات 66
6- الاستنتاجات 67
7- التَّدَاعيَات 67
8- وجهات النَّظَر 68
هـ- معايير التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ 69
1- الوضوح 70
2- الصِّحَّةُ 70
3- الدّقة 71
4- وثَاقة الصلة بالموضوع 72
5- العمق 72
6- الاتّساع 73
7- المنطق 74
8- الأهمّية 75
9- عدم الانحياز 75
- العلم وسماته 76
- تعريفُ العلم 84
- حكْمُ طَلَبِ العِلْمِ 88
أولاً: المعرفة المفروضة 90
ثانياً: المعرفة الواجبة 91
- فضلُ العِلْمِ 92

أولاً: فضل العلم في نصوص القرآن الكريم 92
ثانياً: فضل العلم في نصوص السّنّة المطهَّرة 95
ثالثاً: فضل العلم في أقوال الصَّحابة الكرام، والسَّلَف الصالح 100
رابعاً: فضل العلم في أقوال بعض المتأخرين من الكُتَّاب والأدباء والشعراء 109

الفصل الثاني

المُعَلِّم ودوره في العمليّة التَّعْلِيْميّة 113

- **الواقع الحاليّ** 115
- **تسميات وتعاريف** 117

أولاً: المُعَلِّم 117
ثانياً: المُعيد 118
ثالثاً: المحاضر Lecturer 119
رابعاً: الاستاذ الجامعيّ Professor 120
خامساً: المشرف Supervisor 120
سادساً: المُؤدِّبُ 121
سابعاً: الشَّيْخ 122
ثامناً: العَالِمُ 125
أ- المعيار الشَّرْعِيّ 125
ب- المعيار العلميّ 126
ت- المعيار العمليّ 127

- **المُعَلِّم ومكانته في الإسلام** 129

أولاً: وضع المُعَلِّم الدِّينيّ 131
ثانياً: وضع المُعَلِّم العلميّ والتَّربويّ 133
ثالثاً: وضع المُعَلِّم الاجْتِمَاعِيّ 134
رابعاً: وضع المُعَلِّم المالي 136
خامساً: وضع المُعَلِّم السّياسيّ 137

- **صفات المُعَلّم العاقل النّاجح** 138

أولاً: الإخلاص 138

ثانياً: التحلي بمكارم الأخلاق 140

أ- الحمد والشكر 140

ب- الصبر والتواضع 142

ج- الصدق والعدل 143

د- الحلم والرأفة 145

هـ- الزُّهد والعفّة 146

ثالثاً: التحلي بالعلم كماً ونوعاً 148

رابعاً: التحلي بالأمانة العلميّة 149

خامساً: القدرة على نشر العلم النافع 150

سادساً: القدرة على إدَارَة الفصل وضبط الطُّلاّب 151

سابعاً: استمرارية التَّعَلُّم وكَسبِ العلمِ والمعرفةِ 154

ثامناً: حسن المظهر وأناقة الملبس 156

تاسعاً: إقبال المُعَلّم وبشاشة هيئته 158

- **دور المعلم في العمليّة التَّعْليميّة** 161

أولاً: الدّور التَّعْليْميّ 162

ثانياً: الدّور الإداريّ 163

ثالثاً: الدّور التربوي 164

رابعاً: الدّور النفسي 165

- **دور معتقدات المُعَلّم في العمليّة التَّعْليْميّة** 167

1- معتقداته الدِّينيّة 170

2- معتقداته الثَقَافيّة والاجتِمَاعيّة 170

3- معتقداته حول طبيعة العلم والمعرفة 170

4- معتقداته حول دور العلم والمعرفة في التَّعْليْم والتَّعَلُّم 171

5- معتقداته حول طبيعة التَّعْلِيْم	171
6- معتقداته حول طبيعة التَّعَلُّم	171
■ **المُعَلِّم والأساليب التَّعْلِيْمِيّة**	173
أولاً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم بالفعل والعمل	175
ثانياً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم بالتدرج	177
ثالثاً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم الفرديْ	179
رابعاً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم بالمُسَاءلة وليس بالتَّلْقِيْن	180
خامساً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم بالمناقشة والحوار	182
سادساً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم بالمقايسة والمشابه	184
سابعاً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم بالبحث والاستكشاف	185
ثامناً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم القصصي	187
تاسعاً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم "بالطالب المدرس"	189
عاشراً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم باستخدام وسائل التَّعْلِيْم الإيضاحية	191
حادي عشر: أُسْلُوْب الترغيب والترهيب في التَّعْلِيْم	192
ثاني عشر: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم بالكتابة وتدوين الملاحظات	196
ثالث عشر: أساليب تَعْلِيْمِيّة أخرى	199
رابع عشر: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم "الانعكاسي" البريطاني	199
خامس عشر: أساليب تعليم اللغة الإنجليزيّة	202
■ **أهمّية تعليم وتعلُّم لغة أجنبية**	202
■ **أهمّية تعليم وتعلُّم اللغة الإنجليزيّة**	203
■ **أساليب تعليم اللغة الإنجليزيّة**	205
1- أُسْلُوْب استخدام القواعد والترجمة The Grammar-Translation Method	205
2- أُسْلُوْب التَّعْلِيْم "المباشر" The Direct Method	206
3- أُسْلُوْب التَّعْلِيْم "الشفوي" The Oral Approach	207
4- أُسْلُوْب التَّعْلِيْم "السمعي اللغوي" The Audiolingual Method	207

5- أسْلُوْب التَّعْلِيْم "الصريح الوظيفي" Communicative Approach 208

■ خلاصة 211

الفصل الثالث

الطالب ودوره في العمليّة التَّعْلِيْميّة 213

■ الواقع الحاليّ 215

■ مكانة طالب العلمِ في الإسلام 217

■ الطَّالبُ ودوره في العمليّة التَّعْلِيْميّة 226

■ الواقع الحاليّ لعَمَلِيَّة التَّعَلُّم عند الطالب العربيّ 231

■ صفات طالب العلم النَّاجح 237

أولاً: أخلاق طالب العلم وأدبه 238

ثانياً: الإخلاص في طلب العلم 242

ثالثاً: الصَّبر والجلادة في طلب العلم 245

رابعاً: التواضع في طلب العلم 252

خامساً: الرغبة والترحال في طلب العلم 255

سادساً: التحلّي بالجديّة في طلب العلم 260

سابعاً: التّأكد ممّن يُؤخذ العلم 263

ثامناً: كراهة الاستحياء في طلب العلم 265

تاسعاً: اللّباقة والكياسة في طلب العلم 267

■ الطَّرِيْقَة الإسْلامِيَّة لتحصيل العلم النَّافع 269

أولاً: الجانب الروحي 270

أ) النية والإخلاص في طلب العلم 270

ب) تقوى الله وطاعته والابتعاد عن المعاصي في طلب العلم 271

ت) الدعاء والتوسّل إلى الله تعالى في طلب العلم 272

ث) الذِّكرُ والاستِغْفَارُ ودَورَهُما في تَحْصيل العِلْمِ 273

ثانياً: الجَانبُ العقليّ 275

أ- مولدات اندفاعية غرضية/ مُتَكَامِلة في طلب العلم 276
ب- آلية الكشف والاستكشاف في طلب العلم 277
ت- آلية الفكر والتَّفْكِيْر النَّقْدِيّ في طلب العلم 278
ثالثاً: الجانب العمليّ 279
أ- نشطات دراسيّة 280
ب- مُذَاكَرَةٌ فرديَّة أو جَمَاعِيَةٌ 281
ت- نشاطات تطبيقيَّة 283
- **اختلاف أساليب تحصيل العلم لدى طلاب العلم** 284

الفصل الرابع

المادة العلميّة وجودها 289

- **الواقع الحاليّ** 291
- **أهمّ مَصَادِرِ التَّلَقّي** 296

كتاب الله عزّ وجل 298
سنة الرَّسول ﷺ 299
آثار الصَّحابة رضوان الله عليهم 301
آثار التَّابِعين والسَّلَف الصالح 303
آراء وجتهادات العلماء الصالحين 304

- **تَعرِيفي المِنْهاج الدِّراسيّ والمادّة العلميّة** 305

تعريف المِنْهاج الدِّراسيّ 305
تعريف المادّة العلميّة 307

- **مكانة المادّة العلميّة ودورها** 308
- **مكانة المادّة العلميّة** 308
- **دور المادّة العلميّة** 312
- **مُقَوِّمات جَوْدَة المادّة العلميّة** 314

▪ جَوْدَة الخصائص الشَّكْليَّة للمادّة العلميّة 315

أ- استخدام السَّبُّوْرَة 315

ب- استخدام برنامج "البوربوينت" Powerpoint 316

ت- استخدام النشرات التَّعْلِيْميّة "Handouts" 318

ث- استخدام الكتاب 319

ج- استخدام مواقع الإنترنيت 321

▪ جَوْدَة الخصائص الضمنيّة للمادّة العلميّة 322

أ- المحتوى والمادّة العلميّة أو المساق العلميّ 322

ب- المحتوى والمُعَلّم 325

ت- المحتوى والطالب 327

ث- المحتوى وإدَارَة المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة 328

▪ خلاصة 329

الفصل الخامس

المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة ودورها في العمليّة التَّعْلِيْميّة 333

▪ الواقع الحاليّ 338

▪ مفهوم المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة 340

1- تعريف المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة 340

2- مهمّة المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة 341

▪ مُقَوِّمات جَوْدَة خصائص المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة 342

– خصائص شكلية خارجية 343

– خصائص شكلية داخلية 344

▪ مُقَوِّمات جَوْدَة إدارة المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة 347

▪ تعريف إدَارَة المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة 348

▪ صفات مدير المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة الناجح 348

أ- صفات شخصيّة أخلاقيّة 349

ب- صفات أكَاديْميّة ومهنيّة 350

■ دور مدير المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة الناجح 351

■ مهامّ مدير المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة الناجح 352

أ- مهامّ قياديّة 353

ب- مهامّ متظّمية 354

ت- مهامّ أكَاديْميّة 355

ث- مهامّ مجتمعية 357

■ خلاصة 359

■ أهمّ المراجع والمصادر المعتمدة في الكتاب 361

مُقَدِّمَة

إن الحمـــد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالـــنا، مـــن يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 102].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: 1].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۞ ﴾ [الأحزاب: 70-71]."[1]

أمـــا بعد: فإن أصدَقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمّد ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتها، وكلَّ محدثَة بدعة، وكُلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

وبعد، فإن هناك الكثيرُ ممْن كَتَب في التربية والتعليم، ولم يكن له إلا كتبُ الغربِ وفكرُ الغرب التربويّ؛ يترجمُه، أو يتمثله، أو ينقله، ويدعو إليه بغثه وسمينه. ولا يدري، بل لا يخطـــرُ له على بال، أنّ في قرآننا وفي سنّة نبيّنا صلى الله عليه وسلم شيئاً، مما يَمُتُّ إلى موضوعه بصلَة.

كمـــا أنّ هناك كثيراً منَ الفُضلاء، الذين حَصَروا موضوعَهم، على القرآن والسنّة، والمؤلفين القُدامى؛ كالغزالي، وابن خلدون، وغيرهم. وهؤلاء على جهودٍ مشكورة.

[1] مدارج السالكين لابن قيم الجوزيّة، ج1/ص3

ونحن اليومَ، نريد أنْ نَلجَ هذا الشأنَ، منْ بوابته الكبيرة. فنتَّخذَ من القرآن، والسّنّة، وأقــوالِ الــسلف، والتَّربويّين، أساساً منهجياً، يضعُ النّصوصَ التي نتعاملُ معها، في موطنِ التَّلَقّــي، ورســمِ الأهداف، وأسلوبِ التحرّك. وبعد هذا، وليس قبله، سوف نستفيدُ مما درســناه، في جامعــات الغرب، من نظريات، وأسسٍ تربوية يقبلُها دينُنا الحنيفُ، في إطارِ العبوديَّة للّه عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56].

فإلى قارئنا الكريم، والذي لم يَعْتَدْ من قبلُ، هذه الأولويةَ، للنصوص الشرعية، والتي كانت من قبلُ تعطي الصدارةَ، للنظريات التربويةِ الغربية، فإننا نُهيبُ به1، أنْ يكونَ أكثرَ قبولاً، لمنهجيتنا ها هنا، في مرتين؛ الأولى لأننا نزعمُ، أنّنا علميون في طرحنا. والثانية فإنه لا ينبغي لنا أن نستوردَ، إلا إذا كانت لنا حاجةٌ، بل نستوردُ بقَدْرِ الحاجة، وليس أكثرَ منها. وكــل هذا لم يمنعني من رؤية اللبِّ من الخُشَارِ2 عند القوم، فلقد وضعت اللالئ العربية في جوار الإضاءات الغربية وسبكتها من جديد في سعي لاكتمال عناصر اللوحة وجمالها! وهذا ما أظنُّني فعلْتُه ها هنا، واجتهدْتُ فيه .

كمــا أتمنّــى أنْ تكونَ خُطْوتي هذي، يتْبعُها خُطُوَاتٌ من الأخوة التربويّين، ومنّي، تُكْمِلُ الطريقَ، وتتلافى ما وقعْتُ فيه، من نقصٍ بشريّ، أستغفرُ اللّهَ عنه.

وإني لأتطلعُ ليوم، تشرقُ فيه شمسُ الحضارةِ منْ جديد، من حيث أشرقَتْ يومَ كان الغربُ يتّخذُ من كتاباتِ ابنِ رشد، ومن كتاباتِ ابن خلدون، ومن كتابات الغزالي، ومنْ غيرهــم، مِــنَ الكثيرِ منَ النجومِ التي أضاءَتْ للغرب بداياته الأولى؛ فانتشلَتْه منْ ظلمات الــتاريخ، و نما، وترعرع، وصَلُبَ عودُه، حتى قاد ركبَ المدنية ب"سوبرمان" قويٌّ، قويّ جداً بإمكانته المادية. لكنه بقي خاويا منْ نفخةِ الرُّوح، التي أسجَدَتِ الملائكةَ له، بسببها: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر29].

1 أهاب بصاحبه إلى فعل الخير: ناشده، دعاه إليه، معجم اللغة العربية المعاصرة (3/ 2381)

2 الخُشَارُ والخُشَارَةُ الرديء من كل شيء، لسان العرب (4/ 239)

وهـــذا "الـــسوبرمان" يريد لنفسه، وللبشرية جمعاءَ معه، أن تتربى، وتتعلم، في أُطُرِه المادية، كما يريد- بكلِّ إعجابه، بما حققه تكنولوجياً- أن يرسِّخَ الماديّةَ في الفكرِ، والتربيةِ، والتعليمِ. وكأنّه يومَ سرقَ النارَ، من بريميثيوس1 حُقَّ له أنْ يُمارسَ دورَ الإله!! سبحانَكَ ربّي!: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾[الفرقان:18].

وكلمةٌ أخيرةٌ في السّطر الأخير من هذا المُدْخَلِ. إنّ الإنسانَ الغربيَّ بما جعل للفكر؛ من روائزَ2 لتقويمه، وآليات للتَّحرُّك من خلاله، وأهدافٍ للوصول به ومن خلاله للحقيقة. لَـــيجعلُني شـــديدَ الثِّقة بأنْ يكونَ هذا كلُّه في سلّة "المستقبل للإسلام". فدينُنا-بفضل الله تعالى- لا يَرهَبُ العلمَ الحقيقيَّ، بل يعتمدُه منطلقاً لكلِّ حقائقه الإيمانيّة.

فَلَـــئِنْ أَبْعَدَ العلمُ الغربَ عن الكنيسة، فالعلمُ في نهاية المطافِ هو الذي سوف يقرِّبُه مـــن المـــسجد. ولئن جعلَتْه ظلماتُ القرونِ الوسطى مُتمرِّداً بباطله، فإن الدعوة الإسلامية ستجعله طائعا لله بحقِّها ولكن لابدّ من التفاتة إلى جنود الحق لأقول لنفسي ولهم:

رسول الحق والإسلام حقٌّ   ويعلو الحقُّ إن صدق الجنود

---

1 أســطورة يونانــية خــرافية. تصور لونا من الصراع بين الإنسان الغربي من جهة، وبين آلهة اليونان الأســطورية وقوى الطبيعة من جهة، وهي ترمز عندهم إلى انتصار الإنسان على القوى التي كان يخضع لهــا مــن قبل. وأصبح يتمتع بالقوة السوبرمانية لقيادة الكون وعززت الاكتشافات والاختراعات لديه هذا الوهم. وكان بحق عظيما في اكتشافاته واختراعاته الكونية ولكنه المسكين البائس اكتشف الكون ونسي أن يكتــشف نفــسه فجهلها وجهل بالتالي الدور المنوط بها ، فكتب له ألكسس كاريل "الإنسان ذلك المجهول" ويــوم يعرف الغربي لمَ خُلق؟ بلا شك سوف تتكامل الصورة في إطارها الكوني والإنساني الكبير فيتجه الإنسان والكون إلى الله ، إلى الله وحده .

2 رَازَ يَــروزُ إذا امــتحن عَمَلَــه فَحَذَقَــه وعاود فيه قال أبو عبيدة يقال رازَ الرجلُ صَنْعَتَهُ إذا قام عليها وأصلحها .انتهى : بمعى أصبح للمسألة في ذهنه معيار نتيجة لخبرته . فالرائز المعيار، لسان العرب (5/ 358).

ومن يتأمّل الوضع الحاليّ للعَمَلِيَّة التَّعْلِيْميّة، ومكوِّناها الأساسيّة من مُعلمين، ومُتَعَلِّمين، ومَوَادّ تَعْلِيْمِيّة، ومؤسَّسات تَعْلِيْمِيّة في معظم البلدان العربيّة، يجد أنّ هناك قصوراً واختلافاً بين معظم المثقفين، وغيرهم في نظرهم لمفهوم وجَوْدَة هذه المكوِّنات وفي الدّور الذي تلعبه في بناء شخصيّة الفرد من جهة، وتطوير المجتمع والنهوض بالأُمَّة من جهة أخرى.

يعود هذا القصور والاختلاف إلى تبنّي مفاهيم ومبادئ مشبوهة المصدر والمرجعيّة، وقليلة المصداقية، ومطعونة في أغراضها ومآربها، بالرَّغْمِ من أن علماء هذه الأُمَّة العظيمة بمرجعيّة عقيدها، والقويّة بدينها، والموحدة بمبادئها، قد قدموا لنا مجموعة من الطُّروحات حول مفهوم العلم وفضله، والمُعَلِّم الناجح وصفاته، والمُتَعَلِّم الناجح وخصاله، أمثال ابْن عبد البَرِّ القرطبيّ الأندلسيّ، وعليّ بن ثابت الخطيب البغداديّ، و ابْن قيم الجَوْزِيّة رحمهم اللّه أجمعين.

فعندما يفتقد القائمون على سير العمليّة التَّعْلِيْميّة الميزان الحق الذي به يُعرف مفهوم العلم النافع، وبه تقوّم جَوْدَة مُقَوِّمات خصائص المُعَلِّم العاقل، وطالب العلم الناجح، والمادّة العلميّة النّافعة، والمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة المُمَيَّزة، حينئذ لا يُعرف أين هم من الحق، وهل هم على صواب أم على باطل في إشرافهم وإدارتهم للعَمَلِيَّة التَّعْلِيْميّة، ولا يمكن حينئذ القيام بتطوير مكوِّناها وتحسين أدائها من أجل بناء فرد مثقف صالح في مجتمع متقدِّم متحضِّر تسود فيه الحريَّة والعدالة والمساواة.

من هنا تكمن أهمّية هذا البحث الذي أسميته "العِلْمُ وجَوْدَة ومكوِّنات العمليّة التَّعْلِيْميّة" الذي يُعَدُّ بمثابة الميزان؛ الذي به تُوزَن المكوِّنات لمعرفة مدى جودها أو خساستها، وهو كذلك بمثابة المصباح الذي يُضيء للمُعَلِّم طريقه في الليلة الظلماء، فيبصره بمواضع الحفر من غيرها، وبمثابة الدليل الذي يرشد الطالب التائه العطشان في صحراء الجهل والضياع إلى أرض خضراء يتدفق منها ينابيع العلم والمعرفة.

ما أحوج المـُعَلِّم والطالب ومدير الـمُؤَسَّسة التَّعْلِيْمِيّة وأولياء الأمور وغيرهم لهذا الميـزان في هذا الزمان الذي تنوعت فيه وسائل الطلب والتَّلَقِّي، وتنوعت وتضخمت فيه وسـائل التَّعْلِـيْم والإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، وفشت فيه أساليب التَّعْلِيْم التَلْقِيْنية المغلوطة وطرق التَّعَلُّم السطحيّة العقيمة، وكثرت فيه المؤسَّسات التَّعْلِيْمِيّة التجارية!

لهـذا أتقـدم بهذا البحث الهامّ الَّذي أريد من خلاله إعطاء فكرة عامة وموجزة عن مفهوم العلم وعلاقته بجَوْدَة مكوِّنات العمليّة التَّعْلِيْمِيّة من منظور إسلامي حتَّى يكون دافعاً لـنا للافـتخار بديننا الحنيف السَّباق لغيره في تقرير كل خير ينفع الإنسان، وتبنِّي تعاليمه ومـبادئه وتراثه، وللوقوف أمام الأفكار الغَرْبِيّة للنَّظر فيها قبل أن ننساب وراءها من دون دراسة ولا تفكير!

ولابـدّ مـن التنويه هنا بأن دعوتنا للنَّظر في مفهوم العلم وجَوْدَة مكوِّنات العمليّة التَّعْلِيْمـيّة من منظور إسلامي لا تقتصر على ذكر شواهد وأدلة من القرآن الكريم والسّنّة النبويَّة الشّريفة والمـُنْتَج التُّراثيّ الذي تركه السَّلَف الصالح والتَّابعين لهم رضوان اللّه عليهم أجمعين، بل تشتمل كذلك على مجموعة من الأفكار والطُّروحات العمليّة. ذكرناها لمن أراد أن يطبقها ويستفيد منها عَمَلِيًّا أو يستأنس بها نظرياً، واللّه الموفق.

تناولت في هذا البحث الفصول التَّالية:

الفـصل الأوَّل: أفـردت هذا الفصل للتّعريف بالعقل والعلم لكونهما جزأين لا ينفـصلان عـن بعضهما بعضاً، ولا يمكن أن يوجد العقل بدون علم، كما لا يوجد علم بـدون عقل، فمن جهة ناقشت العقل وماهيته، وعلاقته بالتَّفْكِيْر النَّقْديّ، والـدّور الذي يلعبه في كسب العلم والمعرفة، فهو الميزان الذي يزن به المسلم أقواله وأفعاله، حلال هي أم حرام ؟ صحيحة هي أم فاسدة؟ نافعة هي أم مضرّة؟ ومن جهة أخرى، ذكرت فيه ما قيل في العلم وفضله، وطرحت فيه مفهوماً إسلاميّاً للعلم ليكون مرجعاً أساسيّاً لبحثنا هذا.

الفـــصل الثّاني: خصّصت هذا الفصل للمـــُعَلّم ودوره في العمليّة التَّعْليْميّة وعرضه بـــشيء مـــن التّفصيل، حيث تناولت فيه بعض التسميات والتعاريف الـــمُـــتعامل بها في دوائـــر التَّـــربية والتَّعْليْم والمعاهد العليّا والجامعات (المــُعَلّم، والمعيد، والمحاضر، والأستاذ الجامعـــيّ، والمـــشرف الأَكَاديْمِيّ، والمــُؤدِّب، والشَّيْخ، والعالم) وشرحت معناها مقترحاً قائمـــة مـــن المعـــايير الّتي يمكن استخدامها للتمييز بين جملة هذه التسميات، إضافة لذلك ناقـــشت وضع المــُعَلّم ومكانَتْه في الإسلام فيما يتعلّق بوضعه الدِّينيّ، والعلميّ، والتَّربويّ، والاِجْتِمَاعِـــيّ، والمـــالي، والسّياسيّ، واقترحت قائمة من الصفات الّتي تميّزالمــُعَلّم العاقل الناجح عن غيره من المــُعلـــمين.

لأهمّـــية المــــُعَلّم ودوره في نجاح العمليّة التَّعْليْميّة، ناقشت دور المــُعَلّم التَّعْليْميّ، ودوره الإداريّ، والتَّربويّ، والنَّفسي،كما اقترحت قائمة من المعتقدات (الدِّينيّة، والثَقَافيّة، والاِجْتِمَاعيّة، ومعتقداته حول طبيعة العلم والمعرفة، والتَّعْلِيْم، والتَّعَلُّم) الّتي ينبغي أن يعتدّ بها عـــند تقويّم أداء المــُعَلّم أو تعيينه في وظيفة تَعْلِيْمِيّة ما،كما اقترحتُ قائمة من الأساليب التَّعْليْميّة الّتي سبق أن استخدمها الرَّسول المــُعَلّم ﷺ في تَعْلِيْمِيّه لأصحابه الكرام رضوان الله علـــيهم أجمعـــين، وخـــتمت هذا الفصل بقائمة من أساليب تعليم اللغة الإنجليزيّة أخذتها بتصرف من كتاب ريتشرد وروجر 1986.

الفـــصل الـــثّالث: خصّصت هذا الفصل لطالب العلم ودوره في العمليّة التَّعْليْميّة، حيث ناقشت فيه، بشيء من التّفصيل، مكانة طالب العلم في الإسلام والـــدّور الذي يلعبه في العملـــيّة التَّعْليْمـــيّة، كما علّقت على الواقع الحاليّ لعَمَلِيَّة التَّعَلُّم عند الطالب العربيّ، ثم قدمت قائمة لخّصت فيها أهمّ صفات طالب العلم الناجح، وختمته باقتراح "طريقة إسلامية لتحصيل العلم النّافع"، والّتي تقوم على أسس روحيّة وعقليّة وعَمَلِيَّة، لتكون عوناً لمن أراد أن يكسب العلم والمعرفة لأغراض دنيوية وأخرويّة.

الفصل الرابع: يدور نقاش هذا الفصل حول المادّة العلميّة كمكوِّن أساسيّ يلعب دوراً مهماً في العمليّة التَّعْلِيْميّة، ولأهمّيتها بدأت نقاشي في تحديد أهمّ مصادر التَّلَقِّي الّتي ينبغي أن يعتدّ بها عند تقويّم أو اختيار أو صياغة أيّة مادة علميّة، ولاسيَّما فيما يتعلّق بمَنَاهِج التَّربية والتَّعْلِيْم الأساسيّ، كما قمت بتقديم تعريف للمنْهاج الدِّراسيّ من جهة، والمادّة العلميّة من جهة أخرى، وختمته بتقديم بعض المُقَوِّمات الّتي تحدد جَوْدَة المادّة العلميّة، والّتي تشتمل على جَوْدَة الخصائص الشَّكْلِيَّة والضمنِّية للمادة العلميّة.

الفصل الخامس: ناقشت في هذا الفصل مفهوم المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة ودورها في العمليّة التَّعْلِيْميّة، فقدمت تعريفاً لها ولمهمّتها، كما ذكرت بعض مُقَوِّمات جَوْدَة خصائصها الشَّكْلِيَّة الخارجيّة والشَّكْلِيَّة الداخليّة، ثم اقترحت تعريفاً موجزاً لإِدَارَة المُؤسَّسة، وأوردت قائمة من الصفات الشّخصيّة والأَكَادِيْميّة والمهنيّة الّتي ينبغي على مدير المُؤسَّسة أن يتحلى بها ليكون مديراً ناجحاً في عمله ، ثم ختمته بمناقشة دور المدير ومهامّه القياديّة والمنظِّميّة، والأَكَادِيْميّة والمجتمعيّة، لتكون دليلاً يساعد مديري المؤسَّسات التَّعْلِيْميّة، ولاسيَّما مديري مدارس التَّعْلِيْم الأساسيّ في إدارتهم للمؤسَّسات التَّعْلِيْميّة.

حاولت تقديم أمثلة تطبيقيَّة حيث اقتضى السّياق ذلك، لبيان كيفيّة استثمار الحلول الّتي طرحتها في الفصول المختلفة، لتكون هذه الأمثلة مرشداً في التعامل مع الحالات المماثلة. إضافة لما ذكرته أعلاه، ومن أجل الأمانة العلميّة، قمت بما يلي:

أ- عزوت الآيات إلى مواضعها من القرآن الكريم وأثبتُّ اسم السورة القرآنية ورقم الآية.

ب- وذكرت تخريج الأحاديث النبوية، مكتفياً بذكر المصدر ، واعتمدت في ذلك على مشاهير رجال علم الحديث في القديم والحديث .

ت- تـــرجمت بالتّفصيل الشّخصيّات الّتي وجدت ضرورة لترجمتها، معتمداً بشَكْلٍ أساسيّ على 'سير أعلام النبلاء' للإمام شمس الدِّين الذهبي، مؤسَّسة الرسالة، طـ11 2001م.

ث- شرح ما يحتاج شرحه من الألفاظ لبيان المعنى.

ج- حاولـــت تقديم أمثلة تطبيقيَّة حيث اقتضى السّياق ذلك، لبيان كيفيّة استثمار الحلول الّتي طرحتها في الفصول المختلفة، لتكون هذه الأمثلة مرشداً في التعامل مع الحالات المماثلة.

ح- أوردت في خـــتام الـــبحث قائمة بأهمّ المصادر والمراجع الّتي رجعت لها، أو اعـــتمدت عليها في هذا البحث، وكان مرجعي الأساسيّ كتاب اللّه الكريم، وســـنة نبيه محمّد صلى الله عليه وسلم ، ومصادر السَّلَف الصالح والتَّابِعين لهم بإحـــسان إلى يـــوم الـــدِّين ، إلى جانب العديد من المصادر الأخرى العربيّة والأجنبـــيّة الّتي رأيت أنّها تثري البحث، فإن الحكمة ضالّة المؤمن، أنى وجدها فهو أحرى النَّاس بها.

خ- تجنّبت ذكر اسم أي جهة حكومية أو خاصة أو ذكر اسم أي بلد من البلدان عـــند طرح مشكلة أو مثال لأيّة حالة وذلك لتحاشي التعميم، وتركت الأمر للقارئ ليدرك إنْ كانَتْ الحالة موجَوْدَة في بلده أو يعاني منها أو يعرفها.

د- استخدمت بعض مصطلحات اللغة الإنجليزيّة لكي يستأنس بها القاريء.

أسأل اللّه العليّ العظيم أن ينفع بهذا الكتاب كل من يطّلع عليه، كما أسأله سبحانه أن يتقبّله منّي خالصاً لوجهه الكريم.

وأود أن أؤكـــد أن ما قدّمته في هذا البحث لا يعدو أن يكون اجتهاداً بشريّاً، فما أصـــبت فمـــن الله تعالى وحده، وما أخطأت فمن نفسي، وأسأل المولى عزَّ وجلّ التوفيق

والــسَّداد والرَّشاد، وأن يجعل هذا العمل في ميزان الحسنات ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:4]،انه سميع مجيب الدعاء.

وآخــر دعــوانا أن الحمــد لله رب العالمين والصّلاة والسَّلام على محمّد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. أحمَــد مصطفــى حليمَــــة1

15 ربيع الثاني 1434/ 25 فبراير 2013

[1] يعمــل حالياً كأستاذ مشارك في كلية الآداب، جامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية، حاصل على شــهادة الماجــستير في الترجمة وعلم اللغويات من جامعة باث/بريطانيا، وعلى شهادة الدكتوراه في علم اللغــويات التطبيقــية/ تربية وتعليم من جامعة أسِكس/بريطانيا، من كتاباته في هذا المجال (معايير لتقويم جــودة التّعلــيم 1997، ومهــارت الإتصال وأثرها في حياتنا العلميّة والعملية 2005)، تنصب اهتماماته وأبحاثــه العلمــيّة فـــي مجــالات التّعلــيم والتّعلم، وطرائق وأساليب تدريس اللغة الإنجليزية لأغراض متخصصة، وعلم دراسات الترجمة.

البريد الإلكتروني: amh515@hotmail.com

الفصل الأول

العَقْلُ والعِلْمُ

الفصل الأول
العَقْلُ والعِلْمُ

الواقع الحالي

الحمد للّه الواحد الأحد، الفرد الصمد، العظيم بربوبيته، العالم بمخلوقاته، خلق الإنسان في أحسن تقويّم، وأنعم عليه بالعلم والبيان، وبالعقل ميَّزه عن سائر الحيوان، فبالعقل والعلم يفرّق الإنسان بين الحق والباطل، ويميّز بين الخطأ والصواب، وبين الحقيقة والخديعة.

لقد كثرت وتعدّدت مؤخّراً برامج الفضائيّات العربيّة، كالبرامج الدِّينيّة، والاجتِمَاعِيّة، والسّياسيّة، والاقْتِصاديَّة، والترفيهيّة، وغيرها من البرامج الّتي لايمكن عدّها وحصرها هنا، فأدّى ذلك إلى ظهور ما يسمّى 'بمتحدّثي الفضائيّات'، فمن هؤلاء من يتحدّث حديث العقلاء والفضلاء، ومنهم من يثرثر ثرثرة الحمقى ويتشدق تشدق المغفلين، ومنهم من يقرقر قرقرة الدجاج، ويهرش هريش الكلاب.

وبالتالي ظهر لهؤلاء جمهور يراقب ويستمع لهم، فمن هولاء من يراقب ويستمع بعقل ذكي وقلب سليم، وهم عقلاء وفضلاء النَّاس، ومنهم يغترّ بتفلسف وثرثرة المأفونين والمأفوكين[1]، وهم الرَّعاع[2] من النَّاس، ومنهم من يروّج أقوالهم وأفكارهم ويقتدي بأفعالهم ويناقر من أجلهم مناقرة الدّيكة وهمجية الكلاب، وهم الهمج[3] من النَّاس .

لذلك عمدت أن أبدأ كتابي هذا بفصل خفيف يشتمل على معنى مختصر للعقل وفضله، وعلى أهمّ سمات العاقل، ودور العقل في كسب العلم النافع، ويتضمن أيضاً على

[1] المأفون: الضعيف الرأي، والمأفوك: العاجز الرأي.

[2] الرعاع: سفلّة الناس وأخلاطهم.

[3] الهمج: ناس لاخير فيهم.

تعـــريف للعلم وفضله، لعله يكون تذكرة لأولي النُّهَى[1]، وتيقظة لأولي الحمق من حمقهم، والمغفلين من غفلتهم، والجاهلين من جهلهم، واللّه الموفق للسداد والهادي إلى الرشاد.

العقل وماهيته

لغـــوياً يعـــود اشتقاق كلمة 'العقل' إلى الفعل عَقَل، يَعْقُل، عَقْلاً، ومعناها يختلف باخـــتلاف الموضع الذي يُستخدم فيه، فإذا قلنا " عَقَل الأعرابي الناقة" يعني ربطها ليمنعها مـــن الـــشرود إذا نفرت، وإذا قلنا 'عَقَل الغلام'، يعني أدرك أو بلغ سن الرشد، وإذا قلنا "عقل الطالب الأمر على حقيقته 'يعني فهم وتدبَّر، وإذا قلنا 'صار أحمد عاقلاً' يعني عرف ما كان عليه من خطأ.

اصـــطلاحياً، اُخـــتلف في تبـــيان معناه، وتعددت الأراء في تعريفه، فقد ذكر ابْن الجَـــوْزِيّ[2] رحمه اللّه في كتابه أخبار الأذكياء[3]، أن أحمد بن حنبل[4] رحمه اللّه قال: 'العقل غريـــزة'، أما الحارث المحاسبي فقد قال أن 'العقل نور'، وقال آخرون: 'هو قوَّة يفصل بها بـــين حقائـــق المعلـــومات'. وقال قوم: 'هو نوع من العلوم الضَّروريّة، وهو العلم بجواز الجائـــزات واستحالة المستحيلات'، وقال آخرون: 'هو جوهر بسيط'، وسئل أعرابي عن العقل فقال: 'لب اغتنمته بتجريب'.

---

[1] النهى: العقل

[2] هـــو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبد اللّه التيمي البكري البغدادي الفقيه الحنبلي الـــواعظ المـــشهور بـــابن الجوزي، له مصنفات كثيرة، وكتب بيده أكثر من مائتي مجلدة في شتى أنواع العلوم، ولد في بغداد سنة 508 هـــ، وتوفي في شهر رمضان سنة 597 هـــ.

[3] أخبار الأذكياء، لإبن الجوزي، ص13

[4] هو الإمام حقاً، وشيخ الإسلام صدقاً، أبو عبد اللّه، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أحد الأئمة الأعلام، صـــاحب مـــذهب الحنابلة، ومحدث موثوق، وفقيه عالم، وزاهد بحق، وحافظ للحديث، جمعها في كتابه المعروف 'بمسند أحمد'، ولد في ربيع الأول سنة 164 هـــ وتوفي في ربيع الأول سنة 241 هـــ.

وذكـــر أبو الحسن البصري الماوردي[1] رحمه اللّه انه "بالعقل تُعرف حقائق الأمور، ويُفصل بين الحسنات والسيئات، وقد ينقسم قسمين غريزي ومكتسب.

فالغريـــزيّ هـــو العقل الحقيقي. وله حدّ يتعلّق به التكليف لايجاوزه إلى زيادة، ولا يقـــصر عنه إلى نقصان. وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، فإذا تمّ في الإنسان سمّي عاقلاً وخـــرج به إلى حد التّمام، كما قال صالح بن عبد القدوس[2]، وهو الملقب عند معاصريه في القـــرن الـــثاني، بالـــشاعر الحكيم، فقد كان متكلما، يعظ النّاس بالبصرة، كما كان له مناظرات مع المعتزلة. قال:

إذَا تـــَمَّ عَقْلُ الْمَرْءِ تَمَّتْ أُمُـــورُهُ وَتَـــمَّتْ أَمَانِيـــهِ وَتَمَ بِـــنَاؤُهُ

ففي هذا، نحن أمام نظرة كلية شاملة للعقل لدى ابْن عبد القدوس، فقد ربط الكيان البـــشري كله، بالرابط العقليّ، فالعقل وراء أمور الإنسان وشؤونه الماديّة والمعنوية، (تمت أموره) . وهو وراء أمانيه ومطامحه وتطلعاته (وَتَمَّتْ أَمَـــانِـــيهِ). وهو وراء بنائه الجسدي والفِكْرِيّ معاً (وَتَـــمَ بِـــنَـــاؤُهُ).

أما العقل المكتسب، فهو نتيجة العقل الغريزي، وهو نهاية المعرفة، وصحة السياسة، وإصابة الفكرة، وليس لهذا حد، لأنّه ينمو إن استُعمل وينقص إن أهمّل. ونماؤه يكون بأحد وجهـــين: إما بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى، ولا صاد من شهوة، كالذي يحـــصل لذوي الأسنان من الحنكة وصحة الروية بكثرة التجارب، وممارسة الأمور، ولذلك حمـــدت العـــرب آراء الشيوخ، بل ذهب أبو حمزة الخارجي إلى وصف رجاله الشجعان المقـــبلين على الموت ببسالة نادرة في تاريخ البطولات، وصفهم ب" انهم شباب – والله –

[1] هو علي بن محمد بن حبيب البصري الشافعي المعروف بالماوردي نسبة إلى بيع الماورد وعمله، إمام من أئمة الفكر وواحد من كبار فقهاء الشافعية، ولد في البصرة سنة 364 هـ وتوفي في سنة 450 هـ.

[2] هـو صالح بن عبد القدوس، شاعر حكيم، كان متكلماً يعظ الناس في البصرة، له مع أبي الهذيل العلاّف مناظرات، وشعره كله أمثال، توفي سنة 166 هـ (انظر الأعلام للزركلي، ج192/3)

مكتهلون "[1] فهم شباب في أجسادهم، وهممهم، وعزائمهم ..لكن هذا كله لم يكن لديهم عن طيش، وكراهية للحياة، وإنسحاب منها! بل هم العقول المتزنة، والحكمة العميقة، الّتي لا يمـتلكها إلا الكهول الذين شحذوا عقولهم، بتجارب الحياة وتأملاتها البعيدة والصائبة. ومن هنا كان فخاره بهم !

وقال بعض الشعراء في هذا الموضوع:"[2]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعَقْـلَ زَيْـنٌ لأَهْلِـهِ وَلَكِنْ تَمَامُ الْعَقْلِ طُولُ التَّـجَارِبِ

العقـل، ببساطة، كما عرفه الإمام أبي حاتم البستي[3] رحمه اللّه، هو "اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب، والعلم باجتناب الخطأ"[4].

محل العقل

كما اختلف النَّاس في تعريف العقل وماهيته فقد اختلفوا في تحديد محله، فمنهم من قـال أن محله الدماغ، أمثال الإمامين أبي حنيفة[5]، وأحمد بن حنبل رحمهما اللّه، وذلك لأنّه إذا ضُرب الإنسان على رأسه ضربة قويّة زال معها العقل، وبالتالي فقد الإنسان القدرة على التميّـز بـين الصواب والخطأ، ومنهم من قال أن محله القلب، أمثال الأمامين علي بن أبي

---

[1] البيان والتبيين للجاحظ، (ج2/ص)

[2] أدب الدنيا والدين،لأبي الحسن البصري الماوردي، ص15

[3] هـو أبـو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي، محدث عالم زاهد، ولد في بست (تقع في أفغانستان) سنة 280 هـ وتوفي في بست سنة 354 هـ.

[4] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم البستي، ص10

[5] هـو الإمـام، فقـيه الملة، عالم العراق، أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي، الكوفي، ولد سنة 80هـ فـي حياة صغار الصحابة، فقيه، عالم بالقرآن والسنة، ورع زاهد، صاحب مذهب 'الحنفية'، توفي في خلافة أبي جعفر المنصور سنة 150 هـ

طالـــب[1] ﷺ، ومحمّد بن إدريس الشافعي[2] رحمه اللّه، فعن علي ﷺ انه قال:" إن العَقْلَ في القلبِ، والرَّحمةَ في الكَبِدِ، والرّأفةَ في الطّحَالِ، والنَّفس في الرّئة"[3]. واستدل الإمام الشافعي رحمه اللّه على ذلك بقول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:46]. وقوله تعـــالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:37]. أي لمن كان له عقل.

وذكـــر الداني بن منِّيرال زهوي في تحقيقه لكتاب أخبار الأذكياء لابْن الجَوْزِيّ رحمه اللّه أن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية[4] رحمه اللّه قال في مجموع الفتاوى: " أن العقل له تعلّق بالدماغ والقلب معاً، حيث يكون مبدأ الفكر والنَّظَر في الدماغ، ومبدأ الإرادة والقصد في القلب، فالقلب موطن الهداية، والدماغ موطن الفكر والتَّصور"[5].

---

[1] هـــو عليٌّ بن أبي طالب الهاشمي القرشي أبو الحسن، أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الرّاشدين وأحد العشرة المبشّرين بالجنّة، ابن عم النّبي ﷺ وصهره زوج فاطمة، وأوّل النّاس إسلاماً بعد خديجة رضي الله عنها، ولـــد بمكّة سنة 23ق.هـــ أقام بالكوفة إلى أن قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي غيلة في رمضان سنة 40 هـــ

[2] هـــو أبـــو عبد اللّه محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، الإمام، عالم العصر، ناصر الحديث، فقـــيه الملّة، ولد في غزة في فلسطين سنة 150 هـــ وتوفي سنة 204 هـــ بعد أن أسس مذهباً فقهياً سُمي باسمه: مذهب الإمام الشافعي

[3] صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، رقم 547/425 ص150

[4] هـــو شيخ الإسلام، أحمد تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيميه، الإمام الفقيه العالم المجاهد الورع الزاهد، ولـــد فـــي فـــي حران في ربيع الأول سنة 661 هـــ وتوفي سنة 728 هـــ، تلامذته كبار الأئمة الأعلام، أمثال: الإمام ابن قيم الجوزية، والحافظ ابن كثير.

[5] أخبار الأذكياء، لإبن الجوزي، ص14

فضل العقل

اعلـــم انـــه لاشيء أفضل نعمة بعد الإيمان باللّه سبحانه من نعمة العقل، فهو أصل الدِّين وعماد الدُّنيا، فبه يُوجب التكليف، وبدونه يرتفع التكليف، وبالعقل وأحكامه تُدبَّر وتُدار أمور الدُّنيا، وبالعقل وفضائله تألف قلوب النَّاس مع اختلاف طبائعهم وأغراضهم.
وصدق قول الشاعر[1]:

مَا وَهَبَ اللهُ لامرئ هِبَـــةً أَشْرَفَ مِنْ عَقْلِهِ وَمِنْ أَدَبِـــهْ
هُمَا حَيَاةُ الْفَتَى فَإِنْ عُدِمَا فَإِنَّ فَقْدَ الْحَيَـــاةِ أَجْمَلُ بِـــهْ

كفـــى بالعقـــل شرفاً أن يكون ميزان العبد في عبادة ربه، فبقدر عقله تكون عبادته لـــربه،فإذا قاد العقل صاحبه لعبادة ربه حق عبادته، دخل الجنة بإذن اللّه، وإذا أبعد صاحبه عـــن عبادة اللّه ورفض كلمة الحق والدِّين، دخل جهنم، عافاني اللّه وإياكم منها، قال اللّه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:10]. وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: "أَصْلُ الرجل عَقْلُهُ، وحَسَبُهُ دِينُهُ، ومُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ"[2].

في فـــضل العقل رُوي أنَّ لُقمان الحكيم قال لابْنه: "يا بُنيّ؛ اعقل عن الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ أعقل النَّاس عن الله عز وجل أحسنهم عَمَلاً، وإنَّ الشَّيطان ليفرُّ من العاقل ما يستطيع أن يكابده، يا بني؛ ما عُبد الله بشيء أفضل من العقل"[3].

وفي ذلك يقول الحسن بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهما:"لا أدب لمن لا عقل له، ولا مودة لمن لا همّة له، ولا حياء لمن لا دين له. ورأس العقل معاشرة النَّاس بالجميل، وبالعقل تُدْرَك الداران جميعاً"[4].

---

[1] جواهر الأدب، للسيد أحمد الهاشمي، ج2/ص393

[2] أدب الدنيا والدين لأبي الحسن البصري الماوردي، ص13

[3] أخبار الأذكياء، لإبن الجوزي، ص11

[4] الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة، محمد رضا، ص73

ومن حكم "هُرْمُس" العظيم انه قال :"أفضل ما في الإنسان من الخير العقل، وأجدر الأشـــياء أن لا يـــندم علـــيه صاحبه العمل الصالح، وأفضل ما يحتاج إليه في تدبير الأمور الاجتهاد، وأظلم الظلمات الجهل، وأوثق الإسار الحرص"[1].

وقال أبو حاتم البستيّ رحمه اللّه: "العقل دواء القلوب، ومَطِية المجتهدين، وبذر حراثة الآخرة، وتاج المؤمن في الدُّنيا، وعُدَّته في وقوع النوائب، ومن عُدم العقل لا يزده السُّلْطان عـــزًّا، ولا المـــال يرفعه قدراً، ولا عَقْلَ لمن أغفله عن أخراه ما يجد من لذة دنياه، فكما أن أشد الزَّمَانة[2] الجهل، كذلك أشدُّ الفاقة عدم العقل"[3].

وهـــنا لـــنا وقفـــة مع قرائنا الكرام، الذين قرؤوا في كتب التَّربية الحديثة والمترجمة، وأخـــذت طـــريقها إلى تكوينهم العلميّ، والمصطلحي. فنحن ندرك بادئ ذي بدء أننا في نظرتين مختلفتين إلى العقل، بحسب ما ينطلق منه، وإليه كل منا؛ فهم يفهمون العقل في إطار القدرات التَّفْكِيْرية، والقدرة على التحليل والتركيب، والتسلسل المنطقيّ، وعمليات الربط الّـــتي تصل الزمان حاضره بماضيه وبمستقبله، وكذا استفادة العقل من القوانين الطبعيّة، وما إلى ذلـــك من أمور يتحرك بها العقل، ويحركها . . ولربما سمع بعضهم نقولنا في العقل عن هـــؤلاء الأفذاذ، فأسرع إلى وصف القائل بأنّه يعظ في موطن، ليس هذا مكانهُ ! والأمر عنده أن هذا ليس من البحث العلميّ في شيء!

ونحـــن وقد اتسعت صدورنا لكل هذا نسعد بأن تتسع الصدور، وأن تتفتح الآذان لسماع كلمتنا، فنقول وبغير مواربة، ومن أقصر الطرق، هذا العقل المجرد، غير موجود على الإطلاق!

---

[1] يُقـــال: هو "إدريس" النبي ﷺ المحمودة آثاره، المرضية أقواله وأفعاله، الذي يُعد من الأنبياء الكبار، وهو الـــذي وضع أسامي البروج والكواكب السيارة، ورتبها في بيوتها.(انظر الملل والنحل، للشهرستاني، ج2/ ص41

[2] الزّمانة: المرض المزمن

[3] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم البستي، ص12

ومـــا من عقل بدأ يتحرك ليعقل، إلا وكائنْ هناك دينونة من لون ما تعقله، إن لم نقـــل تعتقله، قبل أن يفتح عيناً ! وأصحاب العقول، هم أصحاب موقف دِيْنِيّ مسبق، وما العقـــل إلا باحـــث في إطـــار هذه الدِّينونة عما يثبتها، ويلغي ما ينفيها. بالطبع نعني هنا بالدِّينونة أكثر من الدِّين والديانات المعروفة، ولنقل : الدِّين هنا يعني ما خضع له الإنسان في داخله، وكان هذا الخضوع ممزوجا بالرغبة والحب، أو بالرهبة والذل، أو بهما معا. فأي إنسان يمكن أن يوجد مجرداً من الحب، أو من الذل، فهو قادر على التَّفْكِيْر المجرد. ونحن لا نظـــن أن هذا العقل موجود، كما لانظنه وجد من قبل. إذن ما هو المجال الحقيقي لبحث هذا العقل قبلاً!؟ انه وبكل ثقة ودون أي تردد انه البحث عن الدِّين الصحيح الذي يوجه العقل في الإطار الحق، بعد أن يجيب عن الأسئلة التالية : من أين جئت ؟ إلى أين المصير؟ فيجيب بإجابة أبي الأنبياء إبراهيم عليه وعلى نبيّنا وعليهم السَّلام: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:79]. ولا يجيب بإجابة الشاعر المهجري إيليا أبي ماضي:

" لست أدري "

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت كيف أبصرت طريقي ؟
" لست أدري "

ثم لـــو لم تكن الدِّينونة هادية العقل وموجهته، فكيف يمكن للطبيب أن يحاضر عن مضار الـــتدخن، ولفافته تتنقل بين أصبعيه وشفتيه؟! بل كيف لفرعون الأهرام وفراعنة عصرنا أن يقولـــوا : "ما أريكم إلا مأرى، وما أريكم إلا سبيل الرشاد " بل أكثر من هذا تجد دهاقنة

المفكّرين المتنورين يدافعون بحجج عقليّة "متعوب عليها" عن هذا المستبد أو ذاك. بل أصبح العقل وهو ينقاد، ويقود الاستبداد، له فلسفات إعلامية وأفكار لها أنياب فضائية وشاشات عملاقة.

نعود إلى هؤلاء الكرام الذين اختلفنا معهم لنشكر لهم سماع هذا الصوت إلى نهايته. كما نعلن وبكل الوضوح أن العقل الذي نريد له أن نتحرك به وأن يحركنا هو العقل الذي يـــوجهه أول آيـــة بعد فاتحة الكتاب، يوجهه ذلك الكتاب الذي لاريب فيه: ﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 1-2]

وبعد هذه الهمسة، الّتي نتمنى أن تجد طريقها إلى قلوب هؤلاء الكرام وآذانهم، نعود إلى مـــتابعة نقولنا، بنفوس مفتوحة، فلا نجد حرجا من أن ننقل عن الشاعر هوميروس كما نقلـــنا قطوفاً شذية من حديقة سلفنا الصالح، فقد علمونا أن نصطاد الحكمة بشباك العقل والتقوى.

وقـــال هـــوميروس[1] الـــشّاعر في العقل انه "نحوان: طبعيّ، وتجريبي؛ وهما مثل الماء والأرض، وكمـــا أنّ النّار تذيب كلّ صامت وتخلّصه وتمكّن من العمل فيه؛ كذلك العقل يذيب الأمور ويخلّصها ويفصلها ويعدّها للعمل، ومن لم يكن لهذين النحوين فيه موضع فإنّ خير أموره له قصر العمر"[2].

وهـــا هو الشاعر إبراهيم بن حسان يلخص لنا فضل وشرف وأهمّية العقل في حياة الإنسان بأبيات شعرية جميلة، فيقول[3]:

يَزِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِه   وَإِنْ كَانَ مَحْظُوراً عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ
يَشِـــيْنُ الْفَتَى فِي النَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِه   وَإِنْ كَرُمَـــتْ أَعْرَاقُـــهُ وَمَنَاسِبُهْ

[1] هوميروس: هو شاعر ملحمي يوناني كان أعمى، صاحب الإلياسة والأوديسة.

[2] الملل والنِّحل للشّهرستاني ج2 /ص101

[3] أدب الدنيا والدين لأبي الحسن البصري الماوردي، ص14

يَعِيْشُ الْفَتَى بِالْعَقْلِ فِي النَّاس انه　　عَلَى الْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ
وَأَفْضَـــلُ قَسْمِ اللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُـــهُ　　فَلَيْسَ مِنَ الْأَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَـــارِبُهْ
إِذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَــهُ　　قَدْ كَمُلَـــتْ أَخْلاقُهُ وَمَـــآرِبُهْ

العاقل وسماته

اعلـــم أن أول خـــصلة يتحلى بها العاقل ويتميّز بها عن غيره من النَّاس هي خصلة الإيمـــان باللّـــه وحده لاشريك له، وبمحمّد رسوله وخاتم الأنبياء والمرسلين صلوات اللّه وســـلامه علـــيهم أجمعين، فلا خير في عاقل لا إيمان في قلبه، ولابركة في عاقل لايوقر نبيّنا المصطفىﷺ وأصحابه رضوان اللّه عليهم أجمعين.

العاقـــل هـــو الأديب الرَّبيب اللّبيب الذي يعطي كل ذي حق حقه، ويضع الأمور موضـــعها، مكـــارم الأخلاق أجمل صفاته، يعرف الخير فيفعله، ويعرف الشر فيجتنبه، إذا أصاب في أمر حمد وشكر، وإذا أخطأ اعتذر،كلامه صواب، صمته ذكر للّه وتفكر وتدبر، فهو كالشمس في الشتاء، وكالظل في الصيف، كثير الأصحاب، قليل الأعداء، طبعه جميل، وقلـــبه ســـليم، فهو هَيِّنٌ لَيِّنٌ سَهْلٌ طَلَقُ السمت والطلة، وإلى من يحبّ أن تحرم عليه النار نـــسوق هذا الحديث، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صـــلى الله عليه وسلم –:" أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ:" كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ قَرِيبٍ سَهْلٍ "[1].

العاقل يفهم الخطاب ويعمل بالدليل، لايجادل بغير حجة، ويتبصَّرُ في عواقب الأمور قـــبل وقـــوعها، يمتاز بعلو الهمة، جلساؤه عقلاء فضلاء، بعيد عن صحبة السوء، لا يتأثر بثرثرة الحمقى وتشدق المغفلين، سواءً كانوا على الهواء في القنوات الفضائيات التلفازيّة أم على الأرض في قاعة الدِّراسة وحلقات العلم.

---

[1] الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (6/ 749، بترقيم الشاملة آليا) وانظر صَحِيح الْجَامِع: 3135

قسَّم ابْن الجَوْزِيّ رحمه اللّه سمات العاقل إلى قسمين: قسم يتعلّق بالشَّكل والصورة، وقسم يتعلّق بأفعال وأقوال العاقل. فمن حيث صورة العاقل، يقول نقلاً عن بعض الحكماء :"إنّ الخلـق المعتدل والبِنْيَة المتناسبة دليل على قوَّة العقل وجَوْدَة الفطنة، وإذا غلظت الرَّقبة دلَّـت علـى قوَّة الدِّماغ ووفوره، ومن كانَتْ عينه تتحرَّك بسرعة وحدَّة فهو مكَّار محتال لص، وأحمد العيون الشّهل[1]، وإذا لم تكن الشَّهلاء شديدة البريق ولا يظهر عليها صفرة ولا حمـرة دلَّت على طبع جيِّد، وإذا كانَتْ العين صغيرة غائرة فصاحبها مكَّار حسود، ومن كـان نحيف الوجه؛ فهو فهم مهتم بالأمور، واللّطف في النّحاف القصار أظهر، والمعتدلون في الطّول صالحو الحال.

أمـا مـن حـيث الأفعال والأقوال، يُستدلّ على عقل العاقل؛ بسكوته، وسكونه، وخفـض بـصره، وحركاته في أماكنها اللائقة بها، ومراقبته للعواقب، فلا تستفزّه شهوة عاجلـة عقـباها ضـرر، وتراه ينظر في الفضاء، فيتخير الأعلى والأحمد عاقبة من مطعم ومشرب وملبس وقول وفعل، ويترك ما يخاف ضرره، ويستعدّ لما يجوز وقوعه"[2].

ونحـن نتحفّظ على سمات العاقل المتعلّقة بالشَّكل والصورة التي ذكرها ابْن الجَوْزِيّ رحمـه اللّه لأنه لايمكن إثباها، ولكنّا ننقلها في إطار تجربة لعالم قد تتفق مع تجارب بعض الناس وقد لاتختلف ولكنا نقطع بأن هذه الأوصاف التي ليست من صنع المتصف بها، فهي ليـست مناط حسن أو سوء على العكس من الصفات القولية أو الفعلية فهي مناط للتكريم أو التسفيل، وعليها المعوّل في الحكم، وليس على غيرها.

---

[1] الشُّهلة في العين: أن يشوبَ سوادَها زُرقةٌ

[2] أخبار الأذكياء، لإبن الجوزي، ص17-18

وعن أبي الدَّرداء[1] رضي اللّه عنه قال: "ألا أنبئكم بعلامة العاقل؛ يتواضع لمن فوقه، ولا يزدري من دونه، يمسك الفضل من منطقه، يخالق النَّاس بأخلاقهم."[2]

وروي عـن وَهْب بن منبِّه[3] رحمه اللّه أن لقمان الحكيم قال لابْنه: "يا بني؛ ما يتمّ عقـل امرئ حتى يكون فيه عشر خصال: الكرب منه مأمون، والرّشد فيه مأمول، يصيب من الدُّنيا القوت وفضل ماله مبذول، التّواضع أحبّ إليه من الشّرف، والذلُّ أحبّ إليه من العـزّ[4]، لا يسأم من طلب الفقه طول دهره، ولا يتبرّم من طلب الحوائج من قبله، يستكثر قلـيل المعروف من نفسه. والخصلة العاشرة الّتي بها مجده وأعلى ذكره: أن يرى جميع أهل الدُّنـيا خيراً منه وانه شرّهم[5]، وإن رأى خيراً منهم سرّه ذلك وتمنّى أن يلحق به، وإن رأى شرّاً منه قال: لعلّ هذا ينجو وأهلك أنا، فهنالك حين استكمل العقل"[6].

وفي الفـصل بـين العاقـل والجاهل، قال "هرمس" العظيم: "أن العاقل مَنْطِقَةُ له، والجاهل مَنْطِقَةُ عليه"[7].

---

[1] هـو عُويمرُ بن زيد بن قيس الأنصاريُّ الخزرجيُّ، صاحب رسول اللّه ﷺ، الإمام القدوة، قاضي دمشق، مـن رواة الحـديث الموثقـين، وهو معدود فيمن جمع القرآن الكريم في حياة رسول اللّه ﷺ، توفي سنة 32هـ.

[2] أخبار الأذكياء، لإبن الجوزي، ص18

[3] هو وهب بن منبه أبو عبد اللّه الأبناويّ، اليمانيُّ الذِّماريُّ الصنعانيّ، العلامة الأخباري القصصيّ، يُعد من التابعـين الثقات، أصله من أبناء فارس، ولد في صنعاء سنة 34هـ وتوفي فيها سنة 114هـ، كان غزير الحكمة والعلم في الإسرائيليات وصحائف أهل الكتاب.

[4] من باب " {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ } [الإسراء: 24]

[5] من باب { وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة: 2]

[6] أخبار الأذكياء، لإبن الجوزي، ص19

[7] المِلَلُ والنِّحَلُ، للشهرستاني، ج2/ص43

الأحمق وصفاته

مـــن سنن اللّه سبحانه وتعالى انه خلق قانون المحاسن واالأضداد وأمر الإنسان بلزوم المحاســـن واجتـــناب الأضداد في القول والعمل، فالعاقل يعمل بقانون المحاسن قولاً وفعلاً لسلامة وصحة عقله، والأحمق يعمل بقانون الأضداد قولاً وعَمَلاً لفساد في عقله أو ذهنه.

قـــال ابْن الأعرابي[1]:"الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسُدت، فكانهُ كاسد العقل والرأي فلا يُشاوَر ولا يُلتفت إليه في أمر حرب"[2].

وقـــال ابْـــن الجَـــوْزيّ رحمه اللّه في معنى الحمق أنه "الغلط فى الوسيلة والطريق الى المطلـــوب مـــع صحة المقصود، بخلاف الجنون، فانه عبارة عن الخلل فى الوسيلة والمقصود جميعا، فالاحمق مقصوده صحيح، ولكنْ سلوكه الطريق فاسد ورؤيته فى الطريق الوصال إلى الغرض غير صحيحة، والمجنون أصل إشارته فاسد، فهو يختار ما لا يختار، ويبين هذا ما ذكر عـــن بعـــض المغفلين أن طائرا طار من أمير فأمر أن يغلق باب المدينة فمقصود هذا الرجل حفظ الطائر"[3].

وقـــال عليّ بن أبي طالب ﷺ: "ليس من أحدٍ إلا وفيه حَمْقةٌ فيها يعيش"[4]. فالحمق غريـــزةٌ في الإنسان؛ لكن يتفاوت النَّاس في شدّتها وحدَّتها كما يتفاوتون في العقل وطبيعته وما منحهم اللّه منه.

وقـــال "هرمس" العظيم: "الجهل والحمق للنفس بمنزلة الجوع والعطش للبدن، لأن هذين خلاء النَّفس، وهذين خلاء البدن"[5].

---

[1] هـــو محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي أبو عبد اللّه. علاّمة باللغة العربية من أهل الكوفة، ولد سنة 150هـــ وتوفي في سامراء سنة 231هـــ.

[2] أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص28

[3] أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص28

[4] أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص31

[5] المِلَلُ والنِّحَلُ، للشهرستاني، ج2/ص45

لذا لا يمكن أن يتخلص الأحمق من حماقته ولاينفعها التأديب لأن الأصل وهو العقل فاســد لديــه، فقد روي عن أبي عمرو الأوزاعيّ[1] انه قال: "بلغني انه قيل لعيسى اِبْن مريم عليه السَّلام: يا روح اللّه إنك تحيي الموتى؟ قال: نعم بإذن اللّه. قيل: وتبرئ الأكمه؟ قال: نعم بإذن اللّه. قيل فما دواء الحمق؟ قال: هذا الذي أعياني"[2].

ذكـــر اِبْن الجَوْزِيّ رحمه اللّه في كتابه 'أخبار الحمقى والمغفلين' إحدى وأربعين أسماً للأحمـــق، نذكر منها ما نراها أكثر تداولاً بين النَّاس وفي الكتب: الأحمق، الرقيع، المائق[3]، الملغ[4]، المسلوس[5]، المأفون[6]، المأفوك[7]، الرطيء[8]، الأنوك[9]، الأهوج[10]، الأخرق[11]، الهتور[12].

ومن أسماء النساء ذوات الحمق: الورهاء، الداعكة[13]، الخرقاء، الهوجاء.

بالـــرَّغْمِ أن اِبْـــن الجَوْزِيّ رحمه اللّه قسم صفات الأحمق إلى صفات تتعلق بصورة وشكل الأحمق، وصفات تتعلق بخصاله وأفعاله، ألخص صفات الأحمق القولية والفعلية فقط، -وذلك للسبب الذي ذكرته هناك ويتلخّص في أن هذه الأوصاف لاتستند إلى دليل -:

---

[1] هو عبد الرحمن بن عمرِو بن يُحْمِد الأوزاعي من قبيلة الأوزاع، أبو عمرو. إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، ولد في بعلبك سنة 88 هـــ ونشأ في البقاع وسكن بيروت، وتوفي بها سنة 157 هـــ.

[2] أخبار الحمقى والمغفلين، لإبن الجوزي، ص28

[3] الأحمق المائق: الشديد الحماقة

[4] الملِغ: هو الأحمق الداعر الذي يتكلم بالفحش.

[5] المسلوس: الذي ذهب عقله.

[6] المأفون: الضعيف الرأي.

[7] المأفوك: العاجز الرأي.

[8] الرطيء: الأحمق الغليظ الكلام.

[9] الأنوك: الأحمق الجاهل.

[10] الأهوج: هو من كان طويلا في حمق وطيش وتسرُّع.

[11] الأخرق: الضعيف الرأي، السيئ التصرف.

[12] الهتور: هو من ذهب عقله من كبر أو مرض أو حزن.

[13] الورهاء والداعكة: امرأة شديد كثيرة الحمق

1. الجهـــل والخلو من العلم النافع أول وأخطر خصلة يتَّصف بهما الرجل الأنوك. فتصور أحدنا يكبر سنه ويشيخ عقله ولم يحصل على شيءمن العلم النافع! فهل هـــو مـــن الأحمق ببعيد؟ قال الأعمش[1]:"إذا رأيت الشَّيْخ ليس عنده شيءٌ من العلم أحببتُ أن أصفعَهُ"[2].
2. الكبر والعجب وكثرة الكلام من أبرز علامات الأحمق، قال أبو الدرداء[3] ﷺ : "لا يغرَّنكم ظرف الرجل وفصاحته وإن كان مع ذلك قائم الليل صائم النهار إذا رأيتم فيه ثلاث خصال، العجب، وكثرة المنطق فيما لا يعنيه، وإن يجد على النَّاس فيما يأتي مثله، فإنَّ ذلك من علامة الجاهل". وروي انه تكلَّم رجل عند معاويـــة[4] ﷺ فأكثـــر الكـــلام، فضجر معاوية فقال: أأسكتُ؟. فقال: وهل تكلَّمتَ؟[5]
3. حـــب المدح الكاذب صفة مُمَيَّزة للأحمق، فتراه ينتشي من الفرح عندما يُمدح وإن كان غير مستحقٍّ.
4. قـــال بعض الحكماء: " يُعرف الأحمق بست خصال: الغضب من غير شيء، والإعطاء في غير حق، والكلام من غير منفعة، والثقة بكل أحد، وإفشاء السر،

---

[1] هو سليمان بن مهران الأسدي بالولاء أبو محمد الملقب بالأعمش تابعي مشهور. أصله من بلاد الرّي، ولد فـــيها ســـنة 61هـــ، وتوفي بالكوفة سنة 148 هـــ، كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض.وكان معروفا بالفكاهة والإجابات اللاذعة .

[2] أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص38.

[3] هـــو عُويمِـــرُ بـــن زيد بن قيس الأنصاريُّ الخزرجيُّ، أبو الدرداء، صاحب رسول اللّه ﷺ، من رواة الحديث الموثقين، وهو معدود فيمن جمع القرآن الكريم في حياة رسول اللّه ﷺ، توفي سنة 32 هـــ.

[4] هـــو معاوية بن أبي سفيان، القرشي، الأموي، المكي، أمير المؤمنين، ملكُ الإسلام، ولد قبل البعثة بخمس سنين وتوفي في رجب سنة 60 هـــ.

[5] أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص38

وأن لايفـــرق بين عدوه وصديقه، ويتكلم ما يخطر على قلبه، ويتوهم انه أعقل النَّاس "[1].

5. وفي صفات مُمَيَّزة للأحمق، رُوي عن وَهْب بن منبِّه رحمه اللّه انه قال:" الأحمقُ إذا تكلَّــم فضحَهُ حُمْقُه، وإذا سكتَ فضحهُ عيُّه، وإذا عَمِل أفسد، وإذا ترك أضـــاع، لا علْمُـــه يُعينُه، ولا علْمُ غيره ينفعُه، تَوَدُّ أمه أنَّها ثكلَتْهُ، وامرأته لو عَدمَـــتْهُ؛ ويتمنَّـــى جارُه منه الوَحْدة، ويجد جليسُه منه الوَحْشة"[2]. رحمك الله ياوهـــب كم كانت ريشتك معطاءة في فن الرسم الكاريكتيري ... نعم لقد عـــرف وهـــب هذا الفن ولم يكن لديه أداة للرسم سوى الكلمات! والله إنها لـــصورة يضجّ منها صاحبها. ويضحك بل يقهقه منها مشاهدوها تمنيت لو أن الرسام علي الفرزات[3] منحها من فنه ومن ريشته .

6. قـــال أبو حاتم بن حيان الحافظ :"علامة الحمق سرعة الجواب، وترك التثبت، والإفـــراط في الـــضحك، وكثرة الإلتفات، والوقيعة في الأخيار، والاختلاط بالأشرار، والأحمق إن أعرضت عنه أعتم[4]، وإن أقبلت عليه اغترّ، وإن حلمت عنه جهل عليك، وإن جهلت عليه حلم[5] عليك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، وإن أســـأت إليه أحسن إليك، وإذا ظلمته أنصفت منه، ويظلمك إذا أنصفته، فمـــن ابتُلـــي بـــصحبة الأحمق فليكثر من حمد اللّه على ما وهب له مما حرمه ذاك"[6].

[1] أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص40.

[2] سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، ج4/ص552

3 رسام كاريكتير سوري عالمي اشتهر بلوحاته الساخرة.

[4] عتم عن الأمر: كفَّ عنه بعد المُضيّ فيه.

[5] حلم: صفح

[6] أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي، ص40.

هذا شيء قليل مما كُتب عن الحمق وخصال الأحمق، لذا ينبغي على العاقل أن يسعى جاهــداً ليـــتخلص من خصال الحمق إن وجد فيه، وأن يتجنب صحبة الأنوك، ومجالسة الحمقى، ففي ذلك سلامة لعقله، وبراءة لسمعته، وراحة لباله، عافاني اللّه وإياكم من حمقى هذا العصر، وما أكثرهم!

العقل ودوره في كسب العلم

كما تبين مما سبق ذكره أن أحد معاني العقل هو العلم، ففي قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج:46]، دلالة واضحة على أن العقل هو علـــم وأن محله هو القلب، فعلاقة العقل بكسب العلم شبيهة بالسفينة وربانها، السفينة هي العلم، والربان هو العقل، فلا يمكن للسفينة أن تبحر بدون ربان يقودها، ولا يمكن لربان أن يبحر بدون سفينة.

وقد قالت الحكماء: "العلم قائد والعقل سائق والنَّفس ذَوْد، فإذا كان قائد بلا سائق هلكتْ، وإن كان سائق بلا قائد أخذت يميناً وشمالاً، وإذا اجتمعا أنابت طوعاً أو كرهاً"[1]. وهذا القول الحكيم على روعته وإيجازه ووضوحه لدى سلفنا، إلا أني أجدني أكثر ارتياحاً لشرحه في صلب النصّ، وذلك ليشمل كل من قرأ.

فالذَّوْد: القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع، ولا يكون إلا من النوق. والمقصود هنا تشبيه النَّفس بنوق الصحراء، وتشبيه العلم بقائد الذَّوْد، وتشبيه العقل بسائق الذَّوْد. فكما يطيش الذَّوْد في الصحراء المهلكة، مع غياب القائد والسائق، فإن النَّفس تضل وتَهلك، إن لم يكن لها توجيه من العلم والعقل.

[1] العقد الفريد، لعبد ربه الأندلسي، ج2/ص69

وحُكي عن بعض أهل العلم والمعرفة الهم قالوا:" حياة النَّفس بالرُّوح، وحياة الرُّوح بالذِّكْر، وحياةُ القلبِ بالعقل، وحياةُ العقل بالعلم"[1].

فـــبمقدار عمق وفعّالية هذه العلاقة يكون تفاعل وائتلاف العقل والعلم، فإذا كان العقـــل حاذقـــاً، والـــذِّهْن حاداً، والقلب سليماً، كانَتْ قوَّة النَّفس مهيأة وجاهزة لفهم واستيعاب ما يُعرض عليها من علم في زمان قصير، فتكون علاقة ايجابية نافعة ممدوحة، وأما إذا كـــان العقل مشغولاً مضطرباً أو خمولاً بليداً،كانَتْ علاقته بكسب العلم علاقة جامدة مملة، وسلبية مذمومة لا خير فيها ولا نفع، واللّه أعلم.

لذا ينبغي على صاحب العقل الصحيح، والقلب السَّليم، أن يستفيد مما وهبه اللّه من نعمـــة العقـــل الّتي ميَّزه بها عن بهيمة الأنعام في قبول الفكر السَّليم والرأي السديد، وزجر الفكر المُضلّ والرأي المـــُضرّ، فالعاقل يقبل الحق، ويرفض الباطل، والحق هو كل ما وافق شرع اللّه وسنة رسوله المصطفى محمّد ﷺ خاتم الأنبياءِ والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والباطل هو كل ما خالف شرع الله وسنة رسوله محمّد ﷺ.

حـــذارِ أيها العاقل أن تنخدع بكل منافق عليم اللسانِ، وتصدّق ما تقرأه من أفكار وآراء في الكـــتب، والمجلات والجرائد اليومية، ومواقع الإنترنت، الفاسدة الأصل والغرض. فعـــن عمران بن حصين، قال: قال رسول اللّه ﷺ "إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم بعدي كلَّ مُنافقٍ عَليمِ اللسانِ"[2].

حـــذار أيها العاقل أن تُؤخذ وتُعجَب بما يثرثر به ثرثارو أجهزة الراديو، ويتشدَّق به متـــشدِّقو الفضائيّات التلفازيّة الّتي يبثّ معظمها حثالة العلم والمعرفة. فعنْ عَبْدِ اللّهِ، – قَالَ أَبُـــو دَاوُدَ: وَهُوَ ابن عمرو – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ :" إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ

---

[1] المُستطرفُ في كل فن مُستَظرفٍ، لأبشيهي، ص23

[2] صحيح الترغيب والترهيب، للألباني،ج1/رقم132

الرِّجَالِ الَّذي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانهُ تَخلُّلَ الْبَاقِرَةِ بلِسانِها"[1]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ "مَـــنْ تَعَلَّم صَرْفَ الْكَلاَمِ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوِ النَّاس لم يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ القيامة صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً "[2].

حذار أيها العاقل أن تتأثر بفكر وآراء أصحاب البرامج الفضائية الضَّالة المضلّة، فهي تـــبثُّ سموماً عقائدية وفِكْرِيّة في برامج ومسلسلات ظاهرها التَّسلية والتَّرفيه، وباطنها السُّم الزُّعاف، لما فيها مما يعارض عقيدتنا التَّوْحِيْدية، ويخالف أعرافنا الجميلة، وعاداتنا وتقاليدنا الكريمة، وذلك فيه فساد لعقلك، وضلال لقلبك، عافاني اللّه وإياك من سموم هؤلاء الأفاعي وأمثالهم.

حـــذار أيهـــا العاقل أن تكون ممن يُستَخَفُّ عقله، ويطيع هؤلاء الحمقى والمغفلين، فـــيفقد صحة عقله، وسلامة قلبه، ويخسر الثَّواب في الدُّنيا والآخرة،، ويكون ممن قال اللّه تعالى فيهم: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف:54].

لذا عليك بالتّفكّر والتدبُّر، وبالنَّظَر والتأمل، فبها تتولّد الفكرة الّتي ثمرتها العلم، وهو مـــا يحصل في العقل والقلب، وعنهما تتولّد الإرادة للفعل والعمل. فبتقديم الفكر قبل الفعل تعلـــم ما هو صواب نافع وتَتَعلَّمه، وما هو خلط وخطأ وتنبذه، وبالعقل الراجح، وبالقلب الـــسَّليم، وبالـــنَّفس المؤمنة المطمئنّة تكسب العلم النافع، وتنضمّ للعقلاء الأفاضل والعلماء الأجلّاء، وتهجر صحبة الجهلاء، والحمقى والمغفلين، من العَامّة والخاصة من النَّاس أجمعين.

العقل والتَّفْكِيْر النَّقْدِيّ

للعقل السَّليم خصائص ووظائف عديدة ومختلفة، وأهمّها التَّفْكِيْر، فبالتَّفْكِيْر يتحرك العقـــل وينشطَ، وبالتَّفْكِيْر تُثَار المشاعر والعواطف، وبالتَّفْكِيْر تتحدد الرغبات والحاجات،

[1] سنن أبي داود، رقم5005

[2] سنن أبي داود، رقم5006

لذلك أكّد الدِّين الإسلامي على أهمّية التَّفْكِيْر والتّفكّر في مجالات الحياة النَّظَريَّة والعمليّة، لمـــا فـــيهما من طمأنينة للنفوس، وتبصرة للقلوب، وعبرة للعقول، وصلاح وهداية للناس أجمعين.

لقـــد ذُكر مفهوم 'التَّفْكِيْر' في مواضع كثيرة من القرآن الكريم لأهمّيته في فهم آياته العظـــيمة، وفهم هذا الكون الذي نعيش فيه ومكوِّناته من أرض، وماء، وهواء، حتى نبنيه على أساس عقيدة التَّوْحِيْد، وعبادة الواحد الأحد، ونعمر الأرض ونستثمر ثرواتها في خدمة الإنسان والإنسانية على مدى العصور حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها:

قـــال اللّه تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحـــشر: 21]. وقـــال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل :44].

وقال تعالى: ﴿قُل لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:50].

وقال تعال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد:3].

وقال تعالى: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الـــنحل:11]. وقـــال سبحانه: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:69].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم :21].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر 42].

وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية 13].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران:191].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:24].

وقال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف:176]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[الأعراف:184].

وفي هذا السّياق أيضاً، أكدت السّنّة الشّريفة على أهمّية التّفْكيْر في الأمور، وحثت صاحب العقل السّليم أن ينظر ويفكر في الأشياء حتى يحصل على الفائدة المرجوة، فعن أبي ذرٍّ الغفّاري رضي الله عنه انه قال: "قلتُ: يا رسولَ الله! ما كانَتْ صُحفُ إبراهيمَ؟ قال: "كانَتْ أمثالاً كلُّها: أيُّها الملِك المسلّط المُبْتَلَى المغرورُ! إنّي لمْ أَبْعَثْكَ لِتجْمَعَ الدُّنيا

بعـــضَها على بعضٍ ولكنّي بعَثْتُكَ لتردَّ عنّي دعوةَ المظلومِ ؛ فإنّي لا أردُّها وإن كانَتْ مِنْ كافرٍ.

وعلـــى العاقلِ ما لَمْ يكنْ مغلوباً على عَقْلِه أنْ يكونَ له ساعاتٌ؛ ساعةٌ يناجي فيها ربَّه، وساعةٌ يحاسِبُ فيها نَفْسَه، وساعةٌ يَتَفكَّرُ فيها في صُنْعِ الله، وساعةٌ يَخْلو فيها لِحَاجَتِه مِن الـــمَطْعَمِ وَالـــمَشْرَب.

وعلى العاقِلِ أنْ لا يكونَ ظاعناً إلا لِثَلاثٍ: تَزَوُّدٌ لِمعَادٍ، أو مَرَمَّة[1] لِمَعَاشٍ، أو لذّةٍ في غير مُحَرَّمٍ.

وعلى العاقِلِ أنْ يكونَ بَصيراً بزَمانه، مُقْبِلاً على شأنه، حافِظاً لِلسانه.

وَمَنْ حَسَبَ كلامَهُ مِنْ عَمَلِه ؛ قَلَّ كَلامُهُ إلاَّ فيما يَعْنيه".

قلـــتُ: يـــا رسُولَ الله! فما كانَتْ صُحُفُ موسى عليه السَّلام؟ قالَ: "كانَتْ عبراً كلُّها: عجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بالموتِ ثُمَّ هو يَفْرَحُ.

عجِبْتَ لِمَن أَيْقَنَ بِالنَّارِ ثُمَّ هو يضحكُ.

عجِبْتُ لمن أيقن القدر ثم هو ينصب[2].

عجِبْتُ لِمَن رأى الدُّنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأنّ إليها.

وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل".

قلـــتُ: يـــا رسولَ الله! زدني. قال: "عليك بطول الصَّمتِ؛ فانه مَطْرَدَةٌ للشَيْطانِ، وعونٌ لك على أمْرِ دينكَ".

قلـــتُ: يا رسول الله! زدْني. قال: " لَيرُدَّك عَن النَّاس ما تَعْلَمُهُ مِنْ نَفْسِكَ، ولا تجدْ عليهِمْ فيما تَأْتِي، وكَفَى بك عَيْباً أنْ تَعْرِفَ مِنَ النَّاس ما تَجْهَلُه مِنْ نَفْسِكَ، وتَجدَ علَيْهم فيما تَأْتِي".

[1] مختار الصحاح (ص: 267): "رَمَّ الشيء يرمه بضم الراء وكسرها رَمّاً ومَرَمَّةً أصلحه "انتهى. فعلى هذا يكون المعنى السعي في تحسين الأحوال المعيشية، وهذا جل اهتمام المغتربين والمهاجرين من أوطانهم.

[2] مختار الصحاح (ص: 688)" نَصِبَ تعب "

ثُمَّ ضرب بيده على صدري فقال: "يا أبا ذرٍّ! لا عقْلَ كالتدْبير، ولا وَرَعَ كالكَفِّ، ولا حَسَبَ كَحُسنِ الخُلُقِ".[1]

ورُوي عـن أبي الدّرداء رضي الله عنه انه قال يوماً، وذكر لقمان الحكيم فقال:" ما أوتي عـن أهـل ولا مال ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلاً صمصامة[2]، سكّيتاً، طويل التّفكّر، عميق النَّظَر، لم ينم نهاراً قط، ولم يره أحد يبزق ولا يتنحنح، ولا يبول ولا يـتغوط، ولا يغتـسل، ولا يعبث ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه، إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد، وكان قد تزوج، وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم، وكان يغشى السُّلْطان ويأتي الحكام، لينظر ويتفكّر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي"[3].

وفي أهمّـية التّفكّر والفكر، يقول الإمام اِبْن قيّم الجَوْزِيّة رحمه اللّه: أن "التّفكّر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلاً عند القلب، فالتّفكّر يحصّله والتذكّر يحفظه. ولهذا قـال الحـسن: مـازال أهـل العلم يعودون بالتذكّر على التّفكّر، وبالتّفكّرعلى التذكّر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة.

فالتّفكّـر والتذكّر بذار العلم، وسقيُه مطارحته، ومذاكرتُه تلقيحه. كما قال بعض الـسَّلَف: ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها. فالمذاكرة به لقاح العقل. فالخير والسعادة في خزانة مفـتاحها التّفكّـر فانه لا بدّ من تفكّر وعلم يكون نتيجة الفكر وحال يحدث للقلب من ذلك العلم، فإن كلّ مَن علم شيئاً من المحبوب أو المكروه لا بدّ أن يبقى لقلبه حال وينصبغ من صبغة من علمه، وتلك الحال تُوجب له إرادة، وتلك الإرادة تُوجب وقوع العمل، فها هـنا خمـسة أمور: الفكر وثمرته العلم وثمرتها الحالة الّتي تحدث للقلب وثمرة ذلك الإرادة وثمـرتها العمل. فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها. وهذا يكشف لك عن فضل

[1] ضعيف الترغيب والترهيب، للألباني، ج2/رقم1352

[2] رجل صمصامة: مصمم. وقيل: هوالشديد الصلب. وقيل: المجتمع الخلق. اللسان (صمم)

[3] البداية والنهاية، لابن كثير، ج2/ص4

التّفكّر وشرفه وانه أفضل أعمال القلب وأنفعها له حتى قيل[1]: "تفكّر ساعة خير من عبادة سنة".

فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة ومن المكاره إلى المحابّ ومن الـــرغبة والحرص إلى الزُّهد والقناعة، ومن سجن الدُّنيا إلى فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى اللّه والـــتجافي عـــن دار الغرور، ومن مصيبة العمى والصّمَم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن اللّه والعقل عنه ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور.

(وبالجملة) فأصل كل طاعة إنما هي الفكر، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانـــب الفكرة، فإن الشّيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حَبَّ الأفكار الـــردّية فيتولّد منه الإرادات والعزوم فيتولّد منها العمل فإذا صادف أرض القلب مشغولة بـــبَذْر الأفكـــار النّافعة فيما خلق له وفيما أُمِرَ به وفيم هيّئ له وأُعِدَّ له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم لم يجد لبذره موضعاً"[2].

أعـــتقد أن نوعـــيّة وطبيعة التَّفْكِيْر الذي أكّد وحث عليه الإسلام هو التَّفْكِيْر الذي يقـــوم بـــه صاحب العقل الناقد، والذِّهْن الحاذق، والقلب الثاقب، ليكون تفكيراً نقدياً له عناصـــره ومعـــاييره الّتي تميّزه عن أي نوع آخر من التَّفْكِيْر، ولاسيَّما فيما يتعلّق بالعمليّة التَّعْلِيْمِيّة، واللّه أعلم.

1 هامش :"" كنز العمال (3/ 108): ذكر القاري الهروي في كتابه الموضوعات الصغرى عند رقم (94) : "تفكر ساعة" ليس بحديث إنما هو كلام السري السقطي رحمه الله المتوفى سنة 253 هـ . انتهى . اشتهر على ألسنة العامة أنه حديث . وأنتهزها فرصة لأبين أنه قول للسّري السقطي، وعلى هذا تمّ سياقه .

2 مفتاح دار السعادة، للإمام إبن قيّم الجوزية، ج1/ص224

أ. تعريف التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ

إن التَّفكــر والتذكّــر والنَّظَــر والتَّأمل والاعتبار والتدبّر والاستبصار مصطلحات ومفاهيم تُستخدم في الفكر والتَّفْكِيْر النَّقْدِيّ العميق الفعّال، لكن لها معان متقاربة تجتمع في شيء وتفترق في آخر، وللفائدة أذكر تعريف إمامنا العلامة ابْن قيم الجَوْزِيّة رحمه الله لهذه المــصطلاحات، حــيث يقول:" ويسمى 'تفكّراً' لأنّه استعمال الفكرة في ذلك واحضاره عنده، ويسمى 'تذكّراً' لأنّه إحضار للعلم الذي يجب مُراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه، ومنه قــوله تعــالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:201]. ويسمى 'نظراً' لأنّه التفات بالقلب إلى المنظور فيه، ويسمى تأمّلاً لأنّه مــراجعة للنَّظر كرّة بعد كرّة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه، ويسمى 'اعتباراً' وهو افتعال مــن العــبور لأنّه يعبر منه الى غيره فيعبر من ذلك الذي قد فكّر فيه إلى معرفة ثالثة وهي المقصود من الاعتبار، ولهذا يسمى عبرة وهي على بناء الحالات كالجلسة والقبلة وإيذاناً بأن هــذا العلم والمعرفة قد صار حالاً لصاحبه يعبّر منه إلى المقصود به، وقال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111]. وقال الله تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ [النازعات :26].وقال الله تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: 44]. ويسمى 'تدبراً' لأنّه نظر في إدبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها ومنه تدبّر القول، وقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:68]،وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:82]. وتدبّر الكلام أن ينظر في أوله وآخــره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعّل كالتجرّع والتفهّم والتبيّن. وسمي 'استبصاراً' وهو استفعّال من التبصّر وهو الأمر وانكشافه وتجلّيه للبصيرة"[1].

[1] مفتاح دار السعادة، لإبن قيّم الجوزية، ج1/ص223

ومن هنا نقول إنّ التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ[1] هو أُسْلُوْب مُمَيَّز يعالج العقل فيه أيّ موضوع أو مسألة أو نقطة نقاش أو بحث علميّ من أجل تحقيق أقصى درجات جَوْدَة التَّفْكِيْر العميق الفعّال، وذلك من خلال استخدام عناصر الفكر والتَّفْكِيْر النَّقْدِيّ من تحديد للغرض، وطرح للسّؤال، وجمع للمعلومات، واعتماد للمفاهيم، واستنباط للاستنتاجات، وافتراض للفرضيّات، والنَّظَر بالتَّدَاعِيَات، ودراسة وجهات النَّظَر المتعدّدة والمختلفة بما له صلة بموضوع النّقاش، وتطبيق لمعايير التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ من وضوح، وصحة، ودقة، وعمق، واتّساع، ومنطقيّة، وأهمّية، وعدم الانحياز، والموضوعية ومدى صلته بموضوع النّقاش.

إن التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ منهج يضبط سلوك الفرد الفِكْرِيّ ذاتيّاً، ويوجهه ذاتيّاً، ويراقبه ذاتيّاً، ويصححه ذاتيّاً، ويطبق معايير التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ ذاتيّاً، وله قدرات فِكْرِيّة على تواصل فعّال لحل المسائل والقضايا.

ينطبق التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ على كل ما نفكّر فيه من أمور الدُّنيا والآخرة: مشاعر، ورغبات، وعادات، وتقاليد، شرائع ودين، تربية وتعليم، وسياسة واقتصاد، وصحة وطب، ومهارات الاستماع والتّكلّم والقراءة والكتابة، ومسائل وقضايا، وإبداع وابتكار، وغيرها كثير.

ب. خصائص المفكّر الناقد

هناك خصائص مُعيَّنة تميّز تفكير صاحب العقل السَّليم عن تفكير صاحب العقل السقيم، فالمفكّر العاقل الناقد يسعى جاهداً ليطوِّر قدراته الفِكْرِيّة ويحسِّن من قدراته التَّفْكِيْرية لتصبح الخصائص التالية جزءاً لا يتجزّأ من تركيبة نسيج عقله وعمل تفكيره النَّقْدِيّ:

---

[1] اعتمدت في طرح لمبدأ التفكير النقدي وبتصرف على كتاب 'Critical Thinking' للكاتبين ريتشرد بول وليندا إلدر، 2001.

1. التواضع الفِكْرِيّ

هــو أن يدرك المفكّر أن علمه محدود، وأن لا يدَّعي أكثر مما يعلم، وأن لا يكون محايداً لوجهات نظره، ومدركاً أنّها قابلة للأخذ والرد. فالتواضع الفِكْرِيّ هو عدم التّفاخر والتّـبجح والانخداع بما يعلم صاحبه حتى لايُصنَّف بأنّه مفكّر متكبِّر، وجاهل لحدود علمه ومعرفته، ومحايد لوجهات نظره، ومدّعياً انه أعلم من النَّاس أجمع.

2. الشجاعة الفِكْرِيّة

هـــي أن يـــدرك المفكّر حاجته لمواجهة أفكاره وقناعاته ووجهات نظره مهما كان نوعها وطبيعتها بشجاعة فِكْرِيّة، وأن يكون على استعداد أن يعيد النَّظَر فيها أو يتخلى عنها إذا تـــبين له أنّها مبنية على غير دليل شَرْعِيّ أو عقليّ، فالمفكّر الشجاع يختلف عن المفكّر الجـــبان الذي يخشى من إعادة النَّظَر في أفكاره وقناعاته ووجهات نظره لأنّه يعُدّ ذلك أمراً خطـــيراً ومُهـــدّداً لكيانه، ولاسيَّما إن كان ذلك يتعارض مع هُويّته الشّخصيّة، لأنّه يَعُدُّ التَّهجم على أفكاره وآرائه هو تهجم على شخصيّتة وهُويّته.

3. التقمُّص الفِكْرِيّ

هو أن يدرك المفكّر حاجته لوضع نفسه مكان الآخرين، ليتمكن من تفهّمهم، وأن يقدر على صياغة وجهات نظرهم، وأن يفكر من خلال تفكيرهم، وأن ينظر في افتراضات وآراء غـــيره، فـــبهذا يكـــون علـــى نقيض المفكّر الأنانيّ الذي يتركز تفكيره على نفسه ومـــصالحه، فيعجـــز بذلك عن تفهّم أفكار ومشاعر ورغبات الآخرين، ولا يقبل النَّظَر في مواضـــيع وقـــضايا ومـــسائل من وجهات نظر تختلف عن تلك الّتي يعتنقها، فحتى تكون صـــاحب العقـــل السَّليم، وتتميّز بالتَّفْكِيْر النَّقْدِيّ الصحيح، عليك أن تضع نفسك مكان الآخرين عندما تريد أن تحكم على أفكارهم أو آرائهم أو مواقفهم.

4. الأمانة الفِكْرِيّة

تعني إخضاعنا والآخرين لنفس المعايير والمقاييس، أي يدرك المفكّر ذو الأمانة الفِكْرِيّة أهمّية الصدق مع ذاته، وأن يُخضع نفسه للمعايير والمقاييس نفسها الّتي يُخضع الآخرين لها، فهو يستخدم الأدلة والبراهين نفسها في الحكم على نفسه وعلى الآخرين، ويعترف بصدق، إن كـان هناك فروقاتٌ وتذبذبات في فكره وفعله، فهو على نقيض وخلاف معنى المنافقة الفِكْرِيّة، والّتي يظهر فيها المفكّر المنافق متناقضاً في فكره وتفكيره وفعله ومواقفه، فمن أراد أن يُحسِّن ويُجمِّل صورته في أعين الآخرين، عليه أن يتَّصف بالأمانة الفِكْرِيّة ويطبقها على نفسه وعلى الآخرين نظرياً وعَمَلِيًّاً.

5. الصبر والمصابرة الفِكْرِيّة

تعـني العمل في ظروف فِكْرِيّة معقّدة وحالات فِكْرِيّة محبطة، أي يملك المفكّر العاقل الـناقد الـصبر والمـصابرة على حلّ المسائل المعقّدة بدون استسلام للإحباط الفِكْرِيّ ولو اسـتغرق هـذا مـنه وقتاً أطولا وجهداً أكثر، على نقيض المفكّر الكسول الخمول الذي يستسلم فوراً عند مواجهة أيّة مهمّةأو عمل يستلزم بذل جهد فِكْرِيّ أو تفكير عقليّ، فهو لا يـتحمل أيّـة معاناة فِكْرِيّة أو إحباط فِكْرِيّ، لذلك ينبغي على المفكّر العاقل الناقد أن يتحلى بالصبر والمصابرة الفِكْرِيّة في معالجته للأمور الفِكْرِيّة النَّظَرِيَّة منها والعمليّة.

6. العَقلانيّة الفِكْرِيّة

تعـني الإيمـان والثقة بالعقل وقدراته الّتي يعمل المفكّر الناقد على تطويرها من أجل اسـتخدامها في تعلم مهارات التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ، من صياغة لوجهات نظر حكيمة وإصدار أفكـار وآراء سـديدة، وتُوْصِل إلى استنتاجات معقولة، وذلك من خلال تفكير يتَّصف بالوضـوح، والـصّحّة، والدّقة، والمنطق، وذو صلة منطقيّة بالموضوع، ونقاش يقوم على الإقناع باستخدام براهين وأدلة حتى يصبح التَّفْكِيْر العَقلانِيّ جزءاً من قِيَمِهِ الفِكْرِيّة وأساليبه

في التَّفْكِيْـــر والحكـــم على أمر من الأمور، بينما المفكّر العديم الثقة بعقله وقدراته النَّقْديّة، والتّحليلـــيّة للأمور يعتمد عادة على ردوده العاطفيّة الّتي لاصلة لها بالعقل الناقد والتَّفْكِيْر الـــنَّقْدِيّ، لـــذلك ينبغي أن يتحلى المفكّر بالعَقلانيّة الفِكْرِيّة إذا أراد أن يكون من أولئك المفكّرين العَقلانيّين النقاد.

7. الاستقلال الفِكْرِيّ

تعـــني أن يقـــوم المفكّر بالتَّفْكِيْر بنفسه ولنفسه، أي أن يملك ما يحمله من معتقدات وقـــيم وأساليب في التَّفْكِيْر بدون الاعتماد على الآخرين في التوجيه أو التحكم بما وكيف يفكر، لكنه غير عنيد ولا متشبث بأفكاره بل يستجيب لآراء ومقترحات عَقلانيّة تأتي من الآخـــرين، فهـــو يسعى مجتهداً لمراقبة تفكيره بنفسه ويعمل على تصحيح أخطائه بنفسه، ويعمـــل أيـــضاً وفقاً لقيم هو اختارها لنفسه، فهو على نقيض المفكّر الاتّكالي الذي يعمل تفكيره وفقاً لأعراف وقيم فِكْرِيّة، أو اجْتِمَاعِيّة أوسياسية أو اقتصادية، أو غيرها، فرضتها عليه بيئته المحيطة به أو مجتمعه الذي يعيش ويعمل فيه، وربما يكون سبب ذلك هو القبول أو الحصول على مكافاءات بأُسْلُوْب أو بآخر لتوافق تفكيره مع تفكير بيئته والمجتمع المحيط به.

إن هـــذه الخصائص الّتي تميّز تفكير صاحب العقل السَّليم عن تفكير صاحب العقل السقيم مطلب جوهري ينبغي أن يملكه المفكّر الناقد، ويتحلى به صاحب التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ، فهذه الخصال، تتداخل وتتفاعل، مع بعضها بعضاً، ولا تعمل كلاً بمفرده، فلو نظرنا بخصلة 'التواضع الفِكْرِيّ'، على سبيلِ المثالِ، لوجدنا انه حتى نكون مدركين لحدود معرفتنا، نحن بحاجـــة 'لشجاعة فِكْرِيّة' لمواجهة انحيازنا وجهلنا، وهذا يتطلب بدوره 'تقمُّص' و'النَّظَر بأمانة' للآراء ووجهات النَّظَر الّتي نختلف معها، وهذا كله يتطلب منا 'الصبر والمصابرة' في التَّفْكِيْـــر لأن تعلُّـــم تفهّم مواقف الآخرين الّتي نختلف معها يستلزم وقتاً طويلاً وجهداً كـــبيراً، وحـــتى نبرر هذا الجهد نلجأ إلى 'ثقتنا بالقدرات العقليّة' الّتي تملكها عقولنا، ولله الحمد.

ج. مراحل التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ

يمــرّ الفــرد في تطوره الفكْرِيّ بمراحل عدة حتى يصبح صاحب عقل سليم وتفكير ناقــد، ومفكّــر ماهر حاذق الذِّهْن ومستيقظ القلب، فمن المفكّرين من يبقى في مرحلة اللاوعــي، ومنهم من يبدأ يفكر بوعي، ومنهم من يمارس التفكر النَّقْدِيّ، ومنهم من يصل إلى درجــة مــتقدّمة من التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ، وقليل منهم من يصبح من بين المفكّرين الماهرين الّذين يصبح التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ لديهم جزءاً لا يتجزء من نسيج عقلهم وفطرتهم.

المرحلة الأولى: يسمى المفكّر في هذه المرحلة **'مفكّراً راكداً'** لأنّه لا يعلم أن منهج تفكــيره يعاني من مشاكل كبيرة، ولا يدرك أهمّية ذلك في حياته، فهو يفترض الافتراضات ويصوغ المفاهيم، ويتوصّل إلى استنتاجات وبشَكْلٍ متكرر لكن بدون وعي، وأحياناً بشَكْلٍ طائش، مما يسبب ذلك له مشاكل في شتى مجالات حياته. لا يعرف هذا النوع من المفكّرين في هذه المرحلة كيف يحلل ويقوّم تفكيره، ولا يعلم فيما إذا كانَتْ أغراضه بُينت بوضوح، وافتراضــاته تم تبريرها، ونتائجه تم التوصل إليها بشَكْلٍ منطقيّ،لأنّهيجهل استخدام معايير التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ، ولا يتحلى بخصائص المفكّر الناقد التي سبق ذكرها.

المــرحلة الثانية: يسمى المفكّر في هذه المرحلة **'مفكّراً مدركاً'** لأنّه يدرك ضعف تفكيره ويعترف بأن المشاكل في طريقة تفكيره هي الّتي تسبب له المشاكل في حياته اليومية، لــذلك يدرك المفكّر في هذه المرحلة أن تغيّر أساليب وعادات التَّفْكِيْر لديه هو أمر في غاية الأهمّــية يــتطلب تغيّــراً جذرياً لروتينيّات حياته اليومية، فمن دلالات وعلامات 'المفكّر المــدرك' انــه يجــد نفــسه يجتهد في تحليل وتقويّم تفكيره، ويتعامل مع عناصر التَّفْكِيْر كالمفاهــيم، والافتراضات، والاستنتاجات، والتَّداعِيَات، ووجهات النَّظَر، ويفكر بالخصال الــتي تجعل من تفكيره عميقاً وفعّالاً كالوضوح، والصّحّة، والدّقة، وعلاقة الصلة، والمنطق. هذا الوعي والإدرك للمشاكل في التَّفْكِيْر غير كاف ولاينبغي أن ينخدع به الإنسان.

المـــرحلة الثالثة: يسمى المفكّر في هذه المرحلة **'مفكّراً مبتدئاً'** لأنّه أدرك أنّ هناك مشكلة في منهج تفكيره وقرر أن يواجهها ويبدأ بتطوير أُسْلُوْب تفكيره. في هذه المرحلة يبدأ المفكّـــر بأخذ تفكيره بجديّة، ويعمل على رفع قوّة إرادته وهمّته وعزيمة، ويحاول أن يتخلص مـــن أنانيّة تفكيره ويعترف بوجود مفكّرين آخرين، ومن علامات 'المفكّر المبتدئ' انه بدأ يعـــي كيف يتعامل مع عناصر التَّفْكِيْر (أغراض، أسئلة، معلومات، مفاهيم، وغيرها)، وبدأ يقـــدِّر قـــيمة استخدام معايير التَّفْكِيْر في الحكم على تفكيره (الوضوح، والصّحّة، والدّقة، المنطقيّة، وغيرها)، وبدأ يثق بقدرات عقله كوسيلة لمعرفة الصواب من الخطأ وكسب العلم وتنوير بصيرته.

المرحلة الرابعة: يسمى المفكّر في هذه المرحلة **'مفكّراً ممارساً'** لأنّه أدرك أن التَّفْكِيْر الـــنَّقْدِيّ السَّليم يتطلب ممارسته بشَكْلٍ منتظم كما يمارس الرياضي رياضتة المفضلة بشَكْلٍ منـــتظم، لـــذلك يقوم هذا النوع من المفكّرين في هذه المرحلة باستخدام أساليب متعدّدة ومخـــتلفة لممارسة التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ، منها الضعيف ومنها الجيد، كل حسب رغبته وحاجته وقدراتـــه، لكن المهم في هذه المرحلة أن يستخدم المفكّر 'الممارس' ما يستطيع من مهارات التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ، وعناصره، ومعاييره، في حل أية مشكلة تواجهه أو أيّة خطة يريد صياغتها أو أيّـــة قـــضيّة يريد دراستها، وعندها يحصد ثمار ممارسته، ويكون متحلّياً بخصال المفكّر الناقد، وكما يقال بالصّبر والمصابرة يتحقق النجاح وتحصل الفائدة، بإذن اللّه.

المـــرحلة الخامسة: يُسمى المفكّر في هذه المرحلة **'مفكّراً متقدّماً'** نتيجة للممارسة المنظمة والممنهجة للتفكير النَّقْدِيّ، ويكون قد تولدت لديه عادة التحليل لتفكيره، والتحكم بأنانيّته الفِكْرِيّة، والتحلي بعدم الانحياز، والتواضع الفِكْرِيّ، والصبر والمصابرة الفِكْرِيّة، كما يقـــوم المفكّـــر 'المـــتقدّم' بمـــراقبة منظمة ومستمرة لدور تفكيره واستخدامه للمفاهيم، والافتراضـــات، والاســـتنتاجات، والتَّدَاعِيَات، ووجهات النَّظَر، وبنفس الوقت تتولّد لدية عـــادة الـــتقويّم المستمر لتفكيره من حيث الوضوحُ، والصّحّة، والدّقة، وذو علاقة وصلة،

ومـــنطق، وأهمّية. وقد تستغرق عَمَليَّة وصول أحدنا إلى المرحلة الخامسة في تفكيره سنوات عديـــدة، لأن ذلـــك يتأثـــر بعوامل مختلفة: منها الرغبة الجامحة، والعمل الجاد، والشعور بالاندفاعية، والالتزام، وبالممارسة المنظمة للتفكير النَّقْديّ.

المرحلة السادسة: يُسمى المفكّر في هذه المرحلة **'مفكّراً ماهراً متمرِّساً'** لأنّه يمارس التَّفْكِيْر النقدي بشَكْلٍ فطريّ وبسهولة، ولا يستطيع المفكّر 'الممارس' و'المتقدِّم' من القيام بعَمَلِيَّة التَّفْكِيْر النَّقْديّ بدون بذل جهود مُعيَّنة، وما يبدو صعباً لهما هو أمر طبيعيّ وفطريّ بالنـــسبة للمفكّر 'الماهر المتمرِّس'، لذلك نجد هذا النوع من المفكّرين يقود تفكيره بشَكْلٍ منظّم، فهو باستمرار يُراقب ويُراجع ويُعيد التَّفْكِيْر بإستراتيجيات لتطوير التَّفْكِيْر لديه، ومن خلال خبرته وممارسته يُقوِّم ويُحلّل تفكيره مستخدماً كافّة عناصر ومعايير التَّفْكِيْر النَّقْديّ، ليـــصبح جـــزءاً لا يتجز من تركيبة نسيج عقله، وآلية تفاعل ذهنه مع الأشياء على كافّة الأصـــعدة في حياته، وهو أعلى درجة من المفكّر 'المتقدِّم' من حيث تحليله لمنهج تفكيره، والـــتحكم بأنانيّتة الفِكْرِيّة، والتَّحلي بعدم الانحياز[1]، والتّواضع الفِكْرِيّ، والصبر والمصابرة الفِكْـــرِيّة، واســـتخدام تفكـــيره للمـــسائل، والمفاهـــيم، والمعلـــومات، والافتراضات، والاســـتنتاجات، والتَّدَاعِـــيَات، ووجهات النَّظَر، كما انه في الوقت نفسه تتولّد لديه عادة الـــتقويّم المستمر لتفكيره من حيث الوضوحُ، والصّحّة، والدّقة، ووثاقة الصّلة بالموضوع، ومـــنطق، وأهمّية. واعلم انه نادراً ما يصل الواحد منا إلى المرحلة السادسة في تفكيره، لأنّه لابـــدّ للمفكّـــر 'الماهـــر المتمرِّس' أن يتّصف بالخصال التالية شكلاً ومضمونا مجتمعة غير منفصلة:

أ- الوعي الكامل لآليات عمل وتفاعل العقل، ونماذج التَّفْكِيْر والفعل لديه.

---

[1] والمقـــصود هـــنا عدم الانحياز إلى فكرته أو إلى فكرة غيره والتشبث بها رغم وضوح الدليل ضدها، بل عليه أن يتحلّى باتّهام فكرته حتى تكون راسخة أمام تحدّي الأفكار المناقضة لها، وذلك بلا شك يمنح القوة للفكرة ولصاحبها المفكر! وبكلمة واحدة، هو العدل .وفي الصفحة 114هناك كلام حوله أوضح .

ب- التمـــتع بعقـــل قادر لنقل المعرفة بين مواضع متعدّدة ومختلفة مستخدماً عمق بصيرته في المفاهيم والمبادئ الأساسيّة لتنظيم كميات كبيرة من المعلومات.

ت- التمتع بعقل قويّ قادر لتعميم المعرفة ومتمكّنٍ من استخدام منطق اللغة، ويعمل جيداً مع منطق المفاهيم والأسئلة والمسائل، ويزن أموراً متعدّدة في آن واحد.

ث- التمـــتع بعقل منطقيّ يحلل بشَكْلٍ روتينيّ منطق الأشياء، ويلتزم بمبادئ شاملة للتعقل وإبراز الدليل.

ج- التمـــتع برؤية مستقبلية، بعيدة المدى، من حيث خطط التَّطْوِيْر والتركيز على القيم العليّا.

ح- أن يكون ذا تفكير عميق وفعّال، يملك نظرة عميقة معتقداته وقيمه الأساسيّة، ويستوعب جذور تفكيره وعواطفه، ويدرس الدوافع العميقة الّتي توجه تفكيره ومشاعره ورغباته وأفعاله.

خ- أن يتمتع بعقل تصحيحيّ، بحيث يطبق المعايير الفِكْرِيّة على أفكاره ومشاعره وســـلوكه، ويتعرف وينتقد أنانيّته وتعصبه لفكر وأُسْلُوْب تفكير الجماعة الّتي ينتمي إليها.

د- أن يتمـــتع بعقـــل حر يعمل على أساس عَقلانيّة الأمور والعواطف، ويغير نمط حـــياته وعاداته وسلوكه، ويُعَدُّ نموذجاً للعَقلانيّة، والموضوعيّة، والإنصاف في الحكم على الأمور.

د. عناصر الفكر والتَّفْكِيْر النَّقْدِيّ

إن الفكـــر والتَّفْكِيْـــر مصطلحان يُستخدمان أحياناً للدَّلالة على العقل والعمليّات العقلـــيّة الّتي يقوم بها العقل من فكر، وتفكُّر، وشعور، ورغبة، وغيرها معتمداً على عناصر فِكْرِيّة متفاعلة ومتداخلة في نسيج تركيبات العقل وعملياته، فانظر، مثلاً، في الجمل التالية

كـــيف تعـــرض هذه العناصر، وكأنّها باقة ورد، وكل وردة لها شكلها ورائحتها، لكنها تلعب دورها في جمال ورائحة باقة الورد، وكأن الباقة كلها أصبحت وردة واحدة:

عـــندما تفكّر، تفكّر في ظروف مُعيَّنة، تتوصل إلى استنتاجات لها بعض التَّدَاعِيَات، أساسها يقوم على فعل أو معلومات أو افتراضات، وذلك باستخدام بعض المفاهيم، محاولاً أن تـــصل إلى حل مشكلة أو مسألة، وذلك لغرض ما أو هدف ما، من خلال وجهة نظر مُعيَّنة.

يوضـــح لنا هذا المثال أهمّ العناصر أو الأجزاء الّتي يتشكل منها الفكر أو يقوم عليه التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ العميق الفعّال، فلابدّ للواحد منا أن يفهم ويستوعب مفردات هذه العناصر ويجعلها جزءاً من تفكيره الفطريّ، ونسيجاً من أنسجة عقله، وآلية من آليات عمل وتفاعل عقله أو فكره مع الأشياء مهما كبُرت أو صَغُرت.

بالرَّغْمِ من أن هذه العناصر تعمل بشَكْلٍ جماعيّ ومتداخل بعضها مع بعض، أود أن أعرضها، للأهّمية البالغة، بشَكْلٍ منفصل، مع شيء من الشرح لكل عنصر من هذه العناصر الأساسيّة في الفكر والتَّفْكِيْر النَّقْدِيّ:

1. الغرض

من أهمّ عناصر الفكر أو التَّفْكِيْر أن يكون هناك غرض أو هدف فيما نفكر، فنحن لا نفكّـــر عبثاً، بدون غرض أو هدف محدد، بل أي أمر نفكّر به صَغُر أم كَبُر يحتوي على أهـــداف ورغبات وحاجات وقيم، ولكن للأسف في معظم الأحيان ما نبتغيه من تفكيرنا يكون غير واضح لدينا، لذلك يُعَدُّ توضيح أهدافنا ورغباتنا وإخراجها لحيز الوعي والإدرك عنـــصر هامّ في التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ، فالطالب، عل سبيل المثال، الذي يذهب إلى خارج البلاد للدراسة يكون هدفه وغرضه من الدِّراسة هو النجاح والحصول على شهادته، لذلك ينبغي علـــى صـــاحب العقـــل السَّليم والتَّفْكِيْر النَّقْدِيّ الصحيح أن يطرح على نفسه دائماً هذا السّؤال: ما هو الغرض أو الهدف الرئيسي لما أفكّر فيه أو ما أفعله؟

2. المُشكلة

عند التَّفْكِيْر بسؤالٍ ما، أو بقضيّة ما، أو بمسألة ما، فنحن نفكّر في الوقت نفسه بما يتوافق مع أهدافنا ورغباتنا وحاجاتنا وقيمنا، لذلك نطرح أسئلة نريد جواباً لها، ومسائل أو مشاكل نريد لها حلاً، وقضايا نريد تسويتها، فالمفكّر لدينا عندما يواجه صعوبة ما يطرح على نفسه سؤلاً:"ما هو السؤل الذي ينبغي أن أجد له جواباً؟" أو " ما هي المشكلة الّتي ينبغي أن أجد لها حلاً؟" أو "ما هي القضيّة الّتي ينبغي أن أقوم بتسويتها؟"، فلتحسين قدرتك بصفتك إنساناً عاديّاً أو طالب علم، على التَّفْكِيْر العميق الفعّال، ينبغي عليك أن تتعلم كيف تسأل الأسئلة، وتطرح المشاكل والقضايا الّتي تريد أن تتعامل معها بشَكْلٍ واضح، وصحيح، ودقيق، فعندما تغيّر السّؤال تتغيّر معه المعايير الّتي تستخدمها من أجل الجواب على السّؤال، وإذا عدَّلت من صيغة المشكلة أو القضيّة ينبغي أن تعتدّ بروابط أخرى لها صلةٌ بالقضيّة، وهكذا ينبغي التعامل مع هذا العنصر حتى يصبح وكأنّهُ جزء لا يتجزّأ من تركيب عقلك، وعنصراً مهماً من عناصر الفكر والتَّفْكِيْر النَّقْدِيّ لديك، واللّه أعلم.

3. المعلومات

عندما نستخدم معلومات في فكرنا وتفكيرنا، فنحن نستخدم بمجموعة من الحقائق، أو المعلومات أو الخبرات لدعم ما نتوصل إليه من خلاصة أو نتيجة، لذلك لا يمكن إجراء إي نوع من النّقاش أو الحوار أو الدِّراسة بدون الاعتماد على معلومات، فمن العقل والتَّعقل أن تسأل نفسك أيها المفكّر:" على أية حقائق أو معلومات تعتمد في تفكيرك؟" عندما تقوم بأي نوع من التَّفْكِيْر، لأن المعلومات عنصر جوهري من عناصر الفكر والتَّفْكِيْر، فلا يمكن للصّحفيّ أن يكتب تقريره بدون معلومات، ولايمكن للطالب أن يكتب بحثه بدون معلومات، ولا يمكن للطبيب أن يصف دواءاً لمريض بدون معلومات أو حقائق أو خبرات، ويجدر بك أن تلقي اهتماماً خاصاً بمصادر معلوماتك ومدى مصداقيتها، وتنظر

فـــيها بعـــين محللة وناقدة، وذهن ثاقب يقظ، حتى يكون فيها مصداقية وقابلة للاستعمال بشَكْلٍ موضوعي وعلميّ.

4. المفاهيم

هـــي عـــبارة عـــن تصنيفات أو أفكار عامّة تُستخدم في شرح أو تصنيف أو جمع المعلــومات الّـــتي نـــستخدمها في تفكيرنا، فمفاهيم العقل والعلم والتَّعْلِيْم والتَّعَلُّم في هذا الكتاب، على سبيلِ المثالِ، هامّة وجوهرية لتسهيل عَمَلِيَّة النّقاش فيه، وكل مادة علميّة لها مفاهـــيمها الّـــتي تكون على شكل أفكار أو مصطلحات أو مفردات تميّزها عن غيرها من الـــمَوَادّ، وتسهِّل التَّفْكِيْر فيها، فمفاهيم مادة الرياضيات أو الكيمياء غير مفاهيم الأدب أو الاقتصاد أو التاريخ، ولكلّ دوره في الفكر والتَّفْكِيْر. ومن خصال المفكّر الناقد قدرته على صـــياغة مفاهـــيم من خلال ما يراه ويمارسه في حياته اليومية، ويضيفها إلى منظومة فكره وتفكـــيره، وقدرتـــه أيـــضاً على أن يتخلص من مفاهيم لا يراه صواباً من منظومة فكره وتفكـــيره، فبهذا يكون هو المتحكم الأوحد في ما يقبله أو يرفضه من مفاهيم، ويكون قد وصل إلى أعلى درجات الفكر والتَّفْكِيْر النَّقْدِيّ، واللّه أعلم.

5. الافتراضات

هـــي عبارة عن ادعاءات أو أشياء تعلّمناها وحفظناها على أنها صحيحة، ولانشك فـــيها أو نسأل عن مدى صحتها، فهي جزء من منظومة معتقداتنا، التي نؤمن بها على انها صـــحيحة ونـــستخدمها في تفسير ما يدور في العالم الذي حولنا، فإذا اعتقدت، مثلاً، أن المشي ليلاً في شوارع المدن الكبيرة خطير وأنت تعيش في لندن، ستستنتج أن المشي في الليل خـــارج البـــيت خطير. فأنت هنا تعدُّ اعتقادك هذا انه صحيح، فإذا ثبت أن اعتقادك هذا صـــحيح ومـــتين، يكون عندئذ افتراضك هذا صحيحاً ومتيناً، والعكس صحيح، وهذا ما

يجعل الافتراضات أو الادعاءات قابلة للأخذ والرد، وذلك حسب قدرتك لتبريرها أو لعدم تبريرها.

6. الاستنتاجات

هي عبارة عن نشاطات وتفاعلات عقليّة يعتمد عليها المفكّر في التوصل إلى أن شيئاً ما صحيح في ضوء شيء أخر صحيح، فأنت إذا قدمت عليّ وبيدك سكينٌ، فأنا قد أستنتج أنــك تقصد أذيّتي، وإذا شاهدت سيارة شرطيّ تتبعك، تستنتج بأنّه سيوقفك لمخالفة قد ارتكبـــتها، وإذا شاهدت شخصاً يقرأ كتاباً لكارل ماركس، قد تستنتج أن القارئ شيوعي الفكـــر، والاستنتاجات يمكن أن تكون صحيحة أو غير صحيحة، منطقيّة أو غير منطقيّة، مـــبررة أو غير مبررة، لذلك ينبغي على المفكّر ولاسيَّما طالب العلم العاقل أن يكون واعياً للاســتنتاجات الّـــتي يـــصوغها والافتراضات الـــمُتَضَمَّنَة تفكيرَه لتُمكّنه من التَّحكم في تفكـــيره، ولأننا بطبيعتنا نميل إلى الاستنتاج، فقوَّة تفكيرنا تقوم على قدرتنا على استخدام هذا العنصر الكامن في فكرنا وتفكيرنا.

7. التَّدَاعِيَات

هـــي مـــا يتضمنه الفكر أو التّصريحات الفِكْرِيّة أو النّاجمة عن الفكر والتَّفْكِيْر، فإذا قلـــت لشخص "إني أحبك"، تعني وتتضمن عبارتك أنك مهتم به وبوضعه الصحي، وإذا وعدت شخصاً بشيء ما، فيتضمن وعدك هذا، أنك ستفي بوعدك، وإذا سميت نظاماً بأنّه ديموقراطـــيّ، فتتـــضمن عبارتك أن القوَّة السّياسيّة هي في أيدي الشعب، فمصداقية النَّاس تكـــون بمقدار صدق تداعيات ومتضمّنات ما يقولون، ويقال عادة" قل ما تعنيه واعنِ ما تقوله".

8. وجهات النَّظَر

هي نقطة أو نقاط تركيز أو توجّه الفكر والتَّفْكِيْر، فتفكيرنا يكون مركّزاً على نقطة مـــا من زاوية ما، فنحن يمكننا أن نغيِّر ما نركِّز عليه أو نغير زاوية تركيز تفكيرنا، وعادة نـــسمي الـــزاوية الّـــتي نفكّر من خلالها، فمثلاً، عندما نفكّر فنحن نفكّر من وجهة نظر سياســـية أو علميّة، أو شعرية أو فلسفية، أو غيرها، وقد ننظر في الأمور أحياناً من منظار محافظ أو ليبراليّ أو دِيْنِيّ أو عَلْمانِيّ، أو قد ننظر فيها من وجهة نظر ثَقَافِيّة أو ماليّة، لذلك عـــندما نفهم كيف ينظر النَّاس إلى السّؤال أو الموضوع، فنحن في وضع أفضل لفهم كل ما يجول في تفكيرهم. إن التَّمكن من استخدام هذا العنصر هامّ جداً وجوهري لأن معظمنا وبشَكْلٍ فطريّ يفكر من وجهة نظر محددة، لكن ليس بالضرورة يستطيع الواحد منا تحديد وجهـــة نظـــر الآخرين، وإنما يمكنه أن يستعين بأهمّ المصادر الّتي نستخدمها في تشكيل أو صياغة وجهات نظرنا، منها مايلي:

- الزمن : هل هو في القرن السادس أم القرن الخامس عشر أم القرن التاسع عشر؟
- الثقافة: هل هي ثقافة غَرْبِيّة أم شرقية، أم يابانية أم صينية أم تركية؟
- الدِّين :هل هي إسلامية أم مسيحية أم يهودية أم بوذية؟
- الجنس: هل هو ذكر أم أنثى؟
- التخـــصّص هل هو كيمائية أم جيولوجية، أم اِجْتِمَاعِيّة أم أدبيّة أم فنية، أم طبية، أم غيرها؟
- المهنة: هل هو مدرس، أم محام، أم طبيب، أم مهندس، أم غيرها؟
- الأصدقاء
- المصلحة الاِقْتِصادِيَّة
- الحالة العاطفيّة
- الـــدّور الاِجْتِمَاعِيّ

فوجهة نظر المفكّر تعكس هذه الأبعاد جميعها أم بعضها.

هـ. معايير التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ

من سنن اللّه سبحانه وتعالى في خلق الأشياء أنّه وضع لكل شيءمن الأشياء أو لكل أمـــر مـــن الأمور مقاييس ومعايير تساعد الإنسان في معرفة كيف يعمل في هذه الحياة في مخـــتلف مجالاتها الحياتية، فأحد المعايير، على سبيلِ المثالِ، الّتي تُستخدم للحكم على مدى جَــوْدَة وقـــبول عمل الإنسان عند اللّه ﷻ هو معيار التقوى، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 197] وقـــال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة:109].

وفي هذا السّياق أكّد سيدنا محمّد رسول اللّه ﷺ على النية في العمل كمعيار أساسيّ لمعـــرفة نوعيّة وقيمة وجَوْدَة العمل الذي يقوم به الإنسان، فعن عُمَرَ بْنَ الخَطَّابَ ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه ﷺ يَقُولُ: "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَات، وإِنَّمَا لكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْه"[1].

ومن هذا المنطلق نستخدم معايير أو مقاييس محددة لمعرفة مدى جَوْدَة أدائنا أو عملنا علـــى المـــستوى الوظيفي أو الإداريّ أو التَّعْلِيْميّ أو الفِكْرِيّ، أو غيرها من الأعمال، وما يهمنا في بحثنا هذا هي المعايير الّتي يمكن أن نستخدمها في معرفة مدى جَوْدَة فكرنا وتفكيرنا بشَكْلٍ عام، وعناصر الفكر والتَّفْكِيْر لدينا بشَكْلٍ خاص.

لتحسين جَوْدَة عناصر الفكر والتَّفْكِيْر لدينا (الغرضُ، المشكلة، المعلومات، المفاهيم، الافتراضـــات، الاســـتنتاجات، التَّدَاعـــيَاتُ، وجهاتُ النَّظَر)، ينبغي أن نملك القدرة على تقويّمها بشَكْلٍ مُنْتَظم ومُنَظَّم مستخدمين معايير عالمية قد اتفق عليها العلماء والباحثين على

[1] صحيح البخاري، رقم1

انهـــا تساعدنا في تطوير فكرنا وتمكّننا من القيام بعَمَليَّة التَّفْكيْر بشَكْلٍ عميق وفعّال، ومن هذه المعايير مايلي مع شيء من التّفصيل لأهمّيتها في التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ:

1. الوضوح

أهـــمّ المعـــايير الوضـــوح في الفكرة أو التَّفْكِيْر، فإذا كانَتْ الكلمة، أو العبارة، أو الجملـــة، أو الـــسّؤال غير واضح، لا يمكن أن تحكم عليه بأنّه صحيح أو له صلة بموضع الـــنّقاش أو البحث، بل لا يمكن أن تعتمده كلياً لأنّه غير واضح، ومثال على ذلك السّؤال التالي:"ما يمكن فعله بخصوص نظام التَّعْلِيْم في الوطن العربيّ؟"، ولجعل مثل هذا السّؤال أكثر وضوحاً، يمكننا أن نصوغه كالتالي:"ماذا يستطيع التربويون فعله من أجل التّأكّد أن الطُّلّاب يتعلمون مهارات وقدرات تساعدهم في أداء عملهم بنجاح وفي صناعة قراراهم اليومية؟". لتحـــسين معـــيار 'الوضـــوح' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- هل يمكنك أن تتوسع في هذه النقطة؟
- هل يمكنك أن تعبِّر عن تلك النقطة بأُسْلُوْب آخر؟
- هل يمكنك أن تعطي توضيحاً لذلك؟
- هل يمكنك أن تعطي مثالاً لذلك؟
- وغيرها من الأسئلة الّتي تساعد على الوضوح والتوضيح.

2. الصِحَّةُ

صحة المعلومة ضرورية جداً في عصر للأسف كَثُر فيه الكذب في القول والعمل، إذ يمكـــن للمعلومة أن تكون واضحة لكن ليس بالضرورة صحيحة، ومثال على ذلك قولنا: "معظـــم الجمال تزن 1000 كغ"، وهذا تعميم غير مقبول وغير صحيح ولجعله صحيحاً ينبغـــي أن نذكره وفقاً لأوزانها الحقيقية، وكذلك عندما نشاهد إعلاناً يقول:"مياه صافية

100%" علماً أنّه في الحقيقة تحتوي المياه على أجزاء صغيرة مثل الكلورين، فالمفكّر الراكد في تفكـــيره لا يعطـــي أهمّية لمدى صحة المعلومة، بينما نجد المفكّر المتقدّم أو المفكّر الماهر المتمرس دائماً يستمع للمعلومة بعقل ناقد وبقلب يقظ ويتأكّد فيما إذا كانَتْ تلك المعلومة صـــحيحة أو غـــير صحيحة، ولتحسين معيار 'الصّحّة' في فكرك وتفكيرك وجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- هل هذه المعلومة فعلاً صحيحة؟
- كيف يمكنك أن تتأكّد من صحة المعلومة؟
- كيف يمكنك أن تبحث لمعرفة فيما إذا كانَتْ تلك المعلومة صحيحة؟
- وغيرها من الأسئلة الّتي تساعدك في معرفة ما هو صحيح أو غير صحيح.

3. الدّقة

الدّقـــة في المعلـــومة من أساسيّات التَّفْكِيْر السَّليم، وضرورة من ضروريات حياتنا اليومية، حيث كَثُر فيها الغموض والمبالغة في الأشياء والأمور، إذ يمكن للمعلومة أن تكون واضحة وصحيحة لكن ليس بالضرورة دقيقة، ومثال على ذلك قولنا:"أحمد سمين"،(فنحن لا نعلـــم كم وزن أحمد زائد عن الوزن الزائد المسموح فيه)، ولجعل مثل هذا القول دقيقاً، ينبغي أن نذكره مع شيء من التّفصيل ليتبين المعنى المقصود من المعلومة، ومثال آخر على ذلك صديق يقول لك"إنني في ضائقة مالية، هل تقرضني مبلغاً من المال؟" فأنت هنا قد تقع في حرج من أمرك لأن طلب صديقك غير دقيق بالرَّغْمِ من أنّه واضح وصادق في طلبه، فلو أنّـــه قال:"إنني في ضائقة ماليّة، هل تقرضني مبلغاً قدره ألف درهم على أن أعيدها لك في نهاية الشهر، إن شاء اللّه؟" قد لا تشعر بالحرج وترد عليه بالقبول، وذلك لأنّه كان واضحاً وصـــادقاً ودقيقاً في طلبه، ولتحسين معيار 'الدّقة' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- هل يمكنك إعطائي تفاصيل أكثر؟

- هل يمكنك أن تكون أكثر دقة في طرحك لمسألتك؟
- وغيرها من الأسئلة الّتي تساعدك في معرفة ما هو دقيق أو غير دقيق.

4. وثَاقة الصلة بالموضوع

وثَاقة الصلة بالموضوع أو السّؤال أو القضيّة معيار يُعمل به لمعرفة مدى جَوْدَة الفكر أو التَّفْكِيْر لدينا، إذ يمكن للمعلومة أن تكون واضحة، وصحيحة، ودقيقة، لكن ليس بالضرورة أن تكون ذات صلة وثيقة بالموضوع، ومثال على ذلك قولنا:"أن كميّة الجهد الذي يبذله الطالب في البرنامج الدرسي يساهم في رفع مستوى درجاته، علماً أن الجهد لا يقيس جَوْدَة تعلم الطالب، فلذلك يُعَدُّ هذا النوع من التَّفْكِيْر لا صلة له بموضوع الدرجات"، فحتى يكون الأمر له صلة وثيقة ينبغي أن يكون له علاقة مباشرة بموضوع النّقاش، وأن تكون إمكانية تطبيقه على مشكلة موضوع البحث المطروح ممكنه، ولتحسين معيار 'وثَاقة الصلة بالموضوع' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- كيف تكون هذه الفكرة أو المعلومة متعلقة بالسّؤال المطروح؟
- كيف يمكن لهذه الفكرة أو المعلومة أن يكون لها تأثير على القضيّة ؟
- كيف يمكن لهذه الفكرة أو المعلومة أن يكون لها صلة بهذا الموضوع أو غيره؟
- كيف يتعلّق سؤالك بالقضيّة المطروحة؟
- وغيرها من الأسئلة الّتي تساعدك في معرفة ما له صلة وثيقة بالموضوع من غيره.

5. العمق

العمق في الفكر والتَّفْكِيْر دلالة على غوص المفكّر تحت سطحيّات المسألة أو القضيّة ليحدد التعقيدات الكامنة فيها، ثم يعالجها بأُسْلُوْب فِكْرِيّ مسؤول، فالفكر يعمل عادة بشَكْلٍ أفضل عندما يتبين لدينا أن الأسئلة معقّدة وبحاجة لمعالجة كل ناحية من التعقيدات

فيها، إذ يمكن للمعلومة أن تكون واضحة وصحيحة، ودقيقة، وذات صلة وثيقة بالموضوع، لكـــنها سطحيّة وينقصها العمق، ومثال على ذلك جوابك عن السّؤال التالي:"ماذا يجب فعلـــه لمحاربـــة مشكلة المخدرات في أمريكا؟" بقولك: "قل لا للمخدرات"، فهذا الشعار واضح، وصحيح، ودقيق، وذو صلة بالموضوع، لكنه سطحيّ ينقصه العمق لأنّه لم يتعامل مـــع قـــضيّة معقّـــدة جـــداً بأُسْلُوْب بسيط، فهي لم تعالج المشكلة من الناحية التاريخيّة، والـــسّياسيّة، والاقْتِصاديَّة، والنَّفسية، وهكذا، ولتحسين معيار 'العمق' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- كيف يتعامل جوابك مع الأمور المعقّدة الموجَوْدَة في السّؤال؟
- كيف تأخذ المشاكل في السّؤال بعين الاعتبار؟
- كيف تتعامل مع العوامل الهامَّة في المشكلة؟
- وغيرها من الأسئلة الّتي تساعدك في معرفة ما هو عميق أو سطحيّ؟

6. الاتّساع

الاتّـــساع في الفكر والتَّفْكِيْر دلالة على النَّظَر في القضيّة أو المسألة من كل وجهات النَّظَـــر الّـــتي لها صلة وثيقة بالموضوع، فإذا لم يفعل المفكّر ذلك، يكون قد ضيَّق واسعاً، واكتفى بالقليل، واتصف بقصور وضيق في فكره وتفكيره، إذ يمكن للمعلومة أو الفكرة أن تكـــون واضـــحة وصحيحة، ودقيقة، وذات صلة وثيقة بالموضوع، وعميقة، لكن ينقصها الاتّـــساع، والأمـــثلة علـــى ذلك كثيرة، فالشّخص المحافظ يناقش القضيّة من وجهة نظر تفكـــيره، غيرَ معتدٍّ بوجهات نظر الليبراليّ، والجار يستمع للموسيقى بصوت عالٍ بدون مـــراعاة حـــق جاره فربما يكون نائماً أو مذاكراً لدروسه، والأم تقرر نوع الطعام بدون التَّفْكِيْر بما يرغبه أو لا يرغبه الأولاد، يعود هذا الفكر أو التَّفْكِيْر الضّيق إلى جهل وقلة علم ومعـــرفة بالأشياء أو الأمور، أو أنانيّة ذاتيّة أو أنانيّة مجتمعيّة، أو خداع ذاتيّ، أو كِبْرٍ وتكبُّرٍ فِكْـــرِيّ وتفكيريّ، فلكي يتّصف الفكر أو التَّفْكِيْر بالاتّساع ينبغي أن يغطّي وجهات نظر

عديـــدة ومختلفة لها صلة وثيقة بموضوع البحث أو النّقاش، ولتحسين معيار 'الاتّساع' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- هل أنت بحاجة للنَّظر في وجهة نظر أُخرى؟
- هل هناك طريقة أُخرى للنَّظر في المسألة أو القضيّة؟
- كيف يبدو الأمر من وجهة نظر محافظة أو متحررة؟
- وغيرهـــا مـــن الأســـئلة الّتي تساعدك في معرفة الاتّساع أو الضِّيق في الفكر والتَّفْكِيْر.

7. المنطق

المـــنطق في الفكـــر والتَّفْكِيْر هو جمع ووضع مجموعة متنوعة من الأفكار في ترتيب معـــين، بحـــيث تدعم هذه الأفكار المجتمعة بعضها بعضاً لتعطي معنًى منسجماً، فعندما لا يـــوجد هذا التوافق والدعم المتبادل بين الأفكار المرتَّبة يحصل التناقض بينها، وتفقد معناها، وبهـــذا تفقد منطقيّتها، فعلى سبيلِ المثال، أنت تعلم شخصاً قد عانى من نوبة قلبيَّة، وطبيبه أخبره أن يحذر مما يأكل ليتجنّب أيّة مشكلة صحيّة في المستقبل، رغم هذا كله تجده يقول إنّ ما يأكله لايهم، هذا القرار أو القول غير منطقيّ لأنّه يتعارض مع الأدلة. فلكي يتَّصف الفكر أو التَّفْكِيْر بالمنطق ينبغي أن يكون هناك علاقة وثيقة بين عناصرها، ولتحسين معيار 'المنطق' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- هل الفكرة مرتبطة ومرتبة ومنسجمة مع بعضها بعضاً بشَكْلٍ منطقيّ؟
- هل تعطي معنًى منسجماً؟
- هل تأتي نتيجة لفكرة سابقة؟
- كيف علاقتها بالأدلة المطروحة؟
- وغيرها من الأسئلة الّتي تساعدك في معرفة منطقيّة فكرك وتفكيرك.

8. الأهمّية

'الأهمّية' في الفكر والتَّفْكِيْر هو مغزى ودلالة المعلومات في فكرنا وتفكيرنا، واعتدادٌ بـأهمّ الأفكـار أو المفاهيم، فكثيراً ما نفشل في تحديد النقاط المهمة أو دلالة فكرة ما أو مفهـوم في قضيّة ما أو مسألة ما، أو طرح أسئلة هامّة، وهذا ما يجعل قضيتنا تحتوي على مـسائل سطحيّة أو قليلة الوزن والأهمّية، فعلى سبيلِ المثال، بدل أن يطرح الطالب سؤاله "مـاذا ينبغي علي أن أفعله حتى أصبح إنساناً مثقفاً؟" يطرحه كالتالي:"ماذا ينبغي علي أن أفعـل حتى أحصل على درجة ممتازة في المادّة المعيَّنة؟ أو في كم صفحة يجب أن أكتب هذا البحث؟ أو ماذا أفعل حتى أُرضي مـُعلّمي؟" فلكي يتّصف الفكر أو التَّفْكِيْر بأنّه ذو مغزى ودلالـة ينبغي أن يحتوي على أسئلة ذات مغزى أو نقاط بحث ذات دلالة أو أفكار مهمّة، ولتحـسين معـيار 'الأهمّـية' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءاً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- ما هي أهمّ المعلومات الّتي تحتاجها لمعالجة هذه المسألة أو القضيّة؟
- ما هو مغزى أو دلالة هذه أو تلك الحقيقة أو المعلومة في النصّ ؟
- أيّ من هذه الأسئلة هي الأهمّ في معالجة هذه المسألة أو القضيّة؟
- أيّ من هذه الأفكار أو المفاهيم هي الأهمّ في معالجة هذه المسألة أو القضيّة ؟
- وغيرها من الأسئلة الّتي تساعدك في معرفة 'الأهمّية' في فكرك وتفكيرك.

9. عدم الانحياز

هـي أن يتّـصف الفكـر والتَّفْكِيْر بالعدل، لما للعدل من دور في حياتنا الفِكْرِيّة والعملـيّة، فالواحد منا يميل دائماً للاعتقاد أن فكره وتفكيره خال من الانحياز، وأن لديه أسـباباً مبررة لذلك، علماً بانه يرفض معلومات هامّة قد تغيّر من تفكيره، فللأسف دائماً نمـيل لاستخدام أغراض غير مبررة من أجل أن نحصل على ما نريد حتى ولو أدى ذلك إلى أذى الآخرين، ونستخدم مفاهيم بأُسْلُوْب غير مبرر للتلاعب بالآخرين. والافتراضات غير

المــبررة، والحقائق غير المؤكدة الّتي تؤدي إلى استنتاجات خاطئة، فعلى سبيلِ المثال، قولنا: "لا علاقة للمدرسة في الحياة اليومية للطلاب" أو "كبار السن لا يمارسون الرياضة" أو "أكل الجـــزر يقويّ النَّظَر"، فلكي يتَّصف الفكر أو التَّفْكِيْر بالإنصاف وعدم الانحياز، ولتحسين معـــيار 'عدم الانحياز' في فكرك وتفكيرك وتجعله جزءً منهما، يمكنك أن تطرح وباستمرار هذا النوع من الأسئلة:

- هل التَّفْكِيْر بهذه االطَّرِيْقَة مبرر معتداً بالدليل المتوفّر؟
- هل الافتراضات المذكورة مبررة ؟
- هل غرضي خال من الانحياز معتداً بتداعيات سلوكي؟
- هل الأُسْلُوْب الذي أعالج فيه المسألة أو القضيّة محايد أم غير محايد؟
- هل أستخدم المفاهيم بشَكْلٍ مبرر أم بشَكْلٍ انحيازي؟
- وغيرها من الأسئلة الّتي تساعدك في معرفة 'عدم الانحياز' في فكرك وتفكيرك.

العلم وسماته

ا لعلـــم سمـــة من أسمى وأجمل السِّمات الّتي اتَّسم بها الخالق ﷻ، لما فيها من قوَّة في النطق، وفخامة في المعنى، ودلالة في رفعة المقام، فقد ذُكرت هذه السمة في مواضع كثيرة في القـــران الكريم لاثبات أهمّيتها وجلالها، لاسيما عندما تدل على علم الله ﷻ المطلق الشامل الكامل في شكله ومضمونه. قال الله ﷻ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمـــران: 5]. وقـــال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:29]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 109]. وقالﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115] .

وأن "العلـــيّم" هو اسم من أسماء الله الحسنى، ذكره الله ﷻ اثنين وثلاثين موضعاً في القـــران الكـــريم لجمال لفظه، وعظمة شأنه، وقوّة معناه: قال الله ﷻ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجـــر:8]. وقـــال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يـــسين: 3]. وقـــال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: 26]. وقـــال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة 32]. وقال الله ﷻ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة 127].

وقال ابْن قيّم الجَوْزيّة رحمه الله وهو يثني على مولاه عز وجل هذه الأبيات الجميلة[1]:

وهُوَ العليّمُ أحَـــاطَ عِلْمَاً بالّـــذي ... في الْكَوْن مِنْ سِـــرٍّ وَمِنْ إعْلانِ
وَبِكُلِّ شَـــيْءٍ عِلْـــمُهُ سبحانــه ... فَهُـــوَ الْمُحِيْطُ وَلَيْسَ ذَا نِسْيَـــانِ
وَكَذاكَ يَعْلَمُ مَا يَكُـــوْنُ غَداً وَمَا ... قَدْ كَانَ وَالْمَوْجُودِ فِـــيْ ذَا الآنِ
وَكَذاكَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْـــ ... فَ يَكُـــونُ ذَا الأَمْرِ ذَا إِمْكَـــانِ

والعلـــم أيـــضاً خصيـــصة من أفضل الخصائص المُمَيَّزة الّتي أعطاها ربنا جلّ جلاله للأنبـــياء والمرسلين حتى يؤدوا رسالتهم كما أمرهم على أكمل وجه. فأول نبي تلقى العلمَ مـــن الله علام الغيوب هوآدم ﵇، فقد قال ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:31]. وقال تعالى في يوسف ﵇ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: 22]. وقـــال تعالى في أولى آياته إلى الرّسول الكريم محمّد ﷺ كدعوة إلى القراءة والتّعلّم: ﴿اقْرَأْ

[1] رائق الشهد مع الله من شعر الدعوة والرقائق والزهد ص 74

بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5] .

وتكــريماً من الله ﷻ لابْن آدم أنّه فضّله على سائر مخلوقاته بالعقل والعلم، فبقدر ما يحمــل الإنسان من علمٍ نافع، ومعرفة خيرة، يرتفع شأنه وتعلو مكانَتْه، فقد قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11]. وقــال تعــالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:9]. وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:28].

فالعلم نور يبثه الله في قلوب من يشاء من عباده، فمنهم من يتق الله ويخشاه في دينه ودنـياه، فيكون عالماً، وعاملاً، وقائلاً بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله الكريم محمّد ﷺ، ومنهم من يتكبّر، ويأنف، ويرفض كتاب الله ودعوة الحق الّتي جاء بها محمّد رسول الهدى ﷺ، فتكون نهايته تعيسة وخيمة، مآلها جهنم وبئس المصير،عافانا لله واياكم. فها هو العنيد الــرعديد، الكافر الضّالُّ المــُضلُّ الوليد بن المغيرة، قاتل اللّه أمثاله، بعد أن أنعم الله عليه بنعم الدُّنيا، وبعد علْمه أن القرآن الكريم هو كلام الله نزل بوحي على الرَّسول المصطفىﷺ، استكبر وكفر وجحد بآيات الله وافترى عليها بانها سحر وانها ليست إلا كلام بشر، فأنزل الله تعــالى فــيه هذه الآيات البينات لتكون عبرة له ولأمثاله: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۞ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۞ وَبَنِينَ شُهُودًا ۞ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۞ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۞ كَلَّا انه كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۞ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۞ انه فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ

قَدَّرَ ۞ ثُمَّ نَظَرَ ۞ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۞ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۞ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۞ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۞ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر :11-25].

العلم سمة المؤمنين، فمن أهمّ سمات العلم الصحيح الإيمان بالله ﷻ علام الغيوب، فلا قيمة للعلم – لا في الدُّنيا ولا في الآخرة- إذا لم يتحلَّ صاحبه بنعمة الإيمان بالله ﷻ، وكتبه، ورسوله وملائكته، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، خيره وشره، فالعلم والإيمان يكمِّل بعضهما بعضاً، فباتفاقهما وازديادهما يسعد العبد في الدُّنيا والآخر، وبتنافرهما ونقصانهما يتعس العبد في الدُّنيا والآخر، والله أعلم. روي أن وَهْب بن منبِّه رحمه الله، قال:" العلْمُ خليلُ المؤمن، والحِلمُ وزيره، والعقلُ دليلهُ، والعَمَلُ قيِّمُه، والصَّبْرُ أميرُ جنوده، والرِّفْقُ أبوه، واللِّينُ أخوه"[1].

وفي هذا السّياق يقول ابْن قيّم الجَوْزيّة[2] رحمه الله: "إن أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصّلته القلوب، ونال به العبدُ الرفعةَ في الدُّنيا والآخرة، هو العلم والإيمان، ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:56] . وقوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة:11]. وهؤلاء هم

---

[1] سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، ج4/ص548

[2] هو أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، الدمشقي، شمس الدين، المعروف بـابن قيّم الجوزية، كان أبوه قيماً على المدرسة الجوزية، فنسب إليها. ولد سنة 691هـ وتوفي في شهر رجب سنة 751، لازم الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وتأثر به كثيراً، له مؤلفات كثيرة، منها: 'زاد المعاد في هدي خير العباد'، 'أعلام الموقعين عن رب العالمين'، 'الطب النبوي'، 'مدارج السالكين'، 'الفوائد' وغيرها كثير.

خلاصـــة الوجـــود ولبه، والمؤهلون للمراتب العالية، ولكن أكثر النَّاس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان اللذين بهما السعادة والرفعة، وفي حقيقتهما" [1]

العلم قوَّة وبأس، والجهل ضعف ويأس، العلم شجاعة وإقدام، والجهل جبن وعجز، والعلـــم صفة أصحاب القرارات السَّليمة والقيادات الحكيمة، وسمة القادة الأقويّاء الأشداء عند لقاء العدو، يحبها الجندي في قائده، ويخشاها العدو في خصمه، فالعلم أهمّ وأفضل من المال والجاه في قيادة الجيوش وترهيب العدو. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 247].

قال ابْن كثير[2] رحمه الله :" أَيْ لَمَّا طَلَبُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ يُعَيِّن لَهُمْ مَلِكًا مِنْهُمْ فَعَيَّنَ لَهُمْ طَالُوت وَكَانَ رَجُلًا مِنْ أَجْنَادهمْ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْت الْمُلْك فِيهِمْ لِأَنَّ الْمُلْك كَانَ فِي سِبْط يَهُـــوذَا وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ ذَلِكَ السِّبْط فَلِهَذَا قَالُوا " أَنَّى يَكُون لَهُ الْمُلْك عَلَيْنَا " أَيْ كَيْف يَكُون مَلِكًا عَلَيْنَا " وَنَحْنُ أَحَقّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَة مِنْ الْمَال " أَيْ ثُمَّ هُوَ مَعَ هَذَا فَقِير لَا مَال لَهُ يَقُوم بِالْمُلْكِ وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضهمْ أَنَّه كَانَ سَقَّاء وَقِيلَ دَبَّاغًا وَهَذَا اعْتِرَاض مِنْهُمْ عَلَى نَبِيّهمْ وَتَعَنُّت وَكَانَ الْأَوْلَى بِهِمْ طَاعَة وَقَوْل مَعْرُوف ثُمَّ قَدْ أَجَابَهُمْ النَّبِيّ قَائِلًا " إِنَّ اللَّه اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ " أَيْ اخْتَارَهُ لَكُمْ مِنْ بَيْنكُمْ وَاَللَّه أَعْلَم بِهِ مِنْكُمْ يَقُول لَسْت أَنَا الَّذِي عَيَّنْته مِـــنْ تِلْقَاء نَفْسِي بَلْ اللَّه أَمَرَنِي بِهِ لَمَّا طَلَبْتُمْ مِنِّي ذَلِكَ " وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْم وَالْجِسْم "

---

[1] الفوائد لابن القيم الجوزية ص 131

[2] هو أبو الفداء الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عُمَر بن كثير، ولد في مدينة 'بُصرى' الشام سنة 700 هـ وتوفي سنة 774هـ، تتلمذ عند شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية (ت728هـ) والحافظ شمس الدين الذهبي (ت 748هـ) رحمهما الله، من أشهر مؤلفاته: تفسير القرآن العظيم، و"البداية والنهاية"في التاريخ.

أَيْ وَهُوَ مَعَ هَذَا أَعْلَم مِنْكُمْ وَأَنْبَل وَأَشْكَل[1] مِنْكُمْ وَأَشَدّ قُوَّة وَصَبْرًا فِي الْحَرْب وَمَعْرِفَة فِيهَا أَيْ أَتَـــمَّ عِلْمًا وَقَامَة مِنْكُمْ وَمِنْ هَاهُنَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُون الْمَلِك ذَا عِلْم وَشَكْل حَسَن وَقُوَّة شَدِيدَة فِي بَدَنه وَنَفْسه ثُمَّ قَالَ " وَاَللَّه يُؤْتِي مُلْكه مَنْ يَشَاء " أَيْ هُوَ الْحَاكِم الَّذِي مَا شَاءَ فَعَـــلَ وَلَـــا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَل وَهُمْ يُسْأَلُونَ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَته وَرَأْفَته بِخَلْقِهِ وَلِهَذَا قَالَ " وَاَللَّه وَاسِع عَلِيم " أَيْ هُوَ وَاسِع الْفَضْل يَخْتَصّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء عَلِيم بِمَنْ يَسْتَحِقّ الْمُلْك مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقّهُ "[2].

العلم سمة المتقين الأخيار، والعلماء الأبرار، الذين يخشون ربهم في السر والعلانية، قال الله تعـــالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: 28]، والجهل سمة الكفار والمنافقين الذين رفضوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 171]،

والعلـــم سمة العقلاء والفضلاء، وأصحاب الرأي السديد، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمّد: 14]، والجهل سمة الحمقى وأصحاب الرأي الهمج الهامج[3]، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هـــود: 46]، وأمـــر نبيَّه بالإعـــراض عـــن الجـــاهلين، فقـــال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: 199]

---

1 *(هـــنا جـــاءت "أشـــكل" بمعنى أكثر موافقة وملاءمة للموقف القيادي وما يتطلبه من صفات توفّرت له وليست في غيره.)

2 تفسير بن كثير ص 180-181

3 مثل ليل لايل، لاحق فيه، ولاخيرفيه، ولامنطق فيه، ولاعقل فيه

والعلـــم صـــفة الكرماء النبلاء، وسمة كبار القوم، وميزة السعداء من النَّاس، يقول الإمام الشافعي[1] رحمه الله:

رَأَيْتُ الْعِلْمَ صَاحِبُـــه كَـــرِيْمٌ وَلَـــوْ وَلَـــدَتْهُ آبَـــاءٌ لِئَـــامُ
وَلَيْسَ يَـــزَالُ يَرْفَعُـــهُ إِلَى أَنْ يُعَظِّمُ أَمْـــرَهُ الْقَوْمُ الْكِرَامُ
وَيَتَّبِعُونَـــهُ فِيْ كُـــلِّ حَال كَرَاعِي الضَّأْنِ تَتَّبِعُهُ السَّوَامُ
فَلَولا الْعِلْمُ مَا سَعِدَتْ رِجَالٌ وَلا عُرِفَ الْحَلالُ وَلا الْحَرَامُ

وفي الجهل قيل انه موت لصاحبه قبل أوانه، ومن خلى قلبه من العلم، كان جسده كجسد ميت لا حياة فيه، كما قال الشاعر[2]:

وَفِي الْجَهْلِ قَبْلَ الْمَوتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ وَأَجْسَادُهُمْ قَبْلَ الْقُبُـــورِ قُبُـــورُ
وَإِنَّ امْرَءاً لَمْ يُحْيِ بِالْعِلْمِ مَـــيِّـــتٌ فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى النُّشُورِ[3] نُشُـــورُ

فأهل الجهل لايعرفون قيمة وفضل العلم لأنّه لا يُعرف شرف ورفعة العلم إلا بالعلم، فالجاهل يبخس العلم، ويزدري صاحبه لأنّه لم يتذوق حلاوة العلم، فجهله يصور له الأمور كلـــها حسب ما يريده هواه، وتقوده حماقته، فتراه يبغض العلم وتشمئز نفسه من ذكره، ويسخر من طالب العلم، ويعادي العلماء لجهله بعلمهم وبفضلهم، وهذا ما أكّده الشاعر أبو بَكْرِ بن دُرَيْدٍ الأزدي البصري[4] في هذين البيتن[5] :

---

[1] شرح ديوان الإمام الشافعي (ص83)

[2] أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، ص38

[3] النشور: البعث

[4] هـــو محمـــد بن الحسن بن دُرَيْد أبو بكر الأزدي البصري، كان شاعراً وعالماً بالعربية وأشعار العرب، توفي سنة 321 هـــ.

[5] أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، ص38

جَهِلْت فَعَــادَيْت الْعُلُومَ وَأَهْلَهَا كَذَاكَ يُعَادِي الْعِلْمَ مَنْ هُوَ جَاهِلُهْ
وَمَنْ كَانَ يَهْوَى أَنْ يُرَى مُتَصَدِّرَاً وَيَكرَهُ "لا أَدْرِي" أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهْ

ومـــن خـــصال العلم المُمَيَّزة أنّه لا حدود له، ولا نهاية له ولو بلغ العبد فيه ما بلغ، ففـــوق علمه علم آخر، وفوق ذلك العلم علم آخر إلى غير نهاية، فمهما أُوتي الإنسان من علـــم، فهو كالسابح في البحر لايرى قاعاً، ولايدرك طولاً، ولا يعرف عرضاً، وذلك لأن علـــم الإنسان قليل ومحدود وناقص مهما تعمق في علمه، يقول اللّه تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:85]

وفي هذا السّياق، أنشد الخليفة العباسي هارون الرَّشيد[1] هذين البيتين[2]:

يَا نَفْسُ خُوضِي بِحَارَ الْعِلْمِ أَوْ غُوصِي فَالنَّاس مَا بَيْنَ مَعْمُومٍ وَمَخْصُوصِ
لا شَــيْءَ فِي هَذِهِ الدُّنيا نُحِيْطُ بِــهِ إِلَّا إِحَاطَــةَ مَــنْقُــوصٍ بِمَنْقُوصِ

ورُوِي عن البختري انه قال:" صَحِبَ سلمانَ رَجُلٌ من عبس قال: فَشَرِبَ من دجلة شَـــربةً، فقـــال له سلمان: عُدْ فاشْرَبْ، قال: قد رَوِيتُ: قال: أترى شَرْبَتَكَ هذه نَقَصَتْ منها؟ قال: وما ينقصُ منها شربة شَرِبْتُها؟! قال: كذلك العلمٌ لا ينقصُ، فخذ من العلم ما يَنْفَعُكَ"[3].

[1] هو هارون الرشيد بن محمد المهدي، الخليفة العباسي الخامس، ولد بالري سنة 145 ه وتوفي في جمادي الآخـــر ســنة 194 هـــ، وصلت الخلافة العباسية في عصره إلى أعلى درجاتها من حيث قوة السلطان، والثروة الحضارية والماديّة والعلميّة والأدبية، كانت مدة خلافته 23 سنة وشهرين .

[2] أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، ص39

[3] حياة الصحابة، للكاندهلوي، ج159/3

تعريفُ العلِم

لقد كَثُرَ القول في تعريف مسمى "العلْمِ"، واختلفت الآراء في تحديد معناه، وتعددت الأقــوال في رسم حدود مفهومه ومضامينه، فمنهم من أصاب واستقام، ومنهم من أخطأ وضل.

لغــةً، عَلِــمَ ــ عِلْمًا ــ أي درَي وأدرك وعرف، والعلم بالشيءهو إدراك ومعرفة جازمــة بـــه، ونقيض العلم بالشيءهو الجهل به. كقول الله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [القصص :85]. وقولنا: علمت بخبر نجاحه في امتحان الثانوية العَامّة"، وقولنا: "لا علم لدي أنّه فشل بدراسته".

العِلــمُ ــ اصــطلاحاً ــ هـــو كل ما يملكه الشّخص من معرفة مهما كان نوعها وطبيعــتها، وما يملكه من مهارات بكافّة أنواعها، ومن خبرات مهما اختلفت في تنوعاها وتخصّصاها، وما يملكه من ثقافات سواء كانَتْ سابقة أو حاضرة أو مستقبليَّة. يُقال رجلٌ عالم، أي رجلٌ عارف، مدرك وواعٍ للأمر.

العلــمُ ــصفةً ــ هو كما وصفه لنا بديع الزّمان الهمذاني[1] فقال: "العلم شيءٌ بَعيد المــرام[2]،لايُــصادُ بالسّهام، ولايُقسمُ بالأزلام[3]، ولايُرى في المنام، ولايُضبَط باللجام[4]، ولا يُكــتبُ للــئام، ولايُورثُ عن الآباء والأعمام. وزَرْعُ لا يزكو[5] إلّا متى صادف من الحزم ثــرى[6] طيــباً، ومن التوفيق مطراً صيباً، ومن الطبع جواً صافياً، ومن الجهد رَوْحاً[7] دائماً،

---

[1] هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الكاتب المترسّل، والشاعر المبدع، توفي 393 هـ

[2] المرام: الهدف، المقصد.

[3] بالأزلام: المراد أن العلم لاينال بالصدفة بل بالبحث والمثابرة.

[4] اللجام: الحديد في فم الفرس.

[5] يزكو: ينمو ويطيب.

[6] ثرى: الثرى: التراب.

[7] روحاً: الرّوح نسيم الريح، أي الريح الخفيفة العليلة.

ومن الصبر سقياً نافعاً. وغَرَضٌ لا يُصاب إلا بافتراش المَدر[1]، واستناد الحجَر، وَرَد الضجَر، وركوب الخطر، وإدمان السَّهر، واصطحاب السَّفَر، وكثرة النَّظَر، وإعمال الفِكر."[2]

ومن حِكَم بطليموس[3] أنّه قال: " العلم في موطنه كالذّهب في معدنه: لا يستنبط إلا بالدّؤوب، والتّعب، والكدّ، والنصّب؛ ثم يجب تخليصه بالفكر، كما يخلص الذهب بالنّار"[4].

وفي العلم وحقيقته، رُوي أن عبد اللّه بن عُمَرَ[5] رضي اللّه عنهما قال:" العلم ثلاثة أشياء: كتابٌ ناطق، وسنّةٌ ماضية، و" لا أدري ""[6]. وذلك لأن "لا أدري" اعتراف حقيقيّ وورعٌ وتواضـــع! فنحن هنا أمام عالم إذا سئل، لا يظن بنفسه أنه سقف المسألة، ما دام لا يمـــتلك دلـــيلها. ومن ثَمّ يمضي ليتعرّف إليه في الكتاب والسّنّة، ولسوف يكون مناطَ ثقة بعلمـــه ممن يسأله. وفي النهاية لن يبرح المسلمُ كتابَ ربّه وسنَّة نبيّه صلى الله عليه وسلم، فهو بين من يفهم الكتاب والسّنّة، أو من يسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم، ولا ينبغي أن يُخرَج عن هذين الحالين. وأجدني هنا مضطراً للتذكير بأن المجتمع المسلم، يوم غادر مسألة الدلـــيل الـــشرعي تخلخـــل واضطرب وذهبت ريحه، والتّوت ذراعه أمام الغزو الفكري، والتبشيري، والاستعماري.

---

[1] المدر: قطع الطين اليابس.

[2] جواهر الأدب ص320

[3] بطلـــيموس: هـــو فلكـــي وجغرافـــي يونانـــي، نشأ في الإسكندرية، له "المجسطي" وجغرافية بطليموس (ت 168ق.م).

[4] الملل والنِّحل للشّهرستاني ج2 /ص 111

[5] هـــو عبد اللّه بن عُمر بن الخطاب أبو عبد الرحمن القرشيُّ المكي ثم المدني، الإمام القدوةُ شيخ الإسلام، أسلم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه لم يحتلم، واستُصْغِرَ يوم أحد حيث كان عمره 14 سنة، فأول غزواته الخـــندق، وهو ممن بايع تحت الشجرة، روى علماً كثيراً نافعاً عن النبي ، توفي في مكة سنة 73 هـــ، عن عمر بلغ 87 سنة.

[6] جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البرّ القرطبي، ج2/ص24

ورُوي عـــن محمّـــد بن أبي قيلة أنّه قال:" إنَّ رجلاً كتب إلى ابنِ عُمَرَ رضي اللّه عنهما يسأله عن العلم، فكتب إليه ابنِ عُمَرَ : إنَّكَ كتبت تسألني عن العلم، فالعلمُ أكبر من أن أكـــتبَ به إليك، ولكن إن استطعتَ أن تلقَى اللّه كافَّ اللسان عن أعراض المسلمين، خفيفَ الظهر من دِمائهم، خميصَ البطن من أموالهم، لازماً لجماعتهم، فافعل"[1].

وعـــن الإمـــام الشافعي رحمه اللّه أنّه قال:"ليس لأحد أن يقول في شيء حلال ولا حـــرام إلا مـــن جهة العلم، وجهة العلم ما نص في الكتاب أو في السنّة أو في الإجماع أو القياس على هذه الأصول ما في معناه"[2].

ذكر اِبْن عبد البَرِّ القرطبي[3] رحمه الله أن العلم عند بعض أهل العلم ثلاثة أنواع:

1. **علم أعلى**: وهو علم الدِّين الذى لايجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أوله الله ﷻ في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه صلوات الله عليهم نصا.
2. **علـــم أوســـط**: وهو معرفة علوم الدُّنيا والّتي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظيره ويستدل عليه بجنسه ونوعه كعلم الطب والهندسة.
3. **علم أسفل**: وهو أحكام الصناعات وضروب الأعمال مثل السباحة والفروسية والزي والخط وما أشبه ذلك من الأعمال الّتي هي أكثر من أن يجمعها كتاب أو يأتي عليها وصف وإنما تحصل بتدريب الجوارح فيها.[4]

وقـــال اِبْـــن خلـــدون[5] في أصناف العلوم: "اعلم أنّ العلوم الّتي يخوض فيها البشر ويـــتداولونها في الأمصار، تحصيلاً وتعليماً، هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي

[1] حياة الصحابة، للكاندهلوي، ج3/ص159

[2] جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البرّ القرطبي، ج2/ص26

[3] هـــو أبـــو عمر يوسف بن عَبد البَرّ القرطبي الأندلسي، الإمام المحدث المجتهد حافظ المغرب، ولد في قرطبة سنة 368 هـــ وتوفي سنة 463 هـــ.

[4] جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي ج2/ص37

[5] هـــو عـــبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي الباحثة، أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس، توفي في القاهرة سنة 808 هـــ

إلـيه بفكره، وصنف نقليّ يأخذُهُ عمّن وضعَهُ، والأول هي العلوم الحِكميّة الفلسفيَّةُ، وهي الّـتي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشريّة إلى موضوعاتها ومـسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها، حتى يَقِفَهُ نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها، من حيث هو إنسان ذو فكرٍ، والثاني هي العلوم النقليَّةُ الوضعيَّةُ، وهي كلها مستندَةٌ إلى الخـبر عـن الواضـعِ الشَرْعِيِّ، ولامجال فيها للعقل، إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول، لأنَّ الجزئيّاتِ الحادثةَ المتعاقبَةَ، لاتندرجُ تحت النقلِ الكُليِّ بمجرَّدِ وضعه، فتحتاج إلى الإلحـاق بوجه قياسيٍّ، إلا أن هذا القياسَ يتفرَّعُ عن الخبرِ بثبوت الحكمِ في الأصلِ، وهـو نقلـيٌّ، فرجع هذا القياسِ إلى النقل لتفرُّعه عنه، وأصلُ هذه العلومِ النقليَّة كلّها هي الـشَرْعيّاتُ، من الكتابِ والسنّة الّتي هي مشروعَةٌ لنا من الله ورسولِه، ومايتعلّق بذلك من العلـوم الّتي هيّأوها للإفادة، ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربيّ، الذي هو لسان الملّة وبه نُـزِّلَ القُرآنُ، وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة، لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعـالى المفروضـة عليه وعلى ابْناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنّة بالنصّ أو بالإجمـاع أو بالإلحـاق، فـلا بد من النَّظَر في الكتاب: ببيان ألفاظه أولاً، وهذا هو علم التفسير، ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي ﷺ الذي جاء به من عند الله ﷻ، واختلاف روايات القـرَّاءُ في قراءته، وهذا هو علم القراءات، ثم بإسناد السّنّة إلى صاحبها، والكلام في الرواة الـناقلين لهـا، ومعـرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم، ويُعمَلَ ما يجب العملُ بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث"[1]

قـال الـشَّيْخ محمّد بن صالح العثيمين رحمه الله :" إن العلم الذي هو محل الثناء هو العلـم الـشَرْعِيّ، الذي هو فقه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وماعدا ذلك فإما أن يكون وسيلة إلى خير، أو وسيلة الى شر، فيكون حكمه بحسب مايكون وسيلة إليه"[2]

---

[1] مقدمة ابن خلدون (333/1)

[2] كتاب العلم، للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص 10

إضافة إلى ما ذكرته أعلاه، يمكننا أن نقول: أن العلم هو كل علم نافع يحث الشرع عليه، ويُقرّب طالب العلم من اللّه ﷻ، ولايتعارض مع عقيدة التَّوْحِيْد وسنة الرَّسول محمّد عليه الصّلاة والسَّلام، وما كان عليه الصَّحابة الكرام رضي اللّه عنهم أجمعين، والسَّلَف الصالح رحمهم اللّه، سواء كان العلم يختص بدراسة كتاب اللّه، أو السّنّة النبوية الشّريفة، أو الفقه، أو حتى العلوم الكونية كعلم الطب والهندسة والرياضيات، واللغة وغيرها من العلوم النَّافعة، طالما انه لا يخالف الشريعة الإسْلاميَّة السمحاء، وعقيدة التَّوْحِيْد، ومبدأ العقل والنقل، وتوافق العمل بالعلم مع أحكام الشرع.

حُكْمُ طَلَبِ العِلْمِ

معظم ما قِيلَ أو كُتِبَ في حكم طلب العلم يعود مرده وأساسه للحديث المشهور عن أنس ﷺ أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: "طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ على كلِّ مُسلم"[1] . بعد أن روى ابْن عبد البَرِّ في كتابه (جامع بيان العلم) ما قيل في شرح حديث أنس ﷺ وبَيَّنَ وجهات نظر السَّلَف الصالح، قال في حكم طلب العلم:

"قد أجمع العلماءُ على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصة نفسه، ومنه ما هو فرضٌ على الكفاية إذا قام به قائمٌ سقط فرضه عن أهل ذلك الموضع، واختلفوا في تلخيص ذلك.

والذي يلزم الجميع فرضه من ذلك: ما لا يسعُ الإنسانَ جهلُه من جُملة الفرائض المفترضة عليه، نحو: الشهادة باللسان والإقرار بالقلب بأن الله وحده لا شريك له، ولا شبهَ لَـهُ ولا مثلَ، لم يلِد ولم يولَد ولم يكن له كُفُواً أحدٌ، خالقُ كلِّ شيءٍ، وإليه مرجع كل شيءٍ، المحيي المميتُ، الحيُّ الذي لا يموتُ. والذي عليه جماعة أهل السّنّة أنّه لم يزل بصفاته وأسمائه، ليس لأوليته ابتداءٌ، ولا لآخريته انقضاءٌ، وهو على العرش استوى.

[1] رواه ابن ماجة وغيره، صحيح الترغيب والترهيب 70.

والشَّهادة بأن محمّداً ﷺ عبدُهُ ورسولُهُ، وخاتم أنبيائه، حقّ، وأن البعث بعد الموت للمجازاة بالأعمال، والخلودَ في الآخرة لأهلِ السعادة بالإيمان والطاعة في الجنَّة، ولأهل الشَّقاوة بالكُفر والجحودِ في السَّعير حقٌّ، وأنَّ القرآن كلام الله، وما فيه حقٌّ من عند الله يجب الإيمانُ بجميعهِ واستعمالُ محكمه، وأنَّ الصَّلوات الخمس فرضٌ، ويلزمها من علمها علمُ ما لم تتمُّ إلا به من طهارتها وسائر أحكامها، وأنّ صوم رمضان فرض، ويلزمه علم ما يفسد صومه وما لا يتم إلا به، وإن كان ذا مال وقدرة على الحج عليه فرض مرة واحدة في دهره لأنّه استطاع إليه سبيلاً، إلى أشياء يلزمه معرفة جملها، ولا يعذر بجهلها، نحو: تحريم الزنا والربا، وتحريم الخمر والخنزير، وأكل أموال النَّاس بالباطل وبغير طيب من أنفسهم إلا إذا كان شيئاً لا يُتَشاحُّ فيه ولا يُرغَبُ في مثله، وتحريمُ الظُّلم كله، وتحريم نكاح الأمهات والأخوات ومن ذُكر معهن، وتحريم قتل النَّفس المؤمنة بغير حقٍّ، وما كان مثل هذا كلّه ممَّا كان قد نطق الكتاب به وأجمعت الأمَّة عليه.

ثم سائر العلم وطلبه والتَّفقُّه فيه وتعليم النَّاس إياه، وفتواهم به في مصالح دينهم ودنياهم فهو فرضٌ على الكفاية يلزم الجميعَ فرضُه، فإذا قام به قائمٌ سقط فرضه عن الباقين، لا خلاف بين العلماء في ذلك، وحجَّتهم فيه قول الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:122]

فألزم النَّفير في ذلك البعضِ دون الكل، ثم ينصرفون فيعلّمون غيرهم، والطائفة في لسان العرب: الواحد فما فوقه".[1]

تبين مما سبق أنَّ هناك معرفة مفروضة ومعرفة واجبة على العبد الذي أراد النَّجاح في حياته الدنيويَّة والأخرويّة:

[1] جامع بيان العلم وفضله (ص 10-11)

أولاً: المعرفة المفروضة

هـــي المعرفةُ الشَرْعِيّة؛ أي قال الله، قال الرَّسول، قال السَّلَف الصَّالح، فعن أنس أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: "طلب العلم فريضة على كلّ مسلم" [1].

وعـــن أبي هريـــرة رضي لله عنه أنّه قال: قال رسول الله ﷺ : "من يُرد الله به خيراً، يفقّهه في الدِّين "[2].

والتَّقسيمُ الشَرْعِيّ لما يجب تعلّمه من العلم، هو باختصار كالتَّالي:

1. **علمٌ طلبه فرض:** وهو ما يجب على العبد اعتقاده والعمل به. بحيث لو حصل التَّقـــصير به يقع الإثم والوزر والحرج! أو ما يترتَّب على الجهل به إثمٌ ووزر، ومثال ذلك الـــشهادة باللسان والإقرار بالقلب أنّه لا إله إلا اللّه، وأن محمّد رسول اللّه، وأن الصلوات الخمـــس فـــرض، وأن صيام رمضان فرض، وأن زكاة المال فرض، وأن الحج إلى بيت اللّه الحرام لمن كان ذا مال وقدرة فرض مرة واحده إن استطاع إليه سبيلا، وغيرها من الأشياء الّتي يجب أن يعرفها ولايُعذر بجهلها، نحو: تحريم الزنا والربا، وتحريم الخمر وأكل لحم الخنزير ومـــشتقاته، وأكـــل أمـــوال الـــنَّاس بالباطل، وتحريم الظلم كله، وتحريم نكاح الأمهات والأخوات ومن ذُكر معهن، وتحريم قتل النَّفس المؤمنة بغير حق، وما كان مثل هذا كله مما كان قد ذكره القرآن الكريم والسنّة الشّريفة، فأجمعت الأُمَّة عليه.

2. **علمٌ طلبه فرض كفاية:** وهو العلم الذي تحتاجه الأُمّة، ويكفي في هذا العلم أن يَنفُرَ فريق من الأُمّة لتحصيله، يكفي حاجة الأُمَّة فيه، فإن لم يتحقّق هذا النَّفير، أو نفر فريق من النَّاس لا يكفي الأُمَّة في هذا الجانب، وقع الإثم والحرج على مجموع الأُمَّة إلى أن ينفر الفـــريق من النَّاس الّذين يكفون الأُمَّة في هذا الجانب من العلم والمعرفة، ومثال ذلك علم

[1] صحيح سنن ابن ماجة: 183

2 متّفق عليه

الطـــب بكافّـــة تخصّصاته، والهندسة بكافّة فروعها، والحساب، والفيزياء والكمياء، واللغة وفقهها، واللغات الأجنبيّة، وغيرها ما يدخل تحت هذا النوع من العلم.

3. علـــمٌ مـــندوب ومُباح: وهو العلم الذّي يترتَّب على تحصيله نفع وفائدة ولا يترتَّب على تركه ضرر أو حرج، ومثال ذلك معرفة كم عدد الأنهار في كل بلد في العالم.

4. علـــم طلـــبه حرام: وهو ما يترتَّب على طلبه وتحصيله الضَّرر، وفي تركه النَّفع والفائدة، كتعلُّم السِّحر أو تعلُّم التنجيم مثلاً!

لـــذا أقول: إن من أساسيّات المعرفة أن يعلم العبد أمور دينه أولاً حتَّى تساعده على الفوز والنَّجاح في أمور دنياه، وحتَّى يقدِّر المعرفة الواجبة وأساسيّاتها في هذا العصر.

ثانياً: المعرفة الواجبة

أقصد بها ما يلي:

1. معـــرفة اللغـــة العـــربيّة وكيفيّة استخدام مهارات الاتِّصال (الاستماع/ القراءة/ الكـــتابة/ الـــتّكلُّم) في التّعامل مع النَّفس والآخرين، سواء كان ذلك على مقعد الدِّراسة أو في العمل أو في البيت.
2. معـــرفة الحـــساب وكيفـــيّة تطبيق العمليّات الحسابيَّة في مجالات العلوم والطب والهندسة.
3. معرفة كيفيّة استخدام تقنيَّة المعلومات بما فيها استخدام الكمبيوتر.
4. معرفة لغة أجنبية واحدة على الأقل، ولتكن اللغة الإنجليزيّة، لأسباب سأذكرها في الفصل الثاني من هذا الكتاب، إن شاء اللّه.

فضلُ العِلْمِ

يعـــتقد كثيرٌ من النَّاس أنَّ مصدر العلم الحديث ينحصر في الغرب وجامعاته فقط، حيث قد ازداد عدد الرَّاغبين في متابعة دراستهم الجامعيّة في أوروبا والأمريكيَّتين بسبب هذا الاعتقاد.

وكثيرٌ من يعتقد بأنَّ هناك تخصّصات متوفِّرة فقط في جامعات الغرب ولا وجود لها في تـــراثنا العلميّ أو الأدبيّ كتخصّصات تتعلّق بكيفيّة اكتساب وممارسة مهارات الاتِّصَال (الاستماع، القراءة، الكتابة، التّكَلُّم).

وكـــثيرٌ من يعتقد أنَّ ديننا الحنيف يقتصر اهتمامه على الأمور الدِّينيّة التَّعبُّديّة دون ســـواها من أمور وشؤون العلم والحياة، وهؤلاء واهمون مخطئون، ولهم ولغيرهم نقول إنَّ الإســـلام قـــد اهتمَّ أعظم اهتمام بالعلم والتَّعَلُّم، وكيفيّة تحصيله وتلقّيه، وحثّنا على طلب العلم، وتشغيل العقل والبحث والتَّفْكِيْر في كافّة ميادين المعرفة ومجالات الحياة، وذلك لأنَّ العلم قوام الحياة، وأساس عمران الحضارات، ووسيلة لتقدُّم الأفراد والجماعات.

لقـــد قِيل الكثير الكثير، وكُتِب الكثير الكثير في فضل العلم والعلماء، وأول من أثنى على العلم والعلماء كتاب الله ﷻ، ثم رسوله الكريم محمّد ﷺ، ثم الصَّحابة الكرام رضي الله عـــنهم اجمعين، ثم جاء بعدهم السَّلَف الصالح، وقالوا ما قالوا، وكتبوا ماكتبوا من الأقوال الّتي لا تُحصى والكتب الّتي لاتُعد. لذلك سأكتفي بذكر بعض الشواهد من القران الكريم، ومـــن سنة رسولنا العظيم محمّد خاتم الأنبياءِ والمرسلين صلوات اللّه عليه وعليهم أجمعين، ومـــن أقوال الصَّحابة الكرام، والسَّلَف الصالح، كما سأذكر، بعون الله، شواهد من أقوال بعض المتأخرين والمعاصرين من الكُتَّاب والأدباء والشعراء.

أولاً: فضل العلم في نصوص القرآن الكريم

كفى بالعلم والعلماء شرفاً وعزةً أنّهما ذُكرا ذِكراً جميلاً، وأُثنيا عليهما ثناءً وافراً في القرآن الكريم، فلا مقام أنبل وأعظم وأحسن وأجمل من مقامٍ تُقتَرن فيها شهادة الملائكة،

وأولي العلـــم، بشهادة الله سبحانه وتعالى، بأنّه هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، لاشريك له، حيث قال ﷻ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]. قال ابْن كثير رحمه الله: "وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام"[1] .

وقال ابْن قيّم الجَوْزِيّة رحمه الله في تفسيره لهذه الآية العظيمة : "وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

1. استشهادهم دون غيرهم من البشر
2. اقتران شهادتهم بشهادته
3. اقترانها بشهادة ملائكته

فهذا يتضمن تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لايستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النَّبيّ ﷺ : "يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله[2]، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"[3]

وقـــال ايـــضاً رحمه الله في فضل العلم وشرفه : "انه سبحانه عدّد نِعَمَه وفضله على رســـوله، وجعل من أجلّها أن آتاه الكتاب والحكمة، وعلّمه ما لم يكن يعلم، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]"[4]

[1] تفسير ابن كثير ص210

[2] هم الصالحين الأتقياء من العلماء المشهود لهم بالعدالة والإستقامة.

[3] مفتاح دار السعادة لابن قيّم الجوزية ص64

[4] مفتاح دار السعادة لابن قيّم الجوزية ص69

وتأكيداً على أهمّيَّة العلم والتَّعلُّم، وتقديساً لشأن المعرفة الصَّحيحة الحقيقيَّة، أوحى الله ﷻ أولى آياته إلى رسولنا الكريم محمّد ﷺ كدعوة إلى القراءة والتَّعلُّم قائلاً: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5]

وقد أقسم الله ﷻ بالقلم تشريفاً له لما له من عظيم الأثر في تعليم الكتابة، ومحو الأمـيَّة، ورفع مستوى المعرفة والثّقافة بين النَّاس، فقال ﷻ: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 1].

وتكريماً من الله ﷻ لابْن آدم أنّه فضّله على سائر مخلوقاته بالعقل والعلم، فبقدر ما يحمل الإنسان من علمٍ نافع، ومعرفة خيرة، يرتفع شأنه وتعلو مكانَتْه، فقد قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]. وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، فهذا دليل على أنّه سبحانه وتعالى خصّ العلماء من بين النَّاس أجمعين بخشيته، فهو وسام شرف، لايحمله سوى أصحاب العلم الحق، الذين يخشون الله في دينهم ودنياهم، ويرون أن ما أُنزلَ الى النَّبيّ محمّد ﷺ هو حقاً، فقال تعالى ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: 6] .

وبفضل العلم أيضاً تتميّز الحيوانات فيما بينها، فبالعلم أُحل صيد الكلب المُتَعَلّم، وبالجهل حُرم صيد الكلب الجاهل، قال ابْن قيّم الجَوْزيّة رحمه الله: " أن الله سبحانه جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها، وأباح صيد الكلب المُعَلّم، وهذا أيضاً من شرف العلم، أنّه لا يُباح إلا صيد الكلب العالم، أما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده، فدلّ على شرف العلم وفضله. قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ

الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[المائدة: 4]. ولولا مزية العلم والتَّعْلِيْم وشرفهما كان صيد الكلب المـعَلَّم والجاهل سواء."[1]

هنيـئاً لمـن منَّ الله عليه بنعمة العلمِ النَّافعِ، وطُوبَى لمن وهبهُ اللهُ الحِكْمَةَ في القول والعمـل، ومن أُوتيهما، فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[البقرة 269] . لذا علينا جميعا أن نذكـر اللّه كثيراً، ونشكرَه ونحمدَه ﷻ على نعمة العلم، وعلى سائر النعم التي أعطانا إياها ربنا، فاطر السموات والأرض، فقال ﷻ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[البقـرة: 151-152].

ثانياً: فضل العلم في نصوص السنّةالمطهَّرة

ولـو ألقينا نظرة فيما جاء عن الرَّسول الكريم ﷺ في فضل العلم والتَّعَلُّم، لوجدنا أنّه كان قدوة الدَّاعين إلى العلم والتَّعَلُّم بأقواله وأفعّاله، حتّى أنّه جعل التَّعَلُّم فريضة لازمة على كل فرد لتصحيح عقيدته وعبادته من جهة، وتفهُّم شؤون حياته من جهةٍ أخرى، فقد جاء عن أنس أنّه قال: قال رسول اللهﷺ : "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[2]

لقد سبق وذكرنا ما روى ابْن عبد البَرِّ القرطبي في كتابه (جامع بيان العلم)، ما قيل في شـرح هذا الحديث، حيث بيَّن وجهات نظر السَّلَف الصالح فيه، فطلب العلم واجب

[1] مفتاح دار السعادة، للإمام إبن قيّم الجوزية ص73

[2] رواه ابن ماجة وغيره، في صحيح الترغيب والترهيب 70

علـــى كل مسلم ومسلمة على حد سواء، والعلم المراد من الحديث هو العلم الشَرْعِيّ، أي "قـــال اللّه"، "قـــال الرَّسول" ﷺ، "قال الصَّحابة" رضوان الله عليهم أجمعين، ولقد أحسن القائل[1]:

الْعِلْمُ قَـــالَ اللهُ قَـــالَ رَسُـــولُــهُ ... قـــالَ الصَّحابة ليس بالتَّمويهِ
ما العِـــلمُ نَـــصْبَكَ للخلاف سفاهةً ... بين الرَّسول وبين رأي فقـــيهِ
كلا ولا جَحْدَ الصِّفات ونـــفـــيُها ... حذراً من التَّـــمثيل والتَّـــشبيه

وفي هـــذا السّياق يؤكد الإمام الشافعي رحمه الله في البيتن التالين[2] أن العلم بحق هو علم كتاب اللّه ﷻ وسنة نبيّنا المصطفى محمّد صلوات اللّه وسلامه عليه:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... إلاّ الحديثُ وعلمُ الفقه فـــي الدِّين
العلمُ مـــا كان فيه قال حدثنا ... وما سوى ذاك وسواسُ الشَّاطينَ

وفي فـــضل العلم، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النَّبيّ ﷺ أنّه قال "مَثَلُ مَا بَعَثَنِيْ اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيْرِ أَصَابَ أَرْضاً، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَت الْمَـــاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيْرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاس، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيْعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِيْ دِيْنِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِيْ اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِيْ أَرْسِلْتُ بِهِ".[3]

قال الشَّيْخ محمّد ناصر الدِّين الألباني رحمه الله: "ضرب النبى ﷺ لما جاء به من الدِّين مـــثلاً بالغـــيث العام الذي يأتي النَّاس في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال النَّاس قبل مبعـــثه، فكمـــا أن الغـــيث يحي البلد الميت، فكذا علوم الدِّين تحيي القلب الميت. ثم شبه

[1] الفوائد لابن قيّم الجوزية، ص133

[2] ديوان الإمام الشافعي، ص98

[3] صحيح البخاري رقم 79

السامعين له بالأرض المختلفة الّتي يترل بها الغيث، فمنهم العامل المـُعَلِّم، فهو مترلة الأرض الطيـبة، شربت فانتفعت في نفسها، وأنبتت فنفعت غيرها، ومنهم الجامع للعلم المستغرق لـزمانهُ فـيه، غير أنّه لم يعمل بنوافله، أو لم ينفعه فيما جمع له، لكنّه أداه لغيره، فهو بمترلة الأرض الـسبخة أوالملساء، الّتي لاتقبل الماء، أو تفسده على غيرها. وإنما جمع في المثل بين الطائفـتين الأولين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها. والله أعلم".[1]

وفي توجـيهه ﷺ إلى طلـب العلم، بيَّن لهم شرف السّعي إليه، وفضل أخذه وحمله، والجـزاء المنتظـر لهم يوم القيامة، فعن أبي الدَّرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مَنْ سَلَكَ طَرِيْقَاً يَلْتَمِسُ فِيْهِ عِلْمَاً، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيْقَاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِـبِ الْعِلْـمِ رِضَاً بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيْتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَـاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِيْنَاراً وَلَا دِرْهَمَاً، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَّافِرٍ"[2].

قال ابْنِ جَمَاعَةَ الْكِنَانِيّ[3] رحمه الله في معنى هذا الحديث: "واعلم أنّه لارتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة وغيرهم بالاستغفار والدعاء له، وتضع له أجنحتها، وانه لينافس في دعاء الـرجل الـصالح أو مَن يظن صلاحه، فكيف بدعاء الملائكة، وقد اختُلف في معنى وضع أجنحتها، فقيل: التواضع له، وقيل: الترول عنده والحضور معه، وقيل: التوقير والتعظيم له، وقيل: معناه تحمله عليها فتعينه على بلوغ مقصده.

[1] صحيح الترغيب والترهيب للألباني، جزء 1 ص 142

2 صحيح الترغيب والترهيب للألباني، جزء1، رقم 70.

[3] هـو قاضـي القـضاة شيخ الإسلام بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، الخطيب المفسر، له تعاليق في الفقه والحديث والأصول والتواريخ وغير ذلك، ولد في حماة في ربيع الآخر سنة 639 هـ، وتوفي في جمادي الأولى سنة 733 هـ.

وأمـــا إلهـــام الحيوانات بالاستغفار لهم فقيل: لأنها خُلقت لمصالح العباد ومنافعهم، والعلمـــاء هـــم الذين يبينون مايحل منه وما يحرم، ويوصون بالإحسان إليها، ونفي الضرر عنها."[1]

ومن أفعاله ﷺ في الدَّعوة إلى التَّعَلُّم، أنّه حرَّر بعض أسرى معركة بدر على أن يعلّموا طائفة من المسلمين مهارتي القراءة والكتابة لأهمّيتهما في تثبيت ركائز الدِّين ونشر الدَّعوة الإسْـلاميَّة علـى مـدى العصور وفي جميع أرجاء الأرض. فقد ذكر الدكتور علي محمّد الصَّلاَبي: " أن ابْن عباس قال: كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فـداءهم أن يعلمـوا أولاد الأنصار الكتابة. وبذلك شرع الأسرى يعلمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يُعلم عشرة من الغلمان يفدي نفسه، وقبول النَّبيّ ﷺ تعليم القـراءة والكتابة بدل الفداء، في ذلك الوقت، الذي كان فيه بأشد الحاجة إلى المال، يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة، وإزالة الأمية".[2]

وفي حـثّه ﷺ علـى تعلّـم القرآن وتعليمه، وتحصيل العلم النافع، والتَّفقه في دين الإسلام، دين عقيدة التَّوْحِيْد، دليل واضح على فضل العلم وتحصيله، فعن عثمان بن عفان ﷺ عن النَّبيّ ﷺ أنّه قَالَ: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"[3]، وعن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيّ ﷺ أنّـه قَـالَ: "إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَة: إِلاَّ مِنْ صَدَقَة جَارِيَة، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِه، أَوْ وَلَد صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"[4]، وعن معاوية بن أبي سفيان ﷺ عن النَّبيّ ﷺ أنّه قال: " مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين "[5]

---

[1] تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة الكناني، ص19

[2] السيرة النبوية، د. علي محمد الصّلابي، ص435

[3] صحيح البخاري، رقم 5027

[4] صحيح مسلم، رقم 1631

[5] صحيح البخاري، رقم 7312

قـــال الإمام ابْن قيّم الجَوْزِيّة رحمه الله في شرحه لحديث معاوية بن أبي سفيانﷺ" مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين": "أنّ مَن لم يُفقّهه في دينه لم يُرَد به خيراً، كما أنّ مَن أراد بـــه خيراً فقّهه في دينه، ومن فقّهه في دينه فقد أراد به خيراً، إذا أُريد بالفقه العلم المستلزم للعمـــل، وأما إن أُريد به مجرد العلم فلا يدل على أن مَن فقه في الدِّين فقد أُريد به خيراً، فإن الفقه حينئذٍ يكون شرطاً لإرادة الخير، وعلى الأول يكون موجباً، واللّه أعلم"[1]

وفي حَـــضِّه علـــى محو الأُمِّيَّة بشَكْلٍ عام، والعامِّية بشَكْلٍ خاص، أمر رسول لله ﷺ العالِمُون والمتَفَقّهون في دينهم أن يُعلّموا ويُفقّهوا جيرانهم الذين لايعلمون أمور دينهم، كما أنّه حذّر من الكسل أو الفتور في التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم. وبالرَّغْمِ من ضعف حديث علقمة إلا أنني استأنـــست بذكره في هذا المقام لما فيه من تأكيدٍ على أهمّية التَّعْلِيْم والتَّعَلُمِ، فعن عَلْقَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى، عَنْ أَبِيه، عَنْ جَدِّه قال: خَطَبَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ذات يوم، فَأَثْنَى على طَوَائفَ مِنَ الْمُسْلمينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: " مَا بَالُ أَقْوَامٍ لا يُفَقِّهون جيرَانَهُمْ، ولا يُعَلِّمُونَهم، وَلا يَعظـــونَهم، وَلا يَأْمُـــرُونَهُمْ، وَلا يَـــنْهَوْنَهُم؟! ومَـــا بَـــالُ أَقْوَامٍ لا يتعلّمون من جيرانهم، ولايتفقّهون! ولايتّعظون؟! واللّه لَيُعَلِّمنَّ قَوْمٌ جيرَانَهُمْ، ويُفَقِّهونهم، ويَعظونَهم، وَيَأْمُرونَهُمْ، وَيَنْهَوْنَهُمْ، وَلَيَتَعَلَّمَنَّ قَوْمٌ مِنْ جيرَانهم، وَيَتَفَقَّهُون، ويَتَّعظون، أَوْ لأُعَاجِلَنَّهُمْ الْعُقُوبَة".[2]

وشـــجع صـــلوات اللّه وسلامه عليه تعلّم اللغات الأجنبيّة لما فيها من فوائد للفرد وللمجتمع، فعن زيد بن ثابت ﷺ قال:" أُتِيَ بِي النَّبِيِّ ﷺ مَقْدَمَهُ المدينة فقالوا: يا رسول اللّه! هذا غلامٌ من بني النّجّار وقد قرأ مما أُنزل عليك سَبْعَ عَشرةَ سورةً، فقرأتُ على رسول اللّه ﷺ فأعجـــبه ذلـــك، فقال: "يازَيدُ! تَعَلّمْ لي كِتَابَ يَهُودَ، فإنِّي - واللّه- ما آمن يَهُودَ على كـــتابي" فتعلمته، فما مضى لي نصف شهر حتى حَذَقته، فكنت أكتب لرسول اللّه ﷺ إذا

[1] مفتاح دار السعادة، للإمام إبن القيم الجوزية ص78

[2] ضعيف الترغيب والترهيب، للألباني ج1 /رقم97

كـــتب إلـــيهم، وأقـــرأ كتابهم إذا كتبوا إليه"[1]. وعن زيد أنّه قال: قال لي رسول الله ﷺ: "أتُحْـــسِنُ السَرِيانِيَّةَ فإنها تَأتِيني كُتُبٌ؟" قلتُ: لا، قال: "فَتَعَلَّمْها"، فتعلمتها في سبعةَ عشر يوماً"[2].

لايمكـــن أن أذكـــر كل ما قاله رسولنا المـُعَلِّم صلوات اللّه وسلامه عليه في العلم وشرفه في هذا البحث المتواضع، لذلك اكتفيت بهذا القدر من الأحاديث الشّريفة الّتي تدل علـــى أنّه صلى اللّه عليه وسلم قد ذكر فضل العلم، وأثنى على من يسعى في طلبه، وحث علـــى تعلُّم القرآن وتَعْليمَه، والتفقه في الدِّين ونشره، وأكّد أيضا على أهمّية تحصيل العلم النافع للعبد في دنياه وآخرته، وشجع تعلُّم اللغات الأجنبيّة أيضاً.

ثالثاً: فضل العلم في أقوال الصَّحابة الكرام، والسَّلَف الصالح

وعلـــى هـــذا النَّهج النَّبويّ الكريم سار أصحاب رسول اللّه ﷺ رضوان اللّه عليهم أجمعـــين، والأتـــباع، والسَّلَف الصَّالحين، يوجّهون النَّاس إلى حب العلم والتَّعَلُّم، لينشؤوا صـــالحين لأنفسهم وللأُمَّة الّتي يعيشون فيها، فقد صحَّ عن أمير المؤمِّنين عمر بن الخطاب[3] ﷺ أنّه قال: "تعلَّموا العلم، وتعلَّموا للعلم السكينة والحِلْمَ، وتواضعوا لمن تُعَلِّمون، وتواضعوا لمن تَعَلَّمون منه، ولا تكونوا جبابرة العلماء؛ فلا يقوم علمكم بجهلكم"[4].

---

[1] تغليق التعليق، إبن حجر العسقلاني، 306/5

[2] السلسلة الصحيحة، للألباني، رقم 364/1

[3] هو عمر بن الخطاب بن نُفَيل بن عبد العزّى بن رياح بن قُرط بن رَزاح بن عديّ بن كعب بن لُوَيّ، أمير المؤمنين، الخليفة الراشدي الثاني، أبو حفص القُرشي العدويُّ، الفاروق رضي اللّه عنه، أسلم في السنة 6 مـن النبوة وله 27 سنة، واستُشهد في أواخر ذي الحجة سنة 23 هـ، على يد أبو لؤلؤة عبدَ المُغيرة بن شُـعبة. كان عمر ﷺ قويا، شجاعاً، عادلاً، ومجاهداً في سبيل اللّه، انتشر الإسلام وتوسعت رقعة الدولة الإســلامية في عصر خلافته حتى وصلت إلى الشام وفلسطين ومصر والعراق وبلاد فارس التي حصلت فيها معركة القادسية في شهر شعبان سنة 15 هـ.

[4] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي ص93

وقــال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وهو ينصح كُمَيْلَ بنَ زيّاد النخعي مبينا فضل العلم وأنواع طلبته ومكانَتْهم منه: " يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ، الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ خَيْرُهَا أَوْعَاهَا، احْفَــظْ عَنِّــي مَا أَقُولُ لَكَ، النَّاس ثَلَاثَةٌ: فعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ النَّجَاةِ، وَهَمَجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَميلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِــيقٍ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، الْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْعَمَلِ وَالْمَالُ يَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَمَحَبَّةُ الْعَالِمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، يَكْسِبُهُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْــدَ وَفَاتِــهِ، الْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ، وَصَنَعَةُ الْأَمْوَالِ تَزُولُ بِزَوَالِهِ، مَاتَ خُزَّانُ الْأَمْــوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيَانُهم مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجَــودَةٌ، هَــاهْ إِنَّ هَا هُنَا وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ عِلْمًا لَوْ أَصَبْتُ حَمَلَةً، بَلْ أَصَبْتُ لَقِنًا لِأَهْلِ الْحَقِّ لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي حَيَاتِهِ، يَقْتَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، لَا ذَا وَلَا ذَا فَمِنْ مَهْمُومٍ بِاللَّذَّةِ سَلِسِ الْقِيَادِ لِلشَّهَوَاتِ، أَوْ مُغْرًى بِجَمْعِ الْأَمْوَالِ، لَيْسَا مِنْ دُعَاةِ الدِّينِ أَقْرَبُ شَــبَهًا بِهِمُ الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ، اللَّهُمَّ بَلَى لَنْ تَخْلُوَ الْأَرْضُ مِــنْ قَائِمٍ بِحُجَّةٍ، لِكَيْلَا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبَيِّنَاتُهُ، أُولَئِكَ الْأَقَلُّونَ عَدَدًا، الْأَعْظَمُونَ عِــنْدَ اللَّهِ قَدْرًا، بِهِمْ يَدْفَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ حُجَجِهِ يُؤَدُّونَهَا إِلَى نُظَرَائِهِمْ، وَيَزْرَعُونَهَا فِي قُلُــوبِ أَشْــبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، فَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَ مِنْهُ الْمُتْرَفُونَ، وَأَنِــسُوا مِــنْهُ مَــا اسْتَوحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، صَحِبُوا الدُّنيا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى، أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي بِلَادِهِ وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ، هَاهْ هَاهْ، شَوْقًا إِلَي رُؤْيَتِهِمْ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكَ إِذَا شِئْتَ فَقُمْ ".[1]

ويقول معاذ بن جبل[2] ﷺ في العلم وفضله : "تعلّموا العلم، فإنّ تعلّمه حسنة، وطلبه عبادةٌ، وبذلَهُ لأهله قربةٌ. والعلم منارُ سبيل أهلِ الجنة، والأنيس في الوَحشَة، والصاحبُ في

[1] جامع بيان العلم وفضله، لإبن عبد البر القرطبي، ج2 ص112

[2] هــو ابــن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدّي بن كعب، السيد الإمام الصحابيّ أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجــيّ المدنــيّ الــبدريّ. شهد بدراً وهو عشرون سنة، وله عدة أحاديث، كان أعلم الناس بالحلال والحرام بعد رسول الله ﷺ، توفي سنة 18هـــ عن عمر يناهز 38 سنة.

الغـــربة، والمحدِّثُ في الخَلوةِ، والدليل على السرّاء والضرّاء، والزَّيْنُ عند الأخلاّء، والسلاحُ على الأعداءِ. يردع اللّهُ به قوماً فيجعلهم قادة أئمةً تُقتَفى أثارُهم، ويُقتدى بفعّالهم، والعلم حـــياةُ القلـــبِ من الجهل، ومصباحُ الأبصارِ من الظّلمةِ، وقوّة الأبدانِ من الضَّعفِ. يبلُغ بالعـــبدِ مـــنازل الأخـــيار، والدَّرجات العلا في الدُّنيا والآخرة. الفكْرُ فيه يعدلُ الصِّيامَ، ومذاكرتُهُ القيامَ، وبه توصَلُ الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام"[1].

وصحَّ عن عبد الله بن مسعود[2] ﷺ أنّه قال:" ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم خشية اللّه". وقال مالك بن أنس[3] رحمه اللّه "إن العلم والحكمة نور يهدي به اللّه من يشاء وليس بكثرة المسائل".[4]

ويقـــول عبد الملك بن مروان[5] لبنيه: "يا بني تعلّموا العلم فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطاً سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم"[6].

---

[1] العقد الفريد لإبن عبد ربه الأندلسي، ج2 ص76

[2] هـــو عبد اللّه بن مسعود بن غافل بن حبيب، الصحابي الإمام الحبرُ، فقيهُ الأمة، أبو عبد الرحمن الهُذَلِيُّ المكيُّ المهاجريُّ البدري، حليفُ بني زُهرة. كان من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين، شهد بدراً، وهاجـــر الهجرتين، ومناقبه غزيرة، وروى علماً كثيراً، وله أحاديث كثيرة، توفي في المدينة سنة 33هـــ، كان عمره 63 سنة هـــ .

[3] هـــو أبـــو عبد اللّه مالك بن أنس، شيخ الإسلام، حجة الأمة، إمام دار الهجرة، المحدث الفقيه الذي أدرك خيار التابعين من الفقهاء العباد الذهاد، ولد في المدينة المنورة سنة 95 هـــ وتوفي فيها ودفن بالبقيع سنة 179 هـــ. بعد أن أسس مذهباً فقهياً سُمي باسمه: مذهب الإمام مالك، صاحب كتاب 'الموطأ'.

[4] جامع بيان العلم وفضله، لإبن عبد البر القرطبي، ج2 ص25

[5] هـــوابن الحكـــم بـــن العـــاص بن أمية، الخليفة، أبو الوليد الأموي. حارب عبد اللّه بن الزبير الخليفة في المديـــنة، وقـــتل أخاه مصعب في العراق، ولد سنة 26 هـــ وتوفي 86 هـــ. كان من رجال الدّهر ودهاة الرجال، وكان الحجاج من ذنوبه.

[6] سير أعلام النّبلاء

وقـــال سفيان بن عيينة[1] رحمه اللّه: "من طلب العلم فقد بايع اللّه عزّ وجلّ". وقال أبو الدرداء: "مَن رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص في عقله ورأيه".[2]

وفي دلالــة لأهمّـية ولحاجة النَّاس إلى العلم والمعرفة كحاجتهم للماء، يقول الإمام أحمـــد رحمه الله : " النَّاس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يُحتَاجُ إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يُحتَاجُ إليه بعدد الأنفاس".[3]

ولا أظـــن أن الإمـــام الشافعي رحمه الله قد غالى في شعره عندما قال إن صغير قوم بعلمـــه يعلـــو شـــأنه ومقداره بين جمع النَّاس، بينما يصغر كبيرهم بجهله عندما يكون في اجتماعات قومه، فقد قال في صاحب العلم[4]:

تَعلَّم فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُوْلَـــدُ عَالِمَاً ... وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ
وَإِنَّ كَبِيْـــرَ الْقَوْمِ لاَ عِلْمَ عِنْدَهُ ... صَغِيْرٌ إِذَا الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الْجَحَافِلُ
وَإِنَّ صَغِيْرَ الْقَومِ إِنْ كَانَ عَالِمَاً ... كَبِيْـــرٌ إِذَا رُدَّتْ إِلَيْهِ الْمَحَافِلُ

وقال رحمه اللّه أيضاً في هدي العلم[5]:

إذا لَمْ يَزِدْ علمُ الفَتى قلبـــهُ هُدَىً ... وَسيْرَتَهُ عَدلاً وأخلاقُـــهُ حُسْنَا
فَبَشِّـــرْهُ أنَّ اللّـــهَ أولاهُ نَقْمَـــةً ... يُساءُ بِها مثلَ الذي عـــبَدَ الوَثَنـــا

وقـــال رحمـــه اللّه في حلاوة العلم ولذة كسبه وتحصيله ودراسته وكتابته انه أحلى وأطيب طعماً، وأجمل وألذ شعوراً بما يشعر به أصحاب اللهو والعشق والطرب[6]:

---

[1] هو ابن أبي عمران ميمون مولى محمد بن مُزاحم، أخي الضحاك بن مُزاحم، الإمام الكبير حافظ العصر، شـيخ الإســلام، أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكي، ولد في الكوفة سنة 107 هــ وتوفي في شعبان سنة 196 هــ

[2] مفتاح دار السعادة لإبن القيّم ص92

[3] مفتاح دار السعادة لإبن القيّم ص97

[4] ديوان الإمام الشافعي، ص66

[5] ديوان الإمام الشافعي، ص79

[6] ديوان الإمام الشافعي، ص61، كما نسبت إلى الزمخشري صاحب الكشاف .

سَهَــرِي لِتَنْقِيحِ الْعُلُوم أَلَذُّ لِي مِنْ وَصْلِ غَانِيَةٍ وَطِيْبِ عِنَـــاقِ
وَصَرِيْرُ أَقْلامِيْ عَلَى صَفَحَاتِهَا أَحْلَى مِنَ الدَّوْكَاءِ وَالْعُــشَّــاقِ
وَأَلَــذُّ مِنْ نَقْرِ الْفَتَاةِ لِدُفِّهَـــا نَقْرِي لِأُلْقِي الرَّمْــلَ عَنْ أَوْرَاقِي
وَتَمَايُلِيْ طَرَبَاً لِحَلِّ عَوِيْصَـــةٍ فِي الدَّرْسِ أَشْهَى مِنْ مُدَامَة سَاقِ
وَأَبِيْتُ سَهرَانَ الدُّجَى وَتَبِيْتُــهُ نَوْمَاً وَتَبْغِي بَعْدَ ذَاكَ لِحَاقِـــي؟!

ومـــن عمالقة السَّلَف الصالحين الذين تحدّثوا وكتبوا في العلم وفضله وعظمةشأنه، الإمام العلّامَّة، والشَّيْخ العابد الزاهد، اِبْن قيّم الجَوْزِيّة رحمه اللّه، وأدخله فسيح جناته، الذي أفـــاض في ذكـــر وبيان فضل العلم وشرفه في نصوص القرآن الكريم، وفي نصوص السّنّة المطهـــرة، حتى انه ذكر أربعين ميزة يمتاز بها، ويتفضل بها العلم وأهله على المال وأصاحبه. يقول اِبْن القّيم رحمه اللّه، إن فضل العلم على المال يُعلم من الوجوه التالية نذكرها للفائدة:

الأول: أن العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الملوك والأغنياء.

والثاني: أن العلم يحرس صاحبه، وصاحب المال يحرس ماله.

والثالث: أن المال تذهبه النفقات، والعلم يزكو على النفقة.

والرابع: إن صاحب المال إذا مات فارقه ماله، والعلم يدخل معه في قبره.

الخامس: أن العلم حاكم على المال، والمال لا يحكم على العلم.

السادس: أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر، والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن.

الـــسابع: أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم، وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة.

الـــثامن: أن النَّفس تشرف وتزكو بجمع المال وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها، والمال لا يزكيها ولا يكملها ولا يزيدها صفة كمال بل النَّفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه فحرصها على العلم عين كمالها وحرصها على المال عين نقصها.

التاســـع: أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء، والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية، فالمال يدعوها إلى صفات الملوك، والعلم يدعوها إلى صفات العبيد.

العاشر: أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها الّتي خلقت لها، والمال حجاب بينها وبينها.

الحادي عشر: إن غني العلم أجل من غني المال فإن غني المال غني بامر خارجي عن حقـــيقة الانسان لو ذهب في ليلة اصبح فقيرا معدِما وغني العلم لا يخشى عليه الفقر بل هو في زايدة أبدا فهو الغني العالي حقيقة.

الـــثاني عشر: أن المال يستعبد محبه وصاحبه فيجعله عبداً له كما قال النّبيّ صلى الله علـــيه وآلـــه وسلم : "تعس عبد الدِّين ار والدرهم"، والعلم يستعبده لربه وخالقه فهو لا يدعوه إلا إلى عبودية الله وحده.

الثالث عشر: أن حب العلم وطلبه أصل كل طاعة، وحب الدُّنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة.

الرابع عشر: أن قيمة الغني ماله، وقيمة العالم علمه.

الخـــامس عـــشر: أن جوهر المال من جنس جوهر البدن، وجوهر العلم من جنس جوهر الروح.

الـــسادس عـــشر: أن العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدُّنيا بما فيها لم يرضها عوضاً من علمه، والغني العاقل إذا رأى شرف العلم وفضله وابتهاجه بالعلم وكماله به يود لو أن له علمه بغناه أجمع.

الـــسابع عـــشر: انه ما أطاع الله أحدا قط إلا بالعلم، وعامّة من يعصيه إنما يعصيه بالمال.

الثامن عشر: أن العلم يدعو النّاس إلى الله بعلمه وحاله، وجامع المال يدعوهم إلى الدُّنيا بحاله وماله.

التاسع عشر: أن غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيراً فانه معشوق النفوس فـإذا رأت مـن يستأثر بمعشوقها عليها سعت في هلاكه كما هو الواقع، وأما غنى العلم فـسبب حـياة الرجل وحياة غيره به والنَّاس إذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه وخدموه وأكرموه.

العشرون: أن اللذة الحاصلة من غنى المال إما لذة وهمية وإما لذة بهيمية فإن صاحبه الـتذّ بـنفس جمعه وتحصيله فتلك لذة وهميه خيالية، وإن التذّ بإنفاقه في شهواته فهي لذة بهيمـية، وأما لذة العلم فلذة عقليّه روحانية وهي تشبه لذة الملائكة بهجتها، وفرق ما بين اللذتين.

الحادي والعشرون: أن عقلاء الأمم مطبقون على ذم الشره في جمع الأموال الحريص عليه وتنقصه والإزراء به ومطبقون على تعظيم الشره في جمع العلم وتحصيله ومدحه ومحبته ورؤيته بعين الكمال.

الـثاني والعشرون: انهم مطبقون على تعظيم الزاهد في المال المعرض عن جمعه الذي لا يلتفت إليه ولا يجعل قلبه عبداً له، ومطبقون على ذم الزاهد في العلم الذي لا يلتفت إليه، ولا يحرص عليه.

الـثالث والعشرون: أن المال يمدح صاحبه بتخليه عنه وإخراجه، والعلم إنما يمدح بتحليه به واتصافه به.

الرابع والعشرون: أن غنى المال مقرون بالخوف والحزن، وغنى العلم مقرون بالأمن والفرح والسرور.

الخـامس والعشرون: أن الغني بماله لا بد أن يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بمفارقته، والغـني بـالعلم لا يزول ولا يتعذب صاحبه ولا يتألم، فلذة الغني بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الألم، ولذة الغني بالعلم لذة باقية مستمرة لا يلحقها ألم.

الســادس والعــشرون: أن استلذاذ النَّفس وكمالها بالغنى استكمال بعارية مؤداة فـتجملها بالمال تجمل بثوب مستعار لا بد أن يرجع إلى مالكه يوماً ما، وأما تجملها بالعلم وكمالها به فتجمل بصفة ثابتة لها راسخة فيها لا تفارقها.

الــسابع والعشرون: أن الغنى بالمال هو عين فقر النَّفس، والغنى بالعلم هو عين غنى النَّفس، فهو غناها الحقيقي فغناها بعلمها هو الغنى، وغناها بمالها هو الفقر.

الــثامن والعشرون: أن من قدم وأكرم لماله إذا زال ماله زال تقديمه وإكرامه، ومن قدِّم وأكرم لعلمه لا يزداد إلا تقديماً وإكراماً.

التاسع والعشرون: أن تقديم الرجل لماله هو عين ذمّه فانه نداء عليه بنقصه وانه لولا ماله لكان مستحقاً للتأخّر والإهانة، وأما تقديمه وإكرامه لعلمه فانه عين كماله إذ هو تقديم له بنفسه وبصفته القائمة به لا بأمر خارج عن ذاته.

الوجه الثلاثون: أن طالب الكمال بغنى المال كالجامع بين الضدين فهو طالب ما لا سبيل له إليه.

الحــادي والثلاثون: أن اللذة الحاصلة من المال والغنى إنما هي في حال تجدده فقط. وأما حال دوامه فإما أن تذهب وإما أن تنقص.

الثاني والثلاثون: إن غنى المال يستدعي الإنعام على النَّاس والإحسان إليهم فصاحبه إما أن يسد على نفسه هذا الباب وإما أن يفتحه عليه.

الــثالث والثلاثون: إن جمع المال مقرون بثلاثة أنواع من الآفات والمحن؛ نوع قبله ونوع عند حصوله ونوع بعد مفارقته. فأما النوع الأول: فهو المشاق والأنكاد والآلام الّتي لا يحــصل إلا بها. وأما النوع الثاني: فمشقة حفظه وحراسته وتعلق القلب به فلا يصبح إلا مهموماً ولا يمسي إلا مغموماً. والنوع الثالث من آفات الغنى: ما يحصل للعبد بعد مفارقته من تعلق قلبه به وكونه قد حيل بينه وبينه والمطالبة بحقوقه والمحاسبة على مقبوضه ومصروفه

من أين اكتسبه وفي ماذا أنفقه، وغني االعلم والإيمان مع سلامته من هذه الآفات فهو كفيل بكل لذة وفرحة وسرور ولكن لا ينال إلا على جسر من التعب والصبر والمشقة.

الـــرابع والثلاثون: أن لذة الغني بالمال مقرونة بخلطة النَّاس ولو لم يكن إلا خدمه وأزواجه وسراريه وأتباعه إذ لو انفرد الغني بماله وحده من غير أن يتعلّق بخادم أو زوجة أو أحـــد مـــن النَّاس لم يكمل انتفاعه بماله ولا التذاذه به وإذا كان كمال اكتمال لذته بغناه موقـــوفاً علـــى اتصاله بالغير فذلك منشأ اللآفات واللآلام ولو لم يكن إلا اختلاف النَّاس وطبائعهم وإرادتهم.

الخامس والثلاثون: أن المال لا يراد لذاته وعينه فانه لا يحصل بذاته شيء من المنافع أصلاً فانه لا يشبع ولا يروي ولا يدفيء ولا يمتع وإنما يراد لهذه الأشياء فانه لما كان طريقاً إليها أريد إرادة الوسائل.

السَّادس والثَّلاثون: أن غني المال يبغض الموت ولقاء الله فانه لحبِّه لماله يكره مفارقته ويحبُّ بقاءه ليتمتع به كما شهد به الواقع، وأما العلم فانه يحبب للعبد لقاء ربه ويزهده في هذه الدُّنيا النكدة الفانية.

السَّابع والثَّلاثون: أنَّ الأغنياء يموت ذكرهم بموتهم، والعلماء يموتون ويبقى ذكرهم، فخزَّان الأموال أحياء كأموات والعلماء بعد موتهم أموات كأحياء.

الـــثَّامن والثَّلاثون: إن نسبة العلم إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فالروح ميتة حـــياتها بالعلم كما أن الجسد ميت حياته بالروح فالغني بالمال غايته أن يزيد في حياة البدن وأما العلم فهو حياة القلوب والأرواح كما تقدم تقريره.

التَّاســـع والـــثَّلاثون: أنَّ القلب ملك البدن والعلم زينته وعدَّته وجماله، وبه قوام ملكـــه، والملك لا بد له من عدد وعدَّة ومال وزينة، فالعلم هو مركبه وعدته وجماله. وأمَّا المال فغايته أن يكون زينة وجمالاً للبدن إذا أنفقه في ذلك فإذا خزنه ولم ينفقه لم يكن زينة ولا جمالاً بل نقصاً ووبالاً.

الــوجه الأربعــون: أنَّ القــدر المقصود من المال هو ما يكفي العبد ويقيمه ويدفع ضــرورته حتَّى يتمكَّن من قضاء جهازه ومن التَّزود لسفره إلى ربِّه عزَّ وجلَّ فإذا زاد على ذلك شغله وقطعه عن السَّفر وعن قضاء جهازه وتعبية زاده فكان ضرره عليه أكثر من من مــصلحته وكلَّمــا ازداد غناه به ازداد تثبُّطاً وتخلُّفاً عن التجهّز لما أمامه. وأمَّا العلم النَّافع فكلَّمــا ازداد في تعبية الزَّاد وقضاء الجهاز وإعداد عدة المسير والله الموفق وبه الاستعانة ولا حــول ولا قــوَّة إلا بــه، فعــدة هذه السَّفر هو العلم والعمل وعدّة الإقامة جمع الأموال والادِّخار ومن أراد شيئاً هيّأ له عدته."[1]

رابعاً: فضل العلم في أقوال بعض المتأخرين من الكُتَّاب والأدباء والشعراء

وممَّا لاشكَّ فيه أنَّ كثيراً من الكُتَّاب والأدباء والشُّعراء، المتأخرين أو المعاصرين، قد قالوا، وكتبوا أقوالاً جميلة في فضل العلم، وأهمِّيّته في بنية حياة الفرد العلميّة والفكْرِيّة، وفي تطوير حياة الأمم ثَقَافيّاً وحضاريّاً وعلميّاً.

يقــول الدكتور مصطفى السِّباعي في صنوف العلوم: "العلوم في أهدافها ثلاثة: فعِلمٌ للــدَّار الآخــرة، فإن صحِبته النِّية الخالصة نجَّى من النَّار، وعِلمٌ للدُّنيا، فإنَّ صحِبته العزيمة الصَّادقة، نجَّى من الفقر، وعلم للَّهو، ففيه المهانة في الدُّنيا والهلاك في الآخرة".[2]

وقال الشاعر أحمد شوقي في العلم والمــُعَلِّم والتَّعْلِيْم:

سبحــانكَ اللهمَّ خيــرَ مــُعَلِّم ... علَّمْــتَ بالقلمِ القرونَ الأولى
أخرجتَ هــذا العقلَ من ظلماته ... وهديتَهُ النــُّورَ المبينَ ســبيلا
وطبعتَــهُ بِيَــدِ المــُعَلِّم، تــارةً ... صدئَ الحديدِ، وتارةً مصقولا
أرسلتَ بالتــَّوراةِ موسى مُرْشداً ... وابْن البتــولِ فعلَّــمَ الإنجيلا
فَجَّــرْتَ ينبــوعَ البيانِ محمّداً ... فسقى الحديثَ وناولَ التَّنزيلا[3]

[1] مفتاح دار السعادة لابن القيِّم ص170
[2] هكذا علَّمتني الحياة ص 173
[3] جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ص391

هـــذا قلـــيلٌ من كثيرٍ ممّا قيل في فضل العلم والتَّعَلُّم وأهمّيّتهما في حياة المسلم كفرد ينتمـــي لأُمَّـــة الإسلام، وأنَّ الأُمَّة الّتي لم تحظ بالعلم المثمر النافع في كافّة ميادين حياتها لا مكـــان لهـــا بـــين الأمـــم، لأنّ ذلك يجعلها ضعيفة ذليلة، وعرضة للتّقليد الأعمى للأمم المتحضّرة، والمسلّحة بالعلم والمعرفة.

لهـــذا ــ كمـــا تقدّم بيانه ــ حثَّ الإسلام أمّته على السَّبق في كل مضمار ومجال من مجالات الحياة، وحذَّرها من الرّكود ووالعجز والكسل، فمن الأدعية المأثورة الّتي كان النّبيّ ﷺ يعلّمُها لأصحابه رضوان اللّه عليهم أجمعين: "اللّهم إنّي أعوذ بك من العجز والكسل"[1]

لا بـــدّ أن تعلـــم أيّهـــا القارئ أنّ الإسلام هو الدِّين الوحيد الّذي قامت شرائعه وأحكامـــه وعقائده على عقيدة التَّوْحِيْد الّتي أساسها العلم والمعرفة، وأنّ الاندفاعيَّة للعلم والـــتَّعَلُّم هي إحدى العوامل الأساسيّة في عَمَلِيَّة التَّعَلُّم، لذلك حثَّ عليها الإسلام وشجَّع طالبيها مبيّناً لهم جزاءهم الدّنيوي والأخرويّ كما تقدّم ذكره وبيانه.

وأودُّ أن أختـــتم هذا الفصل بوصية الخَضِر، الرجل الصالح الذي أرسله اللّه ﷻ ليقدم النصّح لموسى عليه السَّلام، كليم المولى ﷻ مبيباً له أهمّيّة وفضل العلم والتَّعَلُّم:

قَـــالَ الـــثَّوْرِيُّ قَالَ مُجَالِدٌ قَالَ أَبُو الْوَدَّاكِ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ[2] : قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :" قَالَ أَخِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام : يَا رَبِّ أَرِنِي الَّذِي كُنْتُ أَرَى فِي السَّفِينَةِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ يَا مُوسَى إِنَّكَ سَتَرَاهُ، فَلَمْ يَلْبَثْ مُوسَى إِلا يَسِيراً حَتَّى أَتَاهُ الْخَضِرُ وَهُوَ فَتًى طَيِّبُ الرِّيحِ، حَسَنُ بَيَاضِ الثِّيَابِ.

فَقَـــالَ: السَّلام عَلَيْكَ يَا مُوسَى بنِ عُمَرَ انَ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلام وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَـــرَكَاته. قَالَ مُوسَى: هُوَ السَّلام، وَمِنْهُ السَّلام، وَإِلَيْهِ السَّلام، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

---

[1] صحيح الجامع الصّغير وزيادته / 1284

[2] هـــو الإمـــام المجاهدُ، مفتي المدينة، سعدُ بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عُبَيد بن الأبجر، شَهِدَ أبو سعيد الخندق، وبيعة الرضوان، وحدَّث عن النبيِّ ، فأكثر وأطاب، وعن أبي بكر، وعمر، وطائفة، وكان أحَد الفقهاء المجتهدين، توفي سنة 74 هـــ.

الَّــذي لا أُحْــصي نِعَمَهُ، وَلا أَقْدرُ عَلَى أَدَاءِ شُكْرِهِ إلا بِمَعُونَتِه، ثُمَّ قَالَ مُوسَى: أُريدُ أَنْ تُوصِيَنِي بِوَصِيَّةٍ يَنْفَعُني اللّهُ بِهَا.

فَقَــالَ الْخَضرُ: يَا طَالِبَ الْعِلْمِ، إنَّ الْقَائِلَ أَقَلُّ مَلالَةً منَ الْمُسْتَمِع، فَلا تَمَلَّ جُلَسَاءَكَ إذَا حَدَّثْــتَهُمْ، وَاعْلَــمْ أَنَّ قَلْبَكَ وِعَاءٌ، فَانْظُرْ مَاذَا تَحْشُو به وِعَاءَكَ، وَاعْزِفْ نَفْسَكَ عَنِ الدُّنيا، وَانْبِذْهَا وَرَاءَكَ، فَاهْا لَيْسَتْ لَكَ بِدَارٍ وَلا لَكَ فِيهَا مَحَلُّ قَرَارٍ، فَاهْا إنَّمَا جُعلَتْ بُلْغَةً لِلْعِبَادِ، لِيَتَزَوَّدُوا مِنْهَا لِلْمَعَادِ.

يَــا مُوسَى، وَطِّنْ نَفْسَكَ عَلَى الصَّمْتِ تُلَقَّ الْحُكْمَ، وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ التَّقْوَى تَنَلِ الْعِلْمَ، وَرُضْ نَفْسَكَ عَلَى الصَّبْرِ تَخْلُصْ مِنَ الإثْمِ.

يَــا مُوسَــى، تَفَــرَّغْ لِلْعِلْمِ، إنْ كُنْتَ تُرِيدُهُ، فَإِنَّمَا الْعِلْمُ لِمَنْ تَفَرَّغَ لَهُ، وَلا تَكُونَنَّ مِكْــثَارًا لِمَنْطِقٍ مِهْذَارًا، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْمَنْطِقِ تُشِينُ الْعُلَمَاءَ، وَتُبْدِي مَسَاوِئَ السُّخَفَاءِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالاقْتِصَادِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ التَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجُهَّالِ، وَاحْلُمْ عَنِ السُّفَهَاءِ، فَــإِنَّ ذَلِــكَ فِعْلُ الْحُكَمَاءِ وَزَيْنُ الْعُلَمَاءِ، إذَا شَتَمَكَ الْجَاهِلُ فَاسْكُتْ عَنْهُ حِلْمًا، وَجَانِبْهُ حَزْمًا، فَإِنَّ مَا بَقِيَ مِنْ جَهْلِهِ عَلَيْكَ وَشَتْمِهِ إيَّاكَ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ.

يَــا ابنِ عُمَرَ انَ، لا تَرَى أَنَّكَ أُوتِيتَ مِنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا، فَإِنَّ التَّعَسُّفَ مِنَ الاقْتِحَامِ وَالتَّكَلُّفِ.

يَا ابْنِ عِمْرَانَ لا تَفْتَحَنَّ بَابًا لا تَدْرِي مَا غَلْقُهُ، وَلا تُغْلِقَنَّ بَابًا لا تَدْرِي مَا مِفْتَاحُهُ.

يَــا ابْنِ عِمْرَانَ، مَنْ لا تَنْتَهِي مِنَ الدُّنيا نَهمته، وَلا تَنْقَضِي مِنْهَا رَغْبَتُهُ، كَيْفَ يَكُونُ عَابِــدًا مَــنْ يَحْقِــرُ حَالَهُ، وَيَتَّهِمُ اللّهَ بِمَا قَضَى لَهُ ؟ كَيْفَ يَكُونُ زَاهِدًا ؟ هَلْ يَكُفُّ عَنِ الشَّهَوَاتِ مَنْ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ هَوَاهُ، أَوْ يَنْفَعُهُ طَلَبُ الْعِلْمِ وَالْجَهْلُ قَدْ حَوَاهُ ؟ لأَنَّ سَفْرَتَهُ إِلَى آخِرَتِهِ وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى دُنْيَاهُ.

يَــا مُوسَــى، تَعَلَّمْ مَا تَعَلَّمْتَ لِتَعْمَلَ بِهِ، وَلا تَعْلَمْهُ لِتُحَدِّثَ بِهِ فَيَكُونُ عَلَيْكَ بَوْرُهُ، وَيَكُونُ لِغَيْرِكَ نُورُهُ.

يَـــا مُوسَـــى بْـــنَ عِمْرَانَ، اجْعَلِ الزُّهْدَ وَالتَّقْوَى لِبَاسَكَ، وَالْعِلْمَ وَالذِّكْرَ كَلامَكَ، وَاسْـــتَكْثِرْ مِنَ الْحَسَنَاتِ فَإِنَّكَ مُصِيبُ السَّيِّئَاتِ، وَزَعْزِعْ بِالْخَوفِ قَلْبَكَ فَإِنَّ ذَلِكَ يُرْضِي رَبَّكَ، وَاعْمَلْ خَيْرًا فَإِنَّكَ لا بُدَّ عَامِلٌ شَرًّا، وَقَد وُعِظْتَ إِنْ حَفِظْتَ، ثُمَّ تَوَلَّى الْخَضِرُ وَبَقِيَ مُوسَى حَزِينًا مَكْرُوبًا[1]. "

[1] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ص94

الفصل الثاني
المُعَلِّم ودورِه في العمليّة التَّعْلِيْميّة

الفصل الثاني
المُعَلّم ودوره في العمليّة التّعْلِيْميّة

الواقع الحاليّ

عندما تُذكَرُ عمليَّتي التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم في أيِّ مادَّةٍ من الـمَوَادّ التَّعْلِيْميّة في أي مؤسَّسة تَعْلِيْميّة (سواء في المدارس الحكوميَّة أو المدارس الخاصّة، أو حتَّى في الكليَّات أو الجامعات)، يُذكَر معها كل من المـُعَلِّم والطّالب والمادّة العلميّة والـمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة كمكوِّنات أساسيَّة للعَمَلِيَّة التَّعْلِيْميّة. فجَوْدَة عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم تتعلّق بجَوْدَة تلك المكوِّنات، وسوء عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم تتعلق بسوء عمل وتفاعل هذه المكوِّنات مع العمليّة التَّعْلِيْميّة.

عند تأمُّل واقع مكوِّنات العمليّة التَّعْلِيْميّة في كثير من البلاد العربيّة بشَكْلٍ عام نجد أنَّ كثيراً من النَّاس بما فيهم المثقّفون قد اتَّخذوا موقفاً من هذه المكوِّنات ظاهرُه التَّقدُّم وباطِنه الرَّجعيَّة والجمود.

فعلى صعيد استخدام مفهوم مصطلح "المـُعَلِّم"، نجد أن كثيراً من النَّاس ـ المثقفين منهم وغير المثقفين ـ لديهم غلط وخلط في فهمهم أو استعمالهم للمصطلح من حيث معناه أو استخدامه أو شموليّته، فمنهم من يستخدم كلمة "المـُعَلِّم" ليدل حصراً على من يعمل بصفته مدرساً لمادة علميّة في مدرسة ما، ومنهم من يستخدم كلمة "أستاذ" ليدل على من يعمل كمـُعَلِّم في مدرسة ما، أو مـُعَلِّم في جامعة ما يحمل لقب "الأستاذ"، الذي بدوره سيء استخدامه، لدرجة انه يُستخدم هذه الأيام خطأً كلقب لمدير شركة، أو مصطلح لمنادة شخص يعمل في مؤسَّسة رسمية، وبعضهم يعدُّ مشرف طلبة الدراسات العليّا في جامعة مُعيَّنة بأنّه مـُعَلِّم أو مدرس أحياناً.

وعلى صعيد دور المـُعَلِّم ـ في المدارس الحكوميَّة أو المدارس الخاصّة على سبيلِ المثالِ وليس الحصر ـ في العمليّة التَّعْلِيْميّة، نجد انه مازال يعاني من قصورٍ في وضوح مهمّته

التَّعْلِيمــيّة، وعدم نضجٍ في مادَّته العلميّة، وضعفٍ في مهارات الاتِّصَال عنده مع الآخرين ــســواء كانــوا طلاّبــاً أم إداريّينــ فهو يعتقد أنّ مهمّته التَّعْلِيْميّة تتوقّف عند "توصيل المعلومات" إلى الطُّلَّاب، وانه وصَل إلى أعلى درجات النضج في فهم ومعرفة مادَّته العلميّة عندما حصل على مؤهِّله الجامعيّ، وانه قادرٌ على توصيل المعلومة ولو "بالعصا" !

ظهــرت مؤخراً في بعض الدول العربيّة حالات الفساد التَّعْليْميّ بين المــُعلــّمين، وفــشت حالات الاستغلال بين الإداريّين، وانتشر الخوف والرعب بين الطُّلَّاب من جهة، وأولــياء الأمــور من جهة أخرى، فالمــُعَلِّم لايدرس الطالب في الفصل إذا لم يأخذ عنده دروســاً خــصوصية، ولا يرضى عنه إذا لم يجلب له الهدايا في مناسبة شخصيّة أو وطنية، ومديــر المدرســة يطلــب ولي أمر طالب لأتفه الأسباب، فأحياناً يوبخ ويذل ولي الأمر، واحياناً يهدده بترسيب ولده أو فصله من المدرسة، وكثيراً ما يؤدي مثل هذا الوضع المحزن إلى حالات اكتئاب وبؤس عند الطُّلَّاب وبالتالي إلى فشل في الدِّراسة.

هل هذا الفساد المخزي عند كثير من المــُعلــّمين سببه فقرهم وقلة دخلهم المادي، أم سببه سوء خلق وقلة دين، أم سببه غياب متابعة سلطة المدرسة لهم ولسلوكياتهم؟!

هل إذلال وإهانة أولياء الأمور سببه سوء إدَارَة من قبل مدير المدرسة، أم سوء خلق وقلة دين، أم سببه مزاجية فرعونية عنصرية، أم قلة أدب واحترام للعَمَلِيَّة التَّعْلِيْميّة ككُلّ؟!

هــل خــوف ورعــب الطُّلَّاب سببه ضعفهم الأَكَادِيْمِيّ، أم ضعف في شخصيّتهم الطُّلَّابــية، أم عدم وجود جهة مختصة تدافع عن حقوقهم، أم ثقافة التخويف والترعيب الّتي يمارسها المــُعَلِّمون والإداريّون والّتي يُعَزِّزها نظام التَّعْلِيْم في البلد ككُلّ؟!

هــذا الواقع الخسيس لمكانة ودور المــُعَلِّم في بعض البلدان العربيّة يجعلني أقدِّم هذا الفصل الموجز لأوضح فيه أهمّ خصائص المــُعَلِّم الناجح لعلّ المــُعَلِّم الفاشل يستفيد منها، وأطــرح فيه بعض الطرائق والأساليب الّتي يمكن أن يستخدمها في عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم لتجعل من

تعلـــيمه وتدريـــسه قدوة لغيره في تحقيق الجَوْدَة في عمليَّتي التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم، وتحقيق الشعور بالرضى والسعادة بما يقدمه للطلاب، ويبث روح المحبة والطمأنينة بين الطُّلَّاب.

تسميات وتعاريف

كَثُـــرت مؤخراً الأسماء واالعناوين والمصطلحات المستخدمة في الكتب والمؤسَّسات التَّعْلِيْمـــيّة ووسائل الإعلام للدلالة على من يقوم بعَمَلِيَّة التَّعْلِيْم، أو بعَمَلِيَّة توصيل المعلومة للْمُـــتَعَلِّم، وكلاً منها له دلالته العلميّة، ووظيفته المهنيّة، ومؤهله العلميّ المطلوب، ومكانَتْه الأَكَادِيْمِـــيّة المعـــروفة، لكـــنها جميعها يشترك في إحياء العمليّة التَّعْلِيْمِيّة من جهة، وتعليم الطُّلَّاب من جهة أخرى، أذكر منها مايلي مع الشرح البسيط، للتّعريف بها، وللتمييز بينها:

أولاً: المــُعَلِّم

مـــن ناحية التسمية، 'المــُعَلِّم' مصطلح أَكَادِيْمِيّ تربوي يُستخدم للدلالة على من يقـــوم بعَمَلِـــيَّة تعلـــيم الطُّلَّاب في مراحل الدِّراسة الابتدائيّة والإعدادية والثانوية، وأحيانا تُستخدم كلمة 'مدرّس' عوضا عن 'مــُعَلِّم'.

مـــن الناحية الأَكَادِيْمِيّة، كلتا الكلمتين تدل على من يؤدي وظيفة تَعْلِيْمِيّة تدريسية يقـــوم بهـــا صاحب مؤهل علميّ ما في تخصّص ما، سواءً كان هذا المؤهل حصيلة دراسة سنتين أو ثلاث أو أربع في كلية ما أو معهد ما أو جامعة ما، كما هو الحال في مــُعَلِّم أو مدرس مادة الديانة الإسْلاميَّة، أو مدرس مادة الرياضيات، أو مدرس مادة اللغة الإنجليزيّة أو غيرها من التخصّصات النَّظَرِيَّة والعمليّة أو المهنيّة والحرفية، وهي كثيرة ومتعدّدة.

من الناحية التَّربويّة، المــُعَلِّم هو المدرّس الذي يكون قدوة لطلابه في القول والعمل، وحـــسن الخلـــق، وسلامة الفكر والتَّفْكِيْر، واستقامة التصرفات والسلوك، يقدم لهم العلم النافع بقالب أخلاقيّ علميّ مشوّق.

'المــُعَلِّم' في هذا البحث هو المعيد أو المحاضر، هو الأستاذ أو المشرف، هو المؤدب أو الــشَّيْخ، هـــو العـــالم العامـــل المــُعَلِّم، فهم جميعاً يتحلون بخصلة العلم والمعرفة لكن بمستويات وبدرجات متفاوته، وجميعهم يساهمون في عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم لكنْ كلٌّ حسب طبيعة علمـــه ومقدرته ومكانَتْه، لذلك سأستخدم هذه التسميات عند الحاجة وفي المقام المناسب، إن شاء اللّه.

هـــذا التّعريف للمــُعَلِّم سيكون نقطة انطلاق لنا في هذا البحث الذي سنوضح فيه ــإن شاء اللّهــ بشيء من التّفصيل كل ما يتعلّق بمكانة المــُعَلِّم في الإسلام، وأهمّ صفات وخصائص المــُعَلِّم الناجح، ودوره في العمليّة التَّعْلِيْميّة، وأهمّية دور المعتقدات الّتي يحملها، مـــع عرض سريع لبعض الطرائق والأساليب الّتي يمكن للمــُعَلِّم أن يستخدمها في تعليمه لطلابه.

ثانياً: المُعيد

في معنى وتعريف مصطلح 'الــمُعيد' عند السَّلَف الصالح، ذكر ابْن جَمَاعَةَ الْكِنَانِيّ[1] رحمـــه اللّه: أن "المعيد هو الذي يعيد الدرس بعد إلقاء الشَّيْخ الخطبة على الطلبة كانهُ معين الشَّيْخ على نشر علمه، وتثبيت خطباته، وإملائه في أذهان الطالبين شرحاً وبسطاً، ومعاون للطلـــبة في إعادة المحفوظات، والمراجعة في المذاكرات، فهو دون الشَّيْخ، وأعظم درجة من عامّة الطلبة"[2].

ينبغي أن يكون الــمُعيد من نخبة العقلاء، وصلحاء الفضلاء، وأن يمتاز بالصبر على أخـــلاق طلابـــه، وبالحـــرص على فائدتهم وانتفاعهم به، وبالسهر على راحتهم وأمنهم

---

[1] هـــو قاضــــي القـــضاة شيخ الإسلام بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد اللّه بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، ولد سنة 639 هـــ في حماة وتوفي سنة 733 هـــ.

[2] تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لإبن جماعة الكناني، ص138

وســـلامتهم قدر المستطاع، وهذا ما يولّد لديهم الحب والتقدير له، والرغبة في العمل الجاد والدِّراسة العميقة الفعّالة.

في المحـــيط الأَكَاديْمِـــيّ العربيّ، 'الـــمُعيد' هو كل من حصل على درجة جامعية بتقديـــر امتـــياز أو بدرجة شرف، وأُتيحت له فرصة التدريس في الجامعة. هذا المصطلح يُستخدم في بعض الجامعات العربيّة، لاسيما في الجمهورية العربيّة السورية، ومصر، وليبيا، والسودان، وذلك تشجيعاً للمعيد لمتابعة دراساته العليّا من جهة، ولتحفيز الطُّلّاب المجتهدين مـــن جهـــة أخرى، أما في أورُبا ولاسيَّما في المملكة المتحدة، يقوم بمثل هذا العمل طالب دراســـات علـــيا نشيط يُعطى فرصة تدريس طلبة السنوات الأولى من دراستهم الجامعيّة، وذلـــك لإعطائه فرصة كسب بعض المال، مما جعل البعض يعتقد أن ذلك استغلال لجهود طالب الدراسات العليّا، وجحد لحقوق طلبة الدراسات الجامعيّة، ولاسيَّما طلاب السنوات الأولى من دراستهم.

ثالثاً: المحاضر Lecturer

إن لقـــب 'المحاضـــر' مصطلح وظيفي أَكَاديْمِيّ يُعطى لمن يريد أن يعمل في المحيط الجامعـــيّ بـــصفته مدرساً، ومؤهلاته الأَكَاديْمِيّة يمكن أن تكون إجازة جامعية أو درجة ماجستير أو حتى درجة دكتوراة في تخصّص معين، إضافة إلى خبرة لمدة مُعيَّنة في التدريس، أما وظيفة كبير المحاضرين Senior Adviser هي وظيفة أعلى من وظيفة المحاضر، ويمكن أن يكون حاصلاً على إحدى المؤهلات الأَكَاديْمِيّة أو جميعها التي يحملها المحاضر، ويحصل على هـــذه الوظيفة من لديه خبرة أفضل في التدريس، ولديه مؤلفات وأبحاث منشورة، ويكون أيـــضاً مؤهَّلاً للإشراف على رسائل طلبة الدراسات العليّا، هذا الوضع مطبق في الجامعات الغَرْبِيّة ولاسيَّما البريطانية منها.

وهـــناك أيـــضاً مصطلح وظيفي أَكَاديْمِيّ يأتي بعد مصطلح الـــSenior Adviser يـــسمى 'قارئ' Reader ويُستعمل في الجامعات البريطانية أو في الجامعات الّتي تتبع نظام

التَّعْلِيْم البريطاني فقط، أمثال الجامعات في سينغافور، ونادراً ما يُستخدم في جامعات الدول العربيّة.

رابعاً: الأستاذ الجامعيّ Professor

يُستخدم مصطلح لقب "الأستاذ" للدلالة على مكانة علميّة ووظيفة أَكَاديْمِيّة في آن واحد، يحصل عليها من لديه مؤهلات أَكَاديْمِيّة مثل الإجازة الجامعيّة أو درجة الماجستير أو درجة الدكتوراة، ولديه أيضاً خبرة مُمَيَّزة في التَّعْلِيْم والتدريس والإشراف والبحث العلميّ والتأليف أكثر وأفضل مما سبق ذكره أعلاه. الها مكانة مُمَيَّزة جداً في الجامعات البريطانية، ولا يحصل عليها إلا من كان له مساهمة مُمَيَّزة في ابتداع نظرية مُعيَّنة أو له براءة اختراع أو اكتشاف، وليس كما يحصل في بعض الجامعات العربيّة ــ للأسف ــ إذ يحصل عليها كل من لديه درجة الدكتوراة، وخبرة خمسة سنوات، ونشر ما بين عشرة إلى خمسة عشر مؤلفاً أو بحثاً علميّاً فقط!

وهناك أيضاً درجة "أستاذ مساعد Assistant Professor" ودرجة "أستاذ مشارك Associate Professor" فهما أقل مكانة من مكانة "الأستاذFull Professor"، هذا النظام من السلم الوظيفي الأَكَاديْمِيّ يُستخدم بشَكْلٍ واسع في الأمريكتين ومعظم البلاد العربيّة.

خامساً: المشرف Supervisor

إن مصطلح لقب "المشرف" في الوسط الأَكَاديْمِيّ يُعطى عادة لمن يكون مسؤولاً عن المتابعة الأَكَاديْمِيّة لتقدُّم طلاب الدراسات الجامعيّة العليّا، كطلاب درجة الماجستير وطلاب درجة الدكتوراة، ويمكن للمشرف أن يكون برتبة محاضر، أو محاضر كبير، أو قارئ، أو أستاذ، ومهما كانَتْ رتبته الوظيفية الأَكَاديْمِيّة، فهو يقوم بمهامّ مضمونها النصّح والإرشاد الأَكَاديْمِيّ المتعلقة بدراسة الطالب المُشْرَف عليه.

سادساً: المُؤدِّبُ

يعود استخدام مصطلح لقب "المؤدِّبُ" إلى العصر الأموي زمن خلافة عبد الملك بن مــروان. لم يحمــل المؤدِّب أية مؤهلات أَكَادِيْمِيّة، لكن كان عليه أن يُعرَف بتقوى اللّه، وصــلاح الــدِّين، وبالخلــق الحــسن، والعلم النافع، حتى يتمكن من العمل بصفته مربِّياً ومــُعَلِّماً وراعياً صحياً واجْتِمَاعِيّاً لولد ما أو مجموعة من الأولاد. لا يُسخدم هذا المصطلح في عصرنا هذا _للأسف_ لكننا مازلنا نستفيد من علم ومنهجية المؤدبين السابقين الأوَّلين، فقــد روي في وصية عبد الملك لمؤدّب ولده انه قال:" علِّمْهم الصدق كما تُعَلِّمهم القرآن، وجَنِّــبْهم السَّفِلَةَ[1] فانهم أسوأُ النَّاس رِعَةً[2] وأقلِّهم أَدَباً، وَجَنِّبْهُم الحَشَم فانهم لهم مَفْسَدة، وأَحْفِ[3] شُعُورَهم تَغْلُظْ رِقابُهم، وأطْعِمْهم اللحمَ يَقْوَوْا، علِّمهم الشِّعر يَمْجُدُوا ويَنْجُدُوا[4]، ومُرْهم أن يستاكوا عَرْضاً، وَيَمصّوا الماء مصًّا، ولايَعُبُّوه عَبًّا، وإذا احتجتَ إلى أن تتناولَهم بأدب فليكن في سِتْر لا يعلَمُ به أحدٌ من الغاشية[5] فَيَهُونُوا عليه"[6].

[1] السِّفْلَةُ بكسر الفاء السقاط من الناس يقال هو من السفلة ولا تقل هو سفلة لأنها جمع- مختار الصحاح.

2 وَرِعَ يرع رِعَةً بكسر الراء_ المختار بمعنى الورع والتقوى. مختار الصحاح.

[3] أَحْفَــى شــاربه استقــصى فــي أخذه وفي الحديث { أنه أمر أن تُحفى الشوارب وتُعفى اللحى }. مختار الصحاح.

[4] يمجــدوا مــن المجد، وينجدوا من الرفعة والعلو. وهي في أصل لغة العرب نسبة لنجد في مقابل تهامة، فيقولون أتهم، وأنجد على الأرض في الحقيقة، كما يقولونهما في المجاز، كما هي في نص عبد الملك .

[5] لسان العرب (15/ 126)

والغاشيةُ السُّؤّالُ الذين يَغْشَوْنَكَ يَرْجُون فَضْلَكَ ومَعْرُوفَكَ .

[6] كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، ج2/ص141

وقـــال الحجّاج[1] لمؤدّب بنيه: "علمهم السباحة قبل الكتابة، فالهم يجدون من يكتب عـــنهم، ولا يجدون من يسبح عنهم"[2]. وقال آخر لمؤدّب ولده: " لاتُخْرجهم من عِلْم إلى عِلْم حتى يُحْكِمُوه، فإن اصطِكَاكَ العلم في السمع وازدحامَه في الوَهم مَضَلَّةٌ للفهم"[3].

سابعاً: الشَّيْخ

إن مـــصطلح لقب 'الشَّيْخ' قديم حديث، كثير الاستخدام، مختلف المعاني، متشعب الدلالات، فهناك من يستخدمه لمعناه ودلالته الاجْتِمَاعِيّه المرموقة، كقوله : "فلان شيخ في أخلاقه، وعاداته، وسلوكياته" ومنهم من يستخدمه لمعناه ودلالته السّياسيّة :كقوله: " فلان شـــيخ قبيلة شمر، أي رئيسها أو أميرها"، لكننا نكتفي هنا بالاشارة إلى مصطلح "الشَّيْخ" الذي له صلة وطيدة، وعلاقة قويّة، بالعلم وعَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم.

يطلـــق لقب 'الشَّيْخ' ـــ قديماً وحديثاًـــ على رجل الدِّين الذي يعمل في مجال تعليم الـــنَّاس تعاليم دينهم الحنيف، وفي الدعوة والإرشاد، وعلى نشر عقيدة التَّوْحِيْد بالكلمة وبالقلم، من خلال وظيفة مأجورة أو غير مأجورة، سواء كان إماماً في مسجد أو مـــعَلِّماً في مدرسة أو داعياً مستقلاً بنفسه.

كانَتْ قديماً مؤهلات الشَّيْخ تقوى اللّه، وعلم قال اللّه، قال الرَّسول، قال الصَّحابةٌ، قـــال السَّلَف الصالح، وكان يأخذ علمه وطريقة تفكيره وأُسْلُوْب دعوته عن شيخ أو عدة مـــشايخ معروفين في عصره، فعلى سبيلِ المثالِ وليس الحصر، تتلمذ الإمام العظيم ابْن قيمّ الجَوْزِيّة رحمه اللّه على يد أبي بكر بن عبد الدائم، والقاضي تقي الدِّين سليمان، وعيسى

---

[1] هـــو أبـــو محمـــد الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل بن الحكم الثقفي، ولد في الطائف (41 – 95 هـــ) وكـــان معروفاً بالمكر والدهاء والفصاحة والبلاغة، وعرف أيضاً بالظلم وسفك الدماء وتعدي حرمات الله، ولّـــي على العراق من قِبل عبد الملك بن مروان، اشتهر بحصاره لعبد الله بن الزبير بالكعبة ورميه إياها بالمنجنيق، وإذلاله لأهل الحرمين. (انظر: سير الأعلام، ج4/ص343)

[2] كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، ج2/ص141

[3] كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، ج2/ص141

المطعـــم، وغيرهم من علماء عصره، والجدير بالذِّكْر انه لازم شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه اللّه وأدخله الفردوس الأعلى ملازمة التلميذ لشيخه، فأخذ عنه كثيراً من العلوم.

أما حديثاً، وكثير من المشايخ يحملون درجات جامعية، والّتي قد تكون أحياناً درجة الليـــسانس في الدراسات الإسْلاميَّة،أو درجة الماجستير أو درجة الدكتوراة في تخصّص له علاقة بالدِّين والشريعة الإسْلامِيَّة. بعض هؤلاء المشايخ تتاح لهم فرصة إعطاء دروس أو محاضـــرات أو حلقـــات علم في المساجد أو مؤخراً على بعض القنوات الفضائية التلفازيّة فيجتمع حولهم نفر من طلبة العلم لتلقي العلم، وربما الفكر والأُسْلُوْب عن غير تنظيم ونظام مـــتابعة ليس من قبل الشَّيْخ ولا من قبل طالب العلم، وبهذا تكون قد تلاشت ثقافة الشَّيْخ وتلاميذه بالمعنى والشَّكل القديم. وأسباب هذا الانقراض لمثل هذه الثقافة العريقة المُمَيَّزة في الحفـــاظ على جَوْدَة العلم وعَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم كثيرة ومتشعبة لا أريد مناقشتها في هذا المقام.

إن تـــسارع انقـــراض ثقافة "الشَّيْخ وتلاميذه" بمعناه وشكله القديم في عصرنا هذا، واستبداله بخريجين من أقسام الشريعه الإسْلامِيَّة في كثير من الجامعات العربيّة_ وللأسف!_ أدى إلى ظهـــور طائفـــة من 'شيوخ القمراء[1]'، الذين يهتمّون بالشهادة الجامعيّة والوظيفة واللقـــب أكثـــر مـــن اهتمامهم بكسب أو نشر العلم النافع. كم من هؤلاء يحفظ القران والحـــديث! وكم منهم يعمل بعلم القران والحديث ويدعو إليهما في السر والعلانية! ففي هـــؤلاء قـــال هشام بن علي: "سمعت الأعمش يقول: إذا رأيت الشَّيْخ لم يقرأ القرآن ولم يكـــتب الحـــديث فاصفح له فانه من شيوخ القَمْراء. قال أبو صالح: قلت لأبي جعفر: ما

[1] بمعنى أنهم يهمهم السمر في الليالي القمراء، بمتعته وخفته، ويؤثرونه على العلم الحقيقي الذي يحتاج معه طلـــب العلـــم، إلى المشقة والصبر والجلد .وربما غطوا بذلك على ما هم فيه من جهل وادعاء. ولعل في عصرنا قمراء كثيرون كثيرون!

شيوخ القمراء؟ قال: شيوخ دهريّون يجتمعون في ليالي القمر يتذاكرون أيام النَّاس ولايحسن أحدهم أن يتوضّأ للصلاة"[1].

وظهــرت مؤخــراً طائفة من المشايخ أكثر جرأءة ممن سبقها في العصور الماضية من حــيث استعمالها للدين وسيلة للتقرب من السُّلْطان من أجل الحصول على مال أو جاه أو مجلــس اِجْتِمَاعِيّ يلتفت إليهم النَّاس إعجاباً بهم وبعلمهم، فهذا النوع من المشايخ باعوا دينهم واشتروا دنيا فانية، فخسروا الدُّنيا والآخرة، وانقلب سعيهم حسرة ومزلّة لهم، وأشد مــن هذا ما رُوي: "أنَّ رجلاً كان يخدم موسى عليه السَّلام فجعل يقول: حدَّثني موسى صــفي اللّه، حدثني موسى نجي الله، حدثني موسى كليم الله حتى أثرى وكثر ماله، ففقده موســى عليه السَّلام فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود، فقال له موسى عليه السَّلام: أتعرف فلاناً؟ قال : نعم، قال هو هــذا الخنزيــر، فقال موسى: يا رب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بمَ أصابه هذا؟ فأوحــى الله عز وجل إليه: لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه، ولكن أخبرك لم صنعت هذا به؟ لأنّه كان يطلب الدُّنيا بالدِّين "[2].

لكــن مــازال يــوجد طائفة من المشايخ الكرام في عصرنا هذا ــ والحمد لله ــ قد أخلصوا النية، وزهدوا بالألقاب الأَكَادِيْمِيّة الّتي أحياناً لايستحقها صاحبها، واكتسبوا العلم الــنافع، وعملــوا ليل نهار على نشر كلمة الحق والدِّين، وابتعدوا عن القصور وأصحابها، واشــتروا الآخرة وباعوا الدُّنيا وما فيها إرضاءً للّه عز وجل، هؤلاء ولو كان عددهم قليل فهم ــ إن شاء اللّه ــ تلامذة المشايخ العظام، والأئمة الموحدين، والعلماء الكرام السَّابِقين، أمثال الإمام عبد الرحمن بن علي بن الجَوْزِيّ، والإمام اِبْن قيمّ الجَوْزِيّة، وشيخ الإسلام تقي الدِّين أحمد بن تيمية، رحمهم اللّه أجمعين وأدخلهم برحمته فسيح جناته.

---

[1] مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية،(ج1/ص205)

[2] إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ص87

ثامناً: العَالِمُ

إن لقــب 'العــالم' جميل وفخم معنًى ومضموناً، وكفى بصاحب هذا اللقب شرفاً وعزاً وفخراً أن اللّه سبحانه وتعالى قد ذكره في القرآن الكريم في مواقف عدة ليعطيه مكانة مُمَيَّزة في سجل العمل البشريّ وأفضليته على غيره من العباد، حيث قال ﷻ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:28].

يــوجد خــلاف واخــتلاف واضحان بين الغرب والشرق، وبين المسلمين وغير المــسلمين، وبين العَلْمانيّين، وأهل السّنّة والجماعة على تعريف مصطلح 'العالم'، فالغرب وغــير المسلمين والعَلْمانيّين يعتقدون انه يمكن إطلاق لقب 'العالم' على الشّخص الذي قدم مساهمة علميّة كبيرة للإنسانية جمعاء، ويكون ذلك من خلال كتابته لأبحاث علميّة كثيرة، ونــشره لمؤلفات عديدة، وحصوله على براءة اختراع أو اكتشاف جديد أو إحداث نظرية جديــدة يمكــن تطبيقها في إحدى المجالات العلميّة من طب وهندسة ورياضيات وفيزياء وكمياء،وغيرها من العلوم الكونية.

هــذا التّعــريف أو المفهــوم للقب 'العالم' الذي يحمله العَلْمانيّون ومن والأهمّ هو تعــريف ناقص ومشوه بل باطل إلى حد كبير، لأنّه لايعترف على أهمّ الخصال والشروط الّتي وضعها اللّه ﷻ في وصفه للعالم، وهي 'الخشية' من اللّه رب العالمين، لذلك نضع المعاير التالية الّتي توضح معنى ومفهوم مصطلح 'العالم' حتى يكون دليلاً لمن أراد أن يحصل على هذه المرتَّبة العلميّة العظيمة:

أ. المعيار الشَرْعيّ

هــذا المعيار يحدد حقيقة من ادّعى بأنّه عالم، ويظهر لنا إن كان كذلك أم لا، لأن الجانــب الدِّين يّ أو الرُّوحيّ من شخصيّة العالم يلعب دور 'الضابط' لآلية عقله وتفكيره،

فإذا كان تفكيره يتعارض مع ما جاء بكتاب اللّه والسّنّة الشّريفة، أوقفه ومنعه من البت به، أما إذا لم يتعارض معهما فعليه أن يدعه ويبارك في تفكيره وإبداعه، لذا يجب على العالم أن يتحلى بالخصال التالية، ويتقيد بها كشروط للحصول على لقب 'العالم'، فيجب عليه :

1. أن يخلص النية بأن كل علمه وما يسعى إليه هو للّه وحده ومرضاة له ﷻ .
2. أن يتقي اللّه ويخشاه في كل ما يقول أو يكتب سراً وعلانية.
3. أن يتحلى بحسن ومكارم الأخلاق، ويتخلى عن كافّة آفات العلم المبغضة.
4. أن يكون عالماً عاملاً مـُعَلِّماً عابداً لله وحده، وزاهداً بحطام هذه الدُّنيا الفانية.
5. أن يتأكّد أن علمه فيه منفعة له وللعباد وخالٍ من أية ضلالة أو مضرة.
6. أن يكون ذا مكارم وفضائل جامع بين العلم والدِّين والصلاح والإيثار.

ب. المعيار العلميّ

هـذا المعـيار يحدد طبيعة وقيمة المادّة العلميّة، ومقدار النتاج العلميّ والأكَادِيْمِيّ، وعمـق وفعّالـية تخيُّل وتفكير وتحليل العالم للمعلومة، وجَوْدَة عَمَلِيَّة عرضه للمعلومة، لذا يجب التَّأكُّد مما يلي:

1. نوع العلوم الُمبْدَع فيها، هل هو من العلوم العليّا (علم قال اللّه، قال الرَّسول)، أم هـو من العلوم الوسطى (كعلم الطب والهندسة، والعلوم الاِجْتِمَاعِيّة، والأدبيّة الأخرى)، أم هو من العلوم السفلى (كالعلوم المهنيّة والحرفية وغيرها من العلوم).
2. لا بـد للكـم العلميّ والمنتوج الأكَادِيْمِيّ الذي ينتجه العالم أن يلعب دوراً في تأهـيل العـالم للقب العالم، فليس كل من كتب مجموعة من الكتب والمجلدات، ونـشر عـشرةً أو عشرين أو حتى ثلاثين بحثاً علمياً يمكن أن يقال له عالم، فلو نظـرنا في الكـم الذي قدمه العلماء السابقون الأولون، لوجدنا من يسمون ب "علمـاء هذا العصر" بأنّهم أقزام أمام عمالقة العلوم العليّا، أمثال الإمام أحمد بن

حنـــبل في الحديث والفقه، وشيخ الإسلام في العقيدة والتَّوْحِيْد، وابْن عساكر في التاريخ، وغيرهم من العلماء العظماء المتقدِّمين.

3. كمـــا لابدّ من النَّظَر في جَوْدَة علم العالم، فقد كثر الكلام مؤخراً، ولاسيَّما في عصر تكنولوجية المعلومات، عصر الحواسيب والأزرار، عصر كلام وثرثرة مواقع الإنتـــرنت، عصر كثر فيه الثرثارون المتشدقون، وقلَّ فيه العلماء الوقورون، عصر كثر فيه "المسح والقص واللصق"، وقل فيه العمل والصدق، لذا يجب التَّأكُّد من أن علـــم العـــالم، فيه إبداع وليس ابتداع أو سرقة من هنا وهناك، وفيه اعتراف واضح واستخدام متوازن لمبدئي "النقل والعقل"[1]، وفيه عمق ووضوح في التَّفْكِيْر والنقد والتحليل.

4. ويجـــب أيضاً التَّأكُّد من جَوْدَة عرض العالم لعلمه، وطريقة طرحه لنقاط النقاش، وأُسْـــلُوْب مناقشته لنقاط الموضوع، هل عرضه لعلمه جميل سهل واضح مريح، هـــل طرحه لنقاط النّقاش فيها يعتمد على قواعد وأسس البحث العلميّ: من (تـــوازن في اســـتخدام مبدئي النقل والعقل، والموضوعيّة، والاستقرائية، والالتزام بمسار منطقيّ واحد، وغيرها من الأسس).

ت. المعيار العمليّ

إن الجانـــب العمليّ لأي علم تطبيقي أو نظري، ومدى أثره أو تأثيره على الواقع، ومنفعته للعباد، له أهمّية عظيمة، ويلعب دوراً أساسيّاً في تقدم وتحضر البشريّة، ويرفع من

---

[1] مـــبدأ النقل هو مبدأ يقوم على تحكيم كتاب اللّه والسنة الشريفة والرجوع إليهما في كافة الأمور الإنسانية، ورفـــض أي تحكـــيم عقلـــي إذا تعارض مع النص القرآني أو ما صح نقله عن النبي محمد صلوات اللّه وسلامه عليه، فالمعرفة تكون معرفة نقلية عقلية. أما مبدأ العقل هو تحكيم العقل دون الرجوع إلى ما صح نقله عن الرسول ﷺ، وتكون المعرفة معرفة عقلية نقلية.

أخلاقـيّات وسلوكيات الإنسان اتجاه نفسه واتجاه أخيه الإنسان، لذا يجب أن يتحلى علم العالم بمايلي حتى يمكن أن يتَّصف ب 'العالم' عن حق وجدارة:

1. يجب أن يكون علم العالم قابلاً للتطبيق على أرض الواقع، سواءً كان علماً نظرياً كما هو الحال في العلوم الإسْلاميَّة، والعلوم الاجْتِمَاعيّة، والعلوم التاريخيّة، وغيرها من العلوم النَّظَرِيَّة النَّافعة، أم علماً تطبيقياً كما هو الحال في علوم الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء وغيرها من العلوم التطبيقيَّة الأخرى.
2. لا يكفـي للعلم أن يكون قابلاً للتطبيق فقط، بل يجب أن يكون له تأثيره وأثره علـى حـياة الإنـسان في كافَّة مجالات الحياة، في مجالها الدِّين يّ، والأخلاقيّ، والنَّفـسي، والاجْتِمَاعـيّ، والاقتصادي، والسّياسيّ، وغيرها من الجوانب الّتي تساعد على عبادة اللّه بحق.
3. من أهمّ شروط علم العالم أن يكون في علمه منفعة عَمَلِيَّة تطبيقيَّة تساعد العبد في تأدية واجبه اتجاه ربه عز وجلّ أولاً، ثم اتجاه نفسه وأهله ومجتمعه ككُلّ، فلا قيمة للعلم إن لم يكن علماً نافعاً يرضاه اللّه ورسوله ﷺ.

لذا على كل من يريد أن يصبح عالماً بحق عليه أن يستفيد مما ذكرته أعلاه في تعريفي للعـالم، ويعمـل جاهداً كي يتحلى بأهمّ الخصال الّتي تميّزه عن كثير ممن يعلم، ولا يكون عالماً بحق إلا أن يكون الاستماع أحب إليه من الكلام، وما أقل هؤلاء!

إن التـسميات والـتعاريف الّتي ذكرتها في هذا الجزء من المبحث تشترك فيما بينها بخصال وعوامل عدة، أهمّها العلم والتَّعْلِيْم، فكل من المـُعَلِّم أو المدرّس، والمعيد، والمحاضر، والمشرف، والأستاذ الجامعيّ، وحتى المؤدِّب، والشَّيْخ، والعالم، لديه 'علم' ما، ويقوم بمهمّة ووظيفة 'التَّعْلِيْم'، ويشارك في تعزيز عَمَلِيَّة 'التَّعَلُّم' عند الطالب.

سأستخدم مصطلح 'المــُعَلِّم أو المدرس' خلال مناقشتي في هذا الكتاب لأنّه يشترك مـــع بقـــية التـــسميات والتعاريف بعوامل كثيرة، كما سأستخدم بقية التعاريف في المقام المناسب وعند الحاجة، إن شاء اللّه.

المـُعَلِّم ومكانَتُه في الإسلام

لو نظرنا في مكانة المــُعَلِّم في بعض المجتمعات الّتي تدعي التحضر، واحترام حقوق الإنـــسان، والعمـــل بقانون العدل والمساوة، أمثال بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية، لـــوجدنا أن مرتبة المــُعَلِّم أو المدرس ــ سواءً كان يعمل في المرحلة الابتدائيّة أو الإعدادية أو الثانويةــ هي في أدنى درجات السلم الوظيفي اِجْتِمَاعِيّاً ومالياً مقارنة مع مكانة الطبيب أو المهندس أو المحامي.

ولو نظرنا أيضاً في مكانة المــُعَلِّم في مجتمعات الدول العربيّة الّتي بدورها تقلد الدول الغَـــرْبِيّة في كثير من الأمور، منها كيفيّة النَّظَر والتعامل مع المــُعَلِّم وأين موضعه في السلم الاِجْتِمَاعِيّ الطبقي من جهة، ومكانَتُه في السلم الوظيفي تَعْلِيْمِيّاً وتربوياً ومالياً، لو جدنا أن المــُعَلِّم العربيّ ليس بأفضل حالاً من المــُعَلِّم الغَرْبِيّ.

يعـــاني المـــــُعَلِّم العـــربيّ حالياً ــوللأسفــ من عقدة النقص والشعور بالصغار والقـــصور أمام الطبيب أو المهندس أو المحامي، فهو يعتقد أن الطبيب ــعلى سبيلِ المثالِ وليس الحصرــ أفضل منه علمياً واِجْتِمَاعِيّاً ومالياً، وهذا ما يجعله- إلا مارحم ربي- عرضة لوساوس الشّيطان، وضحية للجهل والجشع، ومطية لارتكاب الخطايا والذنوب، فتارة تراه مغمـــوماً مهموماً، وكانهُ فقد الأهل والأخلاء، وتارة تراه ناقماً منتقماً، وكأن الطُّلّاب قد أكلوا أكله، وشربوا شربه، فهو يذهب إلى المدرَسَة على مضض منه، ويدَّرس الطُّلّاب بدون مـــبالاة وشهية، وإذا فكر في تحسين وضعه، ذهب عقله وتفكيره لتدريس الطُّلّاب دروساً خصوصية، فهي سهلة سريعة، تعطيه الجاه والمال، لكن تفقده السعادة والطمأنينة.

هذا الوضع المحزن لكثيرين من المـُعلـِّمين في معظم البلاد العربيّة سببه الجهل وقلة الـدِّين، وجور العرف الاجْتمَاعِيّ، وفشل وقصور في نظام التَّعْلِيْم والمتابعة في المؤسَّسات التَّعْلِيْميّة، فلو علم المـُعَلِّم أن 'بضاعته'[1] هو رزق ساقه اللّه له، ورضي به وعمل به علماً وتعليماً، لعرف انها أفضل وأشرف من 'بضاعة' طبيب لايخاف الله في علمه وعمله وتعامله مـع زبائـنه، ومـا أكثـرهم هذه الأيام! تجد أحدهم، حديث التخرّج، حديث المهنة، لامـؤهلات بجدارة، ولاخبرة تُذكر، ولا أبحاث تُنشر، يتصدر المجالس الاجْتمَاعيّة المنافقة، وتحـتل لائحـة عنوان عمله المنقوشة والمزخرفة بأسماء ورموز شهادات ما أنزل الله بها من سـلطان الشوارع الرَّئيسة في المدينة، وبها يبدأ همه وجشعه وعنجهيته، فتراه ـعلى سبيلِ المـثالِـ يطلـب إجرة باهظة لبضع دقائق يقضيها على عجل مع مريض لايتجرأ على أن يستفـسر عـن مرضـه وحالته الصحية إلا ويصيح به هذا الطبيب الفظ الجاهل الأهوج[2] الرطيء[3] : ما بك؟ لماذا هذه الأسئلة؟ هل تشك باستشارتي؟ إذا لم يعجبك الأمر، بابي ما زال مفـتوحاً؟ فبئس الطبيب هو، وبئس الاسشارة هي، وبئس الوظيفة هي، وبئس الباب بابه.

إن الحماقـة والكـبرياء والعجب والفخر والخيلاء أمراض قلبيّة يعاني منها كثير من الـنَّاس وعلى رأسهم أمثال هذا الطبيب الجاهل الأهوج الرطيء، وسبب هذه الأمراض الجهـل ودواؤها العلم، فبعلمه النافع يعالج المـُعَلِّم الناجح مرضى القلوب، وبعلمه النافع يجلب لنفسه ولطلابه سعادة نفسانيّة روحيّة قلبيَّة.

اعلم أيها المـُعَلِّم الفاضل أن بضاعتك خير من أي بضاعة دنيوية أخرى، فلا يغرنك تقلب أصحاب هذه الدُّنيا الفانية فيها، ولا تيأس من روح اللّه، فبضاعة العلم والمعرفة خير

---

[1] المقصود هنا كل ما بحوزته من علم وعمل ومهنه

[2] الأهوج: هو من كان طويلا في حمق وطيش وتسرُّع

[3] الرطيء: الأحمق الغليظ الكلام

مـــن بضاعة المال والجهل، فقد روي أن أبا جعفر الطحاوي قال: "كنت عند أحمد بن أبي عمران فمرّ بنا رجل من بني الدُّنيا فنظرت إليه وشُغلت به عمّا كنت فيه من المذاكرة، فقال لي: كأني بك قد فكرت فيما أُعطي هذا الرجل من الدُّنيا، قلت له: نعم، قال: هل أدلّك علـــى خلّة؟ هل لك أن يحوّل اللّه إليك ما عنده من المال، ويحوّل إليه ما عندك من العلم، فتعيش أنت غنياً جاهلاً، ويعيش هو عالماً فقيراً؟ فقلت: ما أختار أن يحوّل اللّه ما عندي من العلـــم إلى ما عنده، فالعلم غنى بلا مال، وعزّ بلا عشيرة، وسلطان بلا رجال. وفي ذلك قيل"[1]:

العلم كنـــز وذخر لا نفاد لـــه ... نعم القرين إذ ا ما صاحب صحبا
قد يجمع المرء مالاً ثم يحرمـــه ... عمّا قليل فيلقى الذلّ والحربـــا
وجامع العلم مغبوط بـــه أبداً ... ولا يحاذر منه الفـــوت والسلبا
يا جامع العلم نِعْمَ الذّخر تجمعه ... لا تعدلنّ به درّاً ولا ذهـــبـــا

إن الإســـلام أجلس صاحب العلم النافع مجلس عزٍّ وشرفٍ ورفعةٍ وقوّة يغبطه عليه كـــثير من العقلاء الأفاضل، فقد أثنى الشرع على المـــُعَلّم ووضعه موضع حمد وثناء، وبهذا حقـــق مكانة دِيْنِيّة، وعلميّة، وتربوية، واجْتِمَاعِيّة، أما وضعه الاقتصادي والسّياسيّ ففيها نظر كما سنرى في الصفحات التالية، إن شاء اللّه:

أولاً: وضع المـــُعَلّم الدِّينيّ

أول مـــن تقلّد وسام لقب 'المـــُعَلّم' هو جبريل عليه صلوات اللّه وسلامه، وذلك عـــندما كان يعلّم رسولنا محمّداً، الإسلام، وما أوحاه اللّه لرسوله من تعاليم وشرائع، قال اللّه تعالى في وصفه للمـــُعَلّم الأول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: 4-5]

[1] مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية، (ج1/ص206)

فوصــفه اللّه لجبريل صلوات اللّه وسلامه عليه بالعلم والقوّة، فيكفي المــُعَلّم شرفا ومكانة أن يسعى لكي يتحلى بهاتين الخصلتين الجميلتين.

وهــل هناك مكانة أو عمل أنبل وأفضل من مكانة النبوة وعمل الأنبياء، فمحمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، ورسوله للعالمين أجمعين، جاء رسولاً مــُعَلّماً يعلمنا ديننا وشريعتنا، فكــان الرَّســول المــُعَلّم المرشد الهادي، وكان القمر يستنير بنور علمه أناس يسيرون في ظلمات الجهل والضياع، قال اللّه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة:2].

وعَنْ عَبْدِ اللّهِ بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنهما، قَالَ: "خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله علــيه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ بَعْضِ حُجَرِهِ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِحَلْقَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ تعالى، وَالأُخْرَى يَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ فَقَالَ النَّبِيّ صلى الله عليه وســلم : كُلٌّ عَلَى خَيْرٍ، هَؤُلاَءِ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، وَيَدْعُونَ اللَّهَ، فَإِنْ شَاءَ أَعْطَأهمّ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَهَؤُلاَءِ يُعَلِّمُونَ وَيَتَعَلَّمُونَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مــُعَلِّما، فَجَلَسَ مَعَهُمْ"[1] .

ألا يُرضــى المــُعَلّم في هذا العصر، ويكفيه شرفاً وعزاً أن يعلم أن جبريل صلوات اللّــه وسلامه عليه كان مــُعَلّماً، وأن محمّد رسول اللّه ﷺ جاء مــُعَلّماً، وأن الصَّحابة الكــرام رضــوان اللّه عليهم أجمعين كانوا مــُعلمين للناس دينهم، وأن التَّابعين والسَّلَف الصالح كانوا أيضامــُعلمين! قال سفيان بن عيينة: "أرفع النَّاس عند اللّه مترلة من كان بين اللّه وبين عباده، وهم الرّسل والعلماء"[2].

لا شكَّ أن المــُعَلّم الذي يُدرِّس علماً ينتفع به المسلمون، وكان مخلصاً لله في عمله، ينتظــره أجــر عظيم من اللّه عز وجل، ويستغفر له من في السموات والأرض جزاءً لعمله

[1] سنن ابن ماجة، رقم229 (ضعيف)

[2] مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية، (ج1/ص149)

وتقديراً لمكانته، فعن أبي الدَّرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: "وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوات وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ"[1].

وعـــن أبي هريرة ﷺ عن النَّبِيّ ﷺ انه قَالَ: "إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَة: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَة، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"[2]

وعن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه رضي اللّه عنهم؛ أن النَّبِيّ ﷺ انه قَالَ:"من علَّمَ علماً، فلهُ أجرُ من عَمِلَ به، لا ينْقُصُ من أجرِ العاملِ شيءٌ"[3]

هـــذا قليل من كثير مما ذُكر في أجر المـــُعَلِّم المخلص للّه في عمله، وما أعدّه اللّه له من ثواب عظيم في اليوم الآخر.

ثانياً: وضع المـــُعَلِّم العلميّ والتّربويّ

إن مكانـــة المـــُعَلِّم العلميّة والتّربويّة في الإسلام رفيعة المقام، فيها الكمال والجمال، كمال العلم وجمال العمل، لهذا نُعت المـــُعَلِّم بأنّه عالم رباني لما لديه من علم نافع وعمل صـــالح، فقد قال عبد اللّه ابْن عباس رضي اللّه عنهما: إن 'العالم الرباني' هو المـــُعَلِّم، لأنّه يربّي النَّاس بالعلم ويربهيم به كما يربيّ الطفلَ أبوه[4]، لكن لا يمكن أن يُوصف أي مـــُعَلِّم بكونه عالماً ربانياً إلا إذا حقق الشروط والمعايير المذكورة أعلاه في تعريفنا للعالم.

وحتى يكون المـــُعَلِّم قدوة لطلابه في كسب العلم النافع، وفعل الخير، طلب الشرع منه أن يشتغل في تحصيل العلم من قراءة وكتابة وتفكير وتعليق وبحث، محاولاً قدر المستطاع أن لايـــضيع شـــيء من أوقات عمره إلا في العلم والعمل، وأن لايستنكف أن يستفيد من

---

[1] صحيح الترغيب والترهيب للألباني،(ج1/ رقم 70) .

[2] صحيح مسلم، رقم 1631

[3] صحيح الترغيب والترهيب للألباني،(ج1/ رقم 80) .

[4] مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية، (ج1/ ص158)

طلابه وممن هم دونه منصباً أو سناً. قال سعيد بن جبير رحمه الله: " لايزال الرجل عالماً ما تعلّم، فإذا ترك التَّعَلُّم وظن انه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل مايكون"[1].

إن المـــُعَلِّم في الإســـلام يـــربي طلابه على تقوى الله وطاعته قولاً وعَمَلاً، سراً وعلانـــيةً، وعلـــى حـــب رسوله محمّد ﷺ خاتم الأنبياءِ والمرسلين، وتقليد الصَّحابة الكرام رضـــوان الله عليهم أجمعين في أقوالهم وأفعالهم، ويغرس فيهم مكارم الأخلاق، ويُعَزِّز فيهم حـــب وفعل الخير، وينهأهمّ عن فعل المنكرات، وبهذا يستغفر له كل شئ حتى الحيتان في البحر، فعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ :"مـــُعَلِّم الخيرِ يَسْتَغْفِرُ له كُلُّ شيءٍ حتى الحيتانُ في البحارِ"[2].

وبهـــذا يُخرّج المـــُعَلِّم الصالح جيلاً صالحاً نافعاً من طلاب العلم والمعرفة يعمل على بـــناء مجـــتمع مـــسلم صالح قوامه مخافة الله، وأساسه العلم النافع والعمل فيما يرضى الله ورسوله ﷺ.

ثالثاً: وضع المـــُعَلِّم الاجْتِمَاعِيّ

إن الجهل عدو العلم، والجهل صفة الحمقى والمغفلين، والعلم صفة العقلاء والمنطقيّن، الجهـــل يجلـــب الذل والهوان، والعلم يجلب الاحترام والتقدير، والجهل يجعل الأمير سوقياً، والعلم يجعل السوقي أميراً. فقد رُوي انه " كان بعض خلفاء بني العباس يلعب بالشطرنج فاستأذن عليه عمِّه فأذن له وغطّى الرقعة فلما جلس قال له: يا عمّ هل قرأت القرآن؟ قال: لا، قال: هل كتبت شيئاً من السّنّة؟ قال: لا، قال: هل نظرت في الفقه واختلاف النَّاس ؟ قـــال: لا، قال: فهل نظرت بالعربيّة وأيام النَّاس ؟ قال: لا، فقال الخليفة: اكشف الرقعة ثم

---

[1] تذكرة السامع والمتكلم في آدب العالم والمتعلم لابن جماعة الكناني، ص37

[2] السلسلة الصحيحة، رقم 3024

أتم اللعب وزال احتشامه وحياؤه منه، وقال له مُلاعبُه: يا أمير المؤمنين تكشفها ومعنا من تحتشم منه، قال: اسكت فما معنا أحد"[1].

لا شكَّ أن علو مقام المـُعَلِّم بين الخواص والعوام من النَّاس هي ثمرة رفعة مكانَته الدِّينيّة والعلميّة والتَّربويّة في الإسلام. فبالعلم النافع، وبالعمل الصالح، وبنشر علمه بين طلاب العلم وبين الخواص والعوام من النَّاس يحصل المـُعَلِّم على الاحترام والتقدير، ويجلس مجلس أكابر القوم، ويستمع لقوله الصغير والكبير حتى ولو كان فقيراً لا نسب ولا حسب له، يقول الإمام الشافعي رحمه اللّه في فضل العلم على صاحبه:

رَأَيْتُ الْعِلْمَ صَاحِبُهُ كَرِيْمٌ وَلَوْ وَلَدَتْهُ آبَاءٌ لِئَامُ
وَلَيْسَ يَزَالُ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْ يُعَظِّمَ أَمْرَهُ الْقَوْمُ الْكِرامُ
وَيَتَّبِعُونَهُ فِي كُلِّ حَالٍ كَرَاعِي الضَّأْنِ تَتْبَعُهُ السَّوامُ
فَلَوْلا الْعِلْمُ مَا سَعِدَتْ رِجَالٌ وَلا عُرِفَ الْحَلالُ وَلَا الْحَرَامُ[2]

فهذه المكانة الاجْتِمَاعيّة المحمودة تأتي نتيجة معاملة المـُعَلِّم النَّاس بمكارم الأخلاق من صدق في القول والعمل، وطلاقة في الوجه، وإفشاء السَّلام، والرفق بالطلبة، وغيرها من محاسن الأمور، ونتيجة لابتعاده وتجنّبه مساوئ الأخلاق من كذب وخداع ونفاق ورياء وحسد ومماراة وحب للسمعة والجاه، وغيرها من الأخلاق السيئة والصفات الرديئة المذمومة، وفي هذا روي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه، اَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ :" لاَ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ وَلاَ لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ وَلاَ تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ"[3] .

لذلك ينبغي على المـُعَلِّم أن يتحلى بأفضل الخصال الحميدة الّتي تقربه من اللّه عزّ وجلّ ومن العباد الصالحين في هذه الحياة، وأن يحذر أشد الحذر من الخصال الخبيثة

[1] مفتاح دار السعادة لأبن قيم الجوزية (ج1/ص205)

[2] شرح ديوان الإمام الشافعي، ص83

[3] رواه ابن ماجة، صحيح الترغيب والترهيب للألباني، (ج1/رقم107)

والأخـــلاق الـــسيئة الّتي تقربه من النار في اليوم الآخر ومن أصحابها في هذه الدُّنيا الفانية. يقول الإمام الشافعي رحمه اللّه:

إذا لم يـــَزِدْ علْمُ الفتى قَلْبَه هدىً — وسيرتـــَهُ عدلاً وأخلاقَهُ حُسْنَا
فبشِّرْه أنَّ اللّه أولاهُ نـــقمـــةً — يَساءُ بها مثلَ الذي عَبَدَ الوثْنَا[1]

رابعاً: وضع المـــُعَلِّم المالي

كمـــا سبق الإشارة إليه أعلاه، أن المـــُعَلِّم في البلاد العربيّة يجلس في أسفل السلم الوظيفـــي المالي مقارنة ببقية الوظائف كالطبيب والصيدلي والمهندس والمحامي وغيرهم من المـــوظفين، فهو يعاني من قلة الراتب الشهري، وقلة العلاوات الماديّة، وقلة الحوافز الماليّة، وهذا ما يؤدي إلي تقصيره في أداء واجبه العلميّ والتَّربويّ، وتشويش صفاء عقله عليه في التعامل مع طلابه، ودخول وساوس الشّيطان إلى قلبه، فيتصرف تصرف الحمقى والمغفلين، فيخسر الدُّنيا والدِّين .

لـــذا لابـــدّ من نشر الوعي بين النَّاس حتى تتغيّر مواقفهم من المـــُعَلِّم ومكانَتْه في المجـــتمع، وينبغـــي على المؤسَّسات والأنظمة التَّعْليْميّة أن تعيد النَّظَر في وضع المـــُعلـــّمين المـــالي وتعمل على تحسين أوضاعهم الماديّة ورفع رواتبهم الشهرية، وفي الوقت نفسه ينبغي علـــى المـــُعَلِّم أن يعمل على تطوير قدراته العلميّة حتى يستحق التحسين في وضعه المالي، وأن يربي نفسه على حب عمله، الذي هو أفضل من أي نوع من التجارة ولاسيَّما إذا كان يبتغي في علمه وعمله وجه اللّه ﷻ و مرضاته.

اعلم أن التجارة في العلم تجارة رابحة في الدُّنيا والآخرة، وهي باقية مع صاحبها أينما حل وارتحل، وفيها الخير المعنوي والمادي لصاحبها. فقد حُكي عن بعض العلماء "انه ركب مـــع تجار في مركب فانكسرت بهم السفينة، فأصبحوا بعد عزّ الغنى في ذلّ الفقر، ووصل

[1] شرح ديوان الإمام الشافعي، ص96

العـــالم إلى البلد فأُكْرِمَ وقُصِدَ بأنواع التحفِ والكرامات، فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم قالـــوا لـــه: هل لك إلى قومك كتاب أو حاجة؟ فقال: نعم؛ تقولون لهم: إذا اتخذتم مالاً فاتخذوا مالاً لا يغرق إذا انكسرت السفينة فاتخذوا العلم تجارة"[1].

خامساً: وضع المــُعَلِّم السّياسيّ

مـــنذ القدم وحتى وقتنا الحاضر ونحن نعاني كمجتمع عربيٍّ مسلم من وجود فئة من المــُعلـــّمين استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فباعوا دينهم بدنياهم، وفضلوا إرضاء السُّلْطان على إرضاء رب السُّلْطان، فقست قلوبهم وانتعشت نفوسهم الضالة، فأصبحوا آفة تأكـــل الأخـــضر واليابس، وترمي بالعلم وروّاده في مزبلة الجهل والضياع، ضاربة عرض الحائط مصلحة الفرد والمجتمع.

هذا النوع من المــُعلـــّمين حذر منه الشرع، وزجر مساعي من يركض وراء الجاه والإمـــارة علـــى حساب دينه، وذم من سكت عن ظلم السُّلْطان، سواء كان متمثلاً بمدير مدرسة أو عميد كلية أو أمير بلدٍ من البلدان، فقد روي عن سعيد بن المسيب رحمه اللّه انه قـــال: "إذا رأيـــتم العالم يغشى الأمراء فهو لص"[2]، لذلك أثنى الرَّسول ﷺ على من يقول كلمة الحق عند السُّلْطان الجائر وعدّه جهاداً في سبيل اللّه، فعن أبي سعيد الخدري، انه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"[3].

لايعـــني هذا أن الاهتمام بالشؤن السّياسيّة للبلد أو العمل فيها مذموم ومحظور على المــُعلـــّمين، بـــل هو محمود شريطة أن لايكون ذلك على حساب عقيدة التَّوْحِيْد لدى المـــُعَلِّم، فلا بد من الموازنة بين مصلحة الدِّين ومصلحة الدُّنيا، فإذا تعارضت المصلحتين

[1] مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية، (ج1/ص136)

[2] إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ج1/ص85

[3] سنن أبي دواد، ج4/رقم4344

في الغرض والوسيلة، عندها تفضل مصلحة الدِّين على مصلحة الدُّنيا، لما في ذلك من خير وبركة في دنيا العبد وآخرته.

صفات المُعَلِّم العاقل النَّاجح

تختلف صفات المــُعَلِّم الناجح من بلد إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، فما هو جميل في بلد قد يكون قبيحاً في بلد آخر، وما هو مقبول في ثقافة يكون مرفوضــاً في ثقافـــة أخـــرى، وما هو ممدوح في مجتمع قد يكون مذموماً في مجتمع آخر، فخصال المــُعَلِّم الناجح في المجتمع الغَرْبيّ تختلف إلى حد ما عن خصال المــُعَلِّم الناجح في البلاد العربيّة.

لكنْ هناك خصال مشتركة ينبغي على المــُعَلِّم الناجح أن يتحلى بها سواء كان من بلاد الشرق أو من بلاد الغرب، سواءً كانَتْ ثقافته غَرْبِيّة عَلْمانيّة أم عربيّة إسلامية، نذكر منها مايلي:

أولاً: الإخلاص

كـــثير من المــُعلــّمين في البلاد العربيّة ولاسيَّما في المؤسَّسات التَّعْليميّة الحكومية لايــبالون في أداء عملهم الوظيفي، فمنهم من يتأخر الخمسة أو العشرة الدقائق عن موعد بــدء الدرس بدون سبب وينهي الدرس قبل خمس أو عشر دقائق، ومنهم من يقضي حصة الـــدرس ضحكاً ولعباً، ومنهم من يمضي وقت الدرس ثرثرة وتشدقاً بمواضيع لا علاقة لها بالمِــنْهاج الدِّراســـيّ، ومنهم من يتمارض في قاعة الدرس فيقضي الوقت جالساً أو نائماً مستعطفاً مشاعر طلابه. من كان يفعل هذا من المــُعلــّمين فهو مــُعَلِّم غشاش منافق.

إن هذا النوع من المــُعلــّمين_ بدون مغالاة_ لا وجود له في بلاد الغرب عامّة ولا في بريطانيا خاصة، لا في المؤسَّسات التَّعْلِيْمِيَّة الحكومية ولا في المؤسَّسات التَّعْلِيْمِيَّة الخاصة. تجــد المـــــُعَلِّم يدخل القاعة الدِّراسيّة قبل نصف ساعة من موعد دخول الطُّلّاب ليتجهّز

للـــدرس، ويستقبل الطُّلّاب، يعطي الدرس بإخلاص وصدق، ويتّصف أداؤه الوظيفي سواء في عمله أو تعامله مع طلابه بالجديّة والجَوْدَة والمسؤولية.

لـــذا أقول:إن أهمّ صفة يتحلى بها المــُعَلِّم الناجح في عمله الوظيفي وفي تعامله مع زملائـــه المدرســـين، وطلابـــه المساكين، الصدق وإخلاص النية في العمل، فعندما يخلص المـــُعَلِّم في نيته قولاً وعَمَلاً ويجعلها للّه خالصة، تعم المنفعة على المــُعَلِّم وعلى طلابه من جهـــة، ويكـــون قدوة لغيره من المــُعلــّمين والإداريّين في الـــمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة من جهة أخرى، فالإخلاص مطلب شَرْعِيّ أكّد عليه القرآن الكريم والسّنّة الشّريفة، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾[الزمر:2]. وعن زيد بن ثابت[1] رضي اللّه عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:" نضَّر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلّغه غيرَه، فـــربَّ حاملِ فقه إلى من هو أفقهُ منهُ، وربَّ حاملِ فقه ليس بفقيه، ثلاث لا يَغِلُّ[2] عليهن قلبُ مسلم: إخلاصُ العمل لله، ومناصحةُ ولاةِ الأمرِ، ولزومُ الجماعة، فإن دعوتَهم تُحيط من وراءَهم. ومن كانَتْ الدُّنيا نيَّته، فرَّقَ الله عليه أمرَه، وجعل فقرَه بين عينَيه، ولم يأته من الدُّنـــيا إلا ما كُتب له، ومن كانَتْ الآخرةُ نيَّته، جمع الله أمرَه، وجعل غناه في قلبه، وأتَتْه الدُّنـــيا وهـــي راغمة"[3]. وفي الأثر أيضاً، قال مكحول في الإخلاص:" ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابع الحكمة من قلبه على لسانه".[4]

---

[1] هـــو الإمام الكبير، شيخُ المقرئين، والفَرضيِّين، مفتي المدينة أبو سعيد، وأبو خارج، الخزرجيُّ، النجاريُّ الأنصاريُّ. كاتب الوحي، وحدث عن النبيِّ ﷺ، وعن صاحبيه، وقرأ عليه القرآن بعضه أو كله، ومناقبه جَمةٌ. مات سنة 45 هـــ عن عمر يناهز 56 سنة ا (انظر: سير الأعلام، ج2/ص426)

[2] لايَغِلُّ: لايحقد، أي لايدخله حقد يزيله عن الحق.

[3] صحيح الترغيب والترهيب، ج1/رقم90

[4] مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، ج2/418

ثانياً: التحلي بمكارم الأخلاق

كثيراً ما قيل وكُتب في مكارم الأخلاق، لكن أجملها ما قاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب– رضي الله عنه في الأبيات الشعرية التالية[1]:

إنَّ الْمَكَارِمَ أخْلاَقٌ مُطَهَّرَةٌ   فَالْعَقْلُ أَوَّلُهَا وَالدِّينُ ثَانِيْهَا
وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا، وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا   وَالْجُودُ خَامِسُهَا، وَالعُرْفُ سَادِيْهَا
وَالْبِرُّ سَابِعُهَا، وَالصَّبْرُ ثَامِنُهَا   وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا، وَاللِّينُ عَاشِيْهَا
والنَّفس تَعْلَمُ أنِّي لاَ أُصَدِّقُهَا   وَلَسْتُ أرْشُدُ إلاَّ حِينَ أَعصِيهَا
وَالْعَيْنُ تَعْلَمُ فِي عَيْنَيْ مُحَدِّثِهَا   مَنْ كَانَ مِنْ حِزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا

إن الأخلاق نوعان: أخلاق كريمة حميدة، وأخلاق رذيلة مذمومة، والمُعَلِّمون نوعان: مُعَلِّمون أخلاقهم الحمد والشكر، التواضع والصبر، الصدق والعدل، الحلم والرأفة، الزُّهد والعفَّة، ومُعَلِّمون أخلاقهم النهي عن المعروف والأمر بالمنكر، التكبُّر والتذمر، الكذب والظلم، التعنت[2] والمحاباة[3]، الطمع والاستغلال، الغيبة والنميمة، الحسد والبغض والكراهية، عافاني الله وإياكم من كافَّة خصال السوء والرذيلة.

للفائدة أذكر بشيء من التّفصيل أهمّ مكارم الأخلاق الّتي يجب على المُعَلِّم أن يتحلى بها ويعمل بمضمونها إذا أرد النجاح في عمله وتعامله مع طلابه وزملائه المدرسين، فبها يكون قد تخلى عن خصال السوء والرذيلة، وبها يكون قد تقرب إلى الله عزّ وجل:

أ. الحمد والشكر

كثيراً ما نسمع أن المُعَلِّم فلان ينعي قلة الرزق وضيق العيش، وآخر يتزمّر من كثرة الأعمال والأشغال، ومُعَلِّم يشكو مساوئ أخلاق طلابه، وآخر يغتاب ببغض

[1] أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ص25
[2] التعنت: التعصب والمكابرة والعناد في الرأي أو الموقف.
[3] المحاباة: ميل خاص فيه تحيُّز ظاهر.

وكـــراهية، زمـــلاءه المدرسين، هذا وضع يُرثى له، وحالة مرضية لا دواء ولا شفاء لها إلا بالعودة إلى اللّه سبحانه وتعالى.

لـــذا حتى يتميّز المـــُعَلِّم الناجح السعيد عن غيره من المـــُعلـــّمين الفاشلين التعساء، علـــيه أن يكثر من ذكر اللّه والثناء عليه في السراء والضراء حتى يبقى ضميره مرتاحاً وقلبه مطمئـــناً قال اللّه تعالى:﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28].

ومن خصال المـــُعَلِّم الناجح السعيد شكره المستمر للّه ﷻ على نعمه الّتي لا تُعدّ ولا تُحصى، فبالشكر تدوم النعم بل تزداد بفضل اللّه ﷻ، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [ابرهيم:7]. وبالشكر يرضى اللّـــه ﷻ علـــى العبد إذا حمده وشكره على لقمة طعام أو شربة ماء، فعن أنس بن مالك[1] رضـــي اللّـــه عـــنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ : "إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا"[2].

مـــا أجمـــل ثناء أمير المؤمنّين عمر بن الخطاب –رضي اللّه عنه–على الصبر والشكر عندما قال: "لو كان الصبرُ والشكرُ بعيرين، ما باليتُ أيهما ركبت"[3].

[1] هـــو الإمـــام المفتي المقرئ المحدث أبو حمزة الأنصاري الخزرجي النجاري المدني، خادم رسول الله وقـــرابته مـــن النساء وتلميذه وتبعه وآخر أصحابه موتاً، ولد بعشر سنين قبل الهجرة. روى عن النبي علماً جماً وعن أبي بكر وعمر وعثمان ومعاذ وكثير غيرهم وعنه روى اعنه خلق كثير من التابعين منهم الحسن البصري وابن سيرين وعمر بن عبد العزيز وغيرهم الكثير، توفي سنة 91ه.

[2] صحيح مسلم، رقم2734

[3] عِدَةُ الصابرين وذخيرة الشاكرين، لإبن قيّم الجوزية،ص133

ب. الصبر والتواضع

الصبر والتواضع صفتا الأنبياء والمرسلين، وسمتان يحبهما اللّه سبحانه وتعالى، والتكبر والعجب والتذمر صفات الشياطين والغاوين من النَّاس، سمات يكرهها اللّه سبحانه وتعالى، ففـــي مـــدح الصبر والثناء على الصابرين، يقول اللّه تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:155]. وقال اللّه تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمـــان:17]. وفي ذم الكبْر والتَّكبر وأصحابه، يقول اللّه تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:18].

أمـــا في التواضع، فكان رسول اللّه ﷺ الرَّسول المـــُعَلِّم، عظيماً في تواضعه، قدوة في صبره، فكان يتواضع السائل مهما كان من جفاء في نطقه، وغلظة في كلامه، وخشونة في سؤاله، حتى انه كان يقطع خطبته ليجيب على سؤال أعرابي من البادية من أجل أن يعلّمه ديـــنه، فعـــن حُمَيْد بْنِ هلاَلٍ، قَالَ: "قَالَ أَبُو رِفَاعَةَ انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ، قَالَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَجُلٌ غَرِيبٌ، جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِه، لاَ يَدْرِي مَا دِينُهُ، قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ، فَأُتِيَ بِكُرْسِيٍّ، حَسِبْتُ قَوَائِمَهُ حَدِيدًا، قَالَ فَقَعَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ فَأَتَمَّ آخِرَهَا"[1].

وفي هـــذا المقام، ذكر الإمام أبي حاتم البستي رحمه اللّه الأبيات الشعرية التالية[2] يحثنا فيها على لزوم التواضع ومجانبة العجب والكبر:

ولا تمش فوق الأرض إلا توضعاً — فكمْ تحتها قومٌ هُمُ منك أرفـــعُ
فإنْ كنتَ في عـــز وخير ومَنْعة — فكم مات من قوم همُ منكَ أمنعُ

---

[1] صحيح مسلم، رقم876

[2] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لأبي حاتم البستي، ص52

هـــذا قلـــيل من كثير مما قيل في أهمّية الصبر والتواضع في التعامل مع بعضنا البعض بـــشَكْلٍ عام، وفي تعامل المـــُعَلِّم مع تلاميذه بشَكْلٍ خاص، فما أجمل وألطف من المـــُعَلِّم الذي يطيع اللّه ورسوله، ويكون مـــُعَلِّماً صبوراً متواضعاً في عمله وتعامه مع طلابه، لعله يفوز برضى الله سبحانه وتعالى، وبخير الدُّنيا والآخرة، إن شاء الله تعالى.

ج. الصدق والعدل

إن الـــصدق والعدل من أهمّ المبادئ التي حثّ عليهما وحبَّب فيهما الإسلام، ومن أهـــمّ مـــستلزمات النجاح في العمل مهما كان نوعه أو طبيعته، سواءً كان عَمَلاً سياسياً، اقتصادياً، اجْتِمَاعِيّاً، تربوياً أو تَعْلِيْمِيّاً. وعلى خلاف ذلك، فقد ذمَّ الشرع الكذب والظلم، وحـــذَّر منهما في كافَّة أشكالهما ومجالاتهما، ففي الصدق يقول اللّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[التوبة:119]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[المائدة:119]. وفي العدل يقول اللّه تعال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة:8]. وفي الكذب وأصحابه، يقول اللّه تعالى:﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[الطـــور:11]. وفي الظلم وعاقبة الظالمين، يقول اللّه تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[الزخرف:39].

وفي لزوم الصدق ومجانبة الكذب، روي عن عبداللّه بن مسعود انه قال: قال رسول اللّه ﷺ "عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِيْ إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِيْ إِلَى الْجَنَّة، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيْقاً، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ

يَهْدِيْ إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِيْ إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبُ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا"[1].

وفي الكـــذب ومصير الكذّاب بين النّاس، ينشدنا الشاعر الكريزي الأبيات الجميلة التالية[2]:

كذبتَ ومـــن يكذبْ فإن جزاءه إذا ما أتى بالصـــدق أن لا يُصدَّقا

إذا عُرف الكذاب بالكذب لم يزل لدى النّاس كذاباً، وإن كان صادقاً

بالرَّغْمِ من الحث والثناء الشديدين على الصدق والعدل، وتحريم الكذب والظلم، نجد الكثير من العاملين في قطاع التَّربية والتَّعْلِيْم، ولاسيَّما المـُعلـِّمين منهم، يمارسون المماراة، والكـــذب، والظلم في تعاملهم مع بعضهم بعضاً بشَكْلٍ عام، ومع طلابهم وأولياء الأمور بشَكْلٍ خاص. فمنهم من يحابي طالباً على آخر لقربه منه، أو لمعروف فعله معه، ومنهم من يـــنقص درجات طالب ما لأنّه لم يسلم عليه! ومنهم من يقبل طالباً ما في مجموعته لانتمائه لفئة مُعيَّنة من النَّاس، ومنهم من يعتبر الكذب والظلم 'شطارة' يمارسها على طلابه وغيره، ومـــنهم من يكون الكذب والظلم خصلتان ربيا معه منذ الطفولة، عافاني اللّه وإياكم من الكذب والظلم ومن صحبة الكاذبين والظالمين.

فقد رُوي عن مجاهد[3] انه قال: "يُوتى بمـــُعَلِّم الصبيان يوم القيامة فإن كان عدَلَ بين الغلمان، وإلا أقيم مع الظَّلَمة"[4].

---

[1] صحيح مسلم، رقم2607

[2] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لأبي حاتم البستي، ص43

[3] مجاهـــد بن جَبْر، هو: الإمام، شيخ القرّاء والمفسِّرين، أبو الحجاج المكّي، الأسود، مولى السائب بن أبي الـــسئب المخزومي؛ روى عن ابن عباس، وعن أخذ القرآن، والتفسير والفقه، وعن أبي هريرة، وعائشة، وســـعد بن وقّاص، وعبد اللّه بن عمر وغيرهم من الصحابة الكرام، بلغ مجاهد 83 سنة، مات سنة 104ه (انظر سير أعلام النبلاء، جـــ4/ص449)

[4] كتاب عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري، جـــــ1/ص84

فـــسمتا الصدق والعدل من أجمل وأحلى السمات الّتي يتحلى بها المــُعَلِّم الناجح، فبها يرضى اللّه عليه، وبها يحبه ويرضى عنه طلابه، ثمرتهما ارتياح البال والضمير، والسعادة والـــسرور. فعلـــى المــــُعَلِّم الكذّاب الظالم أن يتوب إلى اللّه عزّ وجلّ، ويتعهد بممارسة الـــصدق والعـــدل في عملك وتعاملك مع زملائك المــُعلـــّمين، وطلابك المساكين حتى تنضم إلى زمرة المــُعلـــّمين الناجحين المُمَيَّزين.

د. الحلم والرأفة

إن مهـــنة التَّعْلـــيْم شاقة وصعبة المسالك لمن أراد أن يتخذها وسيلة لكسب العيش، وجميلة حلوة لمن أحبها، وقبلها على ما فيها من منغصات، فهي مرّة المذاق على المــُعَلِّم ذو القلب القاسي، والعقل المضطرب، والمزاج النكد التعيس، وعلى خلاف ذلك، فهي عذبة المذاق على المــُعَلِّم ذو الصدر المنشرح، والعقل السوي، والحليم الرؤوف بطلابه.

إن الحلـــم والـــرأفة من أجمل خصال نبيّنا محمّد ﷺ، الرَّسول المــُعَلِّم الأول، الحليم الـــرؤف بالمؤمـــنّين، الـــذي وصفه اللّه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:128]. وقـــال الرَّســـول المــُعَلِّم الأول عن نفسه، مؤكداً أهمّية عنصر الرحمة والرأفة في شخصيّته العظـــيمة، والحلـــم والحنان كعنصرين أساسيّين في عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم، فهو المــُعَلِّم العالم يشبه نفسه بالأب الحنون الحريص على تعليم أولاده، ويضرب مثالاً بالحلم والرأفة للمــُعلـــّمين في هذا العصر لعلّهم يتعظون في تعاملهم مع تلاميذهم، فعن أبي هريرة انه قال: قال رسول اللّه ﷺ :"إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ"[1].

وفي هذا المقام، رُوي عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ، يَقُولُ بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَـــسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ أَيُّكُمْ محمّد؟

[1] سنن النسائي، رقم40 إنما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم. الألباني :حسن صحيح

وَالنَّبِيّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: ابْن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ ﷺ " قَدْ أَجَبْتُكَ ". فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَة، فَلاَ تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ. فَقَالَ: " سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ ". فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، آللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاس كُلِّهِمْ ؟ فَقَالَ: " اللَّهُمَّ نَعَمْ ". قَالَ أَنْشُدُكَ بِاللَّه، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تُصَلِّيَ الصَّلَوَات الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَة قَالَ: " اللَّهُمَّ نَعَمْ ". قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّه، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَة؟ قَالَ: "اللَّهُمَّ نَعَمْ". قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّه، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِه الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائنَا؟ فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: "اللَّهُمَّ نَعَمْ ". فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِه، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْد بْنِ بَكْرٍ"[1].

هكذا كان أُسْلُوْب الرَّسول المـُعَلِّم الأول ﷺ، الحليم الرؤوف بطلبة العلم، فالأحرى بالمـُعَلِّم الضائق صدره، المتكدّر قلبه، المضطرب مزاجه من تعليم طلابه، أن يستعيذ من الشّيطان الرجيم، ويُقبل على طلابه، قبول الوالد على أولاده من سفره، يعطيهم حقهم من العلم والمعرفة، ويتقبل ثقل تصرفاتهم وأسئلتهم، ويشعرهم بأنّه مثل الأب لهم في الحب والحنان والحلم والرأفة، فبهذا يكون مـُعَلِّماً ناجحاً محبوباً بين طلابه، ومقبولاً بين زملائه، إن شاء اللّه.

هـ. الزُّهد والعفّة

لقد ازداد التّكالب على حطام الدُّنيا مؤخراً بين النّاس عامّة، وبين المـُعلّمين خاصة، فإذا اجتمعوا في ليالي السهر والسمر تذاكروا أخبار ارتفاع وانخفاض قيمة الدولار، فإذا انخفض تناعوا أمرهم، وإذا ارتفع فرحوا وابتهجوا بدولارهم، وإذا عملوا واشتغلوا، رضوا وفرحوا بزيادة راتب، ورفضوا وسخطوا إذا لم يُزادوا، تباً لهؤلاء وتعساً لهم ولأحاديث سهرهم وسمرهم، ففي هؤلاء، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي اللّه عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ

[1] صحيح البخاري، رقم63

اللّـــه ﷺ :" تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالْقَطِيفَةِ، وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ "[1].

ينبغي على المـــُعَلِّم الناجح أن يتخلق بالزُّهد في الدُّنيا، ويبتعد عن كل ما لا ينفع في الـــدار الآخرة، ولا يستخدم علمه في التوصل إلى الأغراض الدنيوية من مال وسمعة وجاه، ويتعفّف عن سؤال النّاس، فالزُّهد والعفّة من مكارم أخلاق المـــُعَلّم الناجح الّتي يحبها اللّه ســبحانه وتعـــالى، فبها يرضى المـــُعَلّم، ويسعد في الدُّنيا والآخر، وبدونها يبتعد عن اللّه ويغضبه. قال الحسن البصري[2]: "من أحب الدُّنيا وسرته ذهب خوفُ الآخرة من قلبه، ومن ازداد على الدُّنيا حرصاً لم يزدد من اللّه إلّا بعداً، ولم يزدد من اللّه إلا بغضاً"[3].

فمـــن يرد أن يستعفَّ ويقنع بما قسمه وكتبه اللّه عز وجل له يسرهما اللّه له، وأغناه بفـــضله عـــن سؤال النّاس، وحرره من عبودية الدرهم، وجعله ملكاً في أعين النّاس . فعَنْ حَكِـــيمِ بْنِ حِزَامٍ[4] رضى الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ "[5].

يقول الإمام الشافعي[6] رحمه اللّه:

رَأَيْتُ الْقَنَاعَـــةَ رَأْسَ الْغِنَى ... فَصِـــرْتُ بِأَذْيَالِهَا مُمْتَسِكْ

فَـــلا ذَا يَـــرَانِي عَلَى بَابِهِ ... وَلا ذَا يَرَانِيْ بِـــهِ مُنْهَمِكْ

---

[1] صحيح البخاري، رقم6435

[2] الحسن البصري: تابعي عالم فقيه زاهد (ت 110هـ)

[3] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لأبي حاتم البستي، ص28

[4] هو ابن خُوَيلد بن أسَد بن عبدِ العُزّى بنِ قُصَيٍّ بن كِلاب، أبو خالد القُرشيُّ الأسديّ، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامُه، وغزا حُنيناً والطائف، كان من أشراف قريش، وعقلائها، ونبلائها، وكانت خديجةُ عمَّته، وُلِدَ قبل عـــامِ الفيل بثلاثَ عشرةَ سنة ومات سنة 54 ه عن عمر يناهز 120 سنة. (انظر: سير أعلام النبلاء، ج3/ص44)

[5] صحيح البخاري، جزء من حديث رقم1427

[6] ديوان الإمام الشافعي، ص 64

فَصِرْتُ غَنِيَّاً بِلَا دِرْهَمٍ   أَمُرُّ عَلَى النَّاسِ شِبْهَ الْمَلِكْ

ثالثاً: التحلي بالعلم كمَّاً ونوعاً

ظهــرت مؤخراً في بريطانية ظاهرة تقويّم الطُّلَّاب الجامعيّين لمــُعلميهم، فمنهم من يعــزو[1] نجــاح المــُعَلِّم إلى الكم العلميّ والمعرفي لديه، ومنهم من يعزوه إلى مدى قدرة المــُعَلِّم في توصيل المعلومة للطلاب، وفعّالية الأساليب الّتي يستخدمها في العمليّة التَّعْلِيْمِيّة، ومنهم يعزوه إلى عمق وفعّالية المعلومة الّتي يعطيها المــُعَلِّم لطلابه.

أمــا بالنــسبة إلى تقويّم مــُعلمي طلبة المدارس في جميع مراحلها التَّعْلِيْمِيّة، وطلبة الكلــيات في جميع فروعها الأَكَادِيْمِيّة والفنية والمهنيّة، ليس الأمر واضحاً كما هو الحال في المــرحلة الجامعــيّة، لكن غالباً ما نسمع، ولاسيَّما في البلدان العربيّة، أن فلان من مدرسي اللغــة الإنجليــزيّة لا يعرف أو لا يقدر على التّكَلُّم باللغة الإنجليزيّة أمام الطُّلَّاب أو كتابة رســالة بدون أخطاء محرجة! وغالباً ما نسمع أن فلاناً من مدرسي اللغة العربيّة لا يعرف كــيف يعرب جملة بسيطة أويستطيع أن يتكلم باللغة العربيّة الفصحى لمدة ساعة تَعْلِيْمِيّة أمــام طلابــه بــدون أن يخلطهــا بكلام العامية! وكثيراً ما نسمع أن فلاناً من مدرسي الرياضيات لا يعرف جداول الضرب فوق الرقم '10'!

هذا وضع مخزٍ ومحزن، لأنّه إذا دل على شيء، دل على ثغرات كبيرة، وفساد منتشر في أنظمة التَّعْلِيْم لدينا في البلدان العربيّة، الّتي تسمح بتخريج طلاب بدرجات جامعية بدون جــدارة وأهلــية، وتُعّينهم في قطاع التَّعْلِيْم بدون النَّظَر في أهليتهم للتعليم أو للمرحلة الّتي يمكنهم أن يعلّموا فيها، فيحصل إحباط واكتئاب لدى المــُعَلِّم من جهة والطُّلَّاب من جهة أخرى، فينتج عن ذلك جيل جاهل مثل مــُعلميهم الجاهلين.

إن من أهمّ صفات المــُعَلِّم الناجح، العلمَ كماً ونوعاً، فالمــُعَلِّم العالم بمادة تخصّصه شــكلاً ومضموناً، المتمكّن من فروعها، القادر على فهم مضامينها، الواثق من قدرته على

[1] عَزَاهُ إلى أبيه، نسبه إليه، من باب عدا ورمى. (مختار الصحاح)

شرحها وطرحها على طلابه، هو المــُعَلِّم حقاً، أما المــُعَلِّم الضحل في علمه، الضعيف في قدرتـــه على شرح مادته وطرحها بثقة وفعّالية أمام طلابه، هو الجاهل حقاً، وهل يستوي العلـــم بالجاهل، صدق اللّه العظيم عندما قال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر9].

رابعاً: التحلي بالأمانة العلميّة

إن الانتشار الواسع للمعلومة على مواقع الإنترنت وسهولة تحصيلها من جهة، وفشو القلـــم الظاهر من خلال كثرة دور طبع ونشر الكتب المفيدة وغير المفيدة من جهة أخرى، أدى إلى ظهـــور آفـــات علميّة وتَعْلِيْمِيّة كثيرة، منها الخيانات العلميّة، والسرقات العلميّة، وفقدان الأمانات العلميّة، فحصل فساد علميّ وظلم إداريّ على مستوى العلم والعلماء.

لم تـــنجُ طائفة المــُعلـــّمين من هذه الآفات العلميّة أو التَّعْلِيْمِيّة، فمنهم من يصور كتيـــباً في النجاح في مادة ما، ويضع اسمه على غلاف الكتيب مدّعياً انه هو صاحب هذا العلـــم في الكتـــيب من أجل دراهمّ معدودات، ومنهم من لا يتحرج من استخدام وسيلة 'القـــص واللصق' في تحصيله للمعلومة بدون ذكر أي إيعاز لكاتبها الأصلي، ومنهم من لا يستحيي من وصف ما لا يرى، وقول الزور العلميّ إذا تطلب الأمر.

فالأمانة من أهمّ أخلاقيّات المــُعَلِّم الناجح، وهي شرط من شروط الإيمان، وخصلة تميّز المؤمنّين عن غيرهم، يقول اللّه تعالى في وصفه للمؤمنّين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[المؤمـــنون: 8]، وعلى خلاف الأمانة، الكذب والخيانة صفتان من أخس صفات المــُعَلِّم المنافق، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه:ـــ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ"[1].

[1] صحيح البخاري، رقم 2682

اتــق االلّـــه، أيهـــا المـــُعَلِّم، وصن علمك بالأمانة، وبالابتعاد عن السرقة العلميّة، وبمجانبة الخيانة العلميّة لأحد، فإنك مسؤول أمام اللّه جلّ جلاله، فعن ابْن عباس رضي اللّه عــنهما أن رسول اللّه ﷺ قَالَ :" تناصحوا في العلم، فإن خيانَة أحدِكم في علمه أشدُّ من خيانته في ماله، وإن الله مُسائلُكم"[1].

خامساً: القدرة على نشر العلم النافع

إن الأصـــل في العلـــم أن يُبلَّغ ويُنشَر، فإذا حُفِظ وكُتِم فقد ماهيَّته وأصبح كالكنز المدفــون لا قيمة له، فمثل المــُعَلِّم الذي يكتم علمه ولاينشره، كمثل الكنز المدفون ينتظر مـــن يُخرجه ليُستَفَادَ منه، فعن أبي هريرة، أن رسول اللّه ﷺ قَالَ :"مثل الذي يتعلم العلمَ ولا يُحـــدّث بـــه كمثل الذي يكنز الكنزَ ولا يُنفق منه"[2]. وروي انه كان الإمام مالك بن أنس رحمه اللّه إذا ودَّع أصحابه وطلابه يقول لهم:"اتقوا اللّه، وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه"[3].

فـــإن قـــدر وقيمة المـــُعَلِّم العاقل الناجح ليسا فقط بما يحمله من علم نافع، وفكر ســـليم، ومعرفة صائبة، بل بقدرته على إخراج علمه إلى حيز الواقع بحلة جميلة، وتوصيله لِلْمُـــتَعلِّمين بأُسْـــلُوْب ماتع فعّال، ونشره إلى القريب منه والبعيد عنه.فعَنْ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ أَخْبَرَنِـــي سَهْلٌ، رضي الله عنه، يَعْنِي ابْن سَعْد، قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ لعلي رضي اللّه عنه:" انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسلام، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَـــيْهِمْ، فَـــوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ"[4]. هذا

[1] ضعيف الترغيب والترهيب للألباني، ج1/رقم98

[2] جامـــع بـــيان العلم وفضله، لإبن عبد البر القرطبي،ج1/ ص122 قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : 5835 في صحيح الجامع.

[3] جامع بيان العلم وفضله، لإبن عبد البر القرطبي،ج1/ ص123

[4] صحيح البخاري، جزء من حديث رقم3009

ثواب من يكون سبباً في تعليم وهداية رجل واحد، فكيف بثواب المــُعَلِّم الذي قد يهدي اللّه على يديه أفراداً وجماعات من الــمُتَعلّمين!

فمــن الواجب على المــُعَلِّم العاقل أن يعمل جاداً في نشر علمه بالحكمة والموعظة الحــسنة، مبتدئاً بأولاده، ثم بأقربائه، ثم بجيرانه، ثم بأصحابه، ثم بتلاميذه وغيرهم من طلبة العلم. فعندما ينشغل المــُعَلِّم بنشر العلم النافع بين هؤلاء النَّاس، يوحي اللّه سبحانه وتعالى إلى مخلوقاته أن استغفروا لمــُعلمي النَّاس الخير، وذلك حتى يفوز برضى اللّه سبحانه وتعالى ويــدخل الجــنة، إن شــاء اللّه، فعَنْ أَبِي أُمَامة الْبَاهِلِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:" إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَــتَهُ، وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَيْنَ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مــُعَلِّم النَّاس الْخَيْرَ"[1].

وأجــر مــُعلمي النَّاس الخير ليس مقصوراً على حياتهم وحسب بل يمتدُّ إلى ما بعد موتهم فقد قال رسول الله ﷺ: "إنَّ مِمَّا يلحقُ المؤمن من عمله وحسناته بعد موته، علماً علمَه ونشره"[2].

سادساً: القدرة على إِدَارَة الفصل وضبط الطُّلَّاب

كــثير ما نسمع أن فلاناً من المــُعلــمين ضعيفُ الشّخصيّة، وفلاناً فاشلٌ في إدارته للفصل، وفلاناً غيرُ قادر على ضبط تلاميذه. هذا الوضع المحزن للمــُعَلِّم يشكل عائقاً منِّيعاً أمــام سير العمليّة التَّعْلِيْميّة، فهو لا يستطيع أن يلقي الدرس على طلابه بفاعلية من جهة، وطلابُــه لايجدون الفرصة أو الجو المناسب لكسب المعلومة من جهة أخرى، لذلك عُدَّتْ قدرة المــُعَلِّم على إِدَارَة الفصل وضبط الطُّلَّاب خلال إعطاء الدرس من أهمّ معايير تقويّم المــُعَلِّم الناجح في عمله.

[1] رواه الترمذي، رقم2685

[2] أخرجه ابن ماجة وغيره، صحيح التّرغيب والترهيب 74

فالقـــدرة على إِدَارَة الفصل بشَكْلٍ فعّال، وضبط الطُّلّاب بشَكْلٍ إيجابي، تتولد نتيجة عوامل نفسية وعلميّة وفِكْرِيّة وإداريّة، فبقدر ما يتمتع المــُعَلِّم بنفسية مؤمنة راضية، وبثقة شخـــصيّة مطمئـــنة، وبمعرفة فاضلة في مادته التَّعْلِيْمِيّة، وحنكة إداريّة في إشغال الطُّلّاب بما ينفعهم، يكون مـــُعَلِّماً قادراً على إِدَارَة الفصل بفعّالية وضبط الطُّلّاب بنجاح.

الـــواجب على المــُعَلِّم العاقل أن يعلم أن القدرة على إِدَارَة الفصل وضبط الطُّلّاب توفـــيق وتيسير من اللّه سبحانه وتعالى، أوله وآخره، فإذا حفظ جنب اللّه عزّ وجل، قولاً وعَمَـــلاً، قـــبل وبعد إعطاء الدرس لطلابه، يكون قد حقق أهمّ عناصر التّمكين من عَمَلِيَّة التَّعْلِـــيْم والتَّعَلُّم. قال اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۞﴾ [الطلاق :2-3].

إن لكـــل مـــــُعَلِّم أُسْلُوْبه وطريقته في إِدَارَة الفصل وضبط الطُّلّاب، ولا حرج في ذلـــك، شريطة أن يحقق الغرض والهدف من الدرس، وهو التَّعْلِيْم الواضح، السهل، الماتع، المفيد، والتَّعَلُّم النافع والعميق الفعّال، لكن أذكر بعض الإجراءات الّتي يمكن أن يستخدمها المــُعَلِّم في إِدَارَة الفصل وضبط الطُّلّاب وبالأخص عند لقائه الأول بطلابه:

أ) أن يبدأ يومه بصلاة ركعتين، ويسأل اللّه من خير يومه، ويستعيذ من شره.

ب) أن يدعـــو عـــند خروجه من بيته، بدعاء الرَّسول المصطفى ﷺ، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ مَا خَرَجَ النَّبِيّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلاَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُـــوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ"[1].

[1] صحيح وضعيف سنن أبي داود (11/ 94): تحقيق الألباني: صحيح. راجع لتصحيحه، ابن ماجه بتحقيقه وتخريجه لكنه استثنى من التصحيح (رفع الطرف فقط).

ت) قبل أن يدخل الفصل ليقابل طلابه، يقول بلسان ناطق، وقلب صادق: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الاسراء:80]. ويقول أيضاً: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۞ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۞ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۞ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۞ ﴾[طه:25-28].

ث) أن يدخل على طلابه بهدوء ولا يسلم عليهم حتى ينتهي إليهم، ويقوم في موضع مجلسه، فينتظر حتى يستقر كل طالب في مقعده، فذلك أسلم وأهدأ وأنسب لبدء الدرس، فقد روي عن سفيان، عن شقيق انه قال:" أتيت منزل أنس بن مالك، قال: فجلسنا في بيت ننتظره. قال: فلما دخل البيت لم يسّلم حتى دخل، فقام في موضع مجلسه، قال: فاستقبلنا فقال: السَّلام عليكم"[1]. والجدير بالذّكر أن يُمنع الطُّلّاب إن كانوا جالسين من القيام للمـُعَلِّم، فَعَنْ أَبِي أُمَامة، قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ " لاَ تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا"[2] .

ج) أن يُعرّف الطُّلّاب بنفسه، ويتعرف عليهم بالمقابل، وأن يشرح لهم أُسْلُوْبه ونمطه في التدريس، وأن يبين لهم حقوقه وواجباته عليهم، وحقوقهم وواجباتهم عليه راجياً من الله سبحانه وتعالى أن يوفقهم أجمعين.

ح) أثناء إعطاء الدرس، يتجنّب كثرة الضحك والمزاح مع الطُّلّاب، فانه يذهب السبهاء، ويقلل الهيبة والوقار، ويقضي على حاجز الحشمة. روي عن محمّد بن المنكدر[3] انه قال: قالت لي أمي وأنا غلام :" لا تمازح الغلمان، فتهونَ عليهم،

[1] الجامع لأخلاق الراوي ،آداب السامع، للخطيب البغدادي، ج1/ص399

[2] سنن أبي داود، رقم5230

[3] أبو بكر محمد بن المنكدر القرشي التيمي، تابعي قارئ زاهد (ت 130 هــ)

أو يجتـــرئوا عليك"[1]. وروي عن الأحنف بن قيس [2] انه قال:" قال لي عمر بن الخطاب: يا أحنف، من كَثُرَ ضَحِكُهُ قلَّتْ هيبتهُ، ومن أكثر من شيء عُرِفَ به، ومن مَزَح اُستُخِفَّ به". "[3].

خ)أن يُظهـــر الاحترام والتوقير للأفاضل والمجتهدين في الدرس، ويدلي بالثناء والمديح علـــى المُمَيَّزين علميّاً بينهم، ويُقبل على طلابه بوجه طلقٍ عليه علامات المحبة والحـــنان، لأن ذلك يُعَزِّز احترام وتوقير الطالب لمـــُعَلِّمه، ويساعده في عَمَلِيَّة التَّعَلُّم. روي أن أبا العالية الرياحي[4] قال: " كان ابْن عباس يرفعني على سريره وقـــريش أسفل منه، ويقول: ’هكذا العلم يزيد الشريف شرفاً، ويجلس الملوك على الأَسِرَّة[5]،"[6].

سابعاً: استمرارية التَّعَلُّم وكَسبِ العلمِ والمعرفة

مـــن الفـــروقات المُمَيَّزة بين ثقافة المـــُعَلِّم الغَرْبِيّ وثقافة المـــُعَلِّم العربيّ استمرارية الـــتَّعَلُّم. فعلـــى خـــلاف المـــُعلـــّمين الإنجليزيّين ــ على سبيلِ المثالِ ــ نسبة كبيرة من المـــُعلـــّمين العرب، وللأسف، تعتقد أن عَمَلِيَّة كسب العلم والمعرفة تنتهي بإنتهاء الدِّراسة الجامعيّة وبالحصول على الإجازة الجامعيّة، سواء كانَتْ درجة باكالوريوس، أو ماجستير أو دكـــتوراه. هذه الثقافة المغلوطة أدت بالمـــُعَلِّم العربيّ إلى تأخره في علوم ’التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم‘، ولاسِـــيَّما في مـــادة تخصّصه، وأصيب بمرض ’قناعة الكسلان‘، فوقع في بئر عميق أسفله الجهل، وأوسطه الغباء والحمق، وأعلاه الخسران، واللّه أعلم.

---

[1] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للإمام أبي حاتم البستي، ص69

[2] أبو بحر الأحنف بن قيس بن معاوية المري التميمي، سيد بني تميم (ت 72 هـ)

[3] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، ج1/ص404

[4] أبو العالية الرياحي تابعي (ت93 هـ)

[5] لسان العرب (4/ 356)السَّرِيرُ المُضطَجَعُ والجمع أَسِرَّةٌ وسُرُرٌ

[6] تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لإبن ماجة الكناني، ص42

فديننا الحنيف، ورسولنا المصطفى ﷺ، والصَّحابة الكرام رضوان اللّه عليهم أجمعين، ومـــن جـــاء من بعدهم من التَّابعين والسَّلَف الصالح، أكّدوا على استمرارية التَّعَلُّم، وحثّوا على الزيادة في طلب العلم، وأثنوا على طالب العلم، سواءً كان مـــُعَلِّماً أو متعلماً. قال الله تعالى آمراً رسولنا الكريم ﷺ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه:114]. وعَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ كُـــنْتُ جَالِـــسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، إِنِّي جِئْـــتُكَ مِـــنْ مَدِيـــنَةِ الرَّسول ﷺ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا جِئْتُ لِحَاجَـــةٍ. قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :" مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا[1] لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَـــسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَـــى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ "[2] .

وجاء في الأثر عن مالك بن أنس رحمه اللّه انه قال:"لاينبغي لأحد يكون عنده العلم أن يتـــرك التَّعَلُّم"[3]. ورُوي أن المسيح عليه السَّلام : "قيل له إلى متى يحسن التَّعَلُّم قال: ما حسنت الحياة"[4]. ورُوي أيضاً انه "سُئل سفيان بن عيينة[5] من أحوج النَّاس إلى طلب العلم قال: أعلمهم لأن الخطأ منه أقبح"[6].

---

[1] يجوز كتابتها بالألف، على أن المصدر ممدود "رضاء" والعرب تجيز القصر، بمعنى خذف الهمزة . كما تكـــتب بالألـــف المقـــصورة، لأن أصلها الياء. ولقد وجدتها في كتب الحديث مكتوبة بالألف، كما وجدتها بالياء. وكلاهما صحيح ولاضير على أن يفهم التعليل عند كلٍّ.

[2] سنن أبي داود، رقم3641 تحقيق الألباني :صحيح، وانظر لهذا :ابن ماجة (223)

[3] جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر القرطبي، ج1/ص95

[4] جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر القرطبي، ج1/ص96

[5] أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، محدث الحرم المكي (ت198 هـ)

[6] جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر القرطبي، ج1/ص96

لذا ينبغي على المـُعَلِّم العاقل الناجح في عمله، والمهتم بالفائدة له ولطلابه أن يجتهد في فعل الأمور التالية:

أ) يطّلع بإستمرار على ما يُستجد في مجالات التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم بشَكْلٍ عام.

ب) يطّلع ويقرأ بانتظام مقالات وأبحاث وكتب في مجال مادته التخصّصية.

ت) يحاول أن يكتب وينشر في مجال مادته التخصّصية إن وُجد أن بحثه جديد جيد يستحق النشر.

ث) يناقش مع زملائه المدرسين المشاكل التَّعْلِيْمِيّة والتَّعْلِيْمِيَّة الّتي قد يواجهها في عمله.

ج) يفكر ويحلل ويعيد النَّظَر في أدائه المهنيّ، محاولاً تحسينه وتطويره وتجنّب أي شيء قد يؤثر عليه بصفته مـُعَلِّماً وعلى طلابه بصفتهم مُتَعَلِّمين.

ح) يحضر مؤتمرات وورشات عمل لتطوير المـُعلـِّمين في مجالات التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم والتقويّم.

خ) يستمر في تطوير مؤهلاته العلميّة وخبراته العمليّة ومهارات الاتِّصَال لديه، بما فيها كيفيّة استخدام مواقع الإنترنت استخداماً نافعاً وعميقاً وفعّالاً، باتباع دورات معتمدة، مثل الحصول على دبلوم تربية وتعليم أو درجة جامعية عليا.

د) ينضم إلى جمعيات مهنيّة تهتم بقضايا التَّربية والتَّعْلِيْم والتَّعَلُّم.

ثامناً: حسن المظهر وأناقة الملبس

من الآثار السلبية للحرية الزائفة وغير المضبوطة في بلاد الغرب عامّة وفي بريطانيا خاصة هو أن للمـُعَلِّم حرية الدخول على طلابه في الفصل الدِّراسيّ بالمظهر الذي يراه هواه ومزاجه، فمن المـُعلـِّمين ــ سواءً كانوا مـُعلمين في المرحلة الابتدائيّة أو في المرحلة الجامعيّة ــ يأتي إلى قاعة الدرس وكأنهُ لتوه خرج من الحانة، شعره منكوش، قميصه بدون ربطة عنق، نصفه فوق البنطال والنصّف الآخر معلق داخل البنطال، وإن كان يرتدي ربطة

عنق فهي قديمة رثة ملفوفة وكانها حبل مشنقة، إذا اقتربت منه، شممت رائحة خمر معتقة في فمـــه منذ الليلة الماضية، فإن تكلم، تقول يا ليته لم يتكلم، فكلامه كلام أحمق، وإن تحرك، تقول ياليته لم يقم عن كرسيه، فحركاته حركات سكران!

ففـــي صـــباح يوم الإثنين من أيام شهر أيلول الممطرة من سنة ألفين وثمانية ميلادية استيقظ الطفل مصطفى وهو في الخامسة من عمره متحمساً ومتشوقاً للذهاب إلى المدرَسَة ولمقابلـــة أول مـــُعَلِّمة له، قبَّله والده ودعا الله أن يجعله من الصالحين وأن يعطيه بسطة في العلـــم، ثم انطلق مصطفى مع أمه إلى المدرَسَة في يومه الأول من العام الدِّراسيّ لكي يبدأ مرحلته الابتدائيّة في كسب العلم والمعرفة، هناك على باب الفصل الدِّراسيّ بعد أن تركته أمـــه مطمئنة عليه، وقف مصطفى حائراً خائفاً يبحث عن مـــُعَلِّمته، فإذا بإمرأة شمطاء، شعرها أسود منكوش وقد دب الشيب في معظمه، بليدة الحركة في جسدها، جامدة التعابير في وجههـــا، تهـــف رائحة كريهة منها، تأتي لتدله على مقعده في الفصل، هنا بدأ الطفل مـــصطفى يبكي ويصيح "اريد أمي، أريد أمي، أريد أمي"، حتى اضطرت إدَارَة المدرسة أن تـــسدعي أم مصطفى من منزلها، فجاءت أم مصطفى مسرعة مرتبكة لتجد ولدها في حالة يرثـــى لها، استفسرت منه عن سبب امتناعه عن الدخول إلى الفصل، فقال لها وهو يبكي:" ماما انها ساحرة شريرة، انها تخيفني، لا أريدها أن تكون مـــُعَلِّمتي، أريد غيرها." هذا فصل مـــن فـــصول قصة ولدي مصطفى مع مـــُعَلِّمته الساحرة، أعاذنا اللّه وإياكم منهم ومن أمثالهم.

إن الإسلام دين جميل أكّد على أهمّية حسن المظهر، وأناقة الملبس، فجاء رسول اللّه ﷺ قـــدوة لـــنا في جمال مظهره وأناقة ملبسه، روي عن أبي إسحاق انه قال: سمعت البراء يقـــول: "ما رأيت أحداً أحسن في حلّة حمراء من النّبيّ ﷺ"[1]. وفي هيبة ووقار مجلس الإمام

[1] صحيح البخاري، رقم5901

المـــُعَلِّم مالك بن أنس يقول قتيبة :"كنا إذا أتينا مالكاً خرج إلينا مزيناً كحلاً مطيباً، قد لبس من أحسن ثيابه. فتصدَّر ودعا بالمراوح فأعطى كل إنسان مروحة".[1]

فأحـــرى بالمـــُعَلِّم الناجح أن يتحلى بحسن السمت وجمال المظهر وأناقة الملبس لانها مـــن أهـــمّ الخصال الّتي تساعده في كسب المحبة والقبول لدى الطُّلّاب من جهة، وتساعد الطُّلّاب على كسب العلم وحب المـــُعَلِّم واحترامه وتقديره من جهة أخرى.

تاسعاً: إقبال المـــُعَلِّم وبشاشة هيئته

هناك من المـــُعلـــّمين من يدخل على طلابه عاقداً حاجبيه، محمر الخدين والعينين، حـــاملاً الشر في عينيه، كانهُ سيشن حرباً ضروساً على طلابه، وهناك من المـــُعلـــّمين من يـــدخل على طلابه دخول السلحفاة في الماء، متثاقلاً في خطواته، متردداً في إقباله، مرتبكاً في حركاته، أحمقَ في التفاتاته، أضحوكة في إقباله، وهناك من المـــُعلـــّمين من يدخل على طلابـــه بروح مشرقة، وبصدر رحب، وبقلب رفيق، في حركاته حيوية، وفي إقباله تفاؤل، وفي وجهـــه بـــشاشة، وفي نظراته الرفق والحنان، وفي هيبته السكينة والوقار، راجياً العلم والإيمان لطلابه.

والـــصنف الأخـــير من المـــُعلـــّمين هو المأمول من كل مـــُعَلِّم عاقل راشد أراد الـــنجاح في عملـــه وتعامله مع طلابه ومع زملائه المدرسين، لأن الشرع حث على الرفق وحـــبب به وذم العنف القولي والفعلي، وأكّد على أهمّية سمت وحال مَن يؤخذ عنه العلم، روى أبو داود في سننه عن عبد اللّه بن مغفل أن رسول اللّه ﷺ قال: "إنَّ اللّه رفيق: يُحِبُّ الـــرفق، ويعطي عليه مالا يعطي على العنف"[2]. ورُوي عن إبراهيم النخعي انه قال :"كانوا

[1] الموطأ للإمام مالك بن أنس، ص9

[2] سنن أبي داود رقم4807 تحقيق الألباني :صحيح

إذا أتـــوا الرجل ليأخذوا عنه (العلم)، نظروا إلى سمته، وإلى صلاته، وإلى حاله، ثم يأخذون عنه".[1]

وللفائـــدة، أُقدِّم للقارئ قائمةً مختصرة لصفات المــُعَلِّم النَّاجح في عمله وتعامله مع الآخـــرين، ســبق وذكـــرها في كتابي"مهارات الاتِّصَال"[2]. فالمــُعَلِّم المُتميّز في شخصيّته وتفكـــيره ومعـــتقداته وأســـاليبه التَّعْلِيْميّة والتَّربويّة، يجب عليه أن يتحلّى ــ وذلك حسب الموقف التَّعْلِيْميّ ــ بالصِّفات التَّالية:

1. أن يكون حيويًّاً، متفائلاً، بشوشاً.
2. أن يكون جادًّاً ومخلصاً في عمله.
3. أن يكون واثقاً من معلوماته ومعرفته من المادّة العلميّة.
4. أن يكون مبدعاً في أفكاره وطرقه.
5. أن يكون مرناً في سلوكه، واضحاً في شرحه، وحيويًّاً في حركاته.
6. أن يكون مبادراً في اقتراحاته، ومجدِّداً في آرائه.
7. أن يكون متحمِّساً لعمله، ودقيقاً في إعطائه للمعلومة.
8. أن يكون أنيق الملبس وحَسُنَ المظهر.
9. أن يكون منظِّماً في سلوكه داخل الفصل وخارجه.
10. أن يكون قاضياً عادلاً في حكمه على مساهمة وجهود الطُّلّاب، أي مقوِّماً جيِّداً لأعمالهم.
11. أن يكون دليلاً للطَّالب في كيفيّة اكتساب المعرفة والمهارات.
12. أن يكون مصدراً للمعرفة وطرق اكتسابها.
13. أن يكون منظِّماً وضابطاً لنشاطات الفصل.

[1] الآداب الشّرْعيّة لبن مفلح المقدسي، ص 43

[2] مهارات الإتصال وأثرها في حياتنا العلميّة والعملية، د. أحمد حليمة

14. أن يكـــون طبيبـــاً يُـــشخِّص احتياجات ورغبات ومشاكل التَّعَلُّم وأساليب اكتـــساب المعلـــومة عند الطُّلَّاب. فهو يقوِّم تقدُّمَ الطُّلَّاب إفرادياً أو جماعياً، ويساعدهم على إيجاد إستراتيجيَّات إيجابيَّة للتَّعَلُّم.
15. أن يكـــون مخطِّطـــاً يضع خططاً لحل مشاكل تعلُّم الطُّلَّاب، ويختار نشاطات ومَوَادّ تَعْلِيْمِيّة تساعد على تحقيق التَّعَلُّم العميق عند الطُّلَّاب.
16. أن يكـــون مديـــراً يُعَـــزِّز مشاعر التَّعاون والعمل الجماعي والثِّقة والمحبَّة بين الطُّلّـــاب، وذلك بتنوُّع نماذج التَّفاعل بين الطُّلَّاب داخل الصَّف وفقاً لأهداف محدَّدة ومناسبة لطبيعة ومشاعر الطُّلَّاب.
17. أن يكون مؤمناً بمبادئ التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم العميقين، ورافضاً لمبادئ التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم السطحيّين.
18. أن يكون على اطِّلاع بما يستجدُّ في مجال تعليم وتعلُّم مادَّته العلميّة.
19. أن يكون مهتمَّاً بتطوير نفسه عندما تُتاح له الفُرص.
20. أن يكـــون ذا صدرٍ رحِب في تقبُّله للنَّقد البنَّاء وأن يعمل على تحسين وتطوير قدراته ومهاراته.
21. ولربما استكثر المـــُعَلِّم العربيّ هذه الصفات ووجد في اتصاف المـــُعَلِّم بها جميعا الكـــثير مـــن الخـــيال، والـــبعد عن الواقعية. ومن ثَمَّ ربما أسقطها جميعا لهذا الإحساس! ولكني أسرع لأقول : إن الرجل الجديّ والمخلص، يرى فيها دليلا عملـــيا لاستكمال النقص عنده، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نحن نرى أن الفضائل وحدة مُتَكَامِلة، وكل فضيلة هي أخت لفضيلة أخرى، تتكامل معها في مـــيدانها. ولـــذا نحـــن نرشّح هذه الصفات الفاضلة للزيادة كلما تبين لنا مايحـــتاجه المـــُعَلِّم، وذلك طالما رسمنا له دوراً رياديّاً في المجتمع، وطالما رضي لنفسه هذا الـــدّور، بل اعتز به. وعندها سوف يعتز المجتمع به، ويفخر بدوره

القــيادي والــريادي. ولعــل في نقلنا عن اِبْن جَمَاعَةَ الْكِنَانِيّ ما يُعَزِّز هذه الصفات، في تراثنا العظيم، ويلتقي مع أحدث الدراسات الغَرْبِيّة في رسم دور المــُعَلِّم . وكلٌّ من منظوره.

فمــاذا قــال اِبْن جَمَاعَةَ الْكِنَانِيّ، في "تذكرته"؟: "ينبغي أن يكون المدرِّس بها، ذا رياسة وفضل، وديانة وعقل، ومهابة وجلالة، وناموس وعدالة، ومحبَّة في الفضلاء، وعطف علــى الــضّعفاء، يقرّب المحصلين ويرغّب المشتغلين، ويبعد اللّغائين[1]، وينصف البحَّاثين، حريصاً على النَّفع، مواظباً على الإفادة"[2].

فمــن أهم شيم المعلم الناجح الإخلاص في العمل، والعلم النافع، والحكمة الصائبة، والعــدل في الأمور، والقوة الحازمة، والحلم والوقار، والتواضع في علمه وعمله، والتعففعن المسألة، والإحسان في عمله، والسَّمت الحسن، والمظهر الأنيق الجميل.

دور المـُعَلِّم في العمليّة التَّعْلِيْمِيّة

إن مــصطلح 'الــدّور' متعدّد الاستخدامات والدّلالات، فأحياناً يُطلق على الجزء الــذي يقوم بأدائه ممّثل ما في فيلم سينمائي أو مسلسل تلفزيوني، وأحياناً يُستخدم للدَّلالة علــى الوظيفة أو المهمّة الّتي تُوكل لشخص ما أثناء عمله أو ما يُتوقع منه القيام به خلال عمله.

بهذا المعنى كل منا له دور يلعبه في المجتمع الذي يعيش فيه، لكن هذه الأدوار تختلف في طبيعــتها وطرق أدائها، فهناك أدوارٌ صعب تجنّبها كدور 'الأب'، وهناك أدوار نقوم بها بحكــم الظــروف الّــتي تحيط بنا، كدور 'الطَّالب في المدرسة'، وهناك أدوار نحن نختارها

---

[1] لــسان العرب (15/ 250): قال الشافعي اللّغوُ في لسان العرب الكلام غير المعقود عليه وجِماعُ اللّغْو هو الخطــأُ إذا كــان اللّجــاجُ والغضب والعجلة، وقال رؤبة بن العجاج : ورَبِّ أَسْرابِ حَجِيجٍ كُظَّمِ عن اللّغا ورَفَثِ التَّكلُّمِ .

[2] تذكرة السَّامع والمتكلّم في أدب العالم والمتعلّم لابن جماعة الكناني ص 177

لأنفسنا، فمنا من يختار أن يلعب دور 'طبيب في مستشفى' أو دور 'مهندس في شركة' أو دور 'مدرس في مدرسة'، مهما كان الـــدّور الذي نأخذه، يتوقع الآخرون منا أداءً وتصرفاً يتناسبا مع طبيعة وأداء هذا الـــدّور.

وكثير من المـــُعلــّمين في البلاد العربيّة، لاسيما حديثي العهد منهم في مهنة التَّعْلِيْم، لا يعلمـــون خصائص وطبيعة الأدوار الّتي يلعبونها في العمليّة التَّعْلِيْميّة، ولايدركون أهمّية توقعات المجتمع منهم كمـــُعلّمين، ولا يبالون بآمال وتوقعات الطُّلّاب منهم، لذلك تحصل مشاكل تَعْلِيْمِيّة وتعلميّة بين المـــُعَلِّم والـــمُتَعَلِّم، تؤدي بدورها إلى فشل العمليّة التَّعْلِيْميّة على مستوى المـــُعَلِّم والطالب والمؤسَّسسة التَّعْلِيْميّة.

إنَّ هذا الأمر ملتبسٌ على كثيرٍ من النَّاس لاسيما أولياء الأمور، فبسبب هذه الصُّورة الغامـــضة عـــن المـــــُعَلِّم ودوره في العمليّة التَّعْلِيْميّة يتولد سوء تفاُهمّ بين أولياء الأمور والمـــُعَلِّم من جهة، والطُّلّاب من جهة، والإداريّين والمـــُعلـــّمين من جهة أخرى، ويحصل هذا كثيراً في قطّاع المدارس الخاصّة لاهتمام أصحابها بتحقيق أرباحٍ ماديَّة ومكاسب تجاريَّة على حساب جَوْدَة وجديّة العمليّة التَّعْلِيْميّة.

إن معـــرفة المـــُعَلِّم لخصائص دوره وما يتوقعه الطالب والمجتمع منه بصفته مـــُعَلِّماً للخـــير هي من أهمّ عوامل نجاح العمليّة التَّعْلِيْميّة، ومن أهمّ الأسس الّتي تساعد لبناء جيل من الـــمُتَعلِّمين والعارفين لأهمّية العلم والتَّعَلُّم في بناء مجتمع مسلم مستقيم.

مـــن أهمّ الأدوار الّتي يقوم بها المـــُعَلِّم والّتي تسأهمّ في نجاح العمليّة التَّعْلِيْميّة، وفي بناء شخصيّة متزنة ومستقيمة ومثقفة ثقافة نافعة لدى طالب العلم، أذكر ما يلي:

أولاً: الـــدّور التَّعْلِيْميّ

لقـــد أقر الشرع مبدأ التَّعْلِيْم ونشر العلم، واعتبره من أهمّ دعائم وأسس الدِّين، فقد ثبت في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسوله المصطفى ﷺ لكي يعلم النَّاس

ديـــنهم ويشرح لهم شريعة اللّه الّتي ارتضاها لهم، فكان مـــعَلّماً بحقاً. قال اللّه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة:2].

فـــالمـــعَلّم الـــصالح الناجح يلعب دوراً تَعْليميّاً مهماً في العمليّة التَّعْليميّة، خاصة إذا كان مؤهلاً حقاً في مادة تخصّصه، وواسع العلم والفكر، وكثير التجربة والخبرة في التدريس والـــتعامل مع الطُّلّاب. فإذا كان على ذلك من الصفات، يأخذ طلابه منه العلم والمعرفة بعمق وفعّالية.

كما ينبغي على المـــعَلّم الصالح العاقل أن يستخدم كل ما أعطاه اللّه سبحانه وتعالى من علم وخبرة ومهارت في سبيل توصيل المعلومة الصحيحة النّافعة بعمق وفعّالية إلى طلابه حـــتى يحصل التَّعَلُّم لديهم. وسيأتي ــ إن شاء اللّه تعالىـ تفصيل بعض طرق التَّعْلِيْم الّتي يمكنه أن يستخدمها في العمليّة التَّعْليْميّة بشَكْلٍ عام.

ونجد أحياناً أن المـــعَلّم العارف العالم يقوم مقام المنهج أو الكتاب، لاسيما إذا كان هـــناك ضعف في المِنْهاج الدِّراسيّ، فأحياناً يزود الطُّلّاب "بمذكرة" قد أعدها لهم، وأحياناً يستخدم كتاب المِنْهاج، لكن يختار منه المعلومة الصحيحة النّافعة، ويبعد المعلومة المغلوطة، أو المعلـــومة غـــير الـــنَّافعة أو الضارة منها، وما أكثرها في مِنْهاجنا وكتبنا، سواء كانَتْ معلـــومات دِيْنيّة، أو علميّة،أو أدبيّة، أو تاريخيّة، أو غيرها من المعلومات الّتي تحتويها كتب المَنَاهِج الدِّراسيّة لدينا.

ثانياً: الـــدّور الإداريّ

كثير ما نسمع أحياناً أن المـــعَلّم فلان متمكّن من مادته، وعالم بمحتوياها، لكنه لا يعرف كيف يتعامل معها، ولا يعلم كيف يدير حصة الدرس، ولا يستطيع ضبط الطُّلّاب، فـــيكون مـــثله مـــثل الرجل الذي يقرقر قرقرة الدجاج، فيختلط الأمر عليه وعلى طلابه،

فيخطـــئ بحـــق نفـــسه وبحق طلابه، فتعم الفوضى، ويضيع الجهد، وتتلاشى فرصة تعلم الطُّلَّاب، فلا هو علَّم بحق، ولا هم تعلَّموا بحق.

ليس من المبالغة أن نقول أن دور المــُعَلِّم الإداريّ في العمليّة التَّعْلِيْمِيّة هو أكثر أهمّية من دوره التَّعْلِيْميّ، فلايمكن أن يحصل تعليم فعّال أو تعلُّم عميق فعّال لدى الطُّلَّاب في بيئة تعمُّهـــا فوضـــى الصياح أو الضحك أو الاستهزاء، لذا تلعب قدرة المــُعَلِّم الإداريّة دوراً مهماً للغاية في نجاح العمليّة التَّعْلِيْمِيّة.

فينبغـــي على المــُعَلِّم العاقل الناجح أن يحضِّر الدرس، ويضع خطة تنفيذية للدرس، ويـــنظم قاعة الدرس، ويرتب جلوس طلابه بأُسْلُوْب يساعد على ضبطهم حتى تتم العمليّة التَّعْلِيْمِيّة بنجاح ويحصل التَّعَلُّم لدى الطُّلَّاب بعمق وفعّالية.

هناك أساليب كثيرة واستراتيجيات متعدّدة تساعد المــُعَلِّم في أداء دوره الإداريّ في العملـــيّة التَّعْلِيْمِيّة سبق وقد ذكرت بعضها تحت عنوان "القدرة على إِدَارَة الفصل وضبط الطُّلَّـــاب"، لكنني أريد أن أضيف عليها الأمرين التاليين لأهمّيتهما البالغتين في إِدَارَة الدرس وضبط الطُّلَّاب:

أ) أن يـــستعين بطالب 'عريف' فطن كيس، يقوم بترتيب زملائه الطُّلَّاب كلاً في مكانهُ، ويأمر بالسماع للمدرس والإنصات له.

ب) أن يزجـــر مـــن يسيء الأدب وممن يصدر عنه تصرفات تعيق سير الدرس من صـــياح، أو ضحك، أو استهزاء أو نوم، أو غيرها من التصرفات المذمومة في الدرس.

ثالثاً: الـــدّور التربوي

إضـــافة لدور المــُعَلِّم التَّعْلِيْميّ والإداريّ في العمليّة التَّعْلِيْمِيّة، فهو يلعب أيضاً دوراً تـــربوياً في تعليمه للطلاب. ومهما كان نوعيّة المادّة العلميّة الّتي يدرِّسها، فهو لا يقوم فقط بتوصـــيل المعلـــومة أو المهارة إلى الطُّلَّاب بشَكْلٍ فعّال، بل يقوم أيضاً ــ بقصد أو بدون

قـــصد_ علـــى بث أفكار ومفاهيم وقيم ومعتقدات يَتَعَلَّمُها الطُّلَّاب شاءوا أم أبوا، وذلك يعـــود إلى طبـــيعة دور المـــُعَلِّم، الذي يعدُّه كثير من الطُّلَّاب، ولاسيَّما طلاب المرحلتين الابتدائـــيّة والإعدادية، انه مصدر موثوق غير قابل للشك أو القدح في مصداقية المعلومة أو صاحبها.

لذا ينبغي على المـــُعَلِّم العاقل أن يدرك أهمّية دروه التربوي، ويستغل تعليمه للتربية الـــنَّافعة والتوجـــيه السديد، ويعمل جاهداً على نشر الفكر السَّليم، وتعزيز القيم السامية والأخـــلاق الكريمة، وزجر المفاهيم والاعتقادات الفاسدة، وخير شاهد على ذلك مـــُعَلِّم البشريّة الأول، محمّد رسول اللّه ﷺ، حيث كان ﷺ ينتهز الفرص ليصحح المفاهيم ويزجر الخرافات والاعتقادت الجاهلية، والشاهد على ذلك عند اتفاق كسف الشمس مع وفاة ابْنه إبـــراهيم، قال النَّاس إن الشمس كُسفت لوفاة ابْن رسول الله ﷺ، عندها وكما روي عَنْ أَبـــي مَسْعُودٍ، انه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَصَلُّوا "1.

هكـــذا تُستغل الفرص في التَّربية والتَّعْلِيْم، وتُصحح المفاهيم والقيم، وتُزجر الخرفات والعـــادات الجاهلـــية، وهكـــذا تتم تربية النفوس على التَّوْحِيْد، وتنمية الشُّعور بالمسؤوليَّة والجدِّية.

رابعاً: الـــدّور النَّفسي

إن الـــــدّور النَّفسي الذي يلعبه المـــُعَلِّم في عَمَلِيَّة تعليم وتعلُّم الطُّلَّاب لا تقل أهمّية عـــن غيرها، بل تُعتبر أهمّها، فإذا كان المـــُعَلِّم من النوع العبوس القنوط، البخيل في هشه وبـــشه، الـــشديد في نقده وحكمه، يؤدي ذلك إلى حصول ردة فعل سلبية لدى الطُّلَّاب، ولاســـيَّما الملتحقين الجدد منهم، فلا قبول لديهم للمـــُعَلِّم، ولا رغبة في الدِّراسة، وهنا لا يمكن لنا أن ننتظر نتائج إيجابية من العمليّة التَّعْلِيْمه برمتها.

[1] صحيح البخاري، رقم1057

أمـــا عندما يظهر المـــُعَلِّم البشر والابتهاج للْمُتَعَلِّم، ويعطيه شيئاً من الرفق والحنان، ويوفـــر له الطمأنينة وراحة البال، يحصل عند الطالب الشعور بقَبول المـــُعَلِّم، فيعمل على إرضائه ونيل إعجابه من خلال دراستة الجادة، وعمله الدؤوب من أجل النجاح والتحصيل العلميّ النافع، وبهذا يؤتي تعليمه نتائج إيجابية.

هذا ما كان يفعله مـــُعَلِّمنا الأول صلوات اللّه وسلامه عليه وأصحابه الكرام وكثير مـــن الـــتَّابِعين والسَّلَف الصالح. فعن صفوان بن عسال الُمرادي رضي اللّه عنه قال: أتيت الـــنَّبِيّ ﷺ وهو في المسجد مُتكئٌ على بُرد له أحمرَ فقلتُ له يا رسولَ الله! إني جئتُ أطلبُ العلـــمَ. فقـــال: "مرحباً بطالبِ العلمِ، إنَّ طالبَ العلمِ تَحُفُّه الملائكةُ بأجنحتِها، ثم يركبُ بعضُهم بعضاً حتى يبلغوا السماءَ الدُّنيا من محبتهم لما يطلُبُ".[1]

وفي هـــذا المقام، يقول الإمام اِبْن جَمَاعَةَ الْكِنَانِيّ رحمه اللّه في أهمّية الـــدّور النَّفسي الـــذي يلعبه المـــُعَلِّم في الطالب:" ينبغي أن يترحّب بالطلبة إذا لقيهم، وعند إقبالهم عليه، ويكـــرمهم إذا جلـــسوا إليه، ويؤنسهم بسؤاله عن أحوالهم وأحوال من يتعلّق بهم بعد رد ســـلامهم، وليعاملهم بطلاقة الوجه، وظهور البشر، وحسن المودة، وإعلام المحبة، وإضمار الشفقة، لأن ذلك أشرح لصدره وأطلق لوجهه وأبسط لسؤاله، ويزيد في ذلك لمن يرجى فلاحه ويظهر صلاحه"[2].

انطلاقـــاً مـــن مكانـــة المـــُعَلِّم المحمودة في ديننا، يجب على المـــُعَلِّم أن يعمل على توصـــيل المعلومة أو المهارة إلى الطُّلَّاب بشَكْلٍ عميق وفعّال، إضافة إلى زرع مخافة الله في نفوســـهم، وتربيتهم على الأخلاق الحميدة، وتنمية الشُّعور بالمسؤوليَّة والجديّة والإخلاص عندهم.

---

[1] صحيح الترغيب والترهيب، للإلباني، ج1/رقم71

[2] تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ص70

دور معتقدات المُعَلِّم في العمليّة التَّعْلِيميّة

'المعتقد' جمع 'معتقدات' وهي كل ما يؤمن به الإنسان، ويوقن به في قلبه وضميره انه حق وصواب بدون أي شك.

والمعـتقدات أنواع متعدّدة: أهمّها المعتقدات العليّا كالمعتقدات الدِّينيّة، ثم الوسطى كالمعتقدات العلميّة والفلسفية، ثم الدُّنيا كالمعتقدات الخرافية الّتي تتعارض مع مبدأي العقل والنقل.

بالـرَّغْمِ من أن ماهيَّة المعتقد نظرية، ومجردة، وعلميّة، إلا انه يتبلور ويظهر عَمَلِيًّا على الجوارح من خلال القول أو العمل. وأجمل مثال على هذا عقيدتنا الإسْلاميَّة السمحاء الّـتي أمرنا الله ﷻ أن نعتقدها ونوقن بها ونعمل بها قولاً وعَمَلاً والمذكورة في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[البقـرة:285]. وحدّدها الرَّسـول محمّـد ﷺ في الحديث المروي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ. فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ:" أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ" . قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الإِسلام؟ قَالَ: " الإِسلام أَنْ تَعْـبُدَ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَـضَانَ". قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَـرَاهُ فَانـه يَـرَاكَ". قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ:" مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَتْ الْعُرَاةُ الْحُفَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْبَهْمِ فِي الْبُنْيَانِ فَذَاكَ مِنْ أَشْـرَاطِهَا، فِـي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ " . ثُمَّ تَلاَ ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ

تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[لقمان :34]". قَالَ: ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "رُدُّوا عَلَـــيَّ الرَّجُلَ ". فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاس دِينَهُمْ"[1].

لاشـــك أن معـــتقدات النَّاس تتجسد في حياتهم الدِّينيّة، والسِّياسيّة، والاقْتصاديَّة والاجْتِمَاعيّة من خلال أعمالهم وسلوكياتهم وتصرفاتهم بشَكْلٍ مباشر أو غير مباشر. فمنهم مـــن يوالي من يتفق معه في المعتقد ولوكان معتقده يخالف الشرع، ومنهم من يتبرأ ويعادي من لا يتفق مع معتقداته ولو كان معتقده يوافق الشرع، هذا الوضع ــ عافاني اللّه وإياكم منهــ يعاني منه كثير من النَّاس وعلى جميع المستويات.

لـــو نظـــرنا في وضع المـــُعَلِّمــ على سبيلِ المثالــ والمعتقدات الّتي يحملها في عقله وقلبه، وكيف يتعامل معها، ويستخدمها في عمله كمـــُعَلِّم، وإلى أي مدى تؤثر في جَوْدَة العملـــيّة التَّعْلِيْميّة، ولوجدنا بحراً من المعتقدات والمبادئ والأسس ووجهات النَّظَر الّتي تحدد سير عمله وأُسْلُوْب تدريسه وطريقة تعامله مع طلابه.

شكى لي طالب يدرس في كلية كنغز، في جامعة لندن أن مـــُعَلِّمه كان يؤمن بنظرية 'داروين'[2]، الخبيث، فكان يتعامل مع طلابه بمعتقدات داروين الجاهل الأنوك ونظريته الضالة

---

[1] صحيح مسلم، رقم5

[2] تـــشارلز داروـــن (1809–1892) كاتـــب إنجليز وصاحب نظرية التطور التي تقول بأن أصل الإنسان حـــيوان صغير، نشأء من الماء، ثم تطور عبر ملاين من السنين بفعل تغيرات بيئية ليحمل صفات أرقى أورثها للأبناء حتى وصلت بهذا المخلوق البدائي ليصبح قرداً والقرد أصبح إنساناً. بئس الكاتب هو، وبئس النظـــرية هي، وخسئ هو ومن والاه من الحمقى والمغفلين. وكفانا هنا أن نذكر قول اللّه سبحانه وتعالى، (وَإِذْ قَـــالَ رَبُّـــكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ .وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ .وَقُلْنَا يَا

المائقة، فكان يرفض أحياناً البحث الذي يتعارض فكره مع فكر داروين، ويقلل من جَوْدَة البحث أحياناً إذا شم رائحة التَّوْحِيْد عند كاتب البحث، حتى أن هذا المـُعَلِّم الخبيث كان لا يعترف بشواهد يذكرها هذا الطالب من القرآن الكريم!

أمـــا في البلاد العربيّة، ولاسيَّما في البلدان العَلْمانيّة في أنظمتها السّياسيّة والتّربويّة، الأمر أعظم وأمرّ، إذ يقع الطالب المسكين ضحية وفريسة المـُعَلِّم العَلْمانيّ الذي لا يخاف اللّه في عمله وتعامله مع طلابه، فهو يحكم بالإعدام على مصير طلابه الدِّراسيّ، ليس فقط من خلال مايحملونه من معتقدات دِيْنِيّة أو فِكْرِيّة متعارضة مع معتقداته وفكره، بل أحياناً يـــسعى جاهـــداً لبث سموم معتقداته، وزبالة أفكاره، وخساسة نفسيته بين الطُّلّاب بشَكْلٍ مباشر أو غير مباشر[1].

ســـواء كـــان المـــُعَلِّم ناجحاً أم فاشلاً في عمله، فإنّ مبادئه ومعتقداته وأفكاره ووجهات نظره تؤثّر على العمليّة التَّعْلِيْمِيّة بشَكْلٍ عام، وعلى أُسْلُوْب توصيل المعلومات إلى الطُّلّـــاب، ومعـــتقدات وفكر الطُّلّاب بشَكْلٍ خاص، لذا لا بدَّ من التَّعرف إلى معتقداته، ومـــبادئه، وطبـــيعة فكره، ووجهات نظره في بعض القضايا قبل التَّعامل معه، فيجب على

آدَمُ اسْــكُنْ أَنْــتَ وَزَوْجُــكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَــا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ .فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَــنَّكُمْ مِنِّــي هُــدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْــحَابُ الــنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة :30-39]. وقال سبحانه وتعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) [التين :4]. هذا لمن له عقل سليم وقلب أراد الهدى والصراط المستقيم.

[1] صدّقوا، نعم صدقوا ! في بعض البلدان العربية ربما كان المُعَلِّم رجل أمن للسلطة، أو عميلا متبرعاً لها. وربما كانت المُعَلِّمة أيضاً ! ولم َلا ؟!فاختياره واختيارها لم يكن على أساس الكفاءة، بل على أساس الولاء لقائــد المسيرة، وللحزب القائد ! وهذا من ذاك، وذاك من هذا ! ولله في خلقه شؤون ! ولعلنا أبقينا هذا في الحاشــية،ولم ندخله النص، لأنه خارج على النص، وخارج على كل مبادئ السماء والأرض! وخارج عن الحــياة وعليها ! ولربما كانت مذابحه الثقافية والتعليمية أهون المذابح لأنها بعيدة عن الدماء، ولكنها أكثر قربا من الدمار !

مديري المدارس وعمداء الكليات ورؤساء الجامعات أن ينظروا في المبادئ والمعتقدات التالية عند تعيين المدرِّسين في المدارس وأعضاء هيئة التدريس في الكليات والجامعات:

1. معتقداته الدِّينيّة

هـــل يعتقد بعقيدة التَّوْحِيْد المذكورة في الكتاب والسّنّة الشّريفة، أم يعتقد بمعتقدات وخــزعبلات العَلْمانيّة وزبانيتها! فالفرق بين العقيدتين وأثرهما في العمليّة التَّعْلِيْميّة كالفرق بــين الجــنة والــنار وأثرهما كأثر بائع العطور والنافخ في الكير. حذار من نافخي الكير وعمّالــه! وحذارِ من نافخي السموم في رؤوس الطُّلّاب الأبرياء بحجة التَّعْلِيْم! وحذار من دغدغــة الثعلب الماكر بحجة مساعدة الطُّلّاب الضعفاء! هذا النوع من المــُعلــِّمين خيرهم شر، وحبهم كره، وضحكهم مكر وخداع.

2. معتقداته الثَقَافِيّة والاجْتِمَاعِيّة

هل يعتقد بثقافات تربوية أو اجْتِمَاعِيّة تتعارض مع الكتاب والسّنّة أم تتوافق معهما؟ هل ثقافات تعامله مع النَّاس بشَكْلٍ عام، والطُّلّاب بشَكْلٍ خاص، تقوم على مبدأ ائتلاف النَّاس واختلافهم، ولزوم المداراة وترك المداهنة مع النَّاس أو الطلبة، ولزوم الرفق في أمور وكراهية العجلة فيها، وغيرها كثير.

3. معتقداته حول طبيعة العلم والمعرفة

هــــل يعتقد بأولوية العلوم العليّا، أي علم قال اللّه عزّ وجل، وقال الرَّسول ﷺ، قال الــصَّحابة الكـــرام، وقال التابعون والسَّلَف الصالح؟ هل يعتقد أن العلوم الوسطى كالطب والهندســة والحساب، وغيرها جُعلت وسيلة لتمكين الإنسان من العيش على هذه الأرض لعــبادة ربه الواحد الأحد؟ هل يعتقد أن العلوم السفلى كالسحر وغيرها من العلوم الملهية الــتي ضـــررها أكثر من نفعها والتي لا حصر لها في هذا المقام يجب الحث على تجنّبها لأنها مضيعة للوقت، ومفسدة للعقل، ومصدأة للقلب!

4. معتقداته حول دور العلم والمعرفة في التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم

هـــل يعـــتقد أن أهمّ دور للعلم هو تعريف الجاهل بربه حتى يعبده ويخشاه سبحانه وتعالى على علم ويقين، ومحاربة الأمية بين اِبْناء المجتمع، وتعليم الطُّلّاب العلم النافع والمعرفة المفـــيدة؟ هل يعتقد أن دور العلم هو القضاء على الخرافات والخزعبلات الّتي تتعارض مع شـــريعة الكتاب والسّنّة، وتصحيح المفاهيم المغلوطة، وتعزيز القيم السامية، ونشر الأخلاق الكريمة؟ وغيرها كثير.

5. معتقداته حول طبيعة التَّعْلِيْم

هل يعتقد بمبدأ 'النقل قبل العقل'؟ هل يعتقد أن العلم الطبيعيّ يقوم على مبدأ التجربة والاســـتقراء، وعلـــى الأدلـــة والاستدلال؟ هل يعتقد بمبدأ رفض العواطف والاعتبارت الشّخـــصيّة؟ هـــل يعـــتقد بمـــبدأ البحث العلميّ ورفض الجمود والتَّقْلِيْد والتبعية الفِكْرِيّة للآخرين؟ هل يعتقد أن التَّعْلِيْم تلقين أم تعليم؟ هل يعتقد أن التَّعْلِيْم كمّي سطحيّ أم نوعيّ عمـــيق؟ هـــل يعتقد بمبدأ التدرج في التَّعْلِيْم؟ هل يعتقد بمبدأ الثواب والعقاب في التَّعْلِيْم؟ وغيرها كثير.

6. معتقداته حول طبيعة التَّعَلُّم

هل يعتقد بمبدأ استمرارية التَّعَلُّم؟ هل يعتقد بمبدأ رعاية الفروق الفرديّة لدى الطُّلّاب في تعلُّمهـــم؟ هـــل يعتقد بثقافة تساوي الفرص بين الطُّلّاب؟ هل يعتقد بمبدأ التَّعَلُّم الكمّي السطحيّ أم النوعيّ العميق؟

لاحـــرج في هـــذا المقام أن نذكر أنّ اللُّغوي طوني رايت[1] ميَّز نوعيّن من المعتقدات لدى المـــُعَلِّم[2]:

---

[1] (Wright, T: 1987)

[2] انظـــر كـــتاب معاييـــر لتقويم جودة التعليم لدى المدرسين في الجامعات والمعاهد العليا، د. أحمد حليمة، ص15

أ- مـعَلّم (أ) يعتقد أنّ :

1. هناك تخصّصات مختلفة مثل العلوم واللّغات.
2. هناك حدود واضحة بين هذه التخصّصات.
3. للتخصّص مضمون محدَّد للدِّراسة والتَّعَلُّم.
4. يتطلّب من الطُّلّاب تحقيق مستوى معين من الإنجاز العلميّ في هذا التخصّص.
5. يمكن تقويّم أداء الطُّلّاب حسب أسس محدَّدة.
6. مهمّة المـعَلّم تقويّم الطُّلّاب وفق معايير محدَّدة.

ب- ومـعَلّم (ب) يعتقد أنّ :

1. المعرفة هي القدرة على تنظيم الفكرة وشرح الحقائق والعمل بها.
2. الطّالب بطبيعته متحمّس لاكتشاف عالمه التَّعْلِيميّ.
3. المهمّة الرّئيسة للمـعَلّم إجراء حوار، ومن خلال هذا الحوار يقوم الطّالب بإعادة تنظيم معرفته السّابقة.

تفرض معتقدات كل من المـعَلّم (أ) والمـعَلّم (ب) عليهما أن يتصرّفا بشَكْلٍ مختلفٍ في الفصل الدِّراسيّ، فالمـعَلّم (أ) يبذل جهداً كبيراً لإيجاد جوٍّ مناسب في الفصل حتّى يستطيع أن يعطي المعلومة المُقرَّرة وعلى أساسها يقوِّم الطُّلّاب، فهناك من ينجح وهناك من يرسب، حسب مقدرة الطّالب على استرداد ما حفظه. فهذا النّوع من المـعلـمين يهتمّ بتوصيل المعلومة فقط دون الاهتمام بتنمية مشاعر المسؤولية عند الطُّلّاب.

أمّا المـعَلّم (ب) لا يحتاج أن يبذل جهداً كبيراً في ضبط الفصل الدِّراسيّ لأنّ الطُّلّاب مهتمّين وراغبين في كسب المعرفة وتطوير شخصيّاتهم. لذا يكرِّس المـعَلّم (ب) جهده في تعزيز وتطوير الشّعور بالمسؤوليّة لدى الطُّلّاب حتّى تحصل الجَوْدَة في التَّعَلّم بشَكْلٍ تلقائي، لأنّ الفهم والاستيعاب والقدرة على التّحليل والنّقد وإعادة تنظيم الأفكار

هـــم غـــرض التَّعْلِيْم عند المـــُعَلِّم (ب) وغرض التَّعَلُّم عند طلابه، وليس حفظ حقائق متفرِّقة واستردادها على ورقة الاختبار.

فعلـــى المـــُعَلِّم العاقل أن يحمل معتقدات لاتتعارض مع عقيدة التَّوْحِيْد في الكتاب والسّنّة، وأن يرفض ويحارب ثقافات الفساد والانحلال الاجْتِمَاعِيّ بكافَّة أشكالها وأنواعها، ويزجـــر ثقافات التَّقْلِيْد الفِكْرِيّ المشبوه بين الطُّلَّاب، ويُعَزِّز ثقافات التَّفْكِيْر الحر، وينشر ثقافـــات التَّعْلِيْم النوعيّ العميق، ويشجع ثقافات التَّعَلُّم العميق الفعّال، ويحث على التحلي بمحاسن ومكارم الأخلاق.

بهذا يتم الُحكم على المـــُعَلِّم فيما إذا كان صالحاً لوظيفة التَّعْلِيْم أم لا، وبهذا نضمن جـــيلاً رُبِّـــي على عقيدة التَّوْحِيْد، وتشَّبع بثقافات اجْتِمَاعِيّة صالحة، وتعلَّمَ ثقافات التَّعَلُّم العمـــيق الفعّـــال، ونمت لديه مهارات التَّفْكِيْر الحر السَّليم، وتطوَّرت لديه وسائل وطرق البحث العلميّ الصحيحة، وأصبح الفرد فيهم ذو شخصيّة صالحة العقيدة، قويّة الثقة، عالمة، عاملة، مرتاحة مطمئنة.

المـُعَلِّم والأساليب التَّعْلِيْميّة

إن طـــرائق وأســـاليب التَّعْلِيْم كثيرة ومتعدّدة في شكلها ومضمونها، منها ما يتعلّق بتعلـــيم الأطفال الحضانة والروضة، ومنها ما يتعلّق بطلبة المرحلة الابتدائيّة، ومنها ما يتعلّق بطلـــبة المـــرحلة الإعداديـــة، ومنها ما يتعلّق بطلبة المرحلة الثانوية، ومنها وما يتعلّق بطلبة المـــرحلة الجامعـــيّة، ومـــنها مـــا يتعلّق بطلبة الدراسات العليّا،كطلبة دراسات الماجستر والدكتوراة.

إن المـــُعلـــِّمين يخـــتلفون ويتميّـــزون عـــن بعضهم بعضاً بالطرائق والأساليب والإســـتراتيجيَّات الّتي يستخدمونها في تعليمهم لطلابهم، ويتبنَّونها من أجل توصيل المعلومة وتحقيق الأهداف السُّلوكيَّة والنَّشاطات والمعرفة.

ومنهم من لا يستخدم طريقة أو أُسْلُوْباً محدداً في تعليم طلابه، إما لجهل فيه أو لعدم مبالاة بأهمّية الأمر، أو لكبر في شخصيّته، واللّه أعلم. هذا النوع من المُعلِّمين مائل طائش يميل ويطيش بعقول طلابه شرقاً وغرباً لا يعرف كيف يبدأ الدرس أو كيف ينهيه. يخرج طلابه من درسه كما دخلوا، بدون تحصيل علميّ يُذكر، لأن عقولهم مشوشة، وقلوبهم مُغلقة، ومشاعرهم نحو مُعَلِّم الدرس حيرى مرتبكة.

ومنهم من يفضِّل طريقة أو أُسْلُوْباً أو إستراتيجيَّة سطحيّة تتناسب مع شخصيّته، ومعتقداته، والمَوَادّ التَّعْلِيْمِيّة المستخدمة، وتوقّعات الطُّلّاب، وأوامر الإداريّين، وشكل القاعة الدِّراسيّة، من أجل توصيل المعلومة _ فهذا مُعَلِّم سطحيّ يقتصر نشاطه على التَلْقِيْن.

ومنهم من يفضِّل طريقة أو أُسْلُوْباً أو إستراتيجيَّة عميقة فعّالة تقوم على تخطيط وإعداد المواضيع والأفكار للطُّلاب، وإعداد نشاطات حول هذه المواضيع، وتقديم المادّة التَّعْلِيْمِيّة بأُسْلُوْب يتحدَّى تفكير وتجربة الطُّلّاب المسبقة، ويثير بهم حبَّ الاكتشاف والمعرفة- فهذا مُعَلِّم عميق فعّال في تعليمه وتعامله مع طلابه.

وخير ما سنستشهد به في هذا المقام، ما كان أفضل المُعلِّمين، المُعَلِّم الرَّسول، محمّد ﷺ يستخدم من أساليب وطرائق في تعليمه لأصحابه الكرام ولمن جاء يطلب العلم منه، وكيف كان يختار أحسنها، وأفضلها، وأوضحها، وأقربها إلى فهم، وعقل، ومدارك المُتَعَلِّم، حتى تثبت في ذهنه، ويدركها عقله، ويتقبلُها قلبه عن حب ورضا، فتصبح المعلومة جزاء لايتجزأ من المعرفة الفطريّة لديه.

لقد كُتب الكثير عن أساليب وطرائق التَّعْلِيْم في الدوائر الأَكَادِيْمِيّة الغَرْبِيّة والشرقية، فمنهم من أصاب، ومنهم من أخطأ، ومنهم من فصَّل وأطال، ومنهم من اختصر وقصَّر، وأنا بدوري _ إن شاء اللّه_ سأقدم للمُعَلِّم العاقل، وللقارئ الفطن، مجموعة موجزة من

أهـــمّ الأســـاليب التَّعْلِيْمِيّة الّتي يمكن استخدامها في تعليمه، وذلك حسب الموقف التَّعْلِيْميّ الذي هو فيه:

أولاً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم بالفعل والعمل

إن أُسْلُوْب التَّعْلِيْم "بالفعل والعمل" قديم حديث لأهمّيته وفعّاليته في العمليّة التَّعْلِيْمِيّة، حـــيث يكـــون المـــُعَلِّم في أخلاقه وسلوكه وأفكاره قدوة لطلابه من جهة، ويستخدم الطرائق والنشاطات والإستراتيجيات العمليّة في شرحه وبيانه للطلاب من جهة أخرى.

يتعلم الطالب من مـــُعَلِّمه الكثير بدون أن يشعر المـــُعَلِّم بذلك، فعلى سبيلِ المثال، إذا كـــان المـــُعَلِّم ذو خلـــق حسن، ويهتمّ بالمحافظة على الصلوات الخمس أمام طلابه، ويمـــارس مهـــارة القراءة بقراءة كتاب نافع أسبوعياً، يكون أسوة لطلابه، فمنهم من يتعلم هذه الأمور، ومنهم من تُثار لديه حب التجربة والمحاولة، والعكس صحيح.

وخـــير دلـــيل نستدل به هنا أُسْلُوْب مـــُعَلِّمنا الأول، ورسولنا العظيم، محمّد ﷺ في تعليمه لأصحابه الكرام من خلال الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة لهم في كل أمر يقرّه أو ينهى عنه، أو فعل يأمر به أو ينهى عنه، قال اللّه تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب:21]. فقد كان الـــصَّحابة الكـــرام، رضوان اللّه عليهم أجمعين، يتعلمون ويأخذون كل شيءٍ نافع يرون الرَّسول المصطفى ﷺ يقوله أو يفعله أمامهم، ويرفضون كل شيءٍ غير نافع يرون الرَّسول للّه ﷺ يزجـــره أويتجنّـــبه بقـــوله أو بفعله، فكان صلى اللّه عليه وسلم قدوة لهم في عقيدته التَّوْحِيْدية، وأخلاقه العظيمة، وسلوكه القرآني، وعبادته الروحانية، وجهاده في سبيل اللّه.

وقـــد ثبت أيضاً أن الرَّسول ﷺ قد علم أصحابه رضوان اللّه عليهم أجمين بأُسْلُوْب البـــيان الفعلـــي، فقد روي أن محمّد بْنُ سَلامٍ، قَالَ أَخْبَرَنَا أَبو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ شَـــقِيقٍ، قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: لَوْ أَنَّ

رَجُلاً أَجْنَبَ، فَلَمْ يَجِد الْمَاءَ شَهْرًا، أَمَا كَانَ يَتَيَمَّمُ وَيُصَلِّي. فَكَيْفَ تَصْنَعُونَ بِهَذِهِ الآيَةِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[المائدة:6] فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَوْ رُخِّصَ لَهُمْ فِي هَذَا لأَوْشَكُوا إِذَا بَرَدَ عَلَيْهِمُ الْمَاءُ أَنْ يَتَيَمَّمُوا الصَّعِيدَ. قُلْتُ: وَإِنَّمَا كَرِهْتُمْ هَذَا لِذَا؟ قَالَ :نَعَمْ. فَقَالَ أَبُو مُوسَى: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ عَمَّارٍ لِعُمَرَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَاجَةٍ فَأَجْنَبْتُ، فَلَمْ أَجِد الْمَاءَ، فَتَمَرَّغْتُ فِي الصَّعِيدِ كَمَا تَمَرَّغُ[1] الدَّابَّةُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: " إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَصْنَعَ هَكَذَا ". فَضَرَبَ بِكَفِّهِ ضَرْبَةً عَلَى الأَرْضِ ثُمَّ نَفَضَهَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهَا ظَهْرَ كَفِّهِ بِشِمَالِهِ، أَوْ ظَهْرَ شِمَالِهِ بِكَفِّهِ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَفَلَمْ تَرَ عُمَرَ لَمْ يَقْنَعْ بِقَوْلِ عَمَّارٍ."[2] يتبين لنا في هذا الحديث أن النَّبِيّ ﷺ علّم عماراً رضي اللّه عنه التّيمم بالفعل وبالبرهان العمليّ.

وقد ثبت علميّاً أن الطالب يتعلم بسرعة، وبعمق، وبفعّالية، إذا اُستخدمت معه الأساليب العمليّة في تعليمه، فإذا قام المـُعَلِّم بشرح كيفيّة زراعة نبتة البندورة، على سبيلِ المثالِ، بالبيان الفعلي والعمليّ، يحصل التَّعَلُّم عند الطُّلّاب بفعّالية وعمق. هذا الأُسْلُوْب متبع في المؤسّسات التَّعْليْميّة البريطانية في جميع المستويات التَّعْليْميّة، ولاسيّما المرحلة الابتدائيّة، حيث يُعطى كل طالب وعاءاً صغيراً فيه تراب أرضي، ويتم تعليم الطُّلّاب كيفيّة زراعة بذور مختلفة فيختار كل طالب بذوراً تختلف عن زميله وعلى فترة من الزمن تتم دراسة النباتات المزروعة في الأوعية الصغيرة، ويقوم الطُّلّاب بقياس أطوال النباتات ودراسة الفروقات بين الواحدة والأخرى، كما تخضع بعض النباتات لظروف مناخية مختلفة عند بعضها الآخر وتُدرس النتائج الّتي تطرأ على النبات، كما تتاح الفرص للطلاب لأخذ نباتاتهم للاعتناء بها في منازلهم، وبذلك يتولد عند الطالب شعوره بالمسؤولية تجاه نبتته فتراه

[1] حذفت منها تاء المضارعة، فهي في الأصل تتمرغ .

[2] صحيح البخاري، رقم347

متشوقاً ومتحمساً كي تنمو نبتته بشَكْلٍ أفضل من نباتات زملائه في الصف، وبذلك تثبت الفكرة عند الطُّلّاب، وتصبح مفهومة وغير متلقنة شفهياً.

ثانياً: أسْلُوْب التَّعْلِيْم بالتدرُّج

إن مبدأ الأخذ بأولويات الأمور معمول به في الدول المتحضِّرة والمتقدِّمة بشَكْلٍ أكثر وأجــلّ منه في الدول العربيّة، بالرَّغْمِ من أن شريعتنا السمحاء اعتمدته، ودعت إلى العمل به، وأكّدت على الاعتناء بالأهمّ فالأهمّ في كافّة مجالات الحياة، ولاسيَّما في الدعوة إلى اللّه سبحانه وتعالى، فقد روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رضـــى الله عنه عَلَى الْيَمَنِ قَالَ: " إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَـــيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَـــتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ"[1]. نجد في هذا الحديث الشريف أن الرَّسول ﷺ كان السبَّاق في وضع نظام الأولويات، فقد وضع ﷺ لمعاذاً سلسلة من الأوليات في دعـــوته لأهل اليمن، ورتبها بالتدريج حسب أهمّيتها: أولها الدعوة إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا اللّه وأن محمّداً رسولُ اللّه، ثانيها: أن يخبرهم بأن اللّه فرض عليهم الصلوات الخمس، ثالثها: بأن اللّه فرض عليهم زكاة عن أموالهم.

إن أُسْـــلُوْب التدرج في التَّعْلِيْم جزء لا يتجزء من مبدأ الأخذ بالأولويات، والاعتناء بـــالأهمّ فالأهمّ. فالمـــُعَلِّم العاقل من يختار المادّة أو الموضع الأهمّ فالأهمّ من حيث الكميّة الّتي يريد أن يعلمها للطلاب، أو النوعيّة الّتي يريد أن يركز عليها في تعليم مادته، لأن العلم بحر خِضَمّ، وعميق، وواسع، ومليء بلآلئ العلم وأسرار المعرفة، فالأفضل للفهم، والأثبت للحفـــظ أقلها كماً وأهمّها نوعاً، فقد روى ابْن عبد البَرِّ القرطبي أن ابْن شهاب قال ليونس بن يزيد: "يا يونس لا تكابر العلم فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه،

[1] صحيح البخاري، 1458

ولكـــن خـــذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخْذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي"[1].

أما التدرج في التَّعْلِيْم من حيث النوعيّة فهو أجدر وأولى، لما في ذلك من نفع وفائدة لطالب العلم، وهذا ما يؤكده الشرع، ويقبله العقل، ويألفه القلب، فقد روي عَنْ جُنْدُب بْـــنِ عَبْد اللَّه انه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ، فَتَعَلَّمْنَا الإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا "[2].

وعَـــنْ أَبِـــي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ: انه كَانَ مِمَّا يُذَكِّرُ النَّاس كُلَّ خَمِيسٍ فَقَالَ رَجُلٌ: وَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ قَالَ: أَمَا انه مَا يَمْنَعُنِي ذَلِكَ إِلَّا مَخَافَةَ أَنْ أُمِلَّكم إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَخَوَّلُنَا[3] بِالْمَوْعِظَةِ بين الأيام مخافة السّآمة علينا[4]. فكان عبد الله بـــن مـــسعود راوي الحديث نفسه، تطبيقا لما روى ههنا لايعظ إلا كل أسبوع مرة رغم مطالبة القوم له بالحديث يوميا، وتشوقهم لحديثه .

وقال أبو الحسن البصري الماوردي[5] رحمه اللّه في التدرج في طلب العلوم: "أن للعلوم أوائـــل تـــؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهـــي إلى أواخـــرها، وبمداخلها لتفضي إلى حقائقها. ولا يطلب الآخرَ قبل الأولِ، ولا الحقـــيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة؛ لأن البناء على غير أسٍّ لا يُبنى، والثمر من غير غرس لا يُجنى".[6]

[1] جامع بيان العلم وفضله، لبن عبد البر القرطبي، ج104/1

[2] سنن ابن ماجة، رقم 61

3 والتخول التعهد أي من مرة إلى مرة دون استمرار يملُّ ويسئم.

[4] التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (6/ 489) الألباني : صحيح

[5] هو علي بن محمد بن حبيب البصري الشافعي المعروف بالماوردي، إمام من ائمة الفكر وواحد من كبار فقهاء الشافعية صاحب كتاب أدب الدنيا والدين ولد في البصرة سنة 364ه وتوفي سنة 450هـــ

[6] أدب الدين والدنيا للأبي الحسن الماوردي ص 53

وعلـــى هذا الأساس يجب على المــُعلــّمين العقلاء، والمؤسَّسات التَّعْلِيْميّة الواعية لمــسؤولياتها، أن يــضعوا المادّة التَّعْلِيْميّة، والمقرارات الدِّراسيّة، والمَنَاهِج والبرامج التَّعْلِيْميّة والتدريبـــية مـــنها، مـــا هو أنسب لقدرات الطالب، وأسرع لفهم المعلومة، وأثبت لحفظ الفكرة، وأنشط للذهن، وأحب للقلب. كل هذا يؤدي إلى تعليم وتعلُّم عميقين وفعّالين، إن شاء اللّه.

ثالثاً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم الفرديّ

يخـــتلف الطُّلّاب عن بعضهم بعضاً في كثير من الأمور، فهم غير متساوين ولاسيَّما فـــيما يتعلّق برغباتهم وقدراتهم ومهاراتهم التَّعْلِيْمِيَّة، فمنهم ــ على سبيلِ المثالِـ من يحب مادة اللغة العربيّة أكثر من مادة اللغة الإنجليزيّة، ومنهم من يجد مادة الحساب أو الرياضيات أصـــعب وأكثر تعقيداً من مادة الفيزياء أو الكيمياء، ومنهم من يكتسب مهارة القراءة قبل مهارة الكتابة.

هذا وضع طبعيّ في العمليّة التَّعْلِيْميّة، لكن ينبغي على المــُعَلِّم العاقل أن يدرك أهمّية هـــذا الوضـــع، وأن يعمـــل جاهـــداً على مراعاة الفروق الفرديّة في طلابه عند تعليمهم وارشـــادهم، فيخاطب كل واحد بقدر فهمه واستيعابه، فتعليم المبتدئ غير تعليم المتقدِّم، وتعليم الضعيف في اللغة الإنجليزيّة، على سبيلِ المثال، غير تعليم المتمكّن منها.

إن أُسْـــلُوْب مراعاة الفروق الفرديّة في عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم مطلب أساسيّ لنجاح العمليّة التَّعْلِيْميّة، وأول من عمل بهذا الأُسْلُوْب مع تلاميذه مــُعَلِّمنا ورسولنا المصطفى ﷺ، حيث كـــان يخاطب كل من أصحابهــ رضوان اللّه عليهم أجمعينــ وممن جاء يطلب العلم بقدر فهمه، وحسب منزلته، وبما يناسبه، وبما يلي من الأحاديث دليل واضح على ذلك:

عَـــنْ عَبْد اللّه بن عمرو بْنِ الْعَاصِي قَالَ: "كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ شَابٌّ فَقَالَ: يَا رَسُـــولَ اللّهِ، أُقَبِّلُ وَأَنَا صَائِمٌ؟ قَالَ: لَا، فَجَاءَ شَيْخٌ فَقَالَ: أُقَبِّلُ وَأَنَا صَائِمٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ:

فَنَظَرَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ عَلِمْتُ لِمَ نَظَرَ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ، إِنَّ الشَّيْخ يَمْلِكُ نَفْسَهُ"[1].

وعن عَبْدَ اللَّهِ بن عمرو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ، قَالَ: "فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟" قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا، قَالَ: "فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ؟" قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: "فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا"[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: "تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ". قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا. فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ النَّبِيّ ﷺ : "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا"[3].

هذه الأحاديث الشّريفة قليل من كثير مما قاله النَّبيّ الأمي ﷺ فيما يتعلّق بمراعاة الفروق الفرديّة بين المتعلّمين، والمخاطَبين، والسائلين، لذا ينبغي على المعلّم العاقل الناجح أن يراعي هذه الفروقات حتى يتحقق المبتغى من العمليّة التّعْليْمة بعمق وفعّالية، إن شاء اللّه.

رابعاً: أُسْلُوْب التَّعْليْم بالمُسَاءَلة وليس بالتَلْقيْن

من إحدى الفروقات بين أساليب التَّعْليْم في المؤسَّسات التَّعْليْميّة الغَرْبيّه والمؤسَّسات التَّعْليْميّة العربيّة، هي أن الأولى تستخدم أُسْلُوْب المساءلة وطرح الأسئلة، والأخرى تستخدم أُسْلُوْب التَلْقيْن وإعطاء معلومات، ففي بريطانيا_ على سبيلِ المثالِ_ نجد المعَلّم سواءً كان مدرساً في مدرسة ابتدائيّة أو جامعة يستعمل أُسْلُوْباً يسمح له بطرح أسئلة من

[1] رواه الإمام أحمد في مسنده، ج180/2

[2] صحيح مسلم، رقم2549

[3] صحيح البخاري، رقم1397

جهـــة، ويـــسمح للطالـــب بالإجابة على ما طرحه المـــُعَلِّم من جهة أخرى، فتتولّد لدى المــــُعَلِّم والطالـــب شراكة إيجابية فعّالة في ملكية المعلومة، وبالتالي يحصل التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم بعمق وبفعّالة لدى المـــُعَلِّم والطالب معاً.

أمـــا في الـــبلاد العربيّة_ إلا ما رحم ربي_ نجد أن أُسْلُوْب التَلْقِيْن أو ثقافة التَلْقِيْن تُمـــارس على مستويات مختلفة في المجتمع، فالأب يمارس ثقافة التَلْقِيْن المتسلّط على أولاده، والـــزوج يعطـــي أوامر وتعليمات إلى زوجته بدون سؤال يُطرح أو إجابة تُعطى، ومدير شـــركة أعمـــال يصدر تلقيناته بدكتاتورية عمياء، والمـــُعَلِّم ليس ببعيد عن ممارسة ثقافة التَلْقِـــيْن الفرعونية في تعليمه لطلابه، فتراه يدخل القاعة الدِّراسيّة، ويبدأ بسرد المعلومات، وكانـــهُ رشـــاش يريد التخلص من طلقاته سواءً أصاب الهدف أم أخطأه، بدون توقف أو استفسار عما كان الطُّلّاب على علم بما يلقنهم به أم لا.

ورســـول ﷺ، النَّبيّ الأمي، مـــُعَلِّم البشريّة، قد سبق الغَرْبِيّن والشرقين في استخدام أُسْلُوْب طرح الأسئلة على أصحابه_ رضوان اللّه عليهم_ وعلى من جاء يطلب العلم منه، فهو أُسْلُوْب يثير انتباه السامعين، ويحضّهم على استخدام فكرهم في الجواب على السّؤال، ووسيلة للمعرفة إن كان هناك أحد من الـــمُتَعلّمين لديه الإجابة، فعن أبي هريرة_ رضي اللّـــه عنه_ انه سَمِعَ رَسُولَ للّه ﷺ يَقُولُ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ فيه كُلَّ يَـــوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِه؟". قَالُوا: لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا. قَالَ:" فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا"[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ ". قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَـــنْ لاَ دِرْهَـــمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ، فَقَالَ: "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ القيامة بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَـــاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا،

[1] صحيح البخاري، رقم 528

فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاته، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاته، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْه، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهمّ فَطُرِحَتْ عَلَيْه، ثُمّ طُرِحَ فِي النَّارِ"[1] .

ينبغي على المـُعَلِّم العاقل ـ أثناء تدريسه التلاميذ في المدارس أو إلقاء محاضراته أمام طلبته الجامعيّين ـ أن يقوم بطرح الأسئلة ويسأل فيما إذا كان هناك أحد من الطُّلّاب لديه الإجابة، وأن يتجنّب تلقين الطُّلّاب معلومات قد يعلمونها.

وينبغي عليه أيضاً أن يزودهم بمجموعة من الأسئلة للدراسة والبحث بحيث يحاولون الاجابة عنها قبل الدرس أو المحاضرة، ويثير لديهم حب طرح الأسئلة، ويطلب منهم تحديد أسئلتهم وصياغة أسئلة اختبارات، وإعداد تمارين تقويّم، وذلك لمساعدتهم في تبنّي مبدأ المساءلة في التَّعَلُّم وزجر مبدأ السكوت السلبي الذي يُنتج الجهل والحمق عند المـُتَعَلِّم، وفي هذا قال الشاعر بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ[2]:

شِفَاءُ العَمَى طُولُ السُّؤال وَإِنَّمَا   دَوَامُ العَمَى طُولُ السُّكُوتِ عَلَى الْجَهْلِ
فَكُنْ سَائِلاً عَمَا عَنَاك فَإنما   دُعِيتَ أَخَا عَقْلٍ لِتَبْحَثَ بِالْعَقْلِ

خامساً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم بالمناقشة والحوار

إن أُسْلُوْبي المناقشة والحوار أُسْلُوْبان معروفان ومعمول بهما في الدوائر التَّعْلِيْميّة العالمية، ولاسيَّما الغَرْبيّة منها، وبالتحديد في بريطانية، وذلك لأهمّيتهما في عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم، كتابة وشفهياً. وربما يُعمل بهما في بعض البلدان العربيّة، لكن على نطاق ضيق وفي المراحل الجامعيّة فقط بطريقة الكتابة، أما أُسْلُوْب الحوار الشفهي التَّعْلِيْميّ بين المـُعَلِّم والطالب نادراً ما يحصل نتيجة لثقافة المـُعَلِّم التسلطية والدكتورية في طرح مسألة النّقاش الّتي لاتسمح للطالب أن يأخذ دور المحوار أو أن يساهم في عَمَلِيَّة النّقاش.

---

[1] صحيح مسلم، رقم2581

[2] أدب الدنيا والدين لأبي الحسن البصري الماوردي، ص66

سواءً كان الأمر كتابة أم شفهياً، يتضمن أُسْلُوْب النّقاش طرح فكرة ما أو مسألة ما أو أمر ما للمناقشة وللحوار من أجل التوصل إلى المبتغى من خلال وصف وشرح الفكرة، وذلـــك بإعطـــاء معلومات وأمثلة وأراء تؤيد وجهة نظرة الفكرة من جهة، وتعارضها من جهـــة أخرى، ثم القيام بتحليها وتقويّمها. بهذا الأُسْلُوْب يحصل التَّعَلُّم عند الطالب، ويقوم الطالب بتطبيقه في كتابة واجباته وأبحاثه، ويستخدمه في حواره مع مـــُعَلِّمه أو زملائه، كل حسب علمه ومترلته.

فقـــد استخدم الرَّسول المـــُعَلِّم صلوات اللّه وسلامه عليه أُسْلُوْب المناقشة والحوار والمـــوازنة العقلــيّة في شـــرح وتوضيح بعض المسائل الشَّرْعِيّة، وذلك ليُحق الحق، ويمحق الــباطل، وليغـــرس القبول والاطمئنان لدى السائل أو المستمع، فقد رُوي عنْ أبي سعيد الخُدْرِيِّ انه قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَضْحَى، أَوْ فِطْرٍ، إِلَى الْمُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَـــالَ: "يَـــا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّ أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ". فَقُلْنَ وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِن نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَـــازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ". قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَـــرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ". قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: " فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ ". قُلْنَ: بَلَى. قَالَ:" فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا"[1].

لذا ينبغي على المـــُعَلِّم العاقل أن يقتدي بمـــُعَلِّم الإنسانية، ويقبل هذا الأُسْلُوْب عن حـــب وقـــناعة، لما فيه من نفع له كمـــُعَلِّم ولطلابه كمُتَعَلِّمين، فأُسْلُوْب النّقاش يوضّح المعنى، ويقويّ الفهم والاستيعاب، ويثبّت الحفظ، ويثير الفطنة، ويحرك الذكاء، أما أُسْلُوْب الحـــوار يقـــرب القلوب، ويجلي النفوس، ويشحذ الأذهان، ويولد الأفكار، ويطور الآراء، فيحصل بذلك التَّعْلِيْم الفعّال، والتَّعَلُّم العميق النافع.

[1] صحيح البخاري، رقم304

سادساً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم بالمقايسة والمشابه

المقايسة لغوياً هي الموازنة بين أمرين، والمشابَهة هي مماثلة الشيء بشيء آخر، وكلاهما يُستخدمان في العملِيَّة التَّعْلِيْمِيَّة من أجل توضيح أو شرح ما أُشكل معناه أم مفهومه على السائل أو المستمع.

فقد كان رسول اللّه ﷺ يستخدم هذين الأُسْلُوْبين في توضيح وتعليل ما اشتُبه لأصحابه من أحكام الشريعة، وما غمض عليهم من أمور دينهم، فعَنِ ابْن عَبَّاسٍ رضى الله عنهما: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ، جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ، فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: " نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَةً؟ اقْضُوا اللَّهَ، فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ"[1].

وفي المشابه وضرب المثل حتى يتيسر الفهم والاستيعاب لدى المُتَعَلِّم، روي عنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلاَ رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْهُ شَيْءٌ أَصَابَكَ مِنْ رِيحِهِ، وَمَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْكِيرِ إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْ سَوَادِهِ أَصَابَكَ مِنْ دُخَانِهِ"[2].

لذا ينبغي على المُعَلِّم العاقل أن ينوع في أساليبه، فتارة يستخدم أُسْلُوْب المقايسة، وتارة يستخدم أُسْلُوْب التشبيه وضرب الأمثال، لما في ذلك من تيسير للفهم، وترويح للقلب، وشحذ للذهن لدى المُتَعلِّمين.

---

[1] صحيح البخاري، رقم1852

[2] سنن أبي داود، رقم4829

سابعاً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم بالبحث والاستكشاف

يُعَـــدُّ أُسْلُوْب البحث العلميّ في بريطانيا من أهمّ الأساليب الّتي تُستخدم في تعليم الطُّلّـــاب في كافّة مراحلهم التَّعْلِيْميّة، ابتداءً من المرحلة الابتدائيّة وانتهاءً بمرحلة الدراسات العليّا، لما في هذا الأُسْلُوْب من نفع وفائدة للمـــُعلّـــمين وللْمُتعلّمين.

يقـــوم مبدأ هذا الأُسْلُوْب على إعطاء الطالب فكرة ما أو موضوعاً ما، أو مسألة ما بحاجة لحل، أو مشكلة ما بحاجة لبحث ونقاش، فيذهب الطالب لكي ينفذ الواجب باتباع خطـــوات معروفة في مجال إجراء أي بحث علميّ، منها: مرحلة التفكر والتخيل، ثم مرحلة التحـــضير والتخطيط،ثم مرحلة التنفيذ، ثم مرحلة التقويّم، طبعاً هناك إجراءت عديدة يقوم بها الطالب خلال كل مرحلة من هذه المراحل تتناسب مع طبيعة السّؤال والمادّة التَّعْلِيْميّة.

يُمـــارَس أُسْلُوْب البحث العلميّ في المدارس الابتدائيّة البريطانية_ على سبيلِ المثال_ بطريقة تتناسب مع أعمار الطُّلّاب، وقدراتهم العقليّة، وميولاتهم العلميّة، ورغباتهم النَّفسية، وذلك لغرس حب البحث عن حقائق الأمور، وتنمية الرغبة في الكشف والاستكشاف عن المجهـــول، وتطويـــر مهـــارات البحث عن المعلومات، وكيفيّة جمعها وتصنيفها وإعدادها وتحليلها والتوصل إلى نتائج يستفاد منها في حياتهم العلميّة والعمليّة.

لكـــنه لا يُمـــارس في معظم البلاد العربيّة_ للأسف_ ولاسيَّما في المراحل التَّعْلِيْميّة التأسيسية بالرَّغْمِ من أن بعض مَوَادّ المَنَاهِج الدِّراسيّة المفروضة في المدارس تحتوي على أسئلة أو تمـــارين أو نشاطات أو حتى فعّاليات تحث المـــُعَلِّم على استخدامها، وتثني على الطالب الذي يطبقها. يعود هذا الوضع المخزي إلي عوامل وأسباب عديدة منها:

أ. عدم وجود ثقافة البحث العلميّ في المدرسة أو الـــمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة، فلا مدير يتابع ولا مفتش يسأل أو يفتش!

ب. عـــدم ممارســـة الطُّلَّاب لثقافة البحث والتنقيب ومهارتي القراءة والكتابة منذ الـــصغر، بلَّدت عقولهم، وصدَّأت قلوبهم، ورضوا بالقليل الخسيس من العلم، لأنّه سهل بسيط.

ت. إن المـــُعَلِّم لا يملك المعرفة العلميّة والمهارت البحثية الّتي تؤهله لتبنّي مثل هذا الأُسْلُوْب في تعليم طلابه.

ث. عدم مبالاة المـــُعَلِّم بمثل هذه الثقافة المتحضِّرة، إما لكسل فيه، أو لجهل أصابه، أو لكبر فيه.

فقـــد كان رسول اللّه ﷺ تارة يُبهم الشيءأمام أصحابه حتى يثير لديهم حب البحث عن حقيقة الأمر والرغبة في الاستكشاف، فيكون أكثر تأثيراً بهم لإتيانه، فعن أنس بن مالك رضـــي اللّه عنه قال: كُنَّا جُلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: "يَطلُعُ الآن عليكم رَجلٌ من أهل الجـــنة، فطَلَع رجلٌ من الأنصار، تَنطُفُ لحيته من وَضُوئه، قد عَلَّق نَعلَيه بيده الشِّمَال، فلما كـــان الغَـــدُ قال النَّبيّ ﷺ : مثل ذلك، فطلع ذلك الرجلُ مثلَ المرةِ الأولى، فلما كان اليومُ الثالث، قال النَّبيّ ﷺ : مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأول.

فلما قامَ النَّبيّ ﷺ تَبِعَه عبد الله بن عمروٍــ أي تبعَ ذلك الرجلــ، فقال: إني لَاحَيتُ أبي، فأقسمتُ أني لا أدخُل عليه ثلاثا، فإن رأيتَ أن تُؤويني إليك حتى تمضِي فعلتَ؟ قال: نعم.

قـــال أنسُ: فكان عبدُ الله يُحدِّثُ انه بَاتَ معه تلك الثلاثَ اللَّيالي فلم يَرَهُ يقوم من الليلِ شيئاً غير انه إذا تَعَارَّ[1] وتَقلَّبَ على فِراشِهِ ذَكَر اللهَ عَزَّ وجَلَّ، وكبَّرَ حتى يَقومَ لصلاةِ الفجر.

[1] لـــسان العـــرب (4/ 91): ذكر ابن الأثير في كتاب النهاية مَنْ تَعَارَّ مِنَ الليلِ في هذه الترجمة (أي ت ع ر)وقال أي هَبَّ من نومِه واستيقظ قال والتاء زائدة وليس بابه(أي هي من باب : ع ر ر)

قــال عبدُ الله : غير أني لم أسْمَعْه يَقولُ إلاَّ خيراً، فلما مَضَتْ الثلاثُ اللّيالي، وكِدْتُ أن أحتَقِــرَ عملَــه قلتُ: يا عبد الله لم يَكنْ بيني وبين أبي غَضَبٌ ولا هَجْرٌ، ولكن سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ لك ثلاثَ مرَّات: يَطلُعُ عليكم الآن رجلٌ من أهلِ الجنة، فطَلَعتَ أنت الثلاثَ المرَّات، فأردتُ أن آويَ إليك، فأنظُرَ ما عَمَلُك، فأقتَديَ بك، فلم أرك تَعمَلُ كثير عَمَــلٍ، فمـــا الـــذي بَلَغ بك ما قال رسولُ الله ﷺ؟ قال: ما هو إلاَّ ما رأيتَ، فلما وَلَّيتُ دَعاني: فقال: ما هو إلاَّ ما رأيتَ يا ابْن أخي غيرَ أني لا أجدُ في نفسي لأحدٍ من المسلمين غِشّاً، ولا أحسُدُ أحداً على خير أعطاه الله إياه.

فقال عبدُ الله : هذه الّتي بَلَغَتْ بك وهي الّتي لا نُطيقُ"[1].

يتــبين مـــن هذا الحديث أن الرَّسول ﷺ قد استخدم أُسْلُوْب إثارة حب المعرفة من خلال التنبيه على أن فلاناً من أصحاب الجنة بدون أن يصرح عن اسمه، استحق هذا الوسام العظــيم، ومـــاذا كان يفعل في نهاره وليله، وكيف يتعامل مع الآخرين، بل ترك لمن عنده الرغبة في البحث والاستكشاف أن يقوم بذلك حتى يحصل على العلم ويتحقق لديه الحكمة من قوله ﷺ .

لـــذا ينبغـــي على المــُعَلّم العاقل أن يستخدم هذا الأُسْلُوْب مع طلابه سواءً كانوا صغاراً أم كباراً، ولا يجد فيه حرجاً لأنّه أُسْلُوْب يتيح للمـــُعَلّم ولِلْمُتَعَلّم الفرصة في كسب مـــزيد من العلم والمعرفة، ويصقل لديهما مهارات البحث والتنقيب والتحليل والاستنتاج والتقويّم.

ثامناً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم القصصي

إن أُسْلُوْب التَّعْلِيْم برواية القصص، وحكاية الحكايات، وتدارس أخبار الماضين، هو مـــن أجمل الأساليب التَّعْلِيْميّة، وأكثرها جذباً وفعّالية في نفوس الـــمُتَعلّمين، والمستمعين، لأن انتــباه ونـــشاط عقـــولهم يكون في أعلى مستواه،كما تكون قلوبهم مشتاقة متعلقة،

[1] ضعيف الترغيب والترهيب، للألباني، ج2/رقم1728

وأذهـــانهم مـــشحوذة اســـتعداداً لتلقي الخبر، والتمتع بما يحمله من أحداث مثيرة، ووقائع مدهشة، ودروس وعبر نافعة مفيدة.

فاللّـــه سبحانه وتعالى سَنَّ هذا الأُسْلُوْب الجميل في شكله، والعظيم في مضمونه، في تعلـــيمه لرسوله محمّد ﷺ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[هود:120].

والـــنَّبِيّ الأمـــي صـــلوات اللّه وسلامه عليه استخدم الأُسْلُوْب القصصي في تعليمه لأصحابه رضوان اللّه عليهم أجمعين، وفي تقديم العبر والمواعظ للناس، ففي حضِّه على الرأفة والرحمة بالحيوان والإحسان إليه، والتحذير من تعذيبه أو الإساءة إليه، رُوي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا، فَـــشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْـــبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، فَسَقَى الْكَلْـــبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ ". قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا. فَقَالَ " فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ "[1].

يُـــستخدم الأُسْـــلُوْب القصصي في التَّعْلِيْم بكثرة في المؤسَّسات التَّعْلِيْمِيّة البريطانية، ولاســـيَّما في تعلـــيم طلاب المرحلة الابتدائيّة، حيث يقوم المـــُعَلِّم بقراءة قصة أو برواية حكاية على طلابه بشَكْلٍ يومي، ثم يبني جزء من الدرس على أحداث ووقائع القصة، وما يمكـــن أن يتعلّمه الطُّلّاب من عبَرٍ أخلاقيّة، ودروس إنسانية، ومعرفة علميّة كانَتْ أم أدبيّة. إضـــافة إلى ذلك يُعطي المـــُعَلِّم الطُّلّاب واجبات مترلية تتعلق بالقصة نفسها أو بالتحضير لقصة أخرى يرويها الطالب أو حكاية يحكها الطالب فيها عبرة أخلاقيّة أو درس في العلم

[1] صحيح البخاري، رقم6009

أو المعرفة. بهذا الأُسْلُوْب يُقبِلُ الطُّلّاب على التَّعَلُّم بحب ورغبة، وعقولهم وأذهانهم منفتحة مستعدة، فيحصل التَّعَلُّم العميق الفعّال لديهم.

ينبغي على المـُعَلِّم العاقل أن يسعى جاهداً في استخدام هذا الأُسْلُوْب، وأن يستثمره في تعليم طلابه في كافّة المراحل التَّعْلِيْمِيّة، ولاسيَّما الطُّلّاب الذين يعانون من بطء في اكتساب المعلومة أو ضعف في تثبيت الفهم أو الحفظ.

تاسعاً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم "بالطالب المدرس"

يُعَدُّ استخدام فكرة الطالب المدرس في تعليم الطُّلّاب من أشهر وأنجح الأساليب المستخدمة في المؤسَّسات التَّعْلِيْمِيّة البريطانية، حيث يُعطى الطالب دور المدرس ليقوم بشرح ما يريد أن يتعلّمَه أمام زملائه المـُتعلِّمين، فبهذا تُعطى الفرصة للطالب المدرس أن يفهم ويثّبت المعلومة الّتي يريد أن يتعلّمَها من جهة ويعلمَها لزملائه من جهة أخرى، كما يكتسب الطالب المدرس ثقة بنفسه وبعلمه، ويشجع زملاءه لأخذ هذا الدّور في الدروس المقبلة.

إن هذا الأُسْلُوْب قد سبق واستعمله المصطفى صلوات اللّه وسلامه عليه مع أصحابه الكرام، فكان يفوّض أحدهم بالجواب عما يُسأل، وذلك من أجل تعليمهم وتدريبهم على الإجابة في أمور العلم، فعن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَجُلاً أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ فِي الْمَنَامِ ظُلَّةً تَنْطِفُ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ، فَأَرَى النَّاسَ يَتَكَفَّفُونَ مِنْهَا، فَالْمُسْتَكْثِرُ وَالْمُسْتَقِلُّ، وَإِذَا سَبَبٌ وَاصِلٌ مِنَ الأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَرَاكَ أَخَذْتَ بِهِ فَعَلَوْتَ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَعَلاَ بِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَعَلاَ بِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَانْقَطَعَ ثُمَّ وُصِلَ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ، وَاللَّهِ لَتَدَعَنِّي فَأَعْبُرَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" اعْبُرْهَا ". قَالَ: أَمَّا الظُّلَّةُ فَالإِسلام، وَأَمَّا الَّذِي يَنْطِفُ مِنَ الْعَسَلِ وَالسَّمْنِ فَالْقُرْآنُ، حَلاَوَتُهُ تَنْطُفُ، فَالْمُسْتَكْثِرُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْمُسْتَقِلُّ، وَأَمَّا السَّبَبُ الْوَاصِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ فَالْحَقُّ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، تَأْخُذُ بِهِ فَيُعْلِيكَ اللَّهُ،

ثُـــمَّ يَأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِكَ فَيَعْلُو بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ رَجُلٌ آخَرُ فَيَعْلُو بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُ رَجُلٌ آخَرُ فَيَنْقَطِعُ بِهِ ثُمَّ يُوَصَّلُ لَهُ فَيَعْلُو بِهِ، فَأَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ، أَصَبْتُ أَمْ أَخْطَأْتُ. قَالَ الـــنَّبِيِّ ﷺ:" أَصَــبْتَ بَعْـــضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا". قَالَ: فَوَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَتُحَدِّثَنِّي بِالَّذِي أَخْطَأْتُ، قَالَ: " لاَ تُقْسِمْ "[1].

وحتى يستطيع المـــُعَلِّم العاقل أن يستخدم هذا الأُسْلُوْب بحق وعمق وفعّالية، عليه أن يقوم بعدة أمور أذكر منها ما يلي:

أ. أن يوضـــح أهـــداف الـــتعلم المقصودة من الموضوع الذي سيشرحه الطالب المـــدرس، بحـــيث يتعرف هو والطُّلّاب الـــمُتَعلِّمين فيما إذا كان هذا النشاط ناجحاً أم لا.

ب. أن يوضـــح لطلابـــه أن شرح الطالب المدرس لطالب آخر يعمق فهم الطالب المدرس ويثبت حفظ المعلومة لديه.

ت. أن يوضـــح لهم أن فكرة الطالب المدرس ليس نتيجة فشلهم أو رسوبهم في أداء عملهم بل هو جزء لا يتجز من عَمَلِيَّة التَّعَلُّم العميق لديهم.

ث. أن يـــزود الطالب المدرس بموارد تَعْلِيْمِيّة مفيدة (نشرات، مراجع، مواقع على الإنتـــرنيت، الخ ...) تساعده في تصميم واعداد إستراتيجيات تعليمه لزملائه الطُّلّاب.

ج. أن يعطـــي الطالب المدرس درجات على عمله، فمثلاً يخصّص جزءٌ من درجة التقويّم الكامل للمادة لهذا النوع من العمل.

ح. ينفذ هذا الأُسْلُوْب بإجراء نشاطات جماعية كاملة بحيث يمكن مناقشة وحل أية مشكلات قد يواجهها الطُّلّاب المدرسين والطُّلّاب الـــمُتَعلِّمين.

---

[1] صحيح البخاري، رقم7046

هـــذا الأُسْلُوْب ــ والله أعلم ــ شبه مفقود في معظم المؤسّسات التَّعْلِيْمِيّة العربيّة، ولاسِـــيَّما في المراحل التأسيسية من التَّعْلِيْم، لذا ينبغي على المـــُعَلِّم العاقل أن يأخذ المبادرة في تطبـــيقه ولـــو كان على نطاق مجموعة من الطُّلاّب، وأن يدرس المسؤولون في وزارات التَّـــربية والتَّعْلِــيْم إمكانـــية فـــرض تطبيقه واعتباره جزءاً من المَنَاهج التَّعْلِيْمِيّة في المراحل الابتدائـــيّة، والإعداديـــة، والثانوية، لما فيه من فرص ممتازة للتَّعَلُّم العميق الفعّال، وتطوير شخـــصيّة الطالب، وكسبه مهارات اتصال مطلوبة على الصعيد الأَكَادِيْمِيّ، والاجْتِمَاعِيّ، وفي سوق العمل أيضاً.

عاشراً: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم باستخدام وسائل التَّعْلِيْم الإيضاحية

يُستخدم هذا الأُسْلُوْب في حال وجد المـــُعَلِّم صعوبة عند طلابه في فهم أو استيعاب معنًـــى مـــا أو مفهوماً ما، أو مشكلة ما أو مسألة، أو أمراً ما بحاجة لإيضاح، فيلجأ إلى استخدام وسائل تَعْلِيْمِيّة من أجل الإيضاح والتوضيح ليسهِّل عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم.

منذ أكثر من أربعة عشر قرناً وهذا الأُسْلُوْب يُستخدم في عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم، فقد كان رسول الله ﷺ يستعين على توضيح بعض المعاني بالاشارة تارة، وبالرسم على الأرض والأتـــراب تارة آخرى، فعَنْ عَبْدِ اللَّه بن مسعود رضى الله عنه قَالَ: خَطَّ النَّبِيّ ﷺ خَطًّا مُـــرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطُطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ وَقَالَ: "هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ — أَوْ: قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطُطُ[1] الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا "[2].

لا شـــكَّ انه حصل تطور وتنوع في تصميم واستخدام وسائل التَّعْلِيْم الإيضاحية، ابتدءاً بتصميم شفافيات الكاشف الضوئي المستخدمة في محاضرات المجموعات الكبيرة من

[1] لسان العرب (7/ 287) : وجمع الخِطَّةِ خِطَطٌ

[2] صحيح البخاري، رقم6417

الطُّلَّاب، مروراً بإعداد 'نشرات' تُوضح فيها المادّة التَّعْلِيْمِيّة بواسطة وسائل الطباعة الإلكترونية الّتي تجعلها جذابة المنظر، وانتهاءً باستخدام برنامج مايكروسوفت 'بوربوينت'، الذي أحدث ثورة في صناعة وسائل التَّعْلِيْم الإيضاحية.

إضافة لذلك هناك من يستخدم الوسائل الإلكترونية كالبريد الالكتروني، ومواقع الإنترنيت التَّعْلِيْمِيّة، ووسائل الدعاية والهيبرتاكست وغيرها من الوسائل من أجل توضيح وتسريع عَمَلِيَّة التَّعَلُّم عند الطُّلَّاب.

لذا ينبغي على المُعَلِّم العاقل أن يدرك أهمّية وسائل التَّعْلِيْم الإيضاحية، وأن يحسن استخدامها واستثمارها في تحسين وتطوير العمليّة التَّعْلِيْمِيّة، وتسريع عَمَلِيَّة التَّعَلُّم عند المُتَعَلِّمين. كما ينبغي عليه أن يكون على اطلاع مستمر على كل جديد يظهر في مجال وسائل التَّعْلِيْم الإيضاحية، وأن يتعلم مهارات كيفيّة استخدامها، ولاسِيَّما مهارة استخدام الكمبيوتر والبرامج التَّعْلِيْمِيّة.

حادي عشر: أُسلُوْب الترغيب والترهيب في التَّعْلِيْم

إن الترغيب بالخير والدعوة إليه، والترهيب من الشر والتحذير منه مبدأين من أهمّ المبادئ الّتي جاء بها الإسلام، وأمر بتطبيقهما في كافّة مجالات الحياة، ولاسِيَّما في مجال التَّربية والتَّعْلِيْم.

إن أساليب الترغيب والتحبيب، وأساليب التخويف والتكريه في التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم كثيرة جداً لا يمكن حصرها في مثل هذا الكتاب المتواضع، لكن لمن أراد أن يطَّلع على ما روي عن النَّبيّ المُعَلِّم ﷺ من أحاديث صحيحة في الترغيب والترهيب، فليراجع كتاب "صحيح الترغيب والترهيب" للشيخ محمّد ناصر الدِّين الألباني رحمه اللّه تعالى.

للاستئناس أذكر كيف كان رسول اللّه ﷺ يثني على صحابته وتلاميذه إذا أصابوا عندما يسألهم عن شيءمن العلم من باب الكشف عن ذكائهم ومعرفتهم، فيجلب لهم السرور والطمأنينة، ويؤثر تقديره وثناؤه عليهم تأثيراً عظيماً فيهم، فعَنْ أَبي بْنِ كَعْبٍ، قَالَ:

قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " يَا أَبَا الْمُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ؟". قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " يَا أَبَا الْمُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟". قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: "وَاللَّهِ! لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ "[1].

وتارة كان صلّى اللّه عليه وسلّمَ يحذّر من كتم العلم، وتارة كان ينفّر ويزجر من كان تعلمه لغير اللّه، يريد منه مناظرة العلماء، والمباهاة أمام الأقران، فقد روى أبو داود عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ القيامة بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ" [2].

وروى ابْن ماجة عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ انه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لاَ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلاَ لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلاَ لِتَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ" [3].

بالرَّغْمِ من تأكيد الشرع على أهمّية استخدام أُسْلُوْبي الترغيب والترهيب في التَّربية والتَّعْلِيْم، نجد أن كثيراً من المسؤولين والإداريّين والمـُعلـّمين في وزارات التَّربية والتَّعْلِيْم في معظم البلاد العربيّة لا يلقون لهما بالاً، فبعض المـُعلـّمين في المدارس يجهل أو يتجاهل أساليب الثناء والتقدير في تعاملهم مع الأداء المُميَّز لطلابهم، وبعضهم يغالي في استخدام أساليب الترهيب والتخويف مع المقصرين من الطُّلّاب، وبعضهم لا يجرأ على معاقبة الكسالى أو المشاغبين من المـُتَعلِّمين.

لذا ينبغي على المـُعَلِّم في المدارس الابتدائيّة أن يستخدم أُسْلُوْبي الترغيب والترهيب باعتدال وتوازن وعَقلانيّة، فهو يتبع نظام ترغيب معين في تعامله مع طلابه المجتهدين من

---

[1] صحيح مسلم، رقم810

[2] صحيح الترغيب والترهيب للالباني، ج/1، رقم 120

[3] صحيح الترغيب والترهيب للالباني، ج/1، رقم107

جهة، ونظام زجر معين مع طلابه المقصيرين أو المشاغبين من جهة أخرى، وفيما يلي مثال عن نظام مكافأة وترغيب أقترحه لمن أراد أن يستخدمه مع طلابه في المدارس الابتدائيّة:

أ. إذا تميّز الطالب في جوابه لمسألة ما، أعطاه المـُعَلِّم 'لصيقة' عليها صورة ما فلتكن نحلة أو فراشة أو غيرهما.

ب. إذا حصل الطالب على أربعة لصيقات تقديرية على الأقل في الأسبوع، رفع المـُعَلِّم اسمه إلى مدير المدرسة لكي يذكره في اجتماع المدرسة الأسبوعي الذي يعقد في قاعة كبيرة في يوم الجمعة من كل أسبوع.

ت. عندما يتكرر ذكر اسمه في ثلاث اجتماعات أسبوعية، يُعطى هدية رمزية (فليكن قصة، دفتر، أقلام ... الخ)

ث. عندما يتكرر ذكر اسمه في تسعة اجتماعات أسبوعية كطالب متميّز، يقدم له مدير المدرسة "قميص المدرسة المخصّص للمتميّزين" عليه شعار المدرسة تقديراً لمثابرته في اجتهاده.

ج. عندما يصبح عدد الأسابيع المُمَيَّزة ثمانية عشر أسبوعاً، يقدم له مدير المدرسة 'وسام' عليه شعار المدرسة تقديراً لمثابرته في اجتهاده.

وما يلي مثال عن نظام عقوبات يمكن استخدامه مع طلاب المدارس الابتدائيّة:

أ. إذا أساء الطالب لأحد من زملائه، أو أساء التصرف في الفصل، أو أحدث ضجيجاً، أو أكثر من الحركة والثرثرة، يقوم المدرس بتنبيهه، موضحاً له بأن هذا هو إنذاره الشَّفَوِيّ الأول.

ب. عندما يكرر الطالب إساءته ومشاغبته، يضع المدرس اسمه في قائمة المسيئين المشاغبين، ويكون ذلك هو تنبيهه الثاني.

ت. أمـــا المرحلة الثالثة من العقويّة، تكون بإخراج الطالب من الصف، وإرساله إلى غـــرفة صف ثانية في المدرسة حتى يشعر بالخزي والحرج أمام زملائه، ويُعطى واجباً دراسيّاً لحله.

ث. عـــند عـــودة الطالب إلى فصله، وتكرار مخالفته لتوجيهات المدرس، يُؤخذ إلى مديـــر المدرسة، والذي يقوم بدوره بتنبيه الطالب، وإيضاح مساوئ المشاغبة والفوضـــى الّـــتي يحدثها عليه وعلى زملائه في الفصل وعلى مستقبله الدِّراسيّ بشَكْلٍ عام.

ج. يقـــوم المـــدرس بإعلام ولي أمر الطالب بكل ما جرى خلال اليوم الدِّراسيّ، ويوضِّـــح له وضع ولده السلوكي والدِّراسيّ، حتى تكون عَمَلِيَّة حل مشكلة الطالـــب الـــسلوكية وتوجيهه للصواب عَمَلِيَّة مشتركة ومُتَكَامِلة بين المدرسة وأهل الطالب، يسعى بها الطرفان للتعاون لحلها بأقصى وقت ممكن حتى تكون فعّالة ومجديّة.

إن مـــا اقترحته أعلاه بخصوص اتباع نظام في الترغيب والترهيب في التَّعْلِيْم هو من بـــاب الاستئناس فقط، لأن تطبيق أي نظام مكافآت أوعقوبات يتطلب من المـــُعَلِّم العربيّ أن يأخذ بعين الاعتبار الثقافات الدِّينيّة والاجْتِمَاعِيّة والاقْتِصاديَّة والسّياسيّة للمجتمع الذي يعيش فيه وعاداتهم وتقاليدهم في كيفيّة تربية أولادهم ومدى تقبل هذا المجتمع لهذا النظام.

كمـــا ينبغـــي على المـــُعَلِّم أن يدرك انه يجب على نظام المكافأت والعقوبات أن يتناســـب مـــع جنس الطُّلّاب_ الذكر غير الأنثى_ ومع أعمارهم، ومراحل تعليمهم، فما يُحفِّـــز ويزجر طلاب المرحلة الإعدادية غير ما يُحفِّز ويزجر طلاب المرحلة الثانوية، لكل منهم أساليب تختلف في عَمَلِيَّة الترغيب والترهيب.

ثاني عشر: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم بالكتابة وتدوين الملاحظات

إن مهارة الكتابة علامة مُميَّزة بين الأمِّي والـــمُتَعَلِّم، وبين الجاهل والعالم، والكتابة وســـيلة لتقييد العلم والمعرفة، وأداة لتدوين وتوثيق الديون والعقود والمعاهدات بين النَّاس، ولأهمِّيتها وعظمة شانها أمر اللّه سبحانه وتعالى عباده بكتابة الدِّين حفظاً له، ولعدم دخول الشك فيه، وضماناً لحقوق العباد، فقال عزَّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾[البقرة:282].

وفي أهمِّية استخدام الكتابة في تسجيل وحفظ العلم، روي عن عبد اللّه بن عمرو انه قال: قلت: "يارَسُولَ اللّه أُقَيِّدُ العلْمَ؟[1]" قال: "نعم". قلت: "وما تقييده؟" قال: "الكتاب"[2].

وعن عَبْدِ اللّه بن عمرو، قَالَ كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللّه ﷺ أُرِيدُ حِفْظَـــهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ، وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ (تَسْمَعُهُ) وَرَسُولُ اللّه ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي

[1] لــسان العرب (3/ 372) قَيَّد العِلم بالكتاب ضَبَطَه وكذلك قَيَّدَ الكتاب بالشَّكْل شَكَلَه وكلاهما على المثل . والكتابة والكتاب كلاهما مصدر، وهما بمعنى واستعمال واحد .

[2] تقييد العلم، للحافظ الخطيب البغدادي، رقم113. في (السلسلة الصحيحة المجلدات الكاملة 1-9 (5/ 25)): مثله يستشهد به ويرتقي الحديث إلى مرتبة الصحيح لغيره.

الْغَضَبِ وَالرِّضَا، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ[1]، فَذَكَرْتُ (ذَلِكَ) لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ، فَقَالَ: "اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلاَّ حَقٌّ"[2].

ورُوي عن وَهْب بن منبِّه، عَنْ أَخِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: "مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي، إِلاَّ مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عمرٍو، فَانه كَانَ يَكْتُبُ وَلاَ أَكْتُبُ"[3].

لذا يُعَدُّ استخدام أُسْلُوْب الكتابة وتدوين الملاحظات في التَّعْلِيْم من أقوى الأساليب التَّعْلِيْمـيّة الّتي تساعد الطالب في كسبه للمعلومة المطلوبة، وفهمها، وحفظها، وتثبيتها في مخزن علمه، ليستعملها متى شاء، وفي أي مكان شاء.

قـال يحـي بـن خالد[4]: "النَّاس يكتُبون أحسن ما يسمعون، ويحفظون أحسنَ ما يكتُبون، ويتحدّثون بأحسن ما يحفظون"[5].

---

[1] لسان العرب (1/ 698) في الحديث لا تَكْتُبوا عني غير القرآن قال ابن الأَثير وَجْهُ الجَمْع بين هذا الحديث وبين اذنه في كتابة الحديث عنه فإِنه قد ثبت إِذنه فيها أَن الإِذْنَ في الكتابة ناسخ للمنع منها بالحديث الثابت وبإِجماع الأُمة على جوازها .

[2] سنن أبي داود، رقم3646

[3] صحيح البخاري، رقم113

[4] يحيـى بـن خالد بن برمك (ت 190)، الوزير أبو الفضل: وهو مؤدب الرشيد العباسي ومُعَلِّمه ومربيه. رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل، فكان يدعوه: يا أبي ! لما ولي هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى، واشتهر بحسن سياسته. واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فسجنه في " الرقة " إلى أن مات، فقال الرشيد: مات أعقل الناس وأكملهم. ومن كلام يحيى لبنيه: اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن مـا تكتـبون، وتحدثـوا بأحسن ما تحفظون. ويتضح من خلال هذا الهامش صلة خالد بن يحيى لبرمكي ابالعملـية التربوية والتعليمية. ولو تتبع كلامه متتبع لوجد لديه الكثير من شؤون التعليم والتربية . الأعلام للزركلي (8/ 144)

[5] كتاب عيون الأخبار لإبن قتيبة الدينوري، ج2/ص118

فعلى المـُعَلِّم العاقل أن يحرص على استخدام هذا الأُسْلُوْب في تعليم طلابه في كافَّة مراحلهم التَّعْلِيْمِيّة، كل حسب مستواه التَّعْلِيْميّ، وعليه أن يختار أفضل الطرائق والإستراتيجيات في أنسب الأوقات والأماكن.

كغيرها من الأساليب التَّعْلِيْميّة، تتأثر بخلفية المـُعَلِّم العلميّة، وخبرته العمليّة، والمهارت التَّعْلِيْمِيَّة الّتي يتقنها، فمن المـُعلـِّمين في التَّعْلِيْم الأساسيّ من يطلب من طلابه:

أ. أن يحل مسألة رياضيَّة أو معادلة فيزيائية أو كيميائية كتابة.
ب. أن ينسخ آيات من القرآن الكريم، أو نصاً تاريخيّاً أو جغرافياً، أو غيرها ليتعلّمَه.
ت. أن يملي عليهم نصاً مهماً ليتأكّد من جَوْدَة كتابتهم، ومدى حفظهم للمعلومة.
ث. وغيرها من الطرائق والإستراتيجيات.

ومن المـُعلـِّمين، لاسيما في التَّعْلِيْم الجامعيّ، من يستخدم أُسْلُوْب الكتابة في تعليم طلابه كما يلي:

أ. يطلب منهم تدوين أحسن مايسمعونه في محاضرته، وتلخيصه على شكل قائمة من النقاط المهمّة.
ب. يطلب منهم قراءة قائمة من العناوين المتعلقة بإحدى مقرارات المِنْهاج وتدوين أحسنها إما على شكل نقاط مهمّة أو على شكل نص شامل كامل.
ت. يطلب منهم كتابة بحث عن موضوع، له علاقة بأحد مقرارات المِنْهاج ليتأكّد من جَوْدَة تعليمه وجَوْدَة تعلُّم طلابه منه.
ث. وغيرها من الطرائق والاستراتيجيات .

إن أساليب التَّعْلِيْم بالكتابة والتدوين كثيرة، فينبغي على المـُعَلِّم العاقل أن يختار أفضلها وأقربها لحاجات الـمُتَعلِّمين، حتى تكون فعّالة، ويجني الطُّلّاب ثمارها الطيبة.

ثالث عشر: أساليب تَعْلِيْمِيّة أخرى

إضافة إلى ماذكرته من أساليب تَعْلِيْمِيّة يمكن أن يستخدمها المـُعَلِّم حسب الموقف التَّعْلِيْمـيّ، يـوجد مجمـوعة أخرى من الأساليب الّتي تعتبر شخصيّة في طبيعتها، ومُمَيِّزة للمـُعَلِّم في شكلها، فمن المـُعلـّمين من هو معروف انه دائماً ينتهز الفرص والمناسبات في تعليمه، ومنهم من يستخدم أُسْلُوْب الامتحانات اليومية، أو الأسبوعية أو حتى الشهرية في تعلـيمه حـتى يـتأكّد من جَوْدَة تعلم طلابه، ومنهم من يتبع أساليب الترفيه والتسلية لإيصال المعلومات، وغيرها من الأساليب الكثيرة الّتي لا يمكن حصره هنا.

رابع عشر: أُسْلُوْب التَّعْلِيْم 'الانعكاسي' البريطاني

لا شـكّ أنّ هناك أساليب تَعْلِيْمِيّة أخرى مستخدمة في المؤسّسات التَّعْلِيْمِيّة الغَرْبِيّة، ولاسِيَّما البريطانية منها، تتناسب مع عقليّة وثقافة المـُعَلِّم الغَرْبِيّ من جهة، وعقليّة وثقافة الـمُـتَعَلِّم الغَرْبِيّ من جهة أخرى. للفائدة أذكر منهج "التَّعْلِيْم الانعكاسي" الّذي نادى به كـلٌّ مـن ريتـشردس ولوكهارت في كتابهما "منهج التَّعْلِيْم الانعكاسي"[1] . [لقد سبق وذكرت هذا المنهج في كتابي "مهارات الاتِّصَال".][2]

يقوم "منهج التَّعْلِيْم الإنعكاسي" على مبدأ "إعادة النَّظَر" في كلّ عملٍ صغيرٍ أم كبيرٍ يقـوم بـه المـُعَلِّم _سواء كان له علاقة بالطّالب أم بالمادّة العلميّة أم مع نفسه بصفته مدرساً_ وذلك بطرح أسئلة على نفسه تجعله ينظر بعين ناقدة لأساليب تدريسه في الفصل وطرق تعامله مع الطُّلّاب ومع ذاته بصفته مدرِّساً.

فمـبدأ "التَّحقـيق المستمر مع الذّات" يُساعد المـُعَلِّم على تحسين وتطوير أساليب وطـرق تدريسه، ويُشجِّعه على تغيير مبادئه ومعتقداته التَّقْلِيْدِيَّة في عمليَّتي التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم، ويجعله إنساناً ذا جَوْدَة في تفكيره وآرائه، وفي عمله وتعامله مع الآخرين.

---

[1] (Richards & Lockhart 1994)

[2] مهارات الإتصال وأثرها في حياتنا العلميّة والعملية، د. أحمد مصطفى حليمة، ص26-28

للتَّوضيح أذكر كيف يستطيع المـُعَلِّم أن يطبِّق طريقة "الجورنال" ـ إحدى طرائق منهج التَّعْلِيْم الانعكاسي ـ في عمله بصفته مدرِّساً، فطريّقة "الجورنال" عبارة عن "سجل" يسجِّل المـُعَلِّم فيه بعد انتهاء الدَّرس كلّ ما حصل من أحداثٍ وأفكارٍ وتفاعلٍ ـ سواء كانَتْ صغيرة أم كبيرة ـ أثناء إعطاء درسه، بعد ذلك ينظر فيما سجَّله بعينٍ ناقدة محلِّلة مستفسرة مُغيِّرة. فمن الأسئلة الّتي يمكن طرحها على نفسه في تحليله ونقده لما كتبه في سجلِّه ما يلي:

أسئلة تتعلَّق بما يحدث أثناء إعطاء الدَّرس:

أ. أسئلة تتعلَّق بالتَّدريس:

1. ماذا أراد أن يدّرس؟
2. هل استطاع أن يحقِّق أهدافه؟
3. ما هي المادّة التَّعْلِيْميّة الّتي استخدمها؟ وما هي فعّاليَّتها؟
4. ما هي الأساليب الّتي استخدمها؟
5. ما هي التَّرتيبات الّتي أجراها داخل الفصل الدِّراسيّ؟
6. هل ساد الدَّرس دور المـُعَلِّم فقط؟
7. ما نوع التَّفاعل بين المدرِّس والطَّالب؟
8. هل حصل أي شيء فكاهي أو غريب أثناء الدَّرس؟
9. هل واجه أيَّة مشاكل تتعلَّق بالدَّرس؟
10. هل فعل شيئاً مخالفاً للعادة؟
11. ما هي نوعيّة القرارات الّتي استخدمها؟
12. هل ابتعد عن خطَّة درسه؟ إذا كان الجواب نعم .. لماذا فعل ذلك؟ وهل أحدث هذا التَّغيير للخطَّة أي تحسُّن؟
13. ما هو الإنجاز الرَّئيسي للدَّرس؟

14. أية أجزاء من الدَّرس كانَتْ أكثر نجاحاً؟
15. أية أجزاء من الدَّرس كانَتْ أقلّ نجاحاً؟
16. هل سيدرِّس المـُعَلِّم الدَّرس بطريقة مختلفة إذا أراد تدريسه مرَّة ثانيَّة؟
17. هل انعكست مبادئه ومعتقداته بالتَّعْلِيْم والتَّعَلُّم في الدُّرس؟
18. هل اكتشف شيئاً جديداً في تدريسه؟
19. ما هي التغيّرات الّتي يمكن أن يحدِثها في تدريسه؟
20. إلى آخر الأسئلة المناسبة ذات العلاقة.

ب . أسئلة تتعلّق بالطُّلّاب:

1. هل درّس كافّة طلاّبه اليوم؟
2. هل سأهمّ الطُّلّاب في الدَّرس بفعّاليَّة؟
3. كيف استجاب لاحتياجات الطُّلّاب المختلفة؟
4. هل شعر الطُّلّاب بالتَّحدِّي الفِكْرِيّ خلال الدَّرس؟
5. ماذا تعلّم الطُّلّاب في الدَّرس من جديد؟
6. ما هي جوانب الدَّرس الّتي أحبَّها الطُّلّاب كثيراً؟
7. ما هي جوانب الدَّرس الّتي لم يستجيب لها الطُّلّاب بشَكْلٍ جيِّد؟
8. هل ارتفع مستوى الطُّلّاب العلميّ؟
9. إلى آخر الأسئلة ذات العلاقة بالطُّلّاب.

ت. أسئلة تتعلّق بالمدرِّس:

1. ما هي مصدر أفكاره عن الدَّرس؟
2. أين هو من التَّطْوِيْر المهنيّ لذاته؟
3. كيف يتطوَّر بصفته مدرساً لمادَّته العلميّة؟

4. ما هي نقاط قوّته بصفته مدرساً لمادَّته العلميّة؟
5. ما هي العوائق الّتي تقف في وجهه بصفته مدرساً؟
6. هل هناك تناقض في تدريسه لمادَّته العلميّة؟
7. كيف يمكن أن يُحَسّن ويطوِّر من تدريسه؟
8. كيف يمكن أن يساعد طلابه؟
9. هل هو راضٍ عن تدريسه؟
10. إلى آخره من الأسئلة الّتي تتعلّق بالمدرِّس.

خامس عشر: أساليب تعليم اللغة الإنجليزيّة

أهمّية تعليم وتعلُّم لغة أجنبية

لقــد بعث اللّه سبحانه وتعالى محمّداً رسول اللّهﷺ، وخاتم الأنبياءِ والمرسلين، ليدعو النَّاس أجمعين إلى عباد الله الأحد، الواحد الصمد، لاشريك له ولا ولد، ولنشر دينه الإسلام بين كافّة النّاس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، لذلك كان تعليم وتعلُّم اللغات الأجنبيّة أمر مطلوب، وحاجة ماسة لنشر الدِّين الإسلام بين غير الناطقين باللغة العربيّة .

قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف:158].

وقال اللّه تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[الروم:22].

وقال اللّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:13].

حتى تتم عَمَلِيَّة تبليغ الدعوة والتواصل بين رسول اللّه ﷺ وبين زعماء الأقوام الماضين، كان لابدّ من وجود مترجمين له يقومون بعَمَلِيَّة الترجمة، فوجد عنده ﷺ من أصحابه من كان يعرف اللغات الرومية والفارسية والحبشية، ولكن لم يكن هناك من يعرف لغة اليهود الّتي كان اليهود يستخدمونها في عصره، حتى أمر صلوات اللّه وسلامه الصحابيَّ الجليل، والحَذق الذكي، زيد بن ثابت رضي اللّه عنه أن يتعلّمَها ويتقنها قراءة وكتابة، ويستغني به عن المترجمين من اليهود في ذلك.

فعَنْ خَارِجَةَ، - يَعْنِي ابْنَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ- قَالَ: قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَ يَهُودَ، وَقَالَ:" إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي". فَتَعَلَّمْتُهُ، فَلَمْ يَمُرَّ بِي إِلاَّ نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّ حَذَقْتُهُ، فَكُنْتُ أَكْتُبُ لَهُ إِذَا كَتَبَ، وَأَقْرَأُ لَهُ إِذَا كُتِبَ إِلَيْهِ[1].

لا شكَّ أن تعلُّم لغة أجنبية يفتح أبواباً أخرى لمعرفة علوم وثقافات الأقوام غير الناطيقين باللغة العربيّة، فبها تعم الفائدة، وينتشر العلم النافع، وتتعاون الأمم فيما بينهم لما فيه الخير للجميع في كافّة مجالات الحياة.

أهمّية تعليم وتعلُّم اللغة الإنجليزيّة

اللغات الأجنبيّة كثيرة ومتعدّدة، ومختلفة الوظائف والخصائص، كل منها يلعب دوره في بناء ثقافات وحضارات الشعوب على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، ومن أهمّ هذه اللغات اللغة الإنجليزيّة، الّتي تعتبر اللغة الأولى لأكثر من خمسمائة مليون إنسان يعيشون في بريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، واستراليا، ونيوزيلندا، وجنوب أفريقيا، واللغة الثانية لمعظم سكان أهل الأرض.

[1] سنن أبي داود، رقم3645 . تحقيق الألباني :حسن صحيح

لا تـــأتي أهمّية تعليم وتعلُّم اللغة الإنجليزيّة من كثرة عدد المتكلمين بها فقط، وإنما من المكانـــة العالمية الّتي تحتلها، فهي لغة السياسة والسّياسيّن في المحافل الدبلوماسية، ولغة العلوم والعلمـــاء في المؤتمرات العلميّة، ولغة التجارة والتُجّار في الصفقات التجارية والعقود الماليّة، ولغة التكنولوجية والمعلوماتية والعاملين فيها، ولغة العلم والمـــُعلـــّمين في معظم المؤسّسات التّعْليْمـــيّة في العالم، ولغة الاتّصَال بين معظم النّاس المستخدمين للبريد الإلكتروني ونظام الإنترنت، وغيرها كثير- واللّه أعلم.

لذلك تسعى معظم المؤسَّسات التّعْليْميّة في العالم لتعليمها للطلاب ابتداءً من المرحلة الابتدائيّة وانتهاءً بالمرحلة الجامعيّة من جهة، ويعمل معظم الطُّلّاب جاهدين وباذلين قصارى جهـــدهم لتعلمها ولإتقانها في مهاراتها الأربع: الاستماع، القراءة، الكتابة، التّكلُّم من جهة أخرى، لما فيها من فوائد عظيمة في دراستهم الأكَاديْميّة، وحياتهم العلميّة والعمليّة.

لـــو ســـألنا عينة من الطُّلّاب عن سبب تعلمهم للغة الإنجليزيّة، لانحصرت أجوبتهم بالأسباب التالية- واللّه أعلم:

1. نعـــتقد أن تعلـــم اللغـــة الإنجليزيّة مفيدة في الحصول على عمل جيد أو وظيفة مرموقة.
2. سيساعدنا تعلمها في فهم الناطقين باللغة الإنجليزيّة وطريقة حياتهم.
3. نحتاج اللغة الإنجليزيّة لننال احترام وتقدير الآخرين.
4. تساعدنا معرفة اللغة الإنجليزيّة في مقابلة أناس أجانب والتعرف والتحدّث معهم.
5. نحتاج اللغة الإنجليزيّة في عملنا أو ظيفتنا.
6. تمكننا من التّفْكِيْر والتصرف كما يفكّر ويتصرف الناطقون باللغة الإنجليزيّة.

وللفائـــدة أذكر رأي فضيلة الشّيْخ محمّد بن صالح العثيمين رحمه اللّه في تعليم وتعلُّم اللغة الإنجليزيّة، فقال:"رأينا في تعلُّم اللغة الإنجليزيّة انها وسيلة لاشك، وتكون وسيلة طيبة، إذا كانَتْ لأهداف طيبة، وتكون ردئية إذا كانَتْ لأهداف ردئية، لكن الشيء الذي يجب

اجتنابه أن تُتَّخذ بديلاً عن اللغة العربيّة، فإن هذا لا يجوز وقد سمعنا بعض السفهاء يتكلم بها بدلا من اللغة العربيّة، حتى إن بعض السفهاء المغرضين الذين أعتبرهم[1] أذناباً لغيرهم، كانوا يعلمون أولادهم تحية غير المسلمين، يعلمونهم أن يقولوا: "باي باي" عند الوداع وما أشبه ذلك، لأن استبدال اللغة العربيّة الّتي هي لغة القرآن وأشرف اللغات بهذه اللغة، هذا محرم، أما استعماله للدعوة فانه لاشك أن يكون واجباً أحياناً"[2].

أساليب تعليم اللغة الإنجليزيّة

إن اللغـــة الإنجليـــزيّة ليست كغيرها من الـــمَوَادّ الدِّراسيّة من حيث عمليتي التَّعْلِيْم والـــتَّعَلُّم، فهـــي تتميّز عن غيرها بخصائص لغوية مُعيَّنة، وخصال ثَقَافيّة مُمَيَّزة، وعلاقات اجْتِمَاعِـــيّة محافظة لاضرورة لحصرها هنا، لذلك نجد مـــُعلمي مادة اللغة الإنجليزيّة يختلفون في أســـاليب تعلـــيمهم للطلاب غير الناطقين باللغة الإنجليزيّة، نذكر منها ـ وباختصار شديد ـ مايلي[3]:

1- أُسْلُوْب استخدام القواعد والترجمة The Grammar-Translation Method

ظهـــر هذا الأُسْلُوْب في القرن التاسع عشر، وانتشر استخدامه في الأمريكتين وأوربا بكـــثافة بـــين عـــام 1840 وعـــام1940، أي حوالي 100 عام. يتميّز هذا الأُسْلُوْب بالخصائص التالية:

[1] جـــرينا فـــي هذا الكتاب على استعمال الأفصح فيما علمنا، والأفصح هاهنا أن نقول : (نعدّهم) لكن تركنا الأفصح، للحفاظ على أصل النص. واحتراماً لرأي الشيخ رحمه الله تعالى، فقد كان علامة بالعربية. فلعل لها وجهاً عنده، لا نعلمه.

[2] كتاب العلم لابن العُثيمين، ص101

[3] اعـــتمدت فـــي شـــرحي الموجز لأساليب تعليم اللغة الأنجليزية على كتاب Approaches and Methods in Language Teaching للكاتبين الإنجليزين جاك ريتشرد وتيدور رودجرز، طبعة جامعة كامبردج 1986

أ. يهتمّ مستخدمو أُسْلُوْب القواعد والترجمة من مـُعلمي اللغة الإنجليزيّة في شرح وتحليل قواعد اللغة لتطبيقها في ترجمة بعض الجمل من الإنجليزيّة إلى العربيّة وبالعكس.

ب. ويَعُدُّ مستخدمو هذا الأُسْلُوْب أن الجملة هي الوحدة الأساسيّة في التَّعْلِيْم، ويصوغون الواجبات الدِّراسيّة على هذا الأساس.

ت. كما انهم يهتمّون في استخدام مهارتي القراءة والكتابة، ويهملون مهارتي التّكلّم والاستماع.

ث. يستخدمون اللغة العربيّة في تعليمهم للغة الإنجليزيّة، ولاسيَّما في شرح مفردات أو للقيام بمقارنة بين اللغتين.

ج. يؤكدون على أهمّية الدّقة في الترجمة من حيث استخدامُ المفردات والقواعد الصحيحة.

2-أسْلُوْب التَّعْلِيْم 'المباشر' The Direct Method

بدأ استخدم هذا الأُسْلُوْب في نهاية القرن التاسع عشر وانتهت شعبية استخدامه بين المدرسين في العشرينيات من القرن العشرين، يقوم استخدام هذا الأُسْلُوْب على المبادئ التالية:

أ. استخدام اللغة الإنجليزيّة فقط في عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم داخل الصف الدِّراسيّ.

ب. تدريس المفردات والجمل المستخدمة يومياً.

ت. تدريس مهارة التّكلّم من خلال تمارين تقوم على تبادل الأسئلة والأجوبة بين المدرسين والطّلّاب في مجموعات صغيرة.

ث. تدريس الكلام والاستماع من خلال تمارين اختبار الفهم.

ج. التأكيد على أهمّية النطق الصحيح واستخدام القواعد الصحيحة.

3- أُسلُوْب التَّعْلِيْم 'الشَّفَوِيّ' The Oral Approach

ومنهم من كان يستخدم أُسْلُوْب التَّعْلِيْم 'الشَّفَوِيّ' في تعليمه لطلابه. هذا الأُسْلُوْب ظهر في الخمسينيات من القرن العشرين، يقوم استخدام هذا الأُسْلُوْب على المبادئ التالية:

أ. استخدام مهارة التّكَلُّم في تدريس اللغة الإنجليزيّة منذ البدء، بحيث تدرس المادّة التَّعْلِيْميّة شفوياً قبل أن تعرض بشَكْلِها المكتوب.

ب. استخدام اللغة الإنجليزيّة فقط في عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم داخل الصف الدِّراسيّ.

ت. تُطرح وتُمارس النقاط اللغوية الجديدة حسب مقامها العمليّ بلغة الأم.

ث. تُختـــار المفردات وتُدرس القواعد بتدرج، بحيت يكون الأبسط والأسهل قبل الأصعب والأكثر تعقيداً.

ج. تُـــدرس مهارتي القراءة والكتابة فقط عندما يتكون لدى الطُّلّاب أساس كافٍ من مخزون المفرادات والقواعد.

ح. تدريس الكلام والاستماع من خلال تمارين اختبار الفهم.

4- أُسلُوْب التَّعْلِيْم 'السمعي اللغوي' The Audiolingual Method

ظهـــر هذا الأُسْلُوْب في االولايات المتحدة الأمريكية في نهاية الخمسينيات من القرن العـــشرين نتيجة الاهتمام الملحوظ الذي ناله تعليم اللغة الإنجليزيّة كلغة أجنبية. يتميّز هذا الأُسْلُوْب بالخصائص التالية:

أ. يقـــوم مـــبدأ هـــذا الأُسْـــلُوْب على نظرية اللغويات التركيبية 'Structural Linguistics'، وكردة فعل لأُسْلُوْب التَّعْلِيْم بالقواعد اللغوية التَّقْلِيْديَّة.

ب. يؤمن مستخدمي هذا الأُسْلُوْب بأن الكلام أهمّ من الكتابة لأن الإنسان أولاً ما يـــتكلم ثم يكتـــسب الكتابة فيما بعد. لذلك يهتمّون بتعليم اللغة عن طريق الكلام قبل استخدام الكتابة في التَّعْلِيْم.

ت. يـــستخدمون أُسْـــلُوْب المشابهة والمقارنة في تعليمهم لأنّه يُسَهِّل عل الـــمُتَعَلِّم عَمَلِـــيَّة التَّقْلِـــيْد والتعمـــيم في استخدامه للغة. شرح القواعد يأتي فيما بعد، وتعلمها يحصل بشَكْلٍ استقرائي، وليس بشَكْلٍ استنتاجي.

ث. يعلّمـــون معاني الكلمات اللغوية الّتي يستخدمها الناطق الإنجليزيّ المواطن في مقـــام لغـــوي وثَقَافِيّ وليس بشَكْلٍ منعزل، حتى يحصل تعلمها كما يتكلمها ويستخدمها أهلها.

ج. استخدام اللغة الإنجليزيّة بقدر الإمكان في عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم داخل الصف الدِّراسيّ، وتجنّب استخدام الترجمة أو اللغة العربيّة.

ح. يـــدرّس المـــُعَلِّم المهارت الأربعة بالترتيب التالي: الاستماع، التّكَلُّم، القراءة ثم الكتابة.

خ. يعلّم اللغة بتمثيل النقاط اللغوية الّتي يريد الطُّلّاب تعلُّمها.

د. يدرس مهارة التّكَلُّم بطريقة الحوار.

ذ. يدرس استعمال التراكيب اللغوية من خلال ممارسة نموذجية أمام الطُّلّاب.

ر. يرشد الطُّلّاب في عَمَلِيَّة اختيار وتعلم المفردات اللغوية.

ز. يبِّين للطلاب علاقة الكلمات بالمعنى في اللغة الإنجليزيّة.

س. يكافئ محاولات الطالب بحيث يُعَزِّز لديه عَمَلِيَّة التَّعَلُّم.

ش. يدرِّس القصة القصيرة وغيرها من الأعمال الأدبيّة.

ص. يدخل العنصر الثَقَافِيّ للغة في تعليمه للطلاب.

ض. يوضح قواعد تدريسه للغة الإنجليزيّة من أول يوم في تعليمه للطلاب.

5- أُسْلُوْب التَّعْلِيْم 'الصريح الوظيفي' Communicative Approach

ظهر هذا الأُسْلُوْب في أوروبا الغَرْبِيّة ولاسيَّما في المملكة المتحدة في بداية السبعينيات مـــن القرن العشرين، وانتشر استخدامه بين مـــُعلمي وكتاب مقرارات وبرامج تعليم اللغة

الإنجليـزيّة، ولاقـى قـبولاً جيداً لدي متعلّمي اللغة في معظم بلدان العالم، وكغيره من الأساليب، يتميّز هذا الأُسْلُوْب من التَّعْلِيْم بالخصائص التالية:

أ. يُعَدُّ 'المعنى' أهمّ عنصر في تعليم وتعلُّم اللغة الإنجليزيّة.

ب. في حال استخدام 'الحوار' في التَّعْلِيْم، يكون التركيز في التَّعْلِيْم بشَكْلٍ أساسيّ علـى تعليم الوظائف اللغوية الّتي تقوم بعَمَلِيَّة الاتِّصَال، وليس على حفظ نص الحوار.

ت. يـؤمن مـستخدمي هذا الأُسْلُوْب بأن الغرض من تعلم اللغة هو القيام بعَمَلِيَّة "الاتِّصَال الفعّال" مع الآخرين، لذلك يشجعون الـمُتَعلِّمين أن يمارسوا عَمَلِيَّة الاتِّـصَال من خلال استخدام مهارات الاتِّصَال: الاستماع،والقراءة، والكتابة، والتّكَلُّم، منذ ابتدائهم لتعلُّم اللغة.

ث. يؤكدون على أهمّية الطلاقة في التّكَلُّم واستخدام اللغة المستعملة، ولا يحكمون علـى دقة صحة استعمالها من الناحية القواعدية في شكلها المجرد، بل في مقام ومجال استخدامها الفعلي.

ج. يعلّمـون الطُّلّاب كيف يستخدمون اللغة إما من خلال استخدامها على شكل حوار بين طالبين أو عمل في مجموعات صغيرة أو من خلال استخدام مهارات الكتابة لديهم.

ح. عند تعليم قواعد اللغة، يعلّمونها من خلال استخدام الوظائف اللغوية، كوظيفة "التعمـيم، والمشابه، والمقارنة، والوصف" وغيرها من الوظائف الّتي تساعد في عَمَلِـيَّة الاتِّـصَال من خلال مهارات الاتِّصَال الأربعة: الاستماع، والقراءة، والكتابة، والتّكَلُّم.

خ. يقـــوم المـــعَلّم بدور المشارك الميسر في عرضه للدرس وطرحه للأسئلة بحيث يجعل الـــمُتَعلّمين يشاركون ويمارسون اللغة ويتعلموها كما يستعملها الإنسان الإنجليزيّ في بلده.

إضـــافة لـــا ذكرناه أعلاه، هناك من المـــعلـــّمين من يستخدم أُسْلُوْب "الاستجابة الفعلـــية الكُلّـــيَّة" 'Total Physical Response' في تعليمهم، حيث يستخدمون الكلمة ثم الفعل، حيث يعطي المـــعَلّم الأمر شفوياً والـــمُتَعَلّم يفعل الأمر عَمَلِيًّا، كقوله: " الأسنان: المسْ أسنانك، أرِ أسنانك لأحمد، أحمد يشير إلى أسنان محمّد".

ومـــنهم من يستخدم أُسْلُوْب التَّعْلِيْم باالطَّرِيْقَة الصامتة "The Silent Way"، والّتي يـــصمت المـــعَلّم فيها قدر ما يستطيع، ويشجع الـــمُتَعَلّم أن يتكلم أو يكتب أو يقرأ قدر ما يستطيع، على عكس المـــعَلّم الثرثار!

ومنهم من يستخدم أُسْلُوْب التَّعْلِيْم الفطريّ The Natural Approach لذي يقوم على عرض الـــمُتَعَلّم للعناصر اللغوية أكثر من ممارستها، فبقدر ما يسمع، ويقرأ، ويفهم، يتعلم اللغة، فهو يَتَعَلّمُها كالطفل الذي يتعلم اللغة بدون تحليل قواعدها أو ممارسة تمارين عليها.

يتـــبين ممـــا ذكرناه من أساليب لتعليم اللغة الإنجليزيّة انها متعدّدة ومختلفة، ظهرت معظمها في الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة في أوربا الغَرْبيّة، وقد جاءت نتيجة تجارب عَمَلِيَّة كثيرة، وتطورت خلال فترة لا تقل عن مائة وخمسين عاماً.

والجديـــر بالذِّكْر أن ثورة تكنولوجية المعلومات المعاصرة، وانتشار نظام الإنترنت في معظـــم أنحـــاء العالم، لهما تأثيرهما على عَمَلِيَّة تعليم اللغة الإنجليزيّة، فمن المـــعلـــّمين من يستخدم مواقع لتعليم اللغة الإنجليزيّة في تدريسه، ومنهم من يستخدم برنامج 'الباور بونت' في عرضه لمخطط الدرس، وغيرها كثير، والله أعلم.

فلايوجد شيء أو حالة أو طريقة يقال معها الأُسْلُوْب الأفضل لتعليم اللغة الإنجليزيّة. لأن هـــذا يعـــتمد علـــى عوامل كثيرة تتعلق بالمجتمع العربيّ الإسلامي وثقافته من جهة، وبالطالـــب العـــربيّ واندفاعيـــته، ومادة اللغة الإنجليزيّة وطبيعتها، والـــمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة وأولوياتها من جهة أخرى.

لـــذا ينبغـــي علـــى المـــُعَلِّم العاقل أن يستخدم الأُسْلُوْب الذي يتناسب مع عقليّة واندفاعـــية طلابه، وأن لا يتعارض أُسْلُوْبه مع متطلبات مِنْهاج اللغة الإنجليزيّة، وأولويات الـــمُؤسَّـــسة التَّعْلِيْمـــيّة، مُعـــتدّاً بأهمّية التركيز في تعليمه على مهارات الاتِّصَال الأربعة: الاســـتماع، القـــراءة، الكـــتابة، التّكَلُّم، بحيث يُمكّنُ الطُّلّاب من استخدام مهارات اللغة الأربعة بفعّالية ولأغراض متخصّصة ومتعدّدة.

خلاصة

لـــو اجتهد كل مـــُعَلِّم ــ سواءً كان مـــُعَلِّماً في المدرسة أو الكُلِّيَّة أو الجامعة بأن يعتقد بعقيدة التَّوْحِيْد، عقيدة أهل السّنّة والجماعة، ويتحلّى بمكارم الأخلاق، ويتسم بشيم العقلاء، ويتَّصف بخصال المـــُعَلِّم العاقل الناجح، ويعمل بجديّة وإخلاص في تطبيقه لأفضل أســـاليب التَّعْلِيْم في تعليمه لطلابه، لحصلنا على جيلٍ من الـــمُتَعلِّمين يؤمن باللّه وبرسوله ﷺ، ويوقر الصَّحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، ويحب التَّابعين وصلحاء السَّلَف لِمَا أبقـــوه لـــنا مـــن علم نافع، ويتميّز بعمق وجَوْدَة في تفكيره، ويتمتع بغزارة ووفرة علمه ومعرفته، ويتقن مهارات تساعده في أدائه وقدرته على الفهم والاستيعاب والتَّخيل والتَّحليل والنَّقد والتَّطْوِيْر الذاتيّ لمهاراته وقدراته.

الفصل الثالث

الطالبُ ودوره في العمليّة التَّعْلِيْمِيّة

الفصل الثالث
الطالبُ ودوره في العمليّة التّعْلِيْميّة

الواقع الحاليّ

عندما يُذكَر العِلمُ أو تُذكَرُ عمليَّتي التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم في أيَّة مادَّة من الـمَوَادّ التَّعْلِيْميّة في أي مؤسَّسة تَعْلِيْمِيّة (سواء في المدارس أو المعاهد الحكوميَّة أو الخاصّة، أو حتّى في الكلـيَّات أو الجامعات)، يُذكَر معها الطّالب كأهمّ المكوِّنات الأساسيّة للعَمَلِيَّة التَّعْلِيْميّة، فبدون الطالب أو ما نسميه أحيانا الـمُتَعَلِّم لا وجود لعَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم من جهة، ولا وجـود لبقـية المكوِّنات الأخرى كالمادّة العلميّة أو الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيَّة أو حتى الـمُعَلِّم نفسه من جهة أخرى.

فـإنَّ المـتأمِّل لواقع الطالب في كثير من البلاد العربيّة بشَكْلٍ عام ودوره في العمليّة التَّعْلِيْميّة، يجد انه حتى في التسعينيات من القرن العشرين الماضي، كان يعتقد الطالب العربيّ أنَّ الـتَّعَلُّم يحـصل بتلقّي المعلومات من أيّ مصدرٍ كان سواء من المـُعَلِّم أم من الكتاب، فدوره ينحصر بأخذ المعلومة وتخزينها في ذاكرته "عن ظهر قلب"، ثمَّ استردادها على ورقة الاختـبار، وبهذا يؤمِّن نجاحه، ويحصل على الوثيقة ليعرضها على "الجدار متفاخراً بإنجازه العلميّ"!

ومـنذ بدايـة القرن الواحد والعشرين، ومع ظهور تكنولوجية المعلومات، وانتشار الإنتـرنت، وتوفُّـر أجهزة الحاسوب الآلي في كل منزل تقريباً، حصلت ثورة معلوماتية مفاجـئة أثـرت تأثيراً سلبياً على أساليب وطرق التَّعْلِيْم والتَّعلم عند الطالب الأوروبي بـشَكْلٍ عـام، والطالب العربيّ بشَكْلٍ خاص. فمفهوم التَّعَلُّم انه تلقٍّ للمعلومة، ثم حفظها وتخـزينها، ثم عرضـها على ورقة الاختبار، قد تغيّر واستُبدل بمفهوم أحسً، ليُصبح ثقافة

يعتنقها معظم الطُّلّاب للأسف تُسمى ثقافة "القص واللصق"[1] في نشر العِلم من جهة، وفي عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم من جهة أخرى.

هذه الثقافه ظاهرها البحث العلميّ العميق، وباطنها النقل الروتينيّ السطحيّ، تُظهر اهــتماماً كبيراً بشَكْلٍ وطريقة عرض المعلومة لتكون جميلة المنظر وجذابة للمشاهد، لكنها تُــبطن الكــم والإطــناب والخلط في طرح ومناقشة المعلومة، تظن فيها وبصاحبها الجد والــصدق والإخــلاص في إيجــاد المعلومة، وبعد التحقيق فيها وبصاحبها يظهر الكسل والكذب والخداع في عَمَلِيَّة تحصيل المعلومة، وللأسف لايستنكر هذه الثقافة السيئة إلا من رحم ربي من طلبة العلم المجتهدين والمخلصين في دراستهم .

وعلــى نقيض الطالب الغَرْبيّ الأوربي، على سبيلِ المثال، يعاني حالياً الطالب العربيّ المسكين من عبء "الدروس الخصوصية" الّتي تفُرض عليه في كافّة مراحله الدِّراسيّة، إبتداءً مــن المــرحلة الابتدائــيّة، وانتهاءاً بالمرحلة الجامعيّة، بحجة تقويّته ومساعدته في التحصيل العلميّ.

هــذه الظاهرة السيئة فشت وانتشرت في جميع البلاد العربيّة للأسف، حتى أصبحت ثقافــة ظاهــرها التَّعْلِــيْم والتقويّة والمساعدة من أجل التحصيل العلميّ، وباطنها التَّجهيل والتَّــضعيف والاتكالــية. ظاهرها توفير الفرص التَّعْلِيْمِيَّة للطلاب الضعفاء أَكَادِيْمِيّاً فقط، وباطــنها الاســتغلال المادي لكافّة الطُّلّاب الضعفاء والأقويّاء أَكَادِيْمِيّاً، حتى انها أصبحت ســيفاً صــارماً بيد المــُعَلِّم المحارب يهدد به ترسيب أي طالب من طلابه لا يأخذ دروساً خصوصية عنده، فالطالب مجبور للا ستسلام له، والآباء والأمهات مضطرين خوفاً على مستقبل أولادهم أن يقبلوا بحكم هذا المــُعَلِّم الجائر في حكمه والظالم لطلابه.

---

[1] ظهــرت هــذه الــثقافة بــشكل واضح بظهور الإنترنيت وتوفُّر مواقعها لطلبة العلم، مما جعل الكسالى يــستخدمها على أنها طريقة سهلة لأخذ المعلومة من مصدر ما أو موقع ما على الإنتيرنت بدون ذكر اسم المصدر أو المرجع أو حتى الكاتب واستخدامها كجهد شخصي في انتاجه العلميّ سواء كان واجباً دراسيا أو بحثاً علمياً أو غيرها من الأمور الأكاديمية، فهي السرقة بعينها وهو اللص بذاته.

لذا أقول: إن أية مؤسَّسة تَعْلِيْمِيّة تمارس هذه الثقافة، أو تروجها، أو لاتحاربها، فهي مؤسَّسة ظالمة لطلابها، ومستغلة لأولياء الأمور المساكين، وفاشلة في أداء مهمّتها التَّعْلِيْمِيّة والتَّربويّة، وإن أي مـعَلِّم يفرض أو يروّج بين طلابه "دروساً خصوصية" بالسر أو العلانية فهـو مـعَلِّم فاشل، وظالم، ومستغل، لأنّه لم يؤدي عمله بإخلاص في تعليم طلابه وهم علـى مقاعد الدِّراسة في الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة، ولأنّه يستغل مكانَتَه كمـعَلِّم لهذا الطالب المسكين.

إضافة لذلك نجد أنَّ الطَّالب العربيّ يقضي معظم أوقاته في الدِّراسة _سواء داخل أو خـارج الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة_ ويُعاني من كثرة الـمَوَادّ العلميّة، وأُسْلُوبه في اكتساب المعلومة يتسم بالسطحيّة، أي أنَّ كل ما يَتَعَلَّمُه هو عبارة عن حقائق متفرّقة "تُقص وتُلصق" أو تُحفـظ غيـباً ثمّ تُعاد أو تُكرَّرُ أثناء الاختبارات لتتبخّر بعد انتهاء الاختبارات. وتُعتبر ظاهرة إتلاف الطَّالب العربيّ لكتبه بعد انتهاء الاختبارات مباشرة، وعلى أبواب مدرسته _ ليـست ببعيدة عن المراقبين المعنيِّين من عَمَلِيَّة التَّربية والتَّعْلِيْم في بلادنا_ ردَّة فعل الطَّرِيْقَة تلقِّيه وتعامله مع العلم والمعرفة.

هـذا الواقع المحزن والمشين لعمليَّتي التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم لدى الطالب العربيّ في مؤسَّساتنا التَّعْلِيْمـيّة في عصر تكنولوجيَّة المعلومات، وإستراتيجيَّات التَّعَلُّم العميق، يجعلني أقدِّم موجزاً عن مكانة طالب العلم في الإسلام، ودوره في عمليَّتي التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم، ثم أعرض أهمّ خصال الطالـب الناجح حتّى يستعين بها القارئ سواء كان طالباً أو مـعَلِّماً، أو مشرفاً تربويَّاً أو إداريّاً، أو حتّى أباً مهتمَّاً بجَوْدَة تعليم وتعلُّم ولده.

مكانة طالب العلمِ في الإسلام

لقد أجلس الإسلام طالب العلم مجلساً يليق بشرف ورفعة الـمُتَعَلِّم، وكرَّم وأحسن مثوى من يسعى من أجل كسب العلم النافع، وأثنى عليه حتى أن الله ﷻ أخبرنا عن كليمه الـنَّبيّ موسـى عليه السلام، انه سافر سفراً طويلاً من أجل أن يتلقّىَ العلم والمعرفة من رجل عالم

صالح عامل، ليزداد علماً إلى علمه، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: 60]. يقول ابْن قّيم الجَوْزِيّة رحمه اللّه في تفسيره لهذه الآية الكريمة: "وذلك حرصاً من النَّبيّ موسى ﷺ على لقاء هذا العالم، وعلى التَّعَلُّم منه، فلما لقيه سلك معه مسلك المُتَعَلِّم مع مُعَلِّمه، وقال له: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66]. فبدأه بعد السَّلام بالاستئذان على متابعته، وأن لا يتَّبعه إلا بإذنه، وقال: ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فلم يجئ ممتحناً ولا متعنّتاً، وإنَّما جاء متعلِّماً مستزيداً علماً على علمه، وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعلم."[1]

كما أن محمّداً ﷺ ـ رسول اللّه للبشريّة كلها ـ قد أعطى طالب العلم اهتماماً خاصاً، ورحَّب به ترحيباً جميلاً، وبارك له في مسعاه، حتى انه بشَّر كل من يسلك مسلكاً يبتغي به العلم النافع بالجنة، فعن أبي الدَّرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مَنْ سَلَكَ طَرِيْقاً يَلْتَمِسُ فِيْهِ عِلْمَاً، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيْقَاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضَاً بِمَا يَصْنَعُ."[2]. وعن صفوان بن عسَّال المُرادي[3] ﷺ قال: أتيتُ النَّبيّ ﷺ وهو في المسجد مُتكئٌ عل بُردٍ له أحمرَ، فقلتُ له: يارسولَ اللّه! إني جئتُ أطلبُ العِلْمَ. فقال: "مرحباً بطالبِ العِلْمِ، إن طالبَ العِلْمِ تحُفُّه الملائكة، وتظلّه بأجنحتها، ثم يركبُ بعضُهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدُّنيا من محبّتهم لما يطلُبُ"[4]

---

1 مفتاح دار السعادة لإبن قّيم الجوزية، ص73

2 صحيح الترغيب والترهيب للألباني، جزء1، رقم70

3 هو صفوان بن عسال المرادي الجملي غزا مع النبي ﷺ اثنتي عشرة غزوة، وروى عنه، وسكن الكوفة، روى عنه زر بن حبيش، وعبد الله بن سلمة المرادي، وحذيفة بن أبي حذيفة، وأبو الغريف عبيد الله بن خليفة وغيرهم.

4 صحيح الترغيب والترهيب للألباني، جزء1، رقم 71.

وفي الترغيب في طلب العلم، وإظهار فضل وشرف الـــمُتَعَلِّم، بين رسول اللّه ﷺ أن مـــن يأتي المسجد لتحصيل العلم النافع أو ليُعلمَه، فإن له أجر من ذهب الى بيت اللّه الحرام حاجاً، حتى انه أنزله منزلة المجاهدين في سبيل اللّه، فعَنْ أَبِي أُمَامة [1] عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ، قَـــالَ: " مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِد لا يريدُ إلا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يُعَلِّمَهُ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَـــاجٍّ، تَامًّا حَجَّتُهُ". [2] وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ [3] ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَقُولُ: " مَنْ جَاءَ مَسْجِدي هَذَا، لَمْ يَأْته إِلَّا لخَيْرٍ يَتَعَلَّمُه، أَوْ يُعَلِّمُهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَة الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلكَ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاعِ غَيْرِه ". [4]

وتشجيعاً لمن يكفل طالب العلم أو لمن يساعده في تكاليف دراسته أو يقيل عثراته، سواءً كان غريباً أم قريباً منه، طمأننا النَّبِيّ ﷺ وأكّد لنا أن اللّه ﷻ قد يرزق الـــمُنفق بحسنة نفقته على طالب العلم لما لطالب العلم من بركة في تعلُّمه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالكٍ رضي الله عنه انه قال: قَـــالَ كَانَ أَخَوَانِ عَلَى عَهْدِ رسول الله ﷺ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ، وَالآخَرُ يَحْتَرِفُ، فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ " لَعَلَّكَ تُرْزَقُ به"[5].

طـــوبى لطالـــب العلـــم الذي يبتغي في طلبه للعلم وجه اللّه وحده مخالصاً له النية والعمـــل، وطوبى له من زاد يتزود به لما بعد الموت، فالعلم إذا عُمل به ونشر لتكون كلمة

[1] هو أبو أمامة الباهلي أحد الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة، روى علماً كثيراً وحدث عن عمر ومعاذ وأبا عبيدة، توفي 86هـ

[2] صحيح الترغيب والترهيب للألباني، جزء1، رقم 86 .

[3] هو الإمام الفقيه المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله، عبد الرحمن بن صخر أبو هريرة الدوسي اليماني ســيد الحفاظ الأثبات، أسلم أول سنة 7 هـ، عام خيبر. قال البخاري: روى عنه، ثمان مئة أو أكثر، توفي سنة 57 هـ.

[4] صحيح الترغيب والترهيب للألباني، جزء1، رقم 87 .

[5] سنن الترمذي، الصحيح الجامع، رقم 2345

اللّـــه هـــي العليّا لحق ثوابه بصاحبه وزاد في ميزان حسناته، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ"[1].

إن كل مذكرته من فضيلة العلم وشرف تحصيله يخص طلاّب العلم والعلماء الأتقياء الـــذين يخـــشون ربهم في سرهم وعلانيتهم، والذين يخلصون نيتهم وعملهم انهما لوجه الله وحده، لا يبتغون أغراضاً دنيوية من جاه ومال وقرب من السُّلْطان، لذا حذّر رسول اللّه ﷺ مـــن الـــممـــاراة في طلب العلم، وذمَّ كل من يطلب العلم لغير وجه اللّه تعالى، فعن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيّ ﷺ "إِنَّ أَوَّلَ النَّاس يُقْضَى يَوْمَ القيامة عَلَيْه، (وَذَكَرَ الثَّلاثَة)، وَفيْه رَجُلٌ تَعَلَّـــمَ الْعلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأتيَ به، فَعَرَّفَهُ نعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَملْتَ فيْهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فيْكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعلْمَ ليُقَالَ عَالمٌ، وَقَـــرَأْتَ ليُقَالَ هُوَ قَارئٌ، فَقَدْ قيْلَ، ثُمَّ أُمرَ به فَسُحبَ عَلَى وَجْهه حَتَّى أُلقيَ في النَّار". [2]
ورُوِي عن كَعْبِ بْنِ مَالك، قَالَ: سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ، يَقُولُ: " مَنْ طَلَبَ الْعلْمَ ليُجَاريَ به الْعُلَمَاءَ، أَوْ ليُمَاريَ بِهِ السُّفَهَاءَ، ويَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاس إِلَيْه، أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ".[3]

وفـــيما روي عن لقمان[4] الحكيم من وصيته لابْنه وحضّه على مجالسة العلماء، دليل واضح على المكانة العالية الّتي وصل إليها طالب العلم في الإسلام، فعن سليمان بن حبيب المحـــاربي قالَ: "قالَ لُقمانُ لابْنه: يابْنيَّ، جالسِ العُلماءَ وَزاحمهم بركبتيك[5]، فإِنَّ اللّه يحيي القلوب الميِّتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميِّتة بوابل السَّماء"[6]. وعن ابْن أبي حسين قال

[1] سنن ابن ماجه، رقم242

[2] صحيح مسلم رقم 1905

[3] صحيح الترغيب والترهيب للألباني، ج1/ رقم 106

[4] هـــو لقمـــان الحكـــيم كان عبدا حكيما،ذُكر في القرآن واطلق اسمه على سورة لقمان، وقد عاصر داود وعرف بالحكيم، عاش في بلاد النوبة.

[5] كناية عن ملازمتهم والاقتراب منهم .

[6] جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر القرطبي ص106

بلَغَـــني أن لقمـــان الحكـــيم كان يقول:" يابْنِي لا تتعلّمِ العلم لتباهيَ به العلماء وتماريَ به السُّفهاء وترائي به في المجالس ولا تدع العلم زهداً فيه ورغبة في الجهالة يا بنيَّ اختر المجالس علـــى عينك فإذا رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس معهم فإنَّك إن تك عالماً ينفعك علمك وإن تـــك جاهلاً يعلموك ولعلَّ اللّه يطلع عليهم برحمةٍ فتصيبك معهم وإذا رأيت قوماً لا يذكرون اللّه فلا تجلس معهم فإنَّك إن تك عالماً لا ينفعك علمك وإن تك جاهلاً يزيدونك غياً ولعل اللّه أن يطلع عليهم بعذاب فيصيبك معهم."[1]

وقد حظي طالب العلم أيضاً على بركة الصَّحابة الكرام رضوان اللّه عليهم أجمعين، إذ أثـــنوا علـــيه، وباركـــوا مسعاه، فعن عبداللّه بن مسعود ﷺ، قال: منهومان لايشبعان: صاحبُ العلمِ، وصاحبُ الدُّنيا، ولايستويان، أما صاحب العلم فيزداد رضىً للرحمن، وأما صـــاحب الدُّنيا، فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾ [العلـــق:6-7] قـــال: وقـــال الآخـــر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28][2]

وفي تـــرغيب طلـــبة العلم في كسب العلم والمعرفة، روي عن هارون بن رئاب[3] انه قال: كان عبد اللّه بنِ مسعودٍ ﷺ يقول:"اغْدُ عالماً أو متعلّماً ولا تغدُ فيما بَيْنَ ذلكَ، فإنَّما بين ذلك جاهلٌ أو جُهَّلٌ، وإنَّ الملائكةَ تَبْسُطُ أَجْنِحَتَها لِرَجُلٍ غدا يَطْلُبُ العِلْمَ مِنَ الرِّضَى

[1] جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر القرطبي ص107

[2] رواه الدارمـــي بـــسند صحيح عن عون، ولم يسمع عن ابن مسعود، فهو منقطع. قال الشيخ الألباني في المشكاة: ج1/ص:261

[3] هـــو هـــارون بن رئاب الإمام الرباني العابد أبو بكر التميمي الأسيدي البصري، كان أجل أهل البصرة، حدث عن أنس بن مالك والأحنف بن قيس، قيل أنه عاش 83 سنة.

لمــا يَــصْنَعُ."[1] وكان رضي اللّه عنه إذا رأى طالبي العلم قال:"مرحباً بكم، ينابيعُ الحكمة ومصابيحُ الظُّلمة، خُلْقانُ الثِّياب، جددُ القلوب، رياحينُ كلِّ قبيلة"[2].

وحـــذَّر رضي اللّه عنه أيضاً من التكاسل في طلب العلم، وحثَّ على كسب العلم والمعـــرفة قـــبل فوات الآوان، سواءً كان بذهاب العلماء أم بعدم استغلال الفرص المتوفِّرة لطلبة العلم، لاسيما في عصرنا هذا، فقد رُوي انه قال:"عليكم بالعلم قبل أن يُقْبَضَ وقبضه أن يــذهب أصحابه، وإنكم ستجدون أقواماً يزعمون انهم يدعونكم إلى كتاب الله، وقد نـــبذوه وراء ظهورهم، وعليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدري متى يفتقِر، أو يُفْتَقَر إلى ما عنده؟ وعليكم بالعلم، وإياكم والبدع، وعليكم بالعتيق"[3].

فلـــو لم يكن في طلب العلم خصلة تُحمد إلا انه مثل الجهاد أو أفضل من الجهاد في ســـبيل اللّه، لوجب على العاقل أن يغدو ويسعى في طلب العلم ليلاً ونهاراً، فقد روي عن أبي الـــدرداء ﷺ انـــه قال: "من رأى الغدو والرَّواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص عقله ورأيـــه"[4] ورُوي عـــن الأزدي انه قال: "سألت عبد اللّه ابْن عبَّاس[5] عن الجهاد فقال: ألا أدلُّـــك على خيرٍ منَ الجهاد فقلتُ بلى قالَ: تبنّي مسجداً وتُعَلِّم فيه الفرائض والسّنّة والفقه في الدِّين "[6].

مهمـــا كان الظن عند بعض النَّاس أن طلب العلم صعب، وأن غايته بعيدة المنال، وانـــه يـــتطلب حذاقـــة ذهن ويقظة فطنة، كما هو الحال في دراسة علوم الفقه والحديث

---

[1] جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي، ج1/ص29

[2] المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهي، ص30

[3] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم البستي، ص30

[4] جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي ج1/ص31

[5] هو هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، حبر الأمة وفقيهها وإمام التفسير، ولد ببني هاشم قبل عام الهجرة بثلاث سنين، توفي سنة 68 هـــ بالطائف.

[6] جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي ج1/ص32

والرياضيات والطب والصيدلة، فعليهم أن لا ييأسوا من نيل القليل من العلم الذي يخرجهم مـــن أدنى حد الجهالة إلى أدنى درجات التخصّص في أي علم يطلبونه، فقد روي أن رجلاً قـــال لأبي هريـــرة ﷺ :"أرِيدُ أن أتعلّم العلم، وأخاف أن أضيعه. فقال: كفى بترك العلم إضاعة"[1].

وفي هذا المقام، نذكر أيضاً أن السَّلَف الصالح قد حضَّ كثيراً على طلب العلم، وأثنى علـــى الـــمُتَعَلّم، فأعطاه مكانة مرموقة، وأجلسه مقعد الشرف والرفعة، لما في العلم النافع من فوائد جمَّة[2] يحصل عليها في حياته الدنيوية والأخرويّة، فقد رُوي أن ابْن سفين الحجاج بن نصر قال لرجل من العرب: "ويحكم اطلبوا العلم فإني أخاف أن يخرج العلم من عندكم فيصير إلى غيركم فتذلون. أطلبوا العلم فانه شرف في الدُّنيا وشرف في الآخرة"[3].

وعن ابْن وهب[4] انه قال: سمعت مالك بن أنس رحمه اللّه يقول: حَقٌّ على من طلب العلم أن يكون له وقَارٌ، وسكينةٌ، وخشية، والعلم حَسنٌ لمن رُزق خيره، وهو قَسْم من اللّه تعالى، فلا تمكن النَّاس من نفسك، فإن من سعادة المرء أن يُوَفَّق للخير، وإن من شِقوَّة المرء أن لا يزال يُخطئ، وذلٌّ وإهانةٌ للعلمِ أن يتكلّم الرجلُ بالعلم عند من لا يُطيعه"[5].

وروي عن وَهْب بن منبِّه رحمه اللّه انه كان يقول:"من تعلم علماً في حق وسُنَّة، لم يذهب اللّه بعقله أبداً"[6]. وقال أيضاً:" يتشعّب من العلم؛ الشرفُ وإن كان صاحبُه دَنِـيًّاً،

[1] أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، ص46

[2] المعجم الوسيط – (1/ 137) (الجم) الكثير من كل شيء وفي التنزيل العزيز) وتحبون المال حبا جما .. (الجمة) مؤنث الجم .. جاؤوا في جمة في جماعة .

[3] جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر القرطبي، ج1/ص56

[4] هــو أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم الفقيه المالكي المصري المولود في الفسطاط سنة 125 ه، لزم الإمام مالكاً أكثر من عشرين سنة، وقضى حياته كلها في طلب العلم.

[5] سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، ج8/ص107

[6] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم البستي، ص31

والعـــزُّ وإن كان مهيناً، والقربُ وإن كان قَصِيّاً، والغنى وإن كان فقيراً، والمهابةُ وإن كان وضيعاً"[1].

وللّـــه دَرُّ الإمام الشافعي رحمه اللّه، وهو يحثُّ الـــمُتَعَلِّم على طلب العلم في هذه الأبيات الجميلة القافية الغنية المعنى والمقصد[2]:

العلمُ مَغْرِسُ كُلِّ فخرٍ فافْتخرْ ... واحذرْ يفُوتُكَ فخرُ ذاكَ المغرسِ
واعْلَمْ بأنَّ العِلمَ ليسَ ينالُـــهُ ... من همُّـــهُ في مطعمٍ أوْ ملبَسِ
إلاّ أخُو العِلمِ الذي يُعنى بـــه ... في حَالّتيـــه عاريـــاً أوْ مُكتَسي
فاجعلْ لِنفسكَ منهُ حظّاً وافراً ... واهجرْ لهُ طِيبَ الرُّقادِ وعَبِّسِ
فلعلَّ يوماً إنْ حَضرتَ بِمجلسٍ ... كنتَ الّرئيسَ وفخــرَ ذاكَ المجلس

وقـــال أبـــو حـــسن الماوردي[3] رحمه اللّه يرغّب في طلب العلم وإخلاص النية فيه: "فينبغي لمن زهد في العلم أن يكون فيه راغباً، ولمن رغب فيه أن يكون له طالباً، ولمن طلبه أن يكـــون منه مستكثراً، ولمن استكثر منه أن يكون به عاملاً، ولا يطلب لتركه احتجاجاً ولا للتقـــصير فـــيه عذراً. وأن لا يسوِّف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنِّيها بانقطاع الأشغال المتِّصلة، فإنَّ لكلِّ وقتٍ شُغْلاً ولكلِّ زمانٍ عُذْراً"[4].

---

[1] تذكرة السمع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لإبن جماعة الكناني، ص21

[2] شرح ديوان الإمام الشافعي، ص60

[3] هـــو الإمامُ العلامة، أقضى القضاة، أبو الحسن، علي بن محمد بن حبيب البصريُّ، الماورديُّ، الشافعي، صاحب التصانيف، ولد في البصرة سنة 364هـــ وتوفي سنة 450 هـــ.

[4] أدب الدنيا والدين، لأبي حسن الماوردي، ص50

وذكـــر الأبـــشيهي[1] في مستطرفه قول الشاعر صَالح بن جناح اللَّخْميِّ يحث فيه إلى طلب العلم[2]:

تَعَلَّمْ إِذَا مَا كُنْـــتَ لَسْتَ بِعَالِمٍ ... فَمَا الْعِلْمُ إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ التَّعَلُّم
تَعَلَّمْ فَإِنَّ الْعِلْـــمَ أَزْيَـــنُ لِلْفَتى ... مِنَ الْحِلَّةِ الْحَسْنَاءِ عِنْدَ التَّكَلُّم
فَلا خيْرَ فِيْمَنْ عَاشَ لَيْسَ بِعَالِمٍ ... وَلَوْ نَالَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

اعلـــم أيهـــا القارئ العزيز، انه لا يوجد دين، ولاعقيدة، ولا ثقافة، منذ أن وُجد الإنسان على هذه الأرض، قد أعطت طالب العلم اهتماماً ومكانة مرموقة في كلا الدارين مـــثل ما أعطاه الإسلام، وعقيدة التَّوْحيْد، وثقافة السَّلَف الصالح كما وضّحناه فيما سبق، لـــذا علـــيك بتقوى اللّه، وسلكِ الطريق الذي رسمه لنا نبيّنا الرَّسول المـُعَلِّم ﷺ في طلب العلـــم، واتباع نهج الصَّحابة رضوان اللّه عليهم والتَّابعين لهم، وما جاء عن أساليب وطرق التَّعَلُّم عند السَّلَف الصالح، لأنّهم هم الأصل، ونحن الفرع، وهم المنبع الصافي الذي نشرب مـــنه جميعـــنا، للّه دَرُّ ابْن الجَوْزِيّ رحمه اللّه، إذ يقول: "فإن مَن ورَدَ المشرب الأول، رأى سائر المشارب كدرة"[3]، فعليك ياطالب العلم، يا صاحب العقل الصحيح والقلب السَّليم، أن تـــنهل من علم الأوائل، وتكون ممن يرد المشرب الأول، وليس ممن يرد بقية المشارب، حتى تتمتع بحلاوة العلم النافع في هذه الحياة الدُّنيا، وحسن ثوابه في اليوم الآخر.

[1] هو بهاء الدين أبي الفتح محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي، ولد في أبشويه، وهي قرية من قرى مصر ســنة 790 هـــ وتوفي في أواخر سنة 854 هـ، من أشهر مؤلفاته: المستطرف من كل فن مستظرف، وأطواق الأزهار على صدور الأنهار، وتذكرة العارفين وتبصرة المستبصرين.

[2] المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهي، ص30

[3] صيد الخاطر لابن الجوزي، ص37

الطَّالبُ ودوره في العمليّة التَّعْلِيْميّة

يُعـــدّ الطالـــب أو مـــا يطلق عليه أحياناً الــمُتَعَلِّم أهمّ مكوِّنات العمليّة التَّعْلِيْميّة. فـــبدونه لاوجـــود للمـــعَلِّم، أو للمؤسَّسة التَّعْلِيْميّة، أو للمادَّة العلميّة، فمن أجله نبني المدرســة، ونُعــدّ المـعَلِّم النَّاجح، ونكتب المادّة العلميّة المناسبة. فانطلاقاً من أهمِّيَّة عنصر الطَّالـــب ودوره في العملـــيّة التَّعْلِيْميّة، يمكننا أن نقول إذا حصلنا على طالب ذو جَوْدَة في تعلُّمه، وتفكيره، وتحليله، ونقده، وحلِّه للمشاكل الّتي يتعرَّض لها، نستطيع عندئذ أن نعتبر أنّ العمليّة التَّعْلِيْميّة بكافَّة مكوِّناتها ناجحة ومُمَيَّزة.

قبل أن أستعرض خصائص جَوْدَة العمليّة التَّعْلِيْميَّة لدى الــمُتَعَلِّم، أُعرِّف القارئ بما يُقـــصد بالجَوْدَة في التَّعَلُّم من وجهة النَّظَر الإسْلاميَّة من ناحية، ووجهة النَّظَر الغَرْبِيّة من ناحـــية أخـــرى، لكي نرى إن كان هناك تطابقٌ أم اختلافٌ في تعريفهم ومفهومهم لهذا المصطلح العلميّ.

"الجَوْدَة" ـــ لغة ـــ تعني " حالة ما هو جَيِّد، اكْتمال الصفات الْمُمَيَّزة، إتْقان، كقولنا عمل جيد، أي عمل مُتقَن أوحَسَن"[1]، فالجَوْدَة إذاً تعني "الإتْقان" بحد ذاته.

من حيث المبدأ، أكّد الإسلام ـــ عقيدة وشريعة ـــعلى أهمّية الجَوْدَة والإتقان في كافَّة مجالات الحياة، فعلى مستوى الدِّين نفسه، نجد أن الإسلام دين كاملٌ، مُتقَن، قد رضيه اللّه لـــنا، وفـــيه خيرٌ لنا في الدُّنيا والآخرة، قال اللّه تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [مائدة:3]، ووصف الله من تديَّن بهذا الدِّين فأسلم وجهه لله وهو محسن، بأنّه لن يكون هناك أحسن ديناً منه، وجاء بصيغة الاســـتفهام الإنكاري، ليدل على انه الأحسن على الإطلاق: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النـــساء:125]. ومـــن كان على أحسن دين فهو الأحسن علماً

[1] معجم الــمُنجد في اللغة العربية المعاصرة، ص234

وتعليماً وتعلّماً، ومِنْ ثَمّ، سلوكاً ومشاعرَ وانفعّالاتٍ ومواقفَ. وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 88].

وعلى مستوى العقيدة، نجد مفهوم الجَوْدَة واضحاً في مطالبة المسلم أن يتبنى عقيدة توحيد اللّه في أسمائه وصفاته وأفعاله، لما فيها من اكتمال للصفات المُميَّزة لعبادة الإله الواحد، لاشريك له، قال اللّه تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:18]، ففي عقيدة التَّوْحِيْد جَوْدَة وإتقان، وفي الشِّرْك كفر وضلال، وكم وسطحيّة، فهل نختار الجَوْدَة والإتقان، والعمق في الإيمان بالواحد الحي القيوم، أم الكم والسطحيّة في الاعتقاد، أعاذنا اللّه وإياكم من الشِّرْك والضلال.

ويحسن بنا أن نشير إلى أن الإحسان أعلى من درجتي الجَوْدَة والإتقان، وأن الجَوْدَة والإتقان مظهران من مظاهر الإحسان، والإسلام ديناً وعقيدة وأخلاقاً دعوة إلى الإحسان، قال اللّه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝﴾ [المؤمنون:12-14]، فعمل الإنسان يُقاس بمعيار الإحسان، أي بقدر ارتفاع درجة الإحسان في قوله وعمله، يرتفع قدره في ميزان الشريعة من جهة، وفي ميزان المعايير الوضعية الّتي اعتمدها الإنسان في تعريفه للجَوْدَة والإتقان في كيفيّة أداء أمر ما، وفي قوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملـــك:2]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف:7].

ولو ألقينا نظرة عابرة، في السّنّة النبوية الشّريفة، لوجدنا أن مفهوم الجَوْدَة والإتقان قـــد أخذ مساره في أقوال وأفعال نبيّنا محمّد رسول اللّه ﷺ، فعَنْ عَائِشَةَ[1] رضي اللّه عنها، أَنّ رَسُـــولَ اللَّـــه ﷺ، قَالَ: " إِنّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ " [2]، وعَنْ شَدَّاد بْنِ أَوْسٍ [3] ، أن رَسُولَ اللَّه ﷺ، قَالَ : "إِنَّ اللَّهَ مُحْسِنٌ يحِبُّ الْإِحْسَانَ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْـــسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذّبحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، ثُمَّ لِيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ "[4]، فالإحـــسان هـــنا أعلـــى مستويات الإتقان، ولعله الإتقان الذي تكتنفه الرحمة، وفي أشد الحالات ألماً ومعاناةً ومنظراً عند ذبح الشاة، فلا ينسى أن يريح ذبيحته.

ومـــا أحلـــى مفهوم الجَوْدَة فيما جاء عن ابْنِ الْمبارك[5] أن حُبَيِّبَ بن حُجر القيسي قـــال: "مـــا أحسن الإيمان ويزينه العلم، وما أحسن العلم ويزينه العمل، وما أحسن العمل ويزينه الرفق. وما أُضيف شيء إلي شيءمثل حلِم إلى علم" [6] فنحن هنا أمام تكاملية رائعة

---

[1] عائشة، هي: بنت الإمام الصدِّيق الأكبر، خليفةِ رسول اللّه ﷺ أبي بكر عبد اللّه بن أبي قُحافة، القُرشية، التَّيمـــيَّة، النبوية، أم المؤمنين، زوجةُ النبي محمد ﷺ، أفقهُ نساءِ الأمّة على الإطلاق، تُوفيت سنة 57 هـــ ومدة عمرعا 63 سنة وأشهر.

[2] صحيح الجامع الصغير وزيادة للألباني، ج1، رقم1880

[3] هـــو شـــداد بـــن أوس ابن ثابت بن المنذر بن حرام، أبو يعلى، وأبو عبد الرحمن الأنصاري،النجاري، الخزرجـــي، وشـــداد هو ابن أخي حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ، من فُضلاء الصحابة، وعلمائهم، نزل بيت المقدس، توفي سنة 58 هـــ. وهو ابن خمس وسبعين سنة، وكانت له عبادة واجتهاد.

[4] صحيح الجامع الصغير وزيادة للألباني، ج1، رقم1824

[5] هـــو عبد اللّه بن الُمبارك ابن واضح، الإمامُ شيخُ الإسلام عالم زمانه، وأمير الأتقياء في وقته، أبو عبد الـــرحمن الحنظليّ، ولد في سنة 118 هـــ ومات سنة 181 هـــ. يقُال: إن الرشيد لما بلغه موتُ عبداللّه قال: مات اليومَ سيدُ العلماء.

[6] الجامع للأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب الغدادي ج1، ص94

وسـامية في مفهـوم الاتقان والجَوْدَة، تشكلت في ذهن حُبَيِّب القيسي، وهو يدين الدِّين الحـق. وبعـد هـذا الـتأطير لمفهوم "الجَوْدَة" في بُعْدِه الشَرْعِيّ واللغوي، نمضي لتأطيره اصطلاحياً وعَمَلِيّاً.

فالجَـوْدَة – اصطلاحاً– تأخذ معناها من المجال الّتي تُستخدم فيه، فمعنى الجَوْدَة في المجال الاقتصادي أو التجاري غير معنى الجَوْدَة في مجال المعاملات السِّياسيّة، أو الدبلوماسية، أو الأَكَادِيْمِيّة أو ماشابه ذلك، ما نريد أن نتوصَّل إليه في بحثنا هذا هو معنى الجَوْدَة وكيفيّة تحقيقها في عَمَلِيَّة التَّعَلُّم عند طالب العلم.

إن الجَـوْدَة في التَّعَلُّم هي إخلاص الـمُتَعَلِّم في النية للّه تعالى، وحسنُ فهمٍ وحفظٍ وإتقـانِ المعلومةَ، وقدرتُه على استخدامها والعمل بها عندما يتطلب الأمر، وفي أي مكان وُجِـد هـذا الـمُتَعَلِّم فيه، فإذا لم يحصل هذا كان التَّعَلُّم كَمِّيّاً وسطحيّاً لاقيمة له، واللّه أعلم.

ذكر ابْن عبد البَرِّ القرطبي رحمه اللّه أبياتاً شعرية نسبها بعضهم إلى المأمون[1]، وكانهُ يعرِّف فيها الجَوْدَة في التَّعَلُّم، أذكر منها مايلي[2]:

واعلم بـأنّ العلم بـالتَّعَلُّم ... والحفـظ والإتقان والتّـفهُّم
والعلم بالفهم وبالمـذاكـرة ... والدَّرس والفكـرة والمناظـرة

ويقـول الإمـام الشافعي رحمه اللّه وهو يؤكد أهمّية قدرة الـمُتَعَلِّم على استخدام المعلـومة أينما كان، وهذا يُعَدُّ عنصراً مهماً من عناصر جَوْدَة التَّعَلُّم، كما انه يستنكر أن

---

[1] هـو الخلـيفة العباسـي السابع، أبو العباس، عبد الله بن هارون الرشيد، ولد سنة 170هـ وتوفي سنة 218هـ . كـان من أفضل رجال بني العباس حزماً وعزماً وحلماً وعلماً ورأياً ودهاء وهيبة وشجاعة وسماحة، استقل بالأمر بعد قتل أخيه سنة 198 هـ.

[2] جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر القرطبي ص146

يكـــون العلم محفوظاً في صندوق مغلق لايمكن فتحه لاستفادة مما فيه من علم عند الحاجة، وهذا دليل على الكم[1] والسطحيّة في عَمَليَّة التَّعَلُّم[2]:

علميّ مَعي حَيْثـــــما يَمَّمْتُ ينفعُني   قلبي وِعَاءٌ له لاَ بطْنُ صُنْدوقِ
إن كُنْتُ في البَيْتِ كَانَ العِلْمُ فيه مَعي   أو   كُنْتُ في السُّوقِ كانَ العلْمُ في السُّوقِ

أما فيما يتعلّق بالمفهوم الغَرْبيّ للجَوْدَة في التَّعَلُّم عند الطالب، عرَّف البرفوسور جبس الجَـــوْدَة في الـــتَّعَلُّم في كتابه "تحسين جَوْدَة التَّعَلُّم عند الطُّلّاب"[3]، بانها " كلُّ ما يؤدّي إلى "تطوير القدرات الفِكْريّة والخياليَّة عند الطُّلّاب، وتحسين مستوى الفهم والاستيعاب لديهم، ومهاراتهم في حلِّ القضايا والمسائل، وقدراتهم على توصيل المعلومة بشَكْلٍ فعّال، والنَّظَر في الأمـــور من خلال ما تعلّموه في الماضي وما يدرسونه حاليّاً". لتحقيق ذلك لا بدَّ من تبنّي منهجٍ دراسيّ يساعد على إثارة غرائز الإبداع والاستفسار والتَّحليل عند الطُّلّاب، وحثّهم علـــى الاســـتقلاليَّة في اختيارهم وطرحهم للآراء والأفكار، وإدراكهم لأهمّيَّة النَّقد والنَّقد الذاتيّ في عَمَليَّة التَّعَلُّم".

أمَّـــا مفهوم "الكم" في عمليَّتي التَّعْليْم والتَّعَلُّم، أستخدمه هنا للدَّلالة على مقدار أو حجم المعلومة، والوقت الذي يُستَغرق في التَّعَلُّم، والأُسْلُوْب السطحيّ لاكتساب المعلومة.

والجديـــر بالذِّكْـــر انه اختلط الأمر على كثير من التَّربويِّين والمدرِّسين وغيرهم من الـــمُـــتَعلّمين مـــن كثرة استخدام اصطلاحاتٍ ومفاهيمَ في عمليّتي التَّعْليْم والتَّعَلُّم بدون الإفـــصاح عـــن معـــناها ومقصدها، فقد ظهر مؤخَّراً مفهوم التَّعَلُّم العميق مقابل التَّعَلُّم السطحيّ، وتباينت مفاهيم استراتيجيّات التَّعَلُّم وتعدَّدت مفاهيم المعرفة.

[1] عندما أذكر الكم بمفردها فهي في مقابل الكيفية . وعلى حسابها . وسيأتي بيان لهذا، عما قليل .

[2] شرح ديوان الإمام الشافعي، ص74

[3] (Gibbs, G: 1992)

لـــذا عَمَـــدْتُ فيما تبقى من هذا الفصل أن أوضِّح الفرق بين التَّعَلُّم العميق والتَّعَلُّم السطحيّ، وأستعرض أهمّ إستراتيجيّات التَّعَلُّم العميق الّتي يمكن للْمُتَعَلِّم اتّباعها حتّى يحقّق أكـــبر قدر من الفائدة من عَمَلِيَّة التَّعَلُّم، ثم أقدم باقة من الآداب والخصائص الّتي يجب أن يتحلـــى بهـــا طالب العلم الناجح، وسأقترح ـ إن شاء اللّه ـ للطالب العلم العاقل طريقة إســـلامية تساعد في كيفيّة تحصيل العلم النافع بعمق وفعّالية معتمداً في ذلك كلّه على تراثنا الإسلاميّ الضّخم والمستنبط من الكتاب والسّنّة، وما كان عليه هدي السَّلَف الصَّالح، واللّه الموفق.

الواقع الحاليّ لعَمَلِيَّة التَّعَلُّم عند الطالب العربيّ

لو توقّفنا قليلاً ونظرنا في واقع الطَّالب العربيّ ـ في معظم مراحله الدِّراسيّة ـ لوجدنا انه ـ للأسف ـ يتبنّى " منهج التَّعَلُّم السطحيّ" في بحثه وتعامله واكتسابه للمعلومة، ويعاني من جهلٍ في فهم معنى التَّعَلُّم العميق الفعّال، لأنّه يعتقد أنّ التَّعَلُّم هو:

أولاً: مـــا يُقدِّمـــه المــــُعَلِّم للطَّالب من شرح في القاعة الدِّراسيّة أو ما يعطيه من واجبات مترلية أو 'مذكّرات' دورية، وليس ما يَتَعَلَّمُه الطَّالب بنفسه.

ثانـــياً: حفظ المعلومة غيباً عن ظهر قلب مع عدم القدرة على استخدامها في موقع آخر لغرض آخر.

ثالـــثاً:اكتـــساب حقائـــق ومهارات وعمليَّات حسابيَّة ومعادلات واستردادها في الاختبارات بدون القدرة على استخدامها لأغراض مختلفة وفي مواقع متغيّرة.

رابعاً: الجلوس أمام شاشة الإنترنت يتنقل فيها من موقع إلى آخر، ككبش تائه ضائع يـــركض حيراناً في مرعى فيه الغثُّ والسَّمين من العشب، فأحياناً يدخل موقع "الدردشة وضياع الوقت"، وأحياناً موقع " الفيسبوك والغيبة والنميمة"، وأحياناً موقع "القص واللصق والـــسرقة للمعلومة"، وأحياناً يدخل موقع "اللعب واللهو والقمار"، وأحياناً موقع "الحب

والغــزل والـــدعارة"، كل هذا بحجة انه يتعلم أو يبحث عن المعلومة عن طريق الإنترنت، عافـاني اللّــه وإياكم من مساوئ استخدام هذا الشّيطان الخفي الذي لايخلو منه بيت إلا ومستخدموه يعانون من همزاته ووساوسه الشّيطانية.

فالـتَّعَلُّم الـــذي يحصل نتيجة تبنّي هذا المفهوم هو عبارةٌ عن تعلُّم سطحيّ كمّيّ، وسرعان ما يزول لأنّه تعلُّم حقائق متفرِّقة، تُحفظ غيباً بدون فهم واستيعاب كاملَين لكَي تُستَرَدَّ في الاختبار، ثم تُهمل وتُنسى لعدم ربطها بواقع وتجارب الـــمُتَعَلِّم.

وذكر ابْن عبد البَرِّ القرطبي رحمه اللّه: "أن عمر بن الخطاب ﷺ في حديث السَّقيفة انـــه خطب يوم جمعة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال، أمَّا بعد، فانِّي أُريد أن أقول مقالة قد قـــدّر لي أن أقولها، من وعاها وعقلها وحفظها، فليحدّث بها حيث تنتهي به راحلته، ومن خشي أن لا يعيها، فاني لا أحل له أن يكذب عليّ أن الله بعث محمّداً ﷺ بالحق وأنزل معه الكتاب، فكان مما أنزل معه الرجم وذكر الحديث"[1] وهذا يدل على نهيه عن التَّعَلُّم الكمّي والسطحيّ حيث يهتمّ الـــمُتَعَلِّم بحفظ المعلومة بدون وعي لمضمونها وتعقلٍ لمعناها، فيقع في المحظـــور، وهو نقل المعلومة إما ناقصة أو مشوَّهه أو غير صحيحة، ولاسيَّما إذا كان الأمر يتعلّق بما قاله رسول اللّه ﷺ، لذلك أكّد على الوعي والتَّعقل والفهم ثم الحفظ حتى يتحقق المــرجو من التَّعَلُّم، وبهذا يكون الـــمُتَعَلِّم قد اتبع أهمّ عناصر الجَوْدَة في عَمَلِيَّة التَّعَلُّم من حيث الإتقان والعمق في تفهّم وتعقل المعلومة، مهتماً بالإقلال ومتجنّباً الإكثار، أي مهتماً بالنوعيّة وغير مبالٍ بالكميّة.

فمن علاماتٌ التَّعَلُّم السطحيّ أن يقرأ الطالب أو أن يكتب بدون أن يتفهّم ويتفكر فيما يقرأ أو يكتب، فينتج عنه وكانهُ لم يقرأ ولم يكتب، لأن اهتمامه كان في التركيز على كمـــيّة القـــراءة أو الكتابة الّتي يريد تحقيقها، هذا ما يؤكده ماجاء في الأثر عن سُرَيجِ بنِ

---

[1] جامع بيان العلم وفضله 122/2

يُــونُس[1] انه سمع يحيى بن يمان[2] يقول: "يكتبُ أحدُهُم الحديث ولا يتفهَّم ولا يتدبَّر، فإذا سُئِل أحدهم عن مسألة جلسَ كأنهُ مكاتَب[3]"[4].

وتأكــيداً لمساوئ ومضارٍّ استخدام منهج التَّعَلُّم السطحيّ والاهتمام بالكمّ في التَّعَلُّم أكثــر من النوعيّة. فقد قرأت هذا الشاهد الرائع والذي هاجم فيه قدماؤنا استكثار راوي الــشعر ممــا لايفقهــه جيدا، وعدوا ذلك عيبا يُهجى به صاحبُه أشدَّ الهجاء وأقساه، فهو كالــبعير الذي يحمل حملا لا يعلم قيمته ويستوي لديه الغث والسَّمين مما حمل في غرائره. فيمــضي بهما على سواء ففي " لسان العرب " (ز م ل) هَجا مَرْوانُ بن أَبي حَفْصة [5]قوماً استكثروا رواية الأشعار من غير تفهّم ما فيها من المعاني واللطائف فقال:

زَوامِل[6] للأَشعار لا عِلْم عندهم ... بجَيِّــدهــا إلا كعِلْم الأَباعــر[7]
لعَمْرُك ما يَدْري البعيرُ إِذا غدا ... بأَوساقِه[8] أَو راح ما في الغَرائر[9].

---

1 هو ابن إبراهيم، الإمام القدوة الحافظ، أبو الحارث المروزي، ثم البغدادي، كان صاحب خير، ومن الأئمة العابدين، مات سنة 235 هـــ.

2 هــو الإمام الحافظُ الصَّادقُ العابدُ المقرئُ، أبو زكريا العِجْلي الكوفي، صحب الثَّوريَّ وأكثر عنه، وكان من العلماء العاملين، توفي سنة 189 هــ.

3 المُكاتَــبُ العــبد يكاتب على نفسه بثمنه فإذا سعى وأداه عُتِق. وجاء هنا على التشبيه به لأنه غالبا مظنة الجهل، والبعد عن أجواء التعلم .

4 جامع بيان العلم وفضله 131/2

5 لــسان العــرب - (11 / 309): لــسان العرب - (11 / 309): هَجا مَرْوانُ بنُ حَفْصة قوماً من رُوَاة الشِّعر...

6 لسان العرب - (11/ 309): الزاملة بعير يَسْتَظْهِر به الرجلُ يَحْمِل عليه متاعه وطعامه

7 لسان العرب - (71/4): أَباعِرُ جمع أَبْعِرة وأَبْعِرَةٌ جمع بَعير وأَباعِرُ جمع الجمع وليس جمعاً لبعير

8 لسان العرب - (10/ 378): الوَسْقُ والوِسْقُ مِكْيَلَة معلومة وقيل هو حمل بعير وهو ستون صاعاً بصاع النبي ﷺ

9 لــسان العرب - (5/ 11):الغِرارةُ واحدة الغَرائِر التي للتِّبْن قال وأَظنّه معرباً. (بمعنى كيس الخيش الذي يوضع على ظهر الجمل للتبن وغيره)

ولقد آثرت نقل هذا الشاهد على مافيه من غريب، الألفاظ، ذلك لأنّه إذا ماتضحت معانـــيها فإن البيتين يفصحان عن صورة جميلة جدا تبرز قيمة الكيف في مقابل الكم وقيمة التغلغل فيما بين الكلمات واستيعاب دلالاتها، لتكون أكثر عمقاً واستشفافاً.

ولقـــد بيَّـــنتِ الأبحاثُ الّتِي أُجْرِيَتْ على أثر المنهج السطحيّ في جَوْدَة التَّعَلُّم عند الطُّلّاب _كما هو مفصَّل في بحث التَّربوي جبس [1]_ أنَّ الطّالب الذي يتّبع المنهج السطحيّ الكمّـــيّ في تعلُّمه واكتسابه للمعلومات ينقصه الفهم الكامل للمفاهيم أو الأفكار الرَّئيسة للموضوع، كما انه لا يستطيع أن يميِّز بين الأمثلة أو أن يدرك الأفكار الرَّئيسة لمحاضرة قد يسمعها.

لـــذا يمكننا أن نقول وباختصار، أن المنهج السطحيّ في التَّعَلُّم واكتساب المعلومة لا يساعد على تطوير القدرات العقليّة والفِكْرِيّة والخياليَّة عند الطُّلّاب، وبالتَّالي يُعرقِل تحسين مستوى الوعي والفهم والاستيعاب والحفظ وتعلُّمهم لمهارات حلّ القضايا والمسائل بشَكْلٍ فعّال، والّتِي تُعَدّ من أبرز خصائص الجَوْدَة في التَّعَلُّم.

لـــذا حـــتى تحصل الجَوْدَة في التَّعَلُّم عند طلابْنا، لا بدَّ من التخلّي عن مبادئ منهج التَّعَلُّم السطحيّ، وتبنّي مبادئ منهج التَّعَلُّم العميق. وأول من دعا إلى استخدام منهج التَّعَلُّم العمـــيق هـــو نبيّنا محمّد رسول اللّه ﷺ، فعن ابْن مسعود ﷺ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: " نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا، ثم أدّاها إلى من لم يسمعْها، فَرُبَّ حَامِلِ فقْه غَيْرُ فَقيه، وَرُبَّ حَامِلِ فقْه إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ منه، ثَلاثٌ لا يَغُلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ، إِخْلاصُ الْعَمَلِ لِلَّه، وَالنـــصْحُ لأَئِمَّة الْمُسْلمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دعوتَهم تَحُوطُ مَنْ وَرَاءَهُمْ". [2] إن هذا الحديث يحدد أهمّ مراتب منهج التَّعَلُّم العميق، ويوضح ثمرة ونتاج من يتبناه.

---

[1] (Gibbs, G: 1992)

[2] صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم6766

يقول ابْن قيِّم الجَوْزِيّة_ رحمه اللّه _في شرحه لحديث عبدِ اللّه بنِ مسعود ﷺ انه من قام بتطبيق الأربعة المراتب من عَمَلِيَّة التَّعَلُّم العميق المذكورة في حديث رسول اللّه ﷺ دخل تحت الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن، وحدد هذه المراتب كالتالي:

أولهـــا وثانيها: سماعُه وعَقْلُه، فإذا سمعه وعاه بقلبه، أي: عَقَلَهُ واستقرّ في قلبه كما يـــستقر الشيء الذي يوعى في وعائه ولا يتسرّب منه، وكذلك عَقْلُهُ هو بمنزلة عَقْل البعير والدابّة ونحوها حتى لاتَشْرُدَ وتذهب، ولهذا كان الوعي والعقل قدراً زائداً على مجرد إدراك المعلوم.

المرتَّبة الثالثة: تعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب.

المـــرتَّبة الرابعة: تبليغه وبثّه في الأُمَّة ليحصل به ثمرته ومقصوده. فإن العلم ما لم يُنفَق منه ويُعلَّم فانه يوشك أن يذهبَ، فإذا أنفق منه نَمَا وزَكَا على الإنفاق.[1] كم أنت قيِّمٌ يابْن القيّم!؟ وكم شرد قوم للاستيراد مِن بعيد، وأنت منهم قريب قريب!؟

وفي عَمَلِيَّة التَّعَلُّم العميق، وتوضيح المعنى العمليّ للجَوْدَة في العلم والتَّعَلُّم، رُوي عن ابْـــن المـــبارك رحمه اللّه انه قال: "أن أول العلم النية، ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر"[2]. وروي أيضاً عن سفيان الثوري[3] رحمه اللّه انه قال:"أول العلم الاستماع ثم الانصات ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر".

---

1 مفتاح دار السعادة للإمام ابن قيِّم الجوزية ص94

2 جامع بيان العلم وفضله،ص118

3 هـــو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور بن عبد مناة من مضر ابو عبد الله أمير المؤمنين فـــي الحـــديث، كـــان ســـيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد بالكوفة سنة 97ه، ونشأ فيها. راوده المنـــصور العـــباس على أن يالي الحكم، فأبى وخرج من الكوفة سنة 144ه فسكن مكة والمدينة ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً سنة 161ه.

وقد دلّت الدِّراسات الغَرْبيّة ــ وأبرزها الّتي ذكرها جبس[1] ــ أنّ الطّالب يستطيع أن ينتقل من المنهج السطحيّ في التَّعَلُّم إلى المنهج العميق في التَّعَلُّم إذا حاول أن يطوِّر فهمه واعتقاده في مفهوم التَّعَلُّم؛ أي أن يرفض مبادئ ومفاهيم منهج التَّعَلُّم السطحيّ المذكور أعلاه ويعتقد أنّ:

أ- **التَّعَلُّم هو اكتشاف معنًى للأشياء**؛ أي يحاول الطّالب وبشَكْلٍ فعّال أن يجد أو يستخلص معنًى للأشياء في عَمَلِيَّة التَّعَلُّم، فهو يعي ويعقل ويفهم ويستوعب الأشياء، وهو قادرٌ على شرحها وتعليمها وتبليغها، وليس على حفظها أوتذكُّرها فقط.

ب- **التَّعلم هو فهم الواقع**؛ أي يتمكّن الطّالب من خلال عَمَلِيَّة التَّعَلُّم أن يفهم العالم المحيط به بشَكْلٍ مختلف، وأن يُطبِّق ما تعلّمه في واقع حياته.

وعندما يُطرَحُ السّؤال التّالي: ماذا يُقصَدُ بالمنهج العميق في التَّعَلُّم؟

أقول: هو محاولة الطّالب استخلاص معنى ممّا تعلّمه من أفكارٍ ومفاهيمَ، فهذه العمليّة من التَّعَلُّم تضع الطّالب في إطارٍ من التَّفْكِيْر الفعّال والبحث المتواصل للرَّبط بين المكوِّنات وبين القضايا والمسائل و"التّلاعب" بالأفكار بحيث يستطيع أن يستفيد منها في حيِّز الواقع بطريقة مختلفة عمّا تعلّمه، ولغرضٍ مختلفٍ أيضاً، وبهذا يحصل الابتكار والإبداع عند الطّالب والقدرة على تطبيق ما تعلّمه على الواقع وتطويره باستمرار.

والجدير بالذِّكْر هنا أنّ من الممكن تطبيقَ المنهج العميق في التَّعَلُّم على كافّة العلوم، سواء كانَتْ علميّة أو أدبيّة أو شَرْعِيّة. فمن أراد ــ على سبيلِ المثالِ ــ أن يحفظ سورة من القران الكريم، أو أبياتاً من قصيدة شعريَّة، أو حدثاً تاريخيّاً، يمكنه فعل ذلك، إذا تبنّى وطبّق مبادئ ومفاهيم التَّعَلُّم العميق، وتحلّى بصفات طالب العلم النّاجح الّتي سنذكرها لاحقاً، إن شاء اللّه.

---

[1] (Gibbs, G: 1992)

وعلـــى سبيلِ المثالِ يُمكن تطبيق مفهوم التَّعَلُّم العميق على حفظ آيات من القرآن الكريم باتِّباع القواعد التَّالية:

1. أن ينوي التَّعَلُّم، ويُخلص النية لله ﷻ .
2. أن يحدد الغرض من تعلم أو حفظ الآيات القرآنية.
3. أن يحدد الآيات القرآنية الّتي يريد أن يتعلّمَها أو يحفظها.
4. أن يتفكّر ويتذكّر الآيات القرآنية، فبالتّفكّر يحصل التّعلم وبالتذكّر يحفظه.
5. أن يعيَ ويعقل الآيات القرآنية حتى تستقر في عقله وقلبه.
6. أن يتصور ويفهم ويستوعب معاني الآيات القرآنية، لأن الحفظ هو تصور وفهم للمعنى المقصود تعلمه.
7. أن يقرن الفهم بالحفظ والقدرة على تذكّر الآيات القرآنية.
8. أن يـــستطيع تطبـــيق مـــا تمَّ تعلُّمه على الواقع، سواء بقراءة الآيات غيباً أو استخدامها كدليل أوشاهد لأمر ما، حينما يَستدعي الأمر.
9. أن يستطيع تعليمها وتبليغها للآخرين حينما يَتطلب الأمر.

إذا لم يستطيع أن يحقق الـــمُتَعَلِّم القواعد الآنفة الذِّكْر في عَمَلِيَّة تعلمه لأي أمر ما، يعـــني ذلك انه لم يتعلم شيئًا، وعليه أن يعيد نفس العمليّة من أولها إلى آخرها حتى يتأكّد من عمق تعلُّمه، وإلا كان تَعلُّمَه كمياً وسطحيّاً.

صفات طالب العلـم النَّاجح

يعتقد الطَّالب العربيّ ـــوللأسفــ انه عندما يجلس على مقعد الدِّراسة أو يجلس بين يدي مـــُعَلِّمه في حلقات العلم أصبح طالب علمٍ، وانه يحصل على العلم والمعرفة من تلقّيه لمعلـــومات مـــصدرها المـــُعَلِّم في الفصل الدّراسيّ أو الكتاب أو حتّى الكمبيوتر مؤخّراً وغيرها من وسائل التَّلَقّي.

أقــول لــك عزيزي الطّالب: حتّى تكون مؤهّلاً لطلب العلم النافع، ولكي يُطلق عليك اسم طالب علمٍ ناجح، وحتّى تستطيع أن تتعلّم وتكتسب المعرفة الحقّة والعلم النافع بعمقٍ وفعّاليّة، لا بدّ من أن تتزيّن وتتميّز بآداب وصفات طالب العلم الّتي تميّزك عن غيرك من النّاس. وفيما يلي بعض الخصال الّتي يجب عليك أن تحرص على التحلّي بها:

أولاً: أخلاق طالب العلم وأدبه

تُعَــدُّ الأخلاق الحميدة من أهمّ ما دعا الإسلام إليه في بناء شخصيّة الفرد وإصلاح المجـتمع، فإذا تمسك الفرد بمكارم الأخلاق، وعمل بها في كافّة مجالات حياته، ودعا إليها، وتخلى عن مساوئ الأخلاق، وابتعد عنها، وحذّر من عاقبتها وممن يتّصف بها، حصلنا على مجتمع متحضّرٍ متماسكِ البنيان، قويّ الإيمان بالله ورسوله، قويّ الإرادة والعزيمة، سليمٍ من عناصر الانهيار والفساد، بعيدٍ عن مسببات الانحلال والفساد.

إن اللّــه ﷻ أرسل الرسل والأنبياء ليبلّغوا رسالة التّوْحيْد إلى عباده، وليكونوا أسوة حسنة، يُقتدى بهم وبأقوالهم وأفعالهم، لما في ذلك من خير الدُّنيا والآخرة، وخير ما نقتدي بــه هو كل ما جاء به رسولنا محمّد ﷺ، فهو أسوة لنا في سيرته وما جاء فيها من قول أو عمل، وفي أخلاقه العظيمة لما فيها من سعادة الدُّنيا ولآخرة، فقد قال اللّه ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحــزاب: 21]، وقــال اللّه تعالى واصفاً كمال وعظمة خُلُقِ أسوتنا ونبيّنا ورسول اللّه للعالمين ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4]، وقال اللّه ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:159].

وَقَالَ الصَّحَابِيُّ أَبُو ذَرّ الغِفَاري[1] ﷺ لَمَّا بلغه مبعث النَّبيّ ﷺ لأخيه: "اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله، فرجع فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق"[2]. وعَنْ عَائِشَةَ رضي اللّه عـــنها قَالَـــتْ: " لَمْ يَكُنْ رسول اللّه ﷺ فَاحِشًا، وَلا مُتَفَحِّشًا ولا سخاباً في الأسواق، وَلا يُجْزِئُ بِالسَّيِّئَة السَيِّئَة، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ".[3]

ففـــي حُـــسن الخُلُق تقرُّب إلى اللّه ﷻ، واتباع لرسول اللّهﷺ، وبه نرجو رضى اللّه وحـــبّه ﷻ، فعن أسامةَ بن شريك، عن النَّبيّ ﷺ انه قال: "أحبُّ عبادِ الله إلى الله أحسنهمْ خُلُقَـــاً".[4]، وعَـــنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْب[5] ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّه، انه سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ، يَقُولُ: "ألا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ منِّي مَجْلسًا يَوْمَ القيامة ؟ فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَأَعَادَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًــا، قَالَ الْقَوْمُ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّه! قَالَ : أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا".[6] وحتى نحقق أعلى درجات الإيمان، لابدّ أن نرقى ونسمو بأخلاقنا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ الرَّسول ﷺ انه قَالَ: "أَكْمَلُ الْمُؤْمِـــنِّينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً ".[7] فكانَتْ مكارم الأخلاق من أهمّ ما جاء به الرَّسول ﷺ ودعـــا إلـــيه، فعَـــنْ أَبِـــي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاق".[8]

---

[1] هو جُنْدُب بن جنُادة الغِفاري، أحد السابقين الأولين، من نُجباء أصحاب النبي محمد ، كان خامس خمسة في الإسلام، مات سنة 32 هـــ.

[2] صحيح البخاري ص1167

[3] مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي ج3/ رقم5820

[4] صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني رقم 179

[5] هـــو ابـــن محمـــد بن صاحب رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل الإمام المحدث أبو إبراهيم وأبو عبد الله القرشي السهمي الحجازي فقيه أهل الطائف، ومحدثهم، وكان ناشراً للعلم. مات سنة 118هــ. انظر: سير أعلام النبلاء، ج5/ص165

[6] صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، رقم271/205

[7] صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني رقم 1230

[8] صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني رقم 2349

لـــذا أقـــول: انه من الأحرى بطالب العلم أن يتحلّى بالأخلاق الفاضلة، ويتحرى مُستَحسن الآدابِ والخلق الحسن في قوله وفعله، ويستنكر خصال السوء والفحش، ويبتعد عن الشر ومسبباته في قوله وفعله، فبالفضيلة يرقى وبدونها يهبط إلى الحضيض، فهاهو الإمام الشافعي رحمه اللّه يصف لنا فعل وأثر الفضيلة فينا[1]: ديوان الإمام

أَرَى الغِرَّ[2] فِي الدُّنيا إِذَا كَانَ فَاضِلاً   تَرَقَّى عَلَى رُوس الرِّجَالِ ويَخطُبُ
وإِنْ كانَ مِثلي لا فضيلَـــةَ عِنـــدهُ   يُقاسُ بِطِفـــلٍ في الشَّوارِعِ يَلْعَبُ

أودّ في مقامي هذا أن أحذّر طالب العلم الناجح من الوقوع في شباك أخس مساوئ الأخـــلاق، لأنها كثرت مؤخراً بين طلاب العلم، سواءً كانوا طلاباً في مراحلهم الابتدائيّة، أو الإعدادية، أو الثانوية، أوالجامعيّة أو حتى بين طلبة الدراسات العليّا، وللأسف! فقد كثر الغـــش والكـــذب، والتباغض والتحاسد بين طلاب العلم، كل منهم يعمل على شاكلته وبشتى الوسائل، إلا ما رحم ربي، من أجل أن ينجح أو يحصل على درجة عالية في دراسته، فمـــنهم من يتبع أُسْلُوْب "القص والصق" مدَّعياً انه نتاجه، ومنهم من يسرق فقرة من هذا الكتاب وفصلاً من ذلك الكتاب بدون أن يذكر من أين سرقه! بل ربما ذهب إلى أُسْلُوْب يـــتحايل فيه ويقوى على إخفاء سرقاته! ومنهم من يدفع مبالغ طائلة لمن يكتب له واجبه المدرسي أو بحثه الجامعيّ!

أصبح ارتكاب الغش والكذب أثناء الدِّراسة جريمة أخلاقيّة في المؤسَّسات التَّعْلِيْميّة الغَـــرْبِيّة، يُعاقـــب مرتكبها بالرسوب في سنته الدِّراسيّة إذا كان طالباً في مرحلة الدِّراسة الإعداديـــة أو مرحلة الدِّراسة الثانوية، وبالفصل من الجامعة إذا كان طالباً جامعياً، وبعدم الاعتراف بدرجته العلميّة إذا كانَتْ درجة الماجستير أو الدكتوراة.

---

[1] شرح ديوان الإمام الشافعي، ص32

[2] رجل غِرٌّ بالكسر، وغرير أي غير مجرّب

اعلم،أخـــي القـــارئ، أن الإسلام قد سبق المؤسَّسات التَّعْليْميّة الغَرْبيّة في تحريم من يكذب ويغش، حتى انه نعت من يكذب، بالنفاق، عافاني اللّه وإياكم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ:"آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَـــانَ"[1]، وتـــبرأ ممن يغش، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا"[2]. وفي رواية "من غشّ فليس منا "[3] هكذا، لمطلق الغش.

ومن الأخلاق الذميمة الّتي يعاني منها طلاب العلم أيضا الحسد، والتباغض، والغيبة، والنمـــيمة، وعـــدم تمنّي الخير لبعضهم بعضاً. إن هذه الآفات الأخلاقيّة لاتؤدي إلى خير، ولاسـيَّما في مجـــال الـــتَّعَلُّم. فهي تُكدّر بصر وبصيرة الـــمُتَعَلِّم، وتجلب الكآبة والتعاسة والحسرة له، وتؤدي إلى فشله في دراسته، أو عدم البركة فيما يحصله، واللّه أعلم، لذا حذّر الشرع منها ونهى عنها، ودعا إلى الأخوّة والمحبة في اللّه، فعَنْ أَنَسِ بن مالك ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" لا تَبَاغَضُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أَنْ يَهْجُـــرَ أَخَـــاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ".[4] وعن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ[5]، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَرَى الْمُؤْمِنِينَ: فِي تَرَاحُمِهِمْ، وَتَوَادِّهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ

---

[1] صحيح البخاري،رقم6095

[2] صحيح مسلم، رقم164

[3] سنن الترمذي – (3 / 606) قال الشيخ الألباني : صحيح

[4] صحيح البخاري رقم 6065

[5] هـــو ابـــن سعد بن ثعلبة، الأمير العالمُ، صاحبُ رسول اللّه ﷺ وابنُ صاحبه، أبو عبد اللّه. ويقال: أبو محمـــد، الأنـــصاري الخزرجـــيُّ، ابن أخت عبيد اللّه بن رواحة. شهد أبو بدراً، وولد النعمان سنة اثنتين هجرية، وسمع من النبي ﷺ. وعد من الصحابة الصبيان باتفاق. توفي سنة 64 هـــ.

سَــائِرُ جَــسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[1]. وعَنْ أَنَسِ بن مالك ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:" لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"[2].

ينبغــي علــيك، ياطالب العلم، أن تتمسك بمكارم الأخلاق جميعها، وعلى رأسها الصدق، وأن تبتعد عن مساوئ الأخلاق جميعها، وعلى رأسها الكذب، فبالصدق تَحصَل علــى الخير، وتُهدى إلى طريق الجنة، وبالكذب لا تُحصِّل إلا الشر وتُقاد إلى طريق النار، فعن عبد الله بنِ مسعود ﷺ، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: "إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَــى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ،وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا"[3].

ثانياً: الإخلاص في طلب العلم

الإخـــلاص في القول والعمل، سراً وعلانيةً، ظاهراً وباطناً، مبدأ من مبادئ الإسلام العظيمة، وشرط لقَبُول أيِّ عمل تعبُّدي يقوم به العبد نحو ربه ﷻ، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:2]. وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [للكهف:110]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ"[4].

---

[1] صحيح البخاري، رقم6011

[2] صحيح البخاري، رقم 13، صحيح مسلم رقم45

[3] صحيح البخاري، رقم6094

[4] صحيح مسلم، رقم2985

قال صاحب "المنازل" ـرحمه اللّه- في تعريفه للإخلاص: انه " تَصْفية العمل من كُلِّ شَـوْب"[1]. وفي شـرحه لهذا التّعريف، يقول ابْن قيّم الجَوْزيّة ـرحمه اللّهـ: " أي لا يمازج عملـه ما يشوبه من شوائب إرادات النّفس: إما طلب التزيُّن في قلوب الخلق، وإما طلب مـدحهم، والهربُ مِنْ ذَمِّهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم، وقضائهم حوائجه، أو طلب محبتهم له أو غير ذلك من العلل والشوائب، الّتي عَقْدُ متفرقاتها: هو إرادة ما سوى اللّه بعمله، كائناً ما كان"[2].

وقـال الجنـيد[3] – رحمه الله- "الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله"[4].

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً غير الله، ولا مجازياً سواه.

ويقـول ابْن جَمَاعَةَ الْكِنَانِيّ ـرحمه اللّهـ في الإخلاص في طلب العلم: "حسن النية في طلـب العلـم بأن يقصد به وجه اللّه تعالى، والعمل به، وإحياء الشريعة، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والقرب من اللّه تعالى يوم القيامة، والتعرُّض لما أعدّ لأهله من رضوانه وعظيم فضله"[5]

لـذا أقول: إن الإخلاص في طلب العلم يكون بعقد النية الصادقة في العقل والقلب علـى أن يكـون الغرض ـظاهراً وباطناًـ من طلب العلم ابتغاء مرضاة اللّه تعالى وحده،

---

[1] منازل السائرين – (1 / 40). لعبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، المعروف (بشيخ الإسلام)، المتوفى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة.

[2] مدارج السالكين لإبن قيمّ الجوزية،ج2، ص100

[3] هـو ابـنُ محمَّـد بن الجنُيد النهاوندي، ثم البغدادي القواريريّ، هو شيخ الصوفية في زمانه، ولد سنة 220هـ وتوفي سنة 268 هـ.

[4] مدارج السالكين لإبن قيمّ الجوزية،ج2، ص99

[5] تذكرة السمع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لإبن جماعة الكناني،ص72

وخالـــياً مـــن شوائب الرياء، والمباهاة، والمماراة، والكبرياء، والتَّعالي، والتكبُّر، والتفاخر، والرياسة، أو عرضاً من هذه الدُّنيا الفانية.

إضـــافة للخُلق الحسنِ والأدبِ الرَّفيع، لا بدَّ لطالب العلم أن يبتغي من طلبه للعلم وجـــهَ الله تعـــالى فقط، وليس ابتغاء تحصيل درجة علميّة عالية، أو طلباً لمركز في مؤسَّسة عـــريقة مـــشهورة، أو من أجل المال وحطام هذه الدُّنيا البالية، أو حتَّى يصرف إليه وجوه الـــنَّاس، أو ليُقال عنه عالم. فقد صحَّ عن الرَّسول ﷺ عن جابر[1] ﷺ انه قال: "لا تَعلَّموا العلـــمَ لتـــباهوا به العلماء، أو تُماروا به السّفهاء، ولا لتجترئوا به المجالسَ، فمن فعل ذلك فالـــنّارُ النّارُ"[2]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِـــهِ وَجْـــهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُه إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنيا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّة يَوْمَ القيامة "، يَعْنِي رِيحَهَا[3].

اعلـــم، أيها القارئ العزيز، انه إذا كنت مخلصاً في قولك وعملك، مبتغياً وجه اللّه ومرضـــاته، تحصل على مرادك الدنيوي، وتفوز بثواب الآخرة، إن شاء اللّه، أما إذا كانَتْ الدُّنـــيا وحطامها أكبر هم لديك، لن تحصل إلا على ما كُتب لك، وتكون تعيساً في الدُّنيا والآخرة، واللّه أعلم. فعَنْ أَنَسِ بن مالك ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ كَانَتْ الدُّنيا هَمَّـــهُ وَسَـــدَمَهُ[4]، لَهَا يَشْخَصُ[5]، وَلَهَا يَنْصَبُ، وَإِيَّاهَا يَنْوِي، جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْفَقْرَ بَيْنَ

[1] هو جابر بن عبد اللّه، ابن عمرو بنِ حرام بنِ ثعلبةَ بن حرام بن كعب بن غَنْم بن كعب بنِ سَلِمَة، الإمام الكبيرُ، المجتهدُ الحافظُ، صاحبُ رسول اللّه ﷺ، أبو عبد اللّه، وأبو عبد الرحمن، الأنصاريّ الخخزرجي الـــسَّلَمِيُّ المدنيُّ الفقيه. روى علماً كثيراً عن النبي ﷺ، وعن أبي بكر، وعُمر، وعليٍّ، وأبي عُبيدة، ومعاذِ بـــن جـــبل والزبير، وطائفة. وقيل أنه عاش 94 سنة، فعلى هذا، كان عمره يوم بدر18 سنة، توفي سنة 78 هــ. (انظر: سير الأعلام، ج3/ص189)

[2] صحيح الجامع الصغير وزيادته 7370

[3] صحيح سنن أبي داود، رقم3664

4 أي حزنه الذي يحزنه من أجل ما يفوته منها .

5 شَخَصَ بصره من باب خضع فهو شَاخِصٌ إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف . المختار

عَيْنَيْه، وَشَتَّتَ عَلَيْه ضَيْعَتَهُ، وَلَمْ يَأْته مِنْهَا إلا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ وَسَدَمَهُ، لَهَـا يَشْخَصُ، وَلَهَا يَنْصَبُ[1]، وَإِيَّاهَا يَنْوِي، جَعَلَ اللَّهُ الْغِنَى فِي قَلْبِه، وَجَمَعَ عَلَيْه ضَيْعَتَهُ[2]، وَأَتَتْهُ الدُّنيا وَهِيَ صَاغِرَةٌ رَاغِمَةٌ"[3].

واعلـم، ياطالـب العلـم، انه بالإخلاص في طلب العلم ينشرح صدرك، وتتفتح بـصيرتك، وتقوى ذاكرتك، ويزداد علمك، ويستقيم قولك، فقد قال مكحول[4]، أبو عبد اللّـه بن أبي مسلم الهذلي ـرحمه اللّه: " ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمـة من قلبه على لسانه"، وقال أبو سليمان الداراني: إذا اخلص العبد انقطع عنه كثرة الوسـاوس والرياء."[5] وكأني بأبي سليمان، وقد أوجد معادلةً بين الطُّمأنينة والسعادة من جهـة، وبـين الإخلاص من جهة، فما دام الإخلاص ينفي عن القلب عقارب الوساوس، وأفعـى الرياء، فلا قلق ولا اضطراب، بل قلبٌ مطْمَئنٌّ بذكر الله، سعيد بما حباه وأعطاه. فاقتـران العلـم بالإخلاص، هو الذي يمنحه الـدّور الإيجابي المتدفق في نهر الحياة، ويجعله المثمرَ الطيبَ على ضفافه الخضراء .

ثالثاً: الصَّبر والجلادة في طلب العلم

إن الـصبر والجلادة فضيلتان يتحلى بهما كل من يريد أن يفوز بخير الدُّنيا وبثواب الآخـرة، فالـصَّبر علـى ترك المحرمات والمحظورات خير وقرب من اللّه ﷻ، والصبر على الطاعـات والمسموحات خير وقرب من الله ﷻ، والصبر على تحمل المصائب والنوائب خير

---

1 يتعب

2 الضَّيْعَةُ العقار والجمع .. قال الأزهري الضَّيْعَةُ عند الحاضرة النخل والكرم والأرض .

3 صحيح الترغيب والترهيب للألباني، رقم1707

4 هـو عالمُ أهلِ الشام، روى علماً كثيراً عن طائفة من قدماء التابعين، عِدادُه في أوساط التابعين، قيل أنه توفي سنة 112هـ.

5 مدارج السالكين لإبن قيّم الجوزية، ص100

وقـــرب من الله ﷻ، وبهذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155]. وقال سبحانه تعالى: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:17]. وقال ﷻ: ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: 10].

وفي فـــضيلة الصبر وثوابها، عَنْ صُهَيْبٍ[1] ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ".[2] وعَنْ[3] أبي سعيد الخُدْرِيِّ ﷺ، أَنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ، سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا يَكُـــونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُم، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ".

وفي أهمّية الصبر على الـــملمّات والمحن، روي عن عمر بن الخطاب ﷺ انه قال:"لو أن الـــصَّبر والشُّكر بَعيرَانِ ما بَالَيت أَيَّهُما رَكِبتُ"[4]. وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ:" الصبر مـــن الإيمـــان بمنزلـــة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لاصبر له".[5] وقال محمّد بن على بن الحسين: "الصبر صبران: فصبر عند المصيبة حَسَنٌ جميل، والصبر عما حرم اللّه أفضل"[6]

---

[1] هـــو صـــاحب رسول الله ﷺ، صُهيبُ بن سنان ﷺ، أبو يحي النَّمريُّ، ويُعرف بالرُّومي لأنه أقام في الـــروم مدة، كان من كبار السابقين البدريين، مات في المدينة سنة 38 هـــ، قيل أنه عاش 70 سنة، وقيل 73 سنة، وقيل 84 سنة (انظر: سير أعلام النبلاء، ج2/ص17).

[2] صحيح مسلم رقم 2999

[3] صحيح مسلم رقم 1053

[4] أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، ص324

[5] بهجة المجالس وأنس المجالس لإبن عبد البر القرطبي، ج2/ ص349

[6] بهجة المجالس وأنس المجالس لإبن عبد البر القرطبي، ج2/ ص350

فالصبر على ما قد يحلّ بالإنسان من محن ومصاعب ونوائب هذه الدُّنيا الفانية أفضل مـــن سؤال واستعطاف بعض النَّاس، والرضى بحظه ونصيبه من حطام هذه الدُّنيا البالية أقل شـــدة وقسوة على قلبه من مَنّ وإحسان بعض النَّاس، فالصبر وقاية وحماية كرامة الإنسان مـــن الوقـــوع في شِباكِ ذلّ وهوان أصحاب المعروف، عافاني اللّه وإياكم، فها هو الإمام الشافعي رحمه اللّه، يحببنا بالصبر ويحذرنا من المِنَّةُ[1]:

لا تحمِلـــنَّ لِمـــن يمـــنّ — مـــن الأنـــام عليك مـــنَّـــه
واخترْ لِنفسك حـــظّهـــا — واصبِـــر فـــإنَّ الصَّبر جُـــنَّـــه
مِننُ الرِّجال على القلـــو — بِ أشـــدُّ من وقعِ الأسنَّـــه

والجديـــر بالذِّكْر انه ظهرت مؤخراً ظاهرة الدِّراسة الجامعيّة بقروض ربوية في البلاد الغَرْبِيّة وبعض البدان العربيّة للأسف. تقوم هذه الظاهرة السيئة على مبدأ أن يحصل الطالب علـــى قرض من أحد المصارف الربوية ليدفع رسوم دراسته الجامعيّة ويصرف على معيشته خلال ثلاث أو أربع سنوات، وبعد أن ينتهي من دراسته ويبدأ بالعمل، يقوم بسداد القرض بنـــسبة فائـــدة قليلة مرتبطة بنسبة التضخم الاقتصادي للبلد، وشرط سداد القرض العمل وكسب المال، فإذا لم يعمل يسقط حق سداد القرض للمصرف بعد مضي خمسة وعشرين عامـــاً على بطالته، هذا في القانون البريطاني، واللّه أعلم، ما يحصل في بعض البدان العربيّة الّتي لاتميّز في تقليدها للدول الغَرْبِيّة بين الحلال والحرام.

انهـــا محنة من أصعب المحن الّتي بدأ الطالب المسلم مؤخراً يعاني منها ومن مفرزاتها، فهو أمام محنة شَرْعِيّة، واقتصادية، واجِتْمَاعِيّة، ونفسية، وأَكَادِيْمِيّة. هل يرتكب كبيرة الربا، ويقـــع تحت ظلم مُرابي المصارف، ويعاني من همٍّ وغمٍّ هذه القروض الّتي ظاهرها "الفَرَجُ والحـــريَّة والـــسعة" وباطنها " الحسرة والضِّيق والعبودية" أم يبحث عن مخرج فيه النجاح والبركة والسعادة، إن شاء اللّه؟!!

[1] شرح ديوان الإمام الشافعي، ص98

لا أحد يستطيع أن ينكر محنة الفقر وصعوبة الحاجة، لاسيما إذا أراد لأب أن يُدخل ابْنه أو ابْنته لتدرس في الجامعة، لكن يقول مالك بن أنس رحمه اللّه: " إن العلم لن يُنال حتى يُذاق فيه طعم الفقر، وذكر ما نزل بربيعة من الفقر في طلب العلم حتى باع خشب سقف بيته في طلب العلم، وحتى كان يأكل ما يُلقى على مزابل المدينة من الزبيب وعصارة التمر"[1]. فبالصبر والتقوى تفرج الأمور، وتثلج الصدور بفرج ورحمة ورضاء وبركة من الحيِّ القيومِ الذي بيده الخير كُلُّه، يعطيه من يشاء، ويحرمه من يشاء، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾ [الطلاق:2-3].

لذا ينبغي على طالب العلم أن يتحلّى بالصَّبر والطَّاعة في طلبه لعلمه، وأن يتسلح به، ويصدَّ به مغريات النَّفس الأمارة بالسوء، ويتحمل ما يلاقيه من مشقّة وتعب في سبيله، لأن الصّبر على طلب العلم مفتاح باب النَّجاح والتحصيل العلميّ، فقد قال اللّه ﷻ في قصَّة موسى ﷺ وهو يطلب العلم من العالم الصَّالح الخَضِر قائلاً: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف:66-69].

ولقد ذُكر أيضاً في الصَّبر على التَّعلُّم أنَّ عبد اللّه بن عبّاسٍ ﷺ قال: "طَلَبْتُ الْعِلْمَ فَلَمْ أَجِدْهُ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي الْأَنْصَارِ، فَكُنْتُ آتِي الرَّجُلَ فَأَسْأَلُ عَنْهُ فَيُقَالُ لِي نَائِمٌ فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي، ثُمَّ اضْطَجِعُ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الظُّهْرِ فَيَقُولُ: مَتَى كُنْتَ هَهُنَا يَا ابْن عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَأَقُولُ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيْلٍ، فَيَقُولُ: بِئْسَ مَا صَنَعْتَ، هَلَّا أَعْلَمْتَنِي، فَأَقُولُ: أَرَدْتُ أَنْ تَخرجَ إِلَيَّ وَقَدْ قَضَيْتَ حَاجَتَكَ"[2]. ولاشك عندي أن ابْن عباس، وهو، من هو؟! يقدّر العلم في

[1] جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر القرطبي، ص97

[2] سنن الدّارمي، رقم569

شـــخص مـــعَلِّمه، ومن هنا جاء هذا التوقير والاحترام ليدلا على قيمة العلم والعلماء يوم كانَـــتْ الأُمَّة تقود دفة العالم، وتتوجه بها إلى شاطئ الأمان! فمتى تعود الأُمَّة إلى مفاهيمها وقيمها الأولى، ومن ثَم تتسنم ركب الحضارة لتعيش البشريّة بسلام وأمان ؟!

إن الصبر على غضب المـعَلِّم، أو تحمل سوء طبعه، أو تقبل عدم إنصافه في تقويّمه العلميّ للطالب، سمة قلَّ من يتحلى بها من الطُّلَّاب في هذه الأيام، فبعضهم يخاصم مـعَلِّمه لأنّــه اخـتلف معه في مسألة ما، وبعضهم يتشاجر معه من أجل درجة لم يعطِه إياها في تقـويّمه لبحثه العلميّ، وبعضهم يتجرأ على سبه وضربه إذا رسَّبه في دراسته، فالصبر على هذا النوع من المـعلِّــمين هو من مصلحة طالب العلم، لأنّه هو الخاسر إذا لم يصبر على مـعَلِّمه مهما كان طبعه وسوء خلقه[1]، فعن الربيع بن سليمان[2] قال :" قال الشافعي: قيل لـسفيانَ بنِ عيينة: إن قوماً يأتونك من أقطار الأرض، تغضب عليهم؟ يوشك أن يذهبوا ويتركوك. قال: هم حمقى إذن مثلك أن يتركوا ما ينفعهم لسوء خُلُقي"[3].

وقـال الإمـام الشَّافعي ـرحمه اللّهـ في الصَّبر على المـعَلِّم الجاف الغليظ الطبع، وعلى مرارة تحصيل العلمِ والتَّعَلُّم[4]:

اصْبِـرِ على مُـرِّ الجَفا منْ مـعَلِّم فَإنَّ رُسُـوبَ العِلْمِ فِي نَـفَراتِهِ
وَمَنْ لَـمْ يَـذُقْ مُرَّ التَّعَلُّم ساعَـةً تَـجَرَّعَ ذُلَّ الجَهْـل طولَ حَيَاتِهِ

---

[1] وهــذا بــلا شكٍّ إذا سلّمنا للطالب بصحة وصفه لمُعلّمه. وإلا فإن الغالب في مثل هذا هو الظلم والادعاء الأجوف .

[2] هــو ابــن عــبد الجبّار بن كامل، الإمامُ المحدِّث الفقيهُ الكبير، بقية الأعلام، أبو محمد المُرادي، مولاهم المــصري المؤذن، صاحبُ الإمام الشافعي، وناقلُ علمِه، وشيخُ المؤذّنين بجامعِ الفُسطاط ومتملي مشايخ وقته. ولد في سنة 174 هـ وتوفي في سنة 270 هـ. (انظر: سير الأعلام ج12/ص587)

[3] الجامع لأخلاق الراوي وآدب السامع للخطيب البغدادي، ج1،ص223

[4] شرح ديوان الإمام الشافعي، ص59

اعلم انه مهما عظمت المصيبة، واشتدت المحنة، وضاقت الدُّنيا في صدر صاحبها، فلا بد للشدائد أن تنجلي، وللهموم أن تنكشف، لكن في الأوقات المقدَّرة لها، فلا تنقضي قبلها ولا تستليم بعدها، وفي هذا يقول الإمام الشافعي رحمه اللّه[1]:

دَعِ الْأَيَّــامَ تَفْــعَــلُ مَا تَشَــاءُ   وَطِبْ نَفْسَاً إِذَا حَكَـمَ الْقَضَاءُ
وَ لا تَجْـزَعْ لِحَادِثَــةِ[2] اللَّيَــالي   فَــمَــا لِحَوَادِثِ الدُّنيــا بَقَاءُ
وَكُنْ رَجُلَاً عَلَى الْأَهْوَالِ[3] جَلَــدَاً[4]   وَشِيْمَتُــكَ السَّــمَاحَةُ وَالْوَفَاءُ

واعلــم انه مهما بلغ من شدة حادثتك، أنَّ هناك من هو أشد حادثة، ومهما طالت مــصيبتك، فــإن هــناك من عانى أكثر منك، فعليك أن تتأسى بأصحاب الصبر الجميل، وتتسلَّى بعبر الآخرين، ففي ذلك راحة القلوب وانفراج الهموم. رُوي عن عمر بن الخطاب ﷺ انــه قــال:" أَلْصِقُوا بِذَوِي الْغِيَرِ[5] تتسع قلوبكم"[6]. فقول عمر رضي الله عنه هنا، هو دعــوة للمــسلم بأن ينظر إلى من هم دونه غنى وسعة، بل إلى من حلّت به نوازل الدهر، وتغيّرت به الأحوال، وعندها يرى مابه من نعم الله فيتسع قلبه بعد ضيق، وينشرح صدره، ويسعد.

ولعل في قول الإمام الشافعي[7] رحمه اللّه، ونحن مازلنا نبحث في الصبر والجلد الذي يحتاجه طالب العلم، لعل فيه دفعةً في هذا الاتجاه، لاسيما أن هذه الأبيات مما شاع، وحفظه الكثير، لما فيه من وثوق كبير بعاقبة الصبر الجميلة والّتي تنسي المعاناة والآلام بل ذهب فيها

[1] ديوان الإمام الشافعي، ص27

[2] حادثة اليالي: تقلبات الحياة ونوائبها

[3] الأهوال: شدة النوازل التي تثير الرعب

[4] جلداً: شديد الصبر

[5] المعجم الوسيط – (2 / 668):(الغِيَر) غير الدهر أحواله وأحداثه المتغيرة يقال لا أراني الله بك غيرا.

[6] أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، ص332

[7] ديوان الإمام الشافعي، ص37

الإمــام الــشافعي إلى أن المخرج من المصيبة كامن فيها، والصبر هو الذي يقربنا من هذا المخرج ويدلنا عليه مادام هذا الصبر مقترناً بالتطلع إلى ما عند الله، والرجاء فيه :

وَلَرُبَّ نَازِلَــةٍ يَضِيْــقُ لَهَا الْفَتَــى ذَرْعَــاً وَعِنْدَ اللهِ مِنْهَا الْمَخْــرَجُ
ضَاقَــتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَــتْ حَلَقَاتُهَا فُــرِجَتْ، وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

وقال رحمه اللّه:

صَبْرَاً جَمِيْلاً مَا أَقْرَبَ الْفَرَجَا مَنْ رَاقَبَ اللهَ فِي الْأُمُورِ نَجَا
مَــنْ صَدَّقَ اللهَ لَمْ يَنَلْهُ أَذًى وَمَنْ رَجَاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا

وفي ذكــر ضيق العيش والصبر على الفقر والحرمان، رُوي عن الإمام الوخشي[1] انه قال:"لقد كنت بعسقلان أسمع من ابْن مصحح وغيره فضاقت علي النفقة، وبقيت أياماً بلا أكل، فأخذت لأكتب فعجزت، فذهبت إلى دكان خباز وقعدت بقربه لأشم رائحة الخبز وأتقوّى بها، ثم فتح اللّه علي"[2].

لعلي استرسلت أكثر مما ينبغي في الحديث عن صفتيّ الصبر والجلد. نعم... فأنا أشعر بأهمّية بالغة لهاتين، في مسيرة الحياة كلها، وأشعر بأهمّيتهما أكثر وأكثر لطالب العلم، فهما المــدد الحقيقي بعد الله للاستمرار في هذه العمليّة الصعبة والمعقّدة والممتدة في الزمان على عمــر الإنسان من المهد إلى اللحد، والّتي أنيطت بها الحضارة الإنسانية، ومن قبل أنيط بها صــلة المخلوق بخالقه، ومع علو الأهداف، يزداد الجهد، ومعهما معا أنت وأنا بحاجة إلى الجلد، بحاجة إلى الصبر!

---

[1] الوخــشي: هــو الإمــام الحــافظ، المحدث الزاهد، أبو علي الحسن بن علي بن محمد بن أحمد بن جعفر البلخي، الوخشي، ووخش قرية من أعمال بلخ، ولد سنة 385هــ وتوفي سنة 441هــ. (انظر سير أعلام النبلاء، ج18/ص365

2 تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة الكناني، ص178

رابعاً: التواضع في طلب العلم

سُئل الفضيل بن عياض [1]– رحمه اللّه– عن معنى التواضع، فقال: "أن يخضع للحق، وينقاد لـه، ويقبله ممن قاله"[2]، وقال الجنيد_ رحمه اللّه_ : "هو خفض الجناح، ولين الجانب"[3]. أما الكبر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عن النَّبِيِّ ﷺ انه قَالَ : "الْكِبْرُ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ، وَغَمَطَ النَّاس"[4]. أي جحد وإبطال وعدم تواضع لحق اللّه في توحيده وعبادته من جهة، واحتقار وازدراء لحق النَّاس وعدم شكر وتقدير النعمة من جهة أخرى.

التواضع ضد االتكبر، والتواضع سمة حسنة ومحمودة، والكبر خصلة سيئة ومذمومة، فقد أثنى الشرع على المتواضعين، وذمَّ المتكبرين الفخورين، ففي المتواضعين، قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:63]، وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:54]، وفي المتكبرين الفخورين، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 19]، وقال ﷻ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34].

وعَـنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ[5] ﷺ، أَنَّ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَيَّ : أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ"[6] . وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ :

[1] هـو ابن مسعود بن بشر، الإمام القدوة الثبت، شيخ الإسلام، أبو علي التميمي اليربوعي الخرساني، ولد بسمرقند وارتحل في طلب العلم، مات سنة 187 هـ في خلافة هارون الرشيد، وكان ثقة نبيلاً فاضلاً عابداً ورعاً، كثير الحديث. (انظر: سير الأعلام، ج8/ص421)

[2] مدارج السالكين لإبن قيم الجوزية، ج2، ص337

[3] مدارج السالكين لإبن قيم الجوزية، ج2، ص337

[4] صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني ج2، رقم4608

[5] هو عياض بن حمار بن ناجية بن عقال المجاشعي، صحابيّ له أحاديث في صحيح مسلم وسنن أبي داود، والترمذي، سكن البصرة، روى عنه طائفة من التابعين، عاش إلى حدود الخمسين هجرية. (اذكر المرجع)

[6] صحيح مسلم،رقم2865

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ تَحْرمُ عَليهِ النَّارُ غداً ؟ عَلَى كُلِّ هَيِّنٍ، لَيِّنٍ، قَرِيبٍ، سَهْلٍ"[1] .

وفي هـــذا المقام، يُذكّرنا الإمام ابْن قيّم الجَوْزِيّة رحمه اللّه بشمائل تواضع نبيّنا محمّد ﷺ إذ يقول: " وكان ﷺ يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط. وكان ﷺ يخـــصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسَّلام، ويجيب دعوة من دعـــاه ولو إلى أيسر شيء. وكان ﷺ هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلـــق الوجه بساماً، متواضعاً من غير ذِلّة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنِّين ليِّن الجانب لهم"[2].

ورُوي عـــن عمـــر بـــن الخطاب ﷺ انه قال: "إن الرجل إذا تواضع للّه رفع اللّه حكمته[3]،

قـــال أبـــو حاتم البستي [4]رحمه اللّه:"أفضل النَّاس من تواضع عن رفعة، وزهد عن قـــدرة، وأنصف عن قوّة، ولا يترك المرء التواضع إلا عند استحكام التكبر، فلا يتكبر على

---

[1] صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني، ج1، رقم2609

[2] مدارج السالكين لإبن قيمّ الجوزية، ج2، ص336

[3] الحكَمـــة: حديـــدة توضـــع فـــي فـــم الفرس لتثبيت اللّجام، ومعناها: رفع اللّه رأسه. مختار الصحاح – (1 / 167): الحكمة من العلم والحكِيمُ العالم وصاحب الحكمة والحكيم أيضا المتقن للأمور.

[4] هـــو محمـــد بن حبان البستي، ويقال له ابن حبان: مؤرخ، علامة، جغرافي، محدث. ولد في بست (من بـــلاد سجـــستان) وتنقل في الاقطار، فرحل إلى خراسان والشام ومصر والعراق والجزيرة. وتولى قضاء ســـمرقند مدة، ثم عاد إلى نيسابور، ومنها إلى بلده، حيث توفي عام (354 هـــ) في عشر الثمانين من عمـــره. وهـــو أحد المكثرين من التصنيف. من كتبه (روضة العقلاء – ط) في الادب، (انظر الأعلام للزركلي – (6 / 78).

الـــنَّاس أحــــد إلا بإعجابه بنفسه، وعجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله، وما رأيت أحداً تكبّر على من دونه إلا ابتلاه اللّه بالذّلة لمن فوقه"[1].

فـــإذا كـــان التواضع سمة من سمات الأنبياء والمرسلين والصالحين، فالأحرى بطالب العلـــم أن يكـــون متواضعاً، هيناً، ليناً، حليماً، بشوشاً في طلبه للعلم وسعيه وراء المعرفة النَّافعة، قال الإمام الغزالي[2] ـــرحمه اللّهـــ: "لا يُنال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع"[3].

يعـــاني الطالــــب العربيّ هذه الأيام،ـــإلا مارحم ربي ـــ من قلة التواضع والاحترام لمـــعَلِّمه أو ممن يأخذ منه العلم، فتراه يتكبر ويتجبر في تلقيه العلم ولاسيَّما في حال تعاطيه الـــدروس الخـــصوصية، فهو يشتري العلم والمـــعَلِّم بماله، فلا حاجة للتواضع ولا للشكر، والطالب الجامعيّ الذي يدرس في الجامعات الخاصة يتوقع النجاح بدون حمد ولاشكر لأنّه يدفع الرسوم الباهظة لدراسته، هذا وهو مازال طالباً، فكيف هو عندما يحصل على الدرجة الجامعـــيّة، أو درجة الماجستير أو الدكتوراه! تراه كالطاووس يتبختر ويختال في مشيته من شـــدة العجـــب والكبرياء، فهو الآمر الناهي وكانهُ أصبح العالم العلامة، لا قبله ولا بعده، عافاني اللّه وإياكم من آفة الكبر والتجبّر، وجعلنا من المتواضعين الشكورين.

لـــذا ينبغي على طالب العلم العاقل، مهما كثر علمه، وحصل على درجات علميّة عالـــية، أن يتحلى بالتواضع والسكينة والوقار في طلبه للعلم وفي تعامله مع مـــعَلِّمه، ومع من يشرف على دراسته، حتى يبارك اللّه عَزَّ وَجَلَّ فيه وبعلمه،

---

1 روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم البستي، ص52

2 هـــو الـــشيخُ الإمـــامُ أبو حامد محمدُ الغزّالي،. ولد سنة 450 هـــ، وتوفي سنة 505 هـــ. أشهر كتبه: 'إحياء علوم الدين.(انظر: سير الأعلام ج19/ص322)

3 تذكرة السامع والمتكلم لإبن جماعة الكناني، ص88

خامساً: الرغبة والترحال في طلب العلم

يُعَـــدُّ دافع الرغبة من أقوى الدوافع الّتي تدفع بالإنسان لأن يقوم بفعل ما، لتحقيق غـــرض ما، فقيام العبد في منتصف الليل لكي يتهجد للّه ﷻ في صلاته تعبير عن رغبة قويّة عـــند هذا العبد الصالح في التّقرب إلى ربه ﷻ حتى ينال رضاه وجنته، وكذلك سهر طالب العلـــم طَوَالَ[1] الليل وهو يدرس أو يبحث في مسألة علميّة نافعة دليل واضح عن رغبة هذا الطالـــب الـــشديدة في التَّعَلُّم وكسب المعرفة من أجل أن ينجح في دراسته ويحصل على الدرجة العلميّة الّتي كان يريدها.

فمن الصفات الحميدة والخصال المُمَيَّزة الّتي تميّز الـــمُتَعَلِّم النشيط اليقظ الحذق عن غيره من طلبة العلم؛ الرغبة الجامحة، والحب الشديد لما يتعلّم، فلا تَعلُّم ولا تحصيل لمن فقد الـــرغبة في الـــتَّعَلُّم، ومـــا أكثرهم بين طلاب هذا الجيل، جيل يذهب طلابه إلى المدرَسَة متأخرين غير مبالين، وجيل يذهب طلابه إلى الجامعة بدون تحمس ورغبة في التَّعَلُّم، كلهم يريدون التَّعَلُّم لكن سلوكهم وردة فعلهم للعَمَلِيَّة التَّعْلِيْمِيّة_ إلا مارحم ربي_ لاتوحي بأن لديهم الرغبة المطلوبة في طالب العلم.

لـــذا ينبغـــي على طالب العلم العاقل أن يحب العلم حباً شديداً، ويرغب في زيادته كـــثيراً، ويكره الملل والكسل والتكاسل والتواكل في طلبه للعلم، ويسعى إليه بكل شغف وشوق، لأن كل ذلك يساعده في تحصيله للعلم وكسبه للمعرفة، فقد كان السَّلَف الصَّالح يتـــسابقون لحلقات العلم، فعن سعيد بن رحمة الأصبحي قال: "كنت أسبق إلى مجلس عبد الله بـــن المبارك بليل، معي أقراني، لا يسبقني أحد، ويجيء هو مع الأشياخ، فقيل له : لقد غَلَبـــنا عليك هؤلاء الصّبيان، فقال: هؤلاء أرجى عندي منكم، أنتم كم تعيشون؟ وهؤلاء عسى الله أن يَبْلُغَ بهم. قال سعيد: فما بقي أحد غيري"[2].

[1] مقاييس اللغة – (3 / 340) :يقولون: لا أكلِّمه طَوَالَ الدّهر.. والطِّوَال: جمع الطَّويل.

[2] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1/ص312

ومـــن مظاهر الرغبة في التَّعَلُّم تفرغ الطالب للعلم منذ طفولته، مرورا بشابه، حتى شيخوخته، لايشغله شاغل، ولا يلهه لعب، ولا كسب، ولا تجارة عن تحصيله للعلم، فهو يكـــرس طاقـــته الفِكْرِيّة والجسدية في خدمة العلم، ويقضي معظم وقته ليشرب من ينبوع العلـــم النافع والمعرفة، فقد نقل الخطيب البغدادي في الجامع عن بعضهم قال:" لاينال هذا العلـــم إلا مـــن عطل دكانهُ، وخرب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله فلم يشهد جنازته، وهذا كله وإن كانَتْ فيه مبالغة فالمقصود به انه لابدّ فيه من جمع القلب واجتماع الفكر"[1]، أي أن يتحلى طالب العلم بالرغبة الجامحة لينال الفكرة النّافعة.

ومن علامات الرغبة في طلب العلم السفر والترحال إلى أبعد الأوطان، تاركاً وراءه الأهل والأصدقاء، شغفه لقاء العلماء، وهمه تحصيل العلم النافع والحكمة المفيدة، فعن مالك بـــن أنس أن سعيد بن المسيب[2] ــرحمه اللّهــ قال:"ان كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحـــديث الواحد"[3]. وقال الشعبي[4] ــرحمه اللّهــ:" لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام الى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة مارأيت أن سفره ضاع"[5].

إن الـــسفر إلى بلاد نائية بعيدة للقاء عالم صالح زاهد، أو لطلب علم نافع لم يتيسَّر لـــصاحبه إلاَّ في مكانٍ بعيد، سنة مارسها طلبة العلم منذ زمن بعيد، وهذا ما نراه جليًّاً في قـــصّة موســـى ﷺ وهو يطلب العلم من الصَّالح العالم الخضر، قال ﷻ: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ

---

1 تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتكلم لإبن جماعة الكناني، ص74

2 هـــو ابن حَزْن بن أبي وهْب بن عمرو بن عائذ بن عِمْران بن مخزُوم بن يقظة، الإمام العَلَم، أبو محمد القرشـــيّ المخزوميّ، عالمُ أهلِ المدينة، وسيد التابعين في زمانه. ولد لسنتين مضتَا من خلافة عُمَر رضي اللّه عنه، وتوفي سنة 93 هـــ. (انظر: سير الأعلام، ج4/ص217)

3 جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر القرطبي،ج1، ص94

4 هـــو عامِـــرُ بن شَراحيل بن عبد بن ذي كِبَار: قيل من أقيال اليمن– الإمام، علاّمة العصر، أبو عمرو الهَمْدانـــي ثـــم الشعبي. مولده في إمرةِ الخليفة عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه لست سنين خلت منها، ومات سنة 105 هـــ. (انظر: سير الأعلام، ج4/ص294)

5 جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر القرطبي،ج1، ص95

أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۞ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۞ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. [الكهف:66-69].

وعن أبي بن كعب[1] ﷺ: انه سمع رسول الله ﷺ يقول: " إن موسى قام خطيبا في بني إسـرائيل، فسئل: أي النَّاس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يارب فكيف لي به؟ قال: تأخـذ معك حوتاً فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتا فجعله في مكـتل، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربا، وأمـسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخـبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غدائـنا، لقـد لقينا من سفرنا هذا نصبا، قال: ولم يجد موسى النصّب حتى جاوزا المكان الذي أمر الله به، فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الـشّيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجبا، قال: فكان للحوت سربا، ولموسى ولفـتاه عجـبا، فقال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصا، قال: رجعا يقـصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوبا، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السَّلام، قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمنِّي مما علمت رشدا قال: إنك لن تستطيع معي صبرا، يا موسى إني على علم من علم الله علمنِّـيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، فقال موسى:

[1] هـو ابن قيس بن عُبيد بن زيد بن معاوية بن عمر بن مالك بن النجار. سيد القراء، أبو منذر الأنصاريُّ النجاريُّ المدني المقرئ البدريُّ، شهد العقبة، وبدراً، وجمع القرآن في حياة النبي ﷺ، وعرض على النبي ﷺ، وحفـظ عنه علماً مباركاً، وكان رأساً في العلم والعمل ﷺ، مات في خلافة عثمان ﷺ سنة 32 هـ. (انظر: سير الأعلام، ج1/ص389)

ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمرا، فقال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شـــيء، حـــتى أحـــدث لك منه ذكرا، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة، لم يفجأ إلا والخـــضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمـــدت إلى ســـفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئا إمرا، قال: ألم أقل إنك لن تـــستطيع معي صبرا، قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا، قال: وقال رســـول الله ﷺ: وكانَـــتْ الأولى من موسى نسيانا، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف الـــسفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علميّ وعلمك من علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة، فبينا هما يمشيان على الساحل، إذ أبـــصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موســـى: أقـــتلت نفسا زاكية بغير نفس، لقد جئت شيئا نكرا، قال: ألم أقل لك إنك لن تـــستطيع معـــي صـــبرا، قال: وهذا أشد من الأولى، قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تـــصاحبني قد بلغت من لدني عذرا، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يـــضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض، قال: مائل، فقام الخضر فأقامه بيده، فقال موســـى: قوم أتيناهمّ فلم يطعمونا ولم يضيفونا، لو شئت لا تخذت عليه أجرا، قال: {هذا فـــراق بيني وبينك – إلى قوله – ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا}. فقال رسول الله ﷺ: "وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما"[1].

تُعـــدُّ قـــصة كُليم اللّه موسى ﷺ مع الصَّالح العالم الخضر درساً من أعظم وأجود وأخلـــص الـــدروس في طلب العلم، وفي ماهيَّة علاقة الـــمُتَعَلِّم مع مـــُعَلِّمه. انها درس يشجع للسفر وللترحال إلي لأراضي البعيدة من أجل تلقي العلم من عالم صالح عالم عامل،

---

[1] صحيح البخاري رقم4725

ومـــثال حـــي لتواضـــع الـــمُتَعَلِّم في طلبه للعلم مهما كثر علمه وعلو مقامه وفي الصبر والجلادة من أجل تحصيل العلم النافع والحكمة المفيدة.

وفي الـــسفر والتـــرحال عن الأوطان لأجل علم يُطلب أو لأجل عُلًى يُبتغى فوائد عظيمة لخَّصَها لنا الإمام الشافعي رحمه اللّه قائلاً[1]:

تَغرَّبْ عنِ الأَوْطَانِ في طَلَبِ الْعُلَى وَسَافِرْ فَفي الأسْفَارِ خَمْسُ فِوَائِدِ
تفرُّجُ همٍّ، واكتسابُ معيشـــةٍ وعلمٌ، وآدابٌ، وصحبةُ ماجدِ

شـــريطة أن يكون العلم أو التخصّص الذي يريده غير موجود في بلده، ينبغي على الطالـــب العربيّ أن يتحلى بصفات مُمَيَّزة حتى يكون مؤهلاً للسفر إلى البلاد البعيدة، سواء كانَتْ بلداناً عربيّة أو أجنبية، من أجل الدِّراسة، ويكون سعيداً، ومشروح الصدر، وموفقاً في دراسته، إن شاء اللّه، أذكر منها مايلي:

1. تقوى اللّه ﷻ في السر والعلانيه.
2. الحفاظ على الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان.
3. كثرة الاستغفار وذكر الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولانوم.
4. الحب الشديد والرغبة الجامحة لما يريد أن يتعلّمَه.
5. التفرغُ الكامل عن أيّةِ شواغل قد تؤثر سلبياً على دراسته.
6. الصبر والجلادة على مرارة البعد عن الأهل والأصدقاء والوطن.
7. اختيار الرفيق الصالح التقي الورع الذكي، وهجر الرفيق الفاجر السيِّء.
8. التواضع والقرب واللين والسهولة في تعامله مع أصدقائه ومـــُعَلِّمه.
9. العمل الجاد الدؤوب المثمر المبارك، بإذن اللّه.
10. التنظيم والاستثمار الجيدين لأوقات التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم.

[1] شرح ديوان الإمام الشافعي، ص44

ولأهمّـــية السفر والترحال في حياة طالب العلم هذه الأيام خصّصت الفصل السادس مـــن هـــذا الكتاب ليكون دليلاً مساعداً للطالب العربيّ الذي يريد أن يدرس خارج بلده، ولاسيَّما في أوربا الغَرْبيّة، وبالتحديد المملكة المتحدة، إن شاء اللّه.

سادساً: التحلّي بالجديّة في طلب العلم

إن الواقـــع الحـــاليّ لسلوكيات وتصرفات الطالب العربيّ في الفصل الدِّراسيّ تقليد أعمى لما يحصل في قاعات التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم في المدارس أو الكليات أو حتى الجامعات الغَرْبيّة مـــن جهـــة، وتقيد جائر لصلاحيات وممارسات المــُعَلِّم من جهة أخرى، وهذا ما جعل الطالب العربيّ ــ إلا ما رحم ربي ــ يتخلى عن كثير من أخلاقيّات وسلوكيات جميلة كان يتحلى بها ويمارسها وهو على المقعد الدِّراسيّ، فتراه الآن يتأخر عن حصصه الدِّراسيّة بدون مـــبالاة لمـــشاعر مـــُعَلِّمه أو زملائه، يدخل متى شاء ويخرج متى شاء، يتثائب وينام أثناء الـــدرس أو المحاضرة، يهْرج ويمرج [1] في الفصل إثارة للهو والمزاح والضحك، يتهجم على زملائه حيناً، ويجرّح بمـــُعَلِّمه حيناً، تحت ستار حرية الطالب في تلقيه للمعلومة.

إن عـــدم المبالاة والاستهتار والعبث هي من صفات طالب العلم الفاشل في دراسته وتحـــصيله العلميّ. والجديّة في طلب العلم ميّزة طبعيّة لطالب العلم النَّاجح، لأنّ العلم لا يتحقّق مع المزاح والهزل والضَّحك، فلكي يحصل الطَّالب على العلم والمعرفة بعمقٍ وفعّاليَّة، لا بدَّ أن يكون جادّاً في دراسته وتعلّمه.

وفي حـــديث أبي ذرّ الغفاري ﷺ قال: قلت يا رسول اللّه! أوصني. قال: "أوصيك بتقوى اللّه، فانها رأسُ الأمرِ كلِّه". قلت: يا رسول اللّه! زدني. قال: "عليك بتلاوة القرآن، وذكـــر اللّه، فانه نورٌ لك في الأرض، وذخر لك في السماء". قلت: يا رسول اللّه! زدني.

قال: "إيّاك وكثرة الضّحك، فانه يُميت القلب، ويَذهب بنور الوجه"[1]، أي انه يُميت العلم والإيمان الّذي في القلب. فدين الله جدٌّ لا يقبل الهزل، ولا يُمكن أن يُؤخذ إلاّ بقوّة وجد.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ[2] ﷺ انه قَالَ: "مَا كَانَ ضَحِكُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلاَّ تَبَسُّمًا"[3].

وعـن ابْن وهب_ رحمه اللّه_ انه قال: سمعت مالكاً يقول:" إن حقاً على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون مُتَّبِعاً لأَثَرِ مَن مضى قبله"[4]. وعن عليٍّ ﷺ انـه قـال: "إذا تعلمـتم العلـم فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بضحك وباطل، فتمجُّه القلوب"[5].

وقـد صحّ انه ضحك رجلٌ عند هشام الدستوائي[6]، فقال له هشام: "يا فتى تطلب العلم وتضحك؟ فقال: أليس الله أضحك وأبكى؟ فقال هشام: فابْكِ إذَنْ"[7].

وقال الخطيب البغدادي[8] _رحمه الله_: "يجب على طالب الحديث أن يتجنَّب اللّعب والعـبث والتبذُّل في المجالس، بالسّخف والضَّحك والقهقهة وكثرة التنادُر، وإدمان المزاح

---

[1] صحيح التّرغيب والتّرهيب 2233

[2] هـو الـصحابيُّ، العـالمُ، الـمثعَمّرَ، شيخُ المصريين، أبو الحارث الزّبَيديُّ المصريّ. شهد فتحَ مصر، وسكنها، فكان آخرَ الصحابة بها موتاً. له جماعة أحاديث. روى عنه أئمة. وقد طال عمره، وعمي، ومات بقرية سفط القدور من أسفل مصر في سنة 86 هـ.

[3] سنن الترمذي، رقم 3642

[4] الجامع لأخلاق الرّاوي وآداب السّامع 156/1

5 الجامع لأخلاق الرّاوي وآداب السّامع 156/1

6 هو الحافظ، الحجة، الإمام، الصادق، أبو بكر، هشام بن أبي عبد اللّه سنبر البصري الرّضبعي، مولاهم. صاحب الثياب الدستوائية. مات سنة 152 هـ. عاش78 سنة. (انظر: سير الأعلام، ج7/ص149)

[7] الجامع لأخلاق الرّاوي وآداب السّامع 157/1

[8] هـو الإمام الأوحد، العلاّمة الـثمفتي، الحافظُ الناقدُ، محدِّث الوقت أبو بكر، أحمد بن علي بن ثابت بن أحمـد بن مهدي البغداديُّ، صاحبُ التصانيف، وخاتمةُ الحُفّاظ. ولد سنة 392 هـ وتوفي سنة 463 هـ. (انظر: سير الأعلام، ج18/ص270)

والإكـــثار مـــنه، فإنّما يُسْتجاز من المزاح يسيره، ونادره، وطريفه الّذي لا يخرج عن حدِّ الأدب، وطـــريقة العلم. فأمَّا مُتَّصِلُه، وفاحشه، وسخيفه وما أَوْغَرَ منه الصدرور، وجَلَب الشّرّ، فانه مذموم. وكثرة المزاح يضع من القدر، ويزيل المروءة."[1]

وفي التثاؤب أو النوم خلال الحصة الدِّراسيّة أو المحاضرة العلميّة، أقول لطالب العلم، إياك والنوم أو التثاؤب أو التقاعس وأنت في حضرة العلم، فلقد نظر سلفنا إلى هذه الحالة، بالكثير من التشنيع، والاشمئزاز، والرفض، وإليك هذا الخبرَ لتتضح الصورة، ونستجلي نظرة القـــوم إلى مـــن أخـــذه النوم:سأل رجلٌ خالدَ بنَ صفوانَ[2]: " مالي إذا رأيتُكم تتذاكرون الأخـــبار، وتتدارســـون الآثار، وتتناشدون الأشعار، وقع عليَّ النوم؟ قال: لأنّك حمارٌ في مـــسلاخ[3] إنسان"[4]، وهنا علينا أن نميِّز بين قسوة إجابة ابْن صفوان، فلا نقرها بحالٍ، ولا نعـــدُّها تربوية – وقد تكون في إطار المزاح وطرح التكلُّف فيما بين الإخوان!– ومع هذا فإنّـــا لانراها منفكّة عن دلالتها الأصلية، في أن أشدَّ ما يخشى هو أن يتبلّد إحساس طالب العلـــم، فـــيغلب عليه النوم، في وقت ينبغي أن يكون أكثر يقظة وإحساساً، وأكثر فهماً واستيعاباً، بل أكثر تفاعلاً مع مادته العلميّة، ومع انطلاقته بها في ميادين الحياة! كما وصف طَرَفَةُ بن العبد نفسه في مُعَلَّقَتِه:[5]

---

[1] الجامع لأخلاق الرّاوي وآداب السّامع 156/1

[2] هو خالد بن صفوان بن عبد اللّه بن عمرو بن الأهتم التميمي المنقري. كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهـــشام بـــن عبد الملك. ولد ونشأ بالبصرة ولم تُعرف سنة ولادته. مات سنة 133ه . كان معروفاً بقوة فصاحته وقدرته على مدح الشئ وذمه بطريقة لم يسبقه ذويه فيها.

[3] مسلاخ : جلد إنسان

[4] كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، ج2، ص108

[5] الـــضرب: الـــرجل الخفيف اللحم. والعرب تتمدح بخفة اللحم؛ لأن كثرته داعية إلى الكسل والثقل، وهما يمـــنعان من الإسراع في دفع الملمات وكشف المهمات، وهو خَشَاشٌ: أي؛ الرجل الذكي اللطيف الرأس. دَخّـــال في الأمور بخفة وسرعة، كما أن تيقظه وذكاء ذهنه بسرعة حركة رأس الحية وشدة توقّده. شرح المعلقات السبع للزوزني – (معلقة طرفة).

أنا الرّجُلُ الضّرْبُ الذي تَعرِفُونَهُ　　　خَشَاشٌ كرَأسِ الْحيّةِ الْمُتَوَقّدِ

سابعاً: التّأكُّد ممّن يُؤخذ العلم

إن مصطلح "الشّيْخ" الذي يُؤخذ عنه العلم كاد أن يكون من صفات وميِّزات طلاب العلم السّابِقين الأوّلين، وأصبح مصطلح "المدرس أو المـُعَلِّم الخاص" أو "المشرف الأكَادِيْمِيّ" هو المألوف حالياً لدى الطّلّاب والتّربويّن والآباء، وشتان بين هذين المصطلحين من حيث شموليّة مفهوم ومعنى وغرض وتطبيق وجَوْدَة العمليّة التَّعْلِيْميّة الناتجة عن كل منهما. لا أريد أن أتكلم عن الفرق بين هذين المصطلحين وعن أسباب انقراض مصطلح "الشّيْخ" واستبداله بمصطلح "المدرس أو المـُعَلِّم الخاص" أو "المشرف الأكَادِيْمِيّ"، وإنما أريد أن ألفت انتباه القارئ أن الطالب العربيّ هذه الأيام ضائع محتار، لا يعرف أهمّية ممن يأخذ علمه؟ فتارة تراه يأخذ دروساً مع مـُعَلِّمه في المدرسة دون النَّظَر إلى سَمْتِه، أو حاله، أو هيئته، بغية استعطافه معه في دراسته في المدرسة، وتارة يسمع بمشرف رسومه التدريسية عالية، فيأخذ دروساً عنده بغية السمعة والشهرة، وتارة تجده يصاحب "عالما" بغية كسب العلم الطبعيّ[1] أو العلم النقلي[2] ظناً منه بأنّه عالمٌ عامل داعٍ مخلصٌ في علمه وعمله!

إن أهمّية خصال وميزات " ممن يُؤخذ عنه العلم في عَمَلِيَّة التَّعَلُّم؟ "، سواءً كان العلم طبعياً أم نقلياً، قد أكّد عليها الشرع، وحثّى عليها السابقون الأولون، والمتأخرون اللاحقون، فعن أبي هريرة، عن رسول اللّه ﷺ انه قال: "سيكون في آخر أمتي أناسٌ يُحَدِّثُونكم مالم تَسْمَعُوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم"[3]. وصح عن محمّد بن سيرين انه قال: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم"[4]. وقال حماد بن زيد: "دخلنا على

---

[1] هو علم الكونيات مثل علم الطب والهندسة والإنسانيات وغيرها من العلوم.

[2] هو علم قال اللّه ﷻ، قال الرسول ﷺ، قالت الصحابة رضوان اللّه عليهم، وكل ما نُقل عنهم.

[3] صحيح مسلم (المقدمة) رقم6

[4] صحيح مسلم، المقدمة ص24

أنـــس بـــن سيرين في مرضه فقال: اتقوا اللّه يا معشر الشباب، انظروا ممن تأخذون هذه الأحاديـــث، فانهـــا من دينكم"[1]. وقال البخاري: "سمعت أحمد بن حنبل يقول: إنما النَّاس بشيوخهم، فإذا ذهب الشيوخُ فمع مَنِ العيشُ؟"[2]

لـــذا ينبغي على طالب العلم الناجح أن يتأكّد " ممّن يُؤخذ العلم والمعرفة؟ "، فليس كـــل مـــن ادَّعـــى نفسه مـــُعَلِّماً، أو مشرفاً أَكَاديْمِيّاً، أو مؤدباً أو عالماً يُؤخذ عنه العلم والمعـــرفة، وليس كلّ من كتب مقالاً أو كتاباً يؤخذ منه العلم والمعرفة، وليس كل من فتح 'دُكاناً' في شبكة الإنترنت أصبح مرجعاً يؤخذ منه ولا يُعقب على مصداقية 'بضاعته'، فلا بـــدَّ للعالم ـــ سواءً كان مـــُعَلِّماً في مدرسة، أو محاضراً في كلية، أو أستاذاً في جامعة، أو مؤدباً أو شيخاً بمعناهمّا السَّلَفي ـــ أن يتحلّى بالسَّمْتِ الحسن، والخُلق الكريم، والصّدق فيما يقـــول، وأن لا يكـــون سفيهاً، فاجراً، كذّاباً، صاحب هوى ونزوات ذاتيّة، فقد جاء عن مالـــك بن أنس انه قال: "لا يُؤخذ العلم من أربعة، ويُؤخذ ممّن سوى ذلك: لا يُؤخذ من سفيه معلن بالسّفه وإن كان أروى النَّاس، ولا يُؤخذ من كذّاب يكذب في أحاديث النَّاس إذا جُـــرِّب ذلك عليه وإن كان لا يُتّهم أن يكذب على رسول الله، ولا من صاحب هوى يدعو النَّاس إلى هواه، ولا من شيخٍ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يُحدِّث"[3].

يقـــول ابْـــن جَمَاعَـــةَ الْكِنَانِيّ ـــ رحمه اللّه ـــ: "انه ينبغي للطالب أن يقدّم النَّظَر، ويـــستخير اللّه فيمن يُؤخذ العلم عنه، ويكتسب حسن الأخلاق والأدب منه، وليكن إن أمكـــن ممـــن كملت أهليته، وتحققت شفقته، وظهرت مروءته، وعُرفت عفته، واشتهرت صيانته، وكان أحسن تعليماً وأجود تفهيماً، ولايرغب الطالب في زيادة العلم مع نقص في ورع أو دين أو عدم خلق جميل"[4].

---

[1] الجامع لأخلاق الراوي وآدب السامع للخطيب البغدادي، ص130

[2] الآدب الشَرْعِيّة لإبن مفلح المقدسي، ص251

[3] الجامع لأخلاق الرّاوي وآداب السّامع للخطيب البغدادي 1\139

[4] تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لإبن جماعة الكناني، ص86

ثامناً: كراهة الاستحياء في طلب العلم

اختلط مفهوم الحياء على بعض طلبة العلم، فمنهم من يستحيي ويُعرض عن المشاركة في فعّاليات حصة دراسيّة أو محاضرة علميّة بحجة الحياء، وبعضهم من تراه لا يخجل من ازدراء أو احتقار عمل زملائه في الدّراسة أو السُّخرية أو الضَّحك على خطأٍ أو زلّة لسانٍ قد يرتكبها مُعَلِّمه أو مشرفه أو مؤدبه أو حتّى شيخه.

يقول شيخ الإسلام ابْن تيمية رحمه اللّه في تعريفه للحياء: " الحياء مشتق من الحياة، فإنّ القلب الحي يكون صاحبه فيه حياً، فيه حياء يمنعه من القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح الّتي تفسد القلب"[1].

لذا أقول إن هناك نوعيّن من الحياء؛ حياءٍ محمود، وحياء مذموم. فالحياءُ المحمود هو الذي يمنع صاحبه من الوقوع في المحظور، وما سواه فهو مذموم لأنّه أقرب إلى معنى الخجل منه إلى الحياء.

لقد أثنى الشرع على الحياء المحمود، وجعله خصلة من خصال الإيمان باللّه ﷻ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ "[2]. واعلم أيها القارئ، ان الحياء كله خير ولايأتي إلا بخير، فعَنْ قَتَادَةَ، قَالَ سَمِعْتُ أَبَا السَّوَّارِ، يُحَدِّثُ انه سَمِعَ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ، يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ انه قَالَ: " الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ"[3].

وللّه دَرُّ هذا الأعرابي الذي قال في وصفه لرجل حيّي: "لا تراه الدهرَ إلا كانهُ لا غنى به عنك، وإن كنت إليه أحوج، وإن أذنبتَ غفر وكانهُ المذنب، وإن أسأتَ إليه أحسن وكانهُ المسيء"[4]. وإني لأرى فيه دليلاً رائعاً في العلاقات والتواصل، والّتي يأتي بها الحياء، فإن شخصاً بهذه المواصفات؛ يتهم نفسه، وهي دائماً في إطار اللوم والنقد الذاتيّ والرغبة في

---

[1] مكارم الأخلاق لابن تيمية ص 73

[2] صحيح مسلم، كتاب الإيمان رقم 57

[3] صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم61

[4] العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، ص230

اعـــتدالها واستقامتها وتواصلها. وهو خلال ذلك يتسع صدره لأخطاء الآخرين، والتماس العـــذر لهم فيما وقع منهم، بل يمتد به طيب أخلاقه، ليشعرهم بأن هذا الخطأ هو صاحبه، وليسوا هم! ما أظن أن المخطئ الحقيقي إلا أكثر ندماً على ما بدر، وأكثر رغبة في الإقلاع عن خطئه. وبعكس هذا تماماً فيما لو أصررت على لومه وإدانته، فلسوف تصنع منه بطلا مستبـــسلا في الانتصار لنفسه بحق، وبغير حق! أقف إجلالاً لهذه الذخائر في تراثنا العظيم، كما تكتنفني أشد الحسرات وأمتي تَغيْب عن تراثها، أو تُغيَّب!! .

وبالأُسْـــلُوْب نفـــسه حـــذَّر الشرع من الحياء المذموم، وطلب من طالب العلم أن لايـــستحيي من المطالبة بحقه أو من السّؤال إذا أشكل عليه الأمر، ولاسيَّما إن تعلق الأمر بـــشؤون ديننا الحنيف، ففي صحيح البخاري، عن عَائِشَةُ رضي اللّه عنها انها قَالَتْ:" نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ، لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّين "[1]. وعَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، عَـــنْ أُمِّ سَـــلَمَةَ قَالَتْ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ الَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّه، انَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ، فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَة مِنْ غُسْلٍ اذَا احْتَلَمَتْ؟ قَالَ النَّبِيّ ﷺ: "إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ". فَغَطَّـــتْ أُمُّ سَلَمَةَ، تَعْنِي وَجْهَهَا، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّه، وَتَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ؟ قَالَ: "نَعَمْ، تَرِبَتْ يَمِيـــنُك، فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا"[2]، وعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا مَذَّاءً، فَأَمَرْتُ الْمِقْدَادَ أَنْ يَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: "فِيهِ الْوُضُوءُ"[3].

هـــذا بعضٌ من موقف الشرع من مسألة الحياء في طلب العلم، فأحرى بالـــمُتَعَلِّم الحـــريص على كسب العلم النافع، أن لايستحييَ من السّؤال بتلطف وأدب إذا التبس عليه فهـــمُ مـــسألة مـــا، أو حلّ مشكلة ما، لأنّ الحياءَ بمثل هذه الأمورِ يُوْرِث الجهلَ والحسرة والاكتـــئاب لدى الـــمُتَعَلِّم، فعن مُجَاهِدِ بن جبر المتوفي سنة 103 انه قال: "لا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ

[1] صحيح البخاري ص 50

[2] صحيح البخاري رقم 130

[3] صحيح البخاري رقم 132

مُـــستَحْيٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ"[1]. وقال الحسن: "من استتر عن الطلَب بالحَيَاءِ لَبِسَ للجهل سِرْبَالَه، فَقَطِّعُــوا سَرَابِيْلَ الْحَيَاءِ، فَانه مَن رَقَّ وَجْهُه رقَّ عِلْمُه، وقال: إنِّي وجدتُ العلْم بين الحياء والستْر"[2].

تاسعاً: اللّباقة والكياسة في طلب العلم

أكّـــد الشرع على أهمّية الرِّفْقَ والتَّجمُل في الطلب لما فيهما من خير الدُّنيا والآخرة، فعَـــنْ اَبِي حُمَيْدِ السَّاعديِّ3، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" أجْمِلُوا فِي طَلَبِ الدُّنيا فَانَّ كُلاًّ مُيَـــسَّرٌ لِمَا كُتِبَ لَهُ"4. وعَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللَّـــهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ "5 .

الرفق، والتجمل، واللّباقة في طلب العلم، وحُسن التّصرف مع المــُعَلِّم، هي من أهمّ صـــفات وخـــصال طالـــب العلـــم النَّاجح، وبها يحصل على مبتغاه العلميّ، وبها يرضي مــُعَلِّمـــه، ويكسب وده وعلمه، وبها يزداد علمه، وتُصقل معرفته، وهذا ما نراه جليًّا في قـــصّة موسى عليه السلام وهو يطلب العلم من الصَّالح العالم الخضر، قال اللّه تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ۝ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ۝ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ [الكهف:66-69].

---

[1] تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة الكناني، ص144

[2] كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، ص111

[3] أبـــو حمـــيد الـــساعدي هـــو الأنصاري المدني، قيل اسمه عبد الرحمن، وقيل المنذر بن سعد،من فقهاء أصـــحاب النبـــي ﷺ روى عنه جابر بن عبد الله، وعروة بن الزبير، وعمرو بن سليم الزرقي، وغيرهم. توفي سنة ستين. وقيل توفي سنة بضع وخمسين. (انظر: سير الأعلام، ج2/ص481)

[4] صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني، ج1، رقم 157

[5] صحيح مسلم، رقم2593

كـــثيراً ما نسمع هذه الأيام ـ للأسفـ أنّ فلاناً من الطُّلّاب قد كره مدرسته، أو فُصل من كليته، أو فشل في دراسته الجامعيّة بسبب عدم لباقته في تعامله مع مـــُعَلِّمه، فنرى بعــض الطُّلّاب لا يظهرون احترامهم وتقديرهم لمـــُعَلِّمهم، وبعضهم يتجرّؤون على تخطئة مدرِّســـيهم أو مـــشرفيهم واتِّهـــامهم بعدم المعرفة، أقول لهؤلاء انهم هم الخاسرون، وانهم يحفرون قبور فشلهم بأيديهم.

فقد قال الخليل بن أحمد: "إذا أخطأ بحضرتك من تَعلمُ انه يأنف من إرشادك فلا ترد على خطئه، لأنّك إذا نبَّهته على خطئه أسرعت إفادته واكتسبت عداوته"[1].

وعن ميمون بن مهران [2]قال : " لاتُمارِ عالماً ولا جاهلاً، فإنك اذا ماريْتَ عالماً خزن عــنك علمه، وإن ماريْتَ جاهلاً خشن بصدرك"، وقال أيضاً "لا تمارِ من هو أعلم منك فإذا فعلت ذلك خَزَنَ[3] عنك علمَه ولا تضرُّه شيئاً"[4].

ولقد حصل في سيرة السَّلَف ما يدلُّ على أنّ الصَّغير ـأحياناًـ يستدرك على الكبير، ويعلم مالا يعلمه الكبير، ولكن لم يحمله ذلك على أن يتجاوز قدره، أو أن لا يعرِف لمشرفه ومـــُعَلِّمه حقّه وفضله.

تأكـــيداً علـــى أهمِّيّة اللباقة والكياسة ومراعاة ظروف العالمـ الشَّيْخ أو المـــُعَلِّم أو المشرفـ أذكر ما قاله عليٌّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ في حقِّ العالم على طالب العلم: "إنّ من حقّ العـــالم ألاّ تكثر عليه بالسّؤال، ولا تُعْنِتَه في الجوابِ، وأن لا تلحَّ عليه إذا كَسُلَ، ولا تأخذَ

[1] جامع بيان العلم وفضله 127\1

2 هـــو ميمون بن مهران الرقي، أبو أيوب، فقيه من القضاة، كان مولى لامرأة بالكوفة، وأعتقته، فنشأ فيها، ثم استوطن الرقة (من بلاد الجزيرة الفراتية) فكان عالم الجزيرة، وسيدها. واستعمله عمر بن عبد العزيز علـــى خـــراجها وقضائها. وكان على مقدمة الجند الشامي، مع معاوية بن هشام بن عبد الملك، لما عبر البحـــر غازيـــا إلى قبرس، سنة 108 هـــ، وكان ثقة في الحديث، كثير العبادة. توفي 117 هـــ (انظر: الأعلام للزركلي (7/ 342))

[3] أقرب المعاني إليها ما في مختار الصحاح (ص: 196):خَزَنَ السر كتمه.

[4] جامع بيان العلم وفضله 129\1

بثوبه إذا نهض، ولا تُفْشِيَنّ له سرًّا، ولا تغتابْن عنده أحداً، ولا تطلبَنّ عثرتَه، وإن زلّ قبلْتَ معذرتَــهُ، وعلــيك أن توقّرَه وتعظّمَه لله _ما دام يحفظُ أمرَ الله _، ولا تجلسَ أمامَه، وإن كانَتْ له حاجةٌ سبقْتَ القومَ إلى خدمته"[1].

الطَّريقةُ الإسْلامِيَّة لتحصيل العلم النَّافع

إن طرائقَ وأساليبَ تحصيلِ العلمِ النّافعِ متعدّدةٌ ومختلفة بتعدد واختلاف خلفية طالب العلم الدِّينيّة، والثَقَافيّة، والاِجْتِمَاعيّة، والأَكَاديْمِيّة ،والنَّفسية، إضافة إلى خلفيته الاقْتِصاديَّة والسّياسيّة على حدٌّ سواء.

كما تتأثَرُ طرائقُ وأساليبُ تحصيلِ طالبِ العلمِ للعلمِ والمعرفةِ النافعتين بمصادر العلمِ الّــتي يــستخدمُها في تحصيله العلميّ، فطريّقةُ تحصيلِ العلمِ من الكتب، تختلفُ عنْ طريقة تحصيلِ العلمِ من المــُعَلّم، وكلا هاتين الطريقتين تختلفان عن طريقة تحصيلِ العلمِ مِن مواقعِ الإنترنت، ولكلٍّ طريقةٍ من هذه الطرائقِ إيجابياتُها وسلبياتها.

الناظــرُ في واقع الطالبِ العربيّ وطرائقِ وأساليبِ تحصيله للعلم، يجدُ أنّ الأمرَ مختلطٌ ومــشوّهٌ لدى بعضِ الطُّلّاب، وتقليديٌّ لدى بعضهم الآخر، فمنهم مَنْ يعقلُها ولا يتوكلُ، ومنهم مَنْ يتوكلُ ولا يعقلُها، ومنهم من يعتمدُ االطَّرِيْقَة الأَكَاديْمِيّةَ الغَرْبِيّةَ البحتةَ في كسبه للمعلــومةِ مــتجاهلاً أو مهملاً للطريقة الإسْلاميَّة في التحصيل العلميّ، لهذا نجدُ الطالبَ العربيّ، لاسيما الذي يدرس في بيئةٍ أَكَاديْمِيّةٍ غَرْبِيّةٍ، يقعُ ضحيةَ العَلْمانِيّةِ الغَرْبِيّةِ، فيفشلُ في دراسته أو يتأخرُ في تخرُّجه بعد معاناة لايعلمُها إلا اللّه ﷻ، أما الطالبُ العربيُّ الذي يدرسُ في بيــئةٍ أكاديمــيَّةٍ عربيّةٍ يقعُ ضحيةً التَّقْلِيْد الأعمى للعَلْمَانِيّةِ الغَرْبِيّةِ من جهة، وسوء نظام تَعْلِيْمِيّ من جهة أخرى، إلا من رحم ربي.

---

[1] جامع بيان العلم وفضله 1\129

انـــه واقع مؤسف، ومحزن، وكئيب، يستدعي النهوض واليقظة الفورية على صعيد الطالب الـــمُتَعَلِّم، والـــمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيَّة المسؤولة عن وضع وإِدَارَة ومتابعة النظام التَّعْلِيْميّ الـــذي يخضع له هذا الطالب العربيّ الحزين المكتئب االتائه المخدوع، وبدوري أقدم للطالب العـــربيّ التائه المسكين طريقة فعّالة ـ إن شاء اللّه ـ لتحصيل العلم النافع الذي فيه سعادته في الدُّنـــيا والآخرة، انها الطريقة الإسْلامِيَّة الّتي تشمل كافّة الطرائق والأساليب الّتي تساعد على كسب العلم والمعرفة.

إن الطَّـــرِيْقَة الإسْـــلامِيَّة في تحصيل العلم النافع لها ثلاثة جوانب : جانب روحي، وجانب عقليّ، وجانب عملي. تعمل هذه الجوانب مجتمعة بتفاعل عميق، إذ أن كل جانب يحث الجانب الآخر أن يقوم بدوره ويذّكره إذا غفل أو قصَّر بذلك، فنتاج التحصيل العلميّ هو نتاج هذه العمليّة ذات الجوانب أو الأبعاد الثلاثة.

أولاً: الجانب الرُّوحيّ

إن الأصـــل في هذه الحياة توحيد اللّه وعبادته وفقاً للكتاب والسّنّة، قال اللّه تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [محمّد:56]. فأي أمر أو عمل يقوم به العبد هو تجسيد لهذه القاعدة، وله بعد دِيْنِيّ، وفي مقدمتها طلب العلم وتحصيله.

أ) النية والإخلاص في طلب العلم

قبل الشروع في الدِّراسة، أو القيام بأي نشاط علميّ، أو حل أي مسألة أو مُعْضِلَة علميّة، أو تقديم أي بحث علميّ، ينبغي على طالب العلم أن يعقد ويخلص النية بصدق بأن كل ما سيدرسه أو سيَتَعَلَّمُه هو في أول المطاف وآخره إعلاء لكلمة اللّه وحده، ومرضاة له سبحانه وتعالى، وليس لطلب السمعة والشهرة ولمرضاة النَّاس، بهذا يكون قد تقرَّب من اللّـــه، وبالتقـــرب من اللّه، تحلُّ البركة، وينشرح الصدر للدراسة، ويتفتح الذِّهْن للفهم، وينشط الفكر للتَّعَلُّمِ، ويبدأ العقل بتخزين وحفظ المعلومة، بإذن اللّه.

ب) تقوى اللّه وطاعته والإبتعاد عن المعاصي في طلب العلم

الــشرط الثاني لتحصيل العلم هو أن يتقى ويخشى الطالبُ اللّهَ في تعلّمه وتعامله مع المعلــومة، ســواء كان مصدرها من الكتاب أو من المــعَلّم أو من مواقع الإنترنت، وأن يعرض عن الذنوب ويتجنّب ارتكاب المعاصي، فبتقوى اللّه يتخلص ويخرج الطالب من كل ضيق أو صعوبة أو كرب هو فيه، قال اللّه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقــرة:282]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:2-3]، وبالابتعاد عن المعاصي وتجنّب ارتكاب الذنوب والخطايا، يستنير القلب، ويَصفُ العقل للدراسة وللتَّعَلُّم.

فإذا اشتكى الطالب من كثرة النسيان، وقلة الحفظ، فليراجع نفسه، ويتحقق فيما إذا ارتكب ذنباً بحق اللّه ﷻ، فكان سبباً في سد طرق العلم أمامه، فعن عبد اللّه ابْن مسعود رضي الله عنه انه قال: "إني لأحسب الرجل ينسى العلم قد علمه بالذنب يعمله"[1]، وقال ابْن قيمّ الجَوْزيّة رحمــه اللّــه في عقوبات المعاصي: " انها تعمي بصيرة القلب، وتَطْمِسُ نوره، وتسد طرق العلم، وتَحْجُبُ موارد الهداية"[2]. وفي هذا المقام يقول الإمام الشافعي رحمه اللّه:

شكوتُ إلى وكيعٍ[3] سُوءَ حِفظي فأرشدَني إلى تــركِ المعَــاصي
وأخــبَرني بأنَّ العِــلمَ نُــورُ ونُورُ اللّه لا يُــهدى لــعاصــي

---

[1] جامع بيان العلم وفضله ج1،ص196

[2] الداء والدواء لإبن قيمّ الجوزية، ص115

[3] هو وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي، أبو سفيان، كان محدث العراق في عصره، ولد بالكوفة سنة 129 ه وتوفي سنة 197ه

ت) الدعاء والتوسّل إلى الله تعالى في طلب العلم

الـــشرط الثالث لتحصيل العلم وفقاً للطريقة الإسْلاميَّة هو الدعاء، لأنّه سلاح فتاك يـــستخدمه الطالب في السراء والضراء، ففي السراء، يدعو اللّه ﷻ أن يزيده علماً وفهماً، يقول اللّه تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:114]، وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ، قَالَ:" كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا"[1].

أمـــا إذا ضاقَت الدُّنيا بما رَحُبَتْ أمامَ طالبِ العلمِ، وواجهَ مُعْضلَةً علميّة أو مـــُعَلّماً غـــيرَ عـــادلٍ أو حاقداً أو عنصرياً، هنا يلجأُ إلى سلاحه الفتاك، ويسلّه على مَن يقفُ أمامَ تحـــصيله العلمـــيّ، انـــه دعاءُ الحيِّ القيومِ، علّامِ الغُيُوبِ لإنقاذه ونجدته، قال اللّه سبحانه وتعـــالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقـــرة:186]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافـــر:60]،فإذا كانَتْ معضلةٌ علميّة، يقول شيخُ الإسلام ابْن تيميةَ ـــرحمه اللّه_ الذي كـــان يقـــول عـــندما يواجهُ مسألةً صعبةَ الحلّ: "ربما طالعت على الآية الواحدة نحوَ مئة تفسير، ثم أسأل اللهّ تعالى الفهمَ، وأقول يا مـــُعَلِّم إبراهيمَ علِّمنِّي، وأقول يا مـــُعَلِّم إبراهيم فهّمنِّي، وكنتُ أذهبُ إلى المساجد المهجورةِ ونحوها، وأمرِّغ وجهي في التراب، وأدعو اللهّ أن يلهمنّي الصواب"[2]. أما إذا كان الأمرُ يتعلّق بمـــُعَلّم فرعونيّ، أو مشرفٍ عنصريٍّ، وأراد طالبُ العلمِ أنْ يدخلَ عليه، أنصحُه بدعاء كليمِ اللّهِ موسى ﷺ، إذ يقول فيه: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۞ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۞ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۞ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه:25-28]، كما أوصـــيه بقـــراءة هذا الدعاءِ العظيمِ كلّما دخل المدرسةَ أو الكُلِّيَّةِ أو الجامعة، أو أيَّ مكانٍ

[1] صحيح مسلم، رقم2722

[2] مكارم الأخلاق لابن تيمية ص15

يـــريدُ أن يخرجَ منه فائزاً أو منتصراً، يقول فيه: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:80]. لاشكّ أنّ هناك أدعيةً عظيمة أخرى يمكنُ للطالب أن يستخدمَها في تحصيله للعلم.

والجديـــرُ بالذّكْـــر هنا أنّ من شروطِ استجابة الدعاءِ أن يُصليَ العبدُ عُقَيْبَ سؤاله وطلبِ حاجته على النّبيّ محمّد ﷺ، فقد رُوي عن عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِب ﷺ، عن النّبيّ ﷺ قال: "كلُّ دُعاءٍ مَحجوبٌ حتى يُصلّى على النّبيّ ﷺ"[1]، وعن سَعيد بْنِ الـــمُسَيِّب ـــرحمه اللّه ـــ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ قَالَ: "إنّ الدُّعَاءِ مَوْقوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لاَيَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نبيِّكَ ﷺ"[2]. لذا أنصح طالبَ العلم أن يعتادَ على الصّلاة على نبيّنا محمّد رســـولِ اللّه ﷺ عقبَ كلِّ دعاء يدعو اللّه ﷻ به، فبها يحصل على مايريد، ويُبارك في علمه وتعلُّمه.

ث) الذّكرُ والاستِغفَارُ ودَورَهُما في تَحْصيل العلْمِ

الـــشرط الرابع لتحصيل العلم كثرةُ الذّكْر، لما للذكر من فضائلَ كثيرةٍ، وما جاء في التـــرغيب إلـــيه في القـــرآن الكـــريم دليلٌ واضح على عظم الأجر لفاعله، قال اللّه ﷻ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت:45] أي: 'أكبر مما سوّاه من الأعمال الصالحة'[3]، وقال اللّه ﷻ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:152]، وقال اللّـــه ﷻ: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأنفـــال:45]، وقـــال اللّه ﷻ:

---

[1] صحيح الجامع الصغير للألباني، ج2/رقم4523

[2] سنن الترمذي، رقم486

[3] تحفة الذاكرين، للشوكاني، ص17

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد:28]، وقال الله ﷻ : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:35]، وغيرها من الآيات الكريمة.

وفي الترغيب في الإكثار من ذكر اللّه سبحانه وتعالى سرّاً وجهراً والمداومة عليه، روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، فإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِه، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُ، وَإِنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْه ذِرَاعًا، وَإِنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، اقتَرَبْتُ إِلَيْه بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"[1].

وعن أبي الدرداء ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: "عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ»؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى» قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: «مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ» "[2].

والمراد به هنا الإكثار من التلفُّظ باللسان جهراً أو الذكر بالقلب سراً لما ورد الترغيب في قوله مثل: الباقيات الصالحات وهي 'سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر' وما يلْحَق بها من الحوقلة، والبسملة، والحسبلة، والاستغفار، ونحو ذلك.

اخترت الذِّكْر بشَكْلٍ عام والاستغفارَ بشَكْلٍ خاص، لأن طالب العلم وغيرَه بأمسّ الحاجة لهما، لما فيهما من خير الدُّنيا والآخرة. فبالذِّكْر والاستغفار يرضى عليه الرحمنُ الرحيم، السميعُ العليّم، الفعّال لمايريد، وإذا رضي عليه الحيُّ القيوم، كان معه أينما حلَّ وارتحل، يرزقُه من حيث لايحتسبُ، ويقضي حاجته مهما كانَتْ عظيمة أو صعبةَ المنال، ولايعذِّبه، بل ينصرُه ويحقق له كل حاجاته ورغباته مالم تتعارضْ مع الشرع.

[1] صحيح مسلم، رقم2675

[2] صحيح الترغيب والترهيب، للألباني، ج2/رقم1493

قال اللّه تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ انه كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ انهارًا ﴾[نوح: 10-12]. وقال سبحانه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال:33]. وقال سبحانه تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾[هود:3].

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ انه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "وَاللَّهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً "[1]. فإذا كان الرّسول ﷺ يستغفر اللّه سبحان وتعالى أكثر من سبعين مرة في اليوم والليلة، فأحرى بنا جميعا أن نكثر من الاستغفار، ولاسيِّما طالبُ العلم إذا أراد أن يزيده اللّه ﷻ علما، وأن يباركَ في مسعاه.

ثانياً: الجَانبُ العقليّ

ذكر الحافظ ابْنُ الجَوْزِيّ رحمه اللّه أقوالاً جميلة في ماهيَّة العقل، أذكرها هنا للفائدة:" عن أحمد بن حنبل انه قال: العقل غريزة، وروي عن الحارث المحاسبي انه قال: هو نور، وقال قوم: هو نوع من العلوم الضّروريّة، وهو العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وقال آخرون: هو جوهر بسيط، وقال آخرون: هو جسم شفاف، وسئل أعرابي عن العقل فقال: لب اغتنمته بتجريب"[2].

لكن مهما كانَتْ ماهيَّته، فنعمةُ العقل _ بعد نعمة الإيمان باللّه الواحد الأحد_ من أفضل النعم الّتي وهبها اللّه سبحان وتعالى للإنسان، وميَّزه بها عن كافَّة مخلوقاته في هذه الدُّنيا الفانية، فبالعقل نميُّز بين العاقل والمجنون أو بين العاقل والأحمق، وبالعقل يميِّز العبد بين

[1] صحيح البخاري، رقم 6307

[2] أخبار الأذكياء لإبن الجوزي،ص13

الخير والشر، وبالعقل يعبد ربَّه ويخشاه، وبالعقل يجاهد الشّيطانَ ويحاربه، وبالعقل يكتسب العلمَ والمعرفة.

إن االطَّرِيْقَة الإسْلامِيَّة لتحصيل العلم النافع بعمقٍ وفعّالية تفرض على طالب العلم أن يكون صافيَ البال لايشغلُه همٌّ ولا غم، وأن يكون حادَّ الذِّهْنِ مستعداً لاكتساب المعلومة، ونـــشيطَ العقـــل حاذقاً يفهم ويتعلم الأمرَ في زمنٍ قصير، وأن يكون يقظاً ومتيقظاً للفكرِ والتَّفْكِيْـــر، وأن يكون متحمساً للكشف والاستكشاف، وأن يكونَ محرِّكُ الخيالِ والتخيل لديـــه شـــغّالاً عاملاً لتوليد وتطوير الأفكار والآراء، وبهذا تكون جاهزيتُه العقليّة والذِّهْنية والفِكْرِيّة حادةً متجاوبة فعّالة تُسهِّل عَمَلِيَّة الفهم والاستيعابِ والحفظ والتَّعَلُّم في آنٍ واحد.

للعقـــل آلـــياتٌ يـــستخدمها في عَمَلِيَّة التَّعَلُّم، واستراتيجياتٌ يستعملها في ترسيخ وحفـــظِ المعلـــومة، ومـــولداتٌ ذهنية وفِكْرِيّة تساعد الـــمُتَعَلِّمَ في عَمَلِيَّة توليد الأفكار وتطويرها، أذكرُ منها مايلي:

أ– مولدات اندفاعية غرضية/مُتَكَامِلة في طلب العلم

إن آلـــيةَ الاندفاعيةِ العقليّة_ سواءً كانَتْ اندفاعيةً غرضيّة أم اندفاعيّة مُتَكَامِلة_ من أهـــمّ الآلـــيات العقليّة الّتي تساعد على تحصيل العلم، فهناك طالبٌ يندفع لتحصيل العلم بغـــرض النجاح في الاختبار، أو في مقابلة من أجل عملٍ ما، أو من أجل غرض ما، وهناك طالـــبٌ يـــندفع للـــتَّعَلُّمِ ليس من أجل النجاح بالاختبار فحسبَ (غَرَضِيَّةٌ) بل من أجل الاستفادة مما تعلّمه في حياته العلميّة والعمليّة المستقبليَّة أيضاً (تَكَامُلِيَّةٌ).

هذا النوع من الاندفاعية المـــُتكاملة، وهذا النوعُ من التَّعَلُّمِ المـــُتَكَامِل يحصل عليه الطالـــب الذي يتبنى الطَّرِيْقَةَ الإسْلامِيَّة في تحصيله للعلم، فقد روي عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ عبدِ اللّـــه بـــنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «اغْدُ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا أَوْ مُسْتَمِعًا، وَلَا تَكُنِ الرَّابِعَ فَتَهْلِكَ»[1]

[1] سنن الدارمي (253/1)

ب- آلية الكشف والاستكشاف في طلب العلم

إن حب الكشف والاستكشاف عن حقائق الأمور غريزة عقليّة فِكْرِيّة، يستخدمها طالب العلم في كسبه للمعلومات، وتحصيله للعلم بشَكْلٍ يتناسب مع مستواه العقليّ ونموِّه الفِكْرِيّ.

كـــان أُسْلُوْبُ رسولِ اللّه ﷺ في حديثه لأصحابه يُعَزِّز آليةَ الاكتشاف عندهم ويثير حــــبَّ المعرفةِ لديهم، لأن ذلك أوضحُ لهم، وأمكَنُ لهم في عَمَلِيَّة الحفظ والفهم، وهذا أمرٌ واضح في حديث مَعْبَدِ بْنِ كَعْب بْنِ مَالك، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْن رِبْعِيٍّ[1] ﷺ، انه كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُـــولَ اللَّـــهِ ﷺ مُرَّ عَلَيْه بِجَنَازَة فَقَالَ "مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ". قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّه مَا الْمُـــسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ فَقَالَ:"الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنيا، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلاَدُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ"[2].

وعَـــنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ انه قَالَ:"رَغِمَ أَنْفُه، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُه، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُه". قـــيلَ مَنْ يَارَسُولَ اللَّهِ قَالَ: "مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْه عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا، ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ"[3].

بغـــضّ النَّظَـــر عـــن معنى الحديث وبعده الشَرْعِيّ أو الفقهي، وبقراءة عميقة للبعد التَّعْلِيْمِـــيّ للحـــديث، نجد أن الأُسْلُوْب الذي اتبعه الصَّحابة الكرام في كسب المعلومة من الرَّسول ﷺ أساسه غريزة حب الاكتشاف لديهم ومعرفتهم مراد قول الرَّسول المـــُعَلِّم ﷺ كمـــا لا ينبغـــي لنا أن نغفل عنصر التشويق والإثارة، بهذا الأسلوب في الطرح الغامض، والتكريـــر لجملة: "رَغِمَ أَنْفُه" ثلاثا، وهي بين الإخبار والدعاء... فكأني بالموقف نحن أمام

[1] هو الحارث بنُ ربعي، أبو قَتَادة الأنصاري السلمي، فارسُ رسول اللّه ﷺ، شهد أحداً، والحُديبِيَة، وله عدة أحاديث. مات سنة 54 هـــ وهو ابنُ سبعين سنة؛ وكأنه ابنُ خمس عشرةَ سنة. (أنظر: سير الأعلام، ج2/ ص339)

[2] صحيح مسلم، رقم 950

[3] صحيح مسلم، رقم2551

تفـــريغ نفـــسي مـــن كل ما يشغل النَّفس ويحررها لغرض واحد، وفي وسط من الخوف والوجل من أن يكون هذا الذي "رَغِمَ أَنْفُه" هو السامع نفسه، ففي ظل هذه التهيئة النَّفسية لك أن تتصور مدى التأثر ومدى التفاعل، ومن قبل مدى اكتساب المعلومة. ومن هنا نحن ندعـــو إلى رصـــد الأســـاليب التعليمـــية لدى رسولنا الكريم وربطها بالأساليب التَّربويّة والتقنيات التعليمية الحديثة، لتأخذ مساراتها الحضارية في بناء الإنسان والبشريّة .

ت- آلية الفكر والتَّفْكِيْر النَّقْدِيّ في طلب العلم

أكّـــدتِ الشريعةُ الإسْلاميَّة على أهمّية مبدأ الفكر والتّفكّر والنَّظَر والتَّأمل والتَّدَبُّر في تكثيرِ العلم، وتنوير القلب، وتعريف العبد بربِّه حتى يصلَ إلى الإيمان بوحدانية الخالق، وإلى عـــبادة اللّـــه الأحـــد حـــقَّ عبادته، قال اللّه تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يـــونس:101]، وقال اللّه ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[آل عمران:191]، وقال اللّه ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[النساء:82] .

لذلك ينبغي على طالب العلم أن يعتمدَ في كسبه للعلم وتعامله مع الأشياء والأمورِ علـــى آلـــيةِ فكـــرٍ وتفكير تقوم على أساسٍ شَرْعِيّ من حيث المبدأ، وعَقلانيٍّ من حيثُ اســـتخدامُه لعناصـــر الفكـــر والتَّفْكِيْر النَّقْدِيّ من تحديدٍ للغرض، وطرح للسّؤال، وجمع للمعلـــومات، واعـــتماد للمفاهيم، واستنباط للاستنتاجات، وافتراض للفرضيات، والنَّظَرِ بالتَّدَاعِيَات، ودراسةِ وجهات النَّظَر المتعدّدة والمختلفة بما له صلةٌ بموضوع النّقاش، وتطبيقه لمعاييرِ التَّفْكِيْر النَّقْدِيّ من وضوحٍ، وصحة، ودقة، وعمق، وشموليّة، ومنطقيّة، وأهمّية، وعدمِ الانحياز، والموضوعيّة ومدى صلته بموضوع النّقاش.

إن النَّظَـــر بعمقٍ في حيثيات الأمور، والتّفكّر والتدبُّر في ظواهرِ ومضامين المسائل، وعملـــياتِ النقد والتحليل لأبعاد الأمور وخلفياتها تُعدُّ من أهمّ الإستراتيجيات العقليّة الّتي

يستخدمها الطالبُ في كسبه للعلم بعمقٍ وفعّالية، فبها يُعَزِّز الفهم، ويثبِّت الحفظَ، ويحصل التَّعَلُّم. لذا ينبغي على الـــمُتَعَلِّم أن يُكثرَ من االتَّفْكيْر والتحليل، والأخذ والرد في أية مسألة تُطرح عليه حتى تتضحَ الفكرةُ، وتحصل الفائدة، وتظهر الحكمة.

ثالثاً: الجانب العمليّ

كـــثيرٌ من الطُّلّاب يعتقد أن الذهاب إلى المدرَسَةِ أو الكُلِّيَّة أو الجامعة، والسَّماعَ لما يقـــوله أو يكتـــبه المـــعَلِّم على السَّبُّوْرَة، هو كافٍ لتحصيل العلم، ولا حاجةَ لدراسةٍ أو مذاكـــرةِ مـــا أخذه أو سمعه أو كتبه، وكثير من التربويّين ــ تقليداً لما يجري في المؤسَّسات التَّعْليْميّة الغَرْبيّةــ يتوقفون عن ترويج ثقافةِ المذاكرة بين طلابهم، معتبرين أن الوقت الذي يقضيه الطالب في الـــمُؤسَّسة التَّعْليْميَّة هو كافٍ له لاكتساب المعلومة، ولا حاجةَ لإعطائه واجباتٍ منزليةً لتعزيز ما أخذه من علم في المدرسة أو الكُلِّيَّة أو الجامعة.

هـــذا اعتقاد خاطئ وفاسد ظهرت مؤخراً دلائله في معظم مدارس المرحلة الابتدائيّة في بـــريطانية، إذ تبـــيَّن أنَّ هـــناك فروقاتٍ أَكَاديْميّةً جلّية بين أداء الطُّلّاب الذين يُعَزِّزون تعلُّمَهـــم المدرسي بالدِّراسة والمتابعة المنزلية، وبين الطُّلّاب الذين لايدرسون في بيوتهم أو لا يقومون بأية نشاطات تَعْليْمِيّة بعد رجوعهم من المدرسة، مما حدا بأولياء الأمور أن يقوموا بدور المدرس الخصوصيِّ في متابعتهم للعَمَلِيَّة التَّعْليْميّة لأولادهم وهم في بيوتهم.

لذا أقول: إنّ الجانبَ العمليّ للطريقة الإسْلاميَّة في تحصيل العلم هو جزءٌ أساسيٌ في تعزيـــز عَمَلِيَّة التَّعَلُّم عند الطالب، ويُعَدُّ جانباً مكملاً للجانبين الرُّوحيّ والعقليّ، فبه يتأكّد الـــمُـــتَعَلِّمُ مِنْ تعلُّمه، وبه يتثبّتِ الطالبُ من علمه، لأنّه لا يحصل علمٌ بدون دراسة، ولا تعلُّمٌ بدون مذاكرة، ولا قيمةَ للعلم بدون عمل.

فعن عليٍّ بنِ أبي طالب ﷺ انه قال: "يا حَمَلَة العلم، اعملوا به، فإنما العالِمُ من عمل بما علم، ووافق عملُه علمَه"[1]، وعن مطر بن طهمان الوراق[2] انه قال: " خيرُ العلمِ ما نفع، وإنمـــا ينفع اللّه بالعلم من علمه ثم عمل به، ولا ينفع به من علمه ثم تركه"[3]، وعن سُفيانَ الـــثوريّ رحمه اللّه انه قال: "إن أنا عملتُ بما أعلمُ فأنا أعلمُ النَّاس، وإن لم أعمل بما أعلم فليس في الدُّنيا أحدٌ أجهلُ منِّي"[4].

هناك نشاطاتٌ عديدة يمكن لطالب العلم أن يقوم بها لتعزيز عَمَلِيَّة التَّعَلُّم لديه، أذكر منها مايلي:

أ- نشاطات دراسيّة

إن الجانـــب العملـــيّ لعَمَلِيَّة التَّعَلُّم بعمقٍ وفعّالية تَظهر جليةً واضحة في النشاطات التَّعْلِيْمِيّة الّتي يتعرض إليها الـــمُتَعَلِّمُ وهو على مقعد الدِّراسة، سواءً كانَتْ هذه النشاطاتُ سمعـــيةً، أو بصرية أو تجريبية، فبقدر مايشارك في هذه النشاطات يحصل عنده التَّعَلُّمُ العميق، والفهم السديد، والحفظ المديد، للمعلومة الجديدة.

فعلـــى ســـبيلِ المثال، ينبغي على طالب العلم كتابةُ ما يقوله المـــُعَلِّم أو المحاضر في الفصل الدرسي، لأن الكتابة تقييدٌ للعلم، فعن شرحبيل بن سعد قال: جمع الحسن بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهما بنيه وبني أخيه فقال:"يا بنيّ! إنكم اليوم صغارُ قومٍ، أوشك أن تكونـــوا كـــبارَ قوم، فعليكم بالعلم، فمن لم يحفظ منكم؛ فليكتبه"[5]. أي يقوم الطالبُ

---

[1] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1/ص89

[2] هـــو االإمـــام الـــزاهد الصادق، أبو رجاء بن طَهمان الخُراساني، نزيل البصرة، مولى عِلباء بن أحمر اليَشكُري. كان من العلماء العاملين، وكان يكتب المصاحف، ويُتقِنُ ذلك. توفي سنة 129 هـــ. (انظر: سير الأعلام، ج5/ص452)

[3] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1/ص90

[4] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع،ج1/ص90

[5] تقييد العلم للخطيب البغدادي، ص92

بتدوين الأفكارِ الرّئيسة لفهم موضوع الدرس أو المحاضرة، وأخذ الملاحظات الّتي لها علاقةٌ بالأفكـــار الرّئيـــسة للموضوع، ليس لتحقيق الفائدةِ الفورية من الكتابة فقط، بل ليكون مرجعاً لديه أيضاً، ولاسيَّما إذا أراد مذاكرته في المستقبل.

ب- مُذَاكَرَةٌ فرديَّة أو جَمَاعيَّةٌ

المذاكـــرةُ نشاطٌ دراسيّ تَعلميّ عَمَلِيّ مهُمٌّ يقوم به الـــمُتَعَلِّمُ من أجل تعزيزِ فهم واستيعاب المعلومةِ، وتسهيلِ حفظ المعلومة، وتثبيتِ المحفوظِ من المعلومة، وتفعيل المعلومة، الّتي بدورها تساعد على توليد معلوماتٍ وأفكارٍ أخرى تزيد وتُكْثِر علمَ الطالب.

ففـــي المذاكـــرة وأهمّيتها، يقولُ ابْنُ جَمَاعَةَ الْكِنَانِيّ رحمه اللّه: "وينبغي أن يتذاكر مواظـــبو مجلسِ الشَّيْخ ما وقع فيه من الفوائد والضوابط والقواعد وغير ذلك، وأن يعيدوا كـــلام الشَّيْخ فيما بينهم، فإن في المذاكرة نفعاً عظيماً، وينبغي المذاكرة في ذلك عند القيام مـــن مجلسه قبل تفرق أذهانهم، وتشتت خواطرهم، وشذوذ بعض ماسمعوه عن أفهامهم، ثم يتذاكـــرونه في بعض الأوقات"[1]. والجدير بالذِّكْر أن المقصود من عبارة "مجلس الشَّيْخ" هو أي درس أو حلقـــة علـــم أو محاضرة سواءً كان المتكلم مـــعَلِّماً في مدرسة، أو محاضراً في كلية أو أستاذاً في جامعة.

والمذاكرة نوعان: مذاكرةٌ فرديَّة ومذاكرة جماعية: في المذاكرة الفرديّة يقوم الطالبُ نفسُه بمراجعةِ ودراسة وتعلُّم ما أخذه أو دوَّنه أو سمعه من مـــعَلِّمه بنفسه، إذا لم يجد أقراناً يتذاكر معهم. قال ابْنُ جماعةَ الكنانيّ رحمه اللّه في مذاكرة الطالب مع نفسه: " فإن لم يجد الطالب من يذاكره ذاكر نفسه بنفسه وكرر معنى ماسمعه، ولفظه على قلبه ليعلق ذلك على خاطره، فإن تكرار المعنى على القلب كتكرار اللفظ على اللسان سواء بسواء"[2].

---

[1] تذكرة السامع والمتكلم في آدب العالم والمتعلم،ص133

[2] تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتعلم، ص135

أمـــا في المذاكـــرة الجماعـــية فيقوم طالبُ العلمِ مع رفيق له أو جماعة من الرفقاء الصالحين بمذاكرة ومراجعة ودراسة ما تمّ أخذُه أو كتابتُه أو سماعُه من المـــُعَلّم، فبالمذاكرة الجماعـــية الجادة المسؤولة يحصل التَّعَلُّمُ بعمقٍ وفعّالية، فقد روي عن علي بن أبي طالب ﷺ انه قال: " تزاوروا وتدارسوا الحديث، ولا تتركوه يَدْرُس[1]"[2]. وعن أبي سعيدِ الخُدْرِيِّ[3] ﷺ انه قال: "تحدّثوا وتذاكروا، فإن الحديث يُذكِّرُ بعضه بعضاً"[4]. وعن عبد اللّه بن عباس ﷺ قال: "إذا سمعتم منّي حديثاً فتذاكروه بينكم"[5].

أمـــا بالنسبة لأوقات الدِّراسة أو المذاكرة، فقد تعدّدتِ الآراء في أفضلها، فمنهم من يقـــول أفضلُها مذاكرةُ الليل، وبعضُهم يقول أفضلها عند طلوع الفجر، أقول : إن توقيت مذاكـــرة طالب العلم يعتمد على ظروفه الشّخصيّة أولاً، وعلى طبيعة ومزاجية تقبُّله للعلم والـــتَّعَلُّم ثانـــياً، لكن مهما كانَتْ ظروفه ومزاجيته لتقبل العلم، ينبغي عليه أن يحدد وقتاً كافياً للمذاكرة، ومن خلال تجربتي الشّخصيّة وجدت أن الساعات الأولى من طلوع الفجر يكون العقلُ فيها صافياً، والذِّهْنُ حادّاً، والقلبُ يقظاً، والصدر منشرحاً مسروراً، لاسيّما إذا بدأ الطالبُ مذاكرتَه بعد أدائه صلاةَ الفجرِ ثم دعائه للّه الحيِّ القيوم أن يَزيدَه علماً، وأن يُعيـــنَه علـــى فهم واستيعاب وتعلُّم مايريدُ مذاكرتَه. عندها يحصل التَّعَلُّمُ وتَحُلُّ البركةُ في الطالب وفي علمه، فعن صَخْرٍ الْغَامِدِيِّ ﷺ قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي

---

[1] درس: درسا ودروسا عفا وذهب أثره وتق، ودرس الثوب ونحوه أخلق وبلي. المعجم الوسيط (1/ 279)

[2] الجامع لأخلاق الراوي وآداي السامع، ص236

[3] هو الإمامُ المجاهدُ، مفتي المدينة، سعْد بن مالك الخزرجيّ. استُشهد أبوه مالك يومَ أُحد، وشَهد أبو سعيد الخندقَ، وبيعة الرضوان. وحدثَ عن النبي ﷺ، فأكثر وأطاب، وعن أبي بكر، وعمر، وطائفة، وكان أحدَ الفقهاء المجتهدين. مات سنة 74 هـــ.(انظر: سير الأعلام ج3/ص168)

[4] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ص237

[5] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السمع، ص237

يُكْـــورِهَا". قَالَ وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ وَكَانَ صَخْرٌ رَجُلاً تَاجِرًا وَكَانَ إِذَا بَعَثَ تِجَارَةً بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ فَأَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ"[1].

إضـــافةً لما ذكرتُه فيما يتعلّق بالمذاكرة، ينبغي على طالب العلم أيضاً أن يتعوّدَ على دراســةِ وتحــضيرِ مــا ســيأخذُه أو يدرسه مع مــعَلّمه قبل أنْ يذهبَ إلى قاعة الفصل، فالتحــضيرُ المــُسْبَقُ لأيَّةِ فعّاليةٍ أو نشاط تعلميّ يسهّل عَمَلِيَّة الاستيعاب والفهم والتَّعَلُّم، والله أعلم.

ت- نشاطات تطبيقيَّة

تؤكّدُ االطَّرِيْقَةُ الإسْلاميَّة في تحصيل العلم على أهمّية تطبيقِ العلم والعمل به، فلا قيمةَ للعلم إذا لم يُعمل به على المستويين الفرديّ والجماعيّ، فبالعمل تثبُت المعلومةُ، وبالعمل بما نعلـــمُ تحصلُ البركةُ والفائدة للفرد والجماعة معاً. فعن أبي عبدِ الرَّحمن السّلمي[2] انه قال: "حدَّثـــنا الّذين كانوا يُقرِئوننا القرآن كعثمانَ بنِ عفّانَ، وعبدِ الله بنِ مسعودٍ، وغيرِهما انهم كانوا إذا تعلّموا من النَّبيّ عشرَ آياتٍ، لم يتجاوزوها حتَّى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: "فتعلّمنا القرآنَ والعلم والعملَ جميعاً"[3].

إن التطبـــيقَ العملـــيّ لـــمَا يَتَعَلَّمُه طالب العلم يمكن أن يحصل بأساليب وأشكالٍ مخـــتلفة متعدّدة تتناسب مع مستوى الطالب التَّعْلِيْميّ، وطبيعة المادّة العلميّة المراد تطبيقها، فـــإذا كـــان الـــمُتَعَلِّم يحب ان يتعلم من خلال إجراءه التجارب، يمكنه أن يطبق تجارب اســتقرائية سواء في مادة علميّة أو أدبيّة، هذا الـــدّور من التطبيق العمليّ للمعلومة تشترك فيه جميع خصائص الجَوْدَة في التَّعَلُّم العميق الفعّال.

---

[1] سنن الترمذي، رقم 1212

[2] هـــو مقرئ الكوفة، الإمامُ العَلَمُ، عبدُ اللّه بن حبيب بن رُبَيِّعة الكوفي، من أولاد الصحابة؛ مولدُه في حياة النبـــيِّ ﷺ. قـــرأ القـــرآن، وجوّدَهُ، ومهر فيه، وعرض على عثمان فيما بلغنا؛ وعلى عليٍّ، وابن مسعود. وحدَّثَ عن عمر، وعثمان، وطائفة. توفي سنة 74هـــ. (انظر:سير الأعلام ج4/ص267)

[3] سير أعلام النبلاء للذهبي، ج4 /ص271

وإذا كان يحبُّ البحثَ والتحقيق واالنّقاش، يمكنه أن يطبّقَ دورَ الباحثِ في تعلُّمه، أي يتعلَّم بإجراء بحث علميّ بالتَّشاور والتَّفاعل مع المـُعَلِّم، فمثلاً لو أراد طالبٌ في المرحلة المتوسِّطة أو الثَّانويَّة تأديةَ هذا الـدّور لاستطاع بسهولة وعلى مستوى يتناسب مع فكره ونـشاطاته المدرسيَّة، فبدل أن يحفظَ حقائق تاريخيّةً غيباً في مادة التَّاريخ يقوم بإجراء بحث صـغيرٍ يتذكَّـر فـيه أسبابَ وأبعاد الحدث التاريخيّ معتمداً في ذلك على زياراته للمكتبة ومـراجعته الكتبَ المناسبةَ ومناقشته الحقائقَ مع زملائه ومـُعَلِّمه، ثمّ كتابتِها بشَكْلِ بحث صـغير. بهذا الـدّور يكون قد حقَّق الطَّالبُ جَوْدَة في تعلُّمه لأنّه قام بإجراء بحث يتطلّب جمعـاً للحقائق وتحليلها موضوعيَّاً، ونقدها ثمَّ التَّوصُّل إلى استنتاجات. كلُّ هذا يُعَزِّز من عَمَلِيَّة التَّعَلُّم العميقِ لديه.

وإذا كان يحبُّ النّقاش والجدال، يمكنه أن يطبّقَ دورَ المناقشِ المتفاعل، أي يتفاعلُ مع الآخـرين ويتناقش معهم ويطرح أسئلةً ويقترح حلولاً لمسائل وقضايا معروضةً للمناقشة، هـذا الـدّور، لـه أشكالُه المختلفة وطرقُه المتنوِّعة، فمنها ما يحصل بين شخصيّن، أو في مجمـوعة، أو في محاضـرة، أو ورشـة عمل، أو ما شابه ذلك من التَّفاعل بين الـمُتَعَلِّم والآخرين.

ينبغـي علـى طالب العلم أيضا أن يقومَ باستثمار معرفته السَّابقة في عَمَلِيَّة تحصيله للعلـم لأنَّ الاستفادةَ وتعلُّمَ مفاهيمَ وأفكارٍ جديدة لا بدَّ أن يكون لها صلةٌ بمفاهيمَ وأفكار قـد تعلَّمهـا سابقاً، لذا يجب على الطَّالب والمـُعَلِّم الاستفادةُ من الخبرات السَّابقة لدى الطَّالب حتى يبنيَ عليها ويحصُلَ التَّعَلُّم العميق الفعّال.

اختلاف أساليب تحصيل العلم لدى طلاب العلم

والجديـر بالذِّكْر هنا أنَّ طُّلابَ العلم يختلفون عن بعضهم بعضاً في أُسْلُوْب وطريقة اكتسابهم للمعلومة، فهناك:

1. طالبٌ سمعيٌّ صوتيٌّ بصريٌّ: أي يتعلّم هذا النّوع من الطُّلّاب باستخدامه حاسّتي السَّمعِ والبصر ومهارة التّكَلُّم.
2. طالـــبٌ كُلـــيٌّ/جُزئـــيٌّ: أي يتعلّم بعضُ الطُّلّاب بطريقة العرض الكُلِّيَّة دون (الدُّخـــول في الجزئيّات)، وبعضهم يحتاج إلى الدُّخول في جزئيّاتِ الأشياءِ أيْ تحليلِها إلى عناصرَ صغيرة.
3. طالـــبُ الْمقرَّر الدِّراسيّ/طالبٌ خارجَ الْمقرَّر الدِّراسيّ: أي هناك طالبٌ يتعلّم فقط ما يقرأه في الْمقرَّر وما يزوِّده به مدرِّسه، وهناك طالبٌ يتعلّم بطريقة حرَّة، أي يقرأ ويتعلّم من خارج الْمقرَّر الدِّراسيّ.
4. طالبٌ منكمش/طالبٌ منفتح: أي يميل الطّالبُ المنفتحُ إلى التَّعَلُّمِ بطريقة التَّفاعل مع الآخرين بعكس أُسْلُوْب الطّالب المنكمش.
5. إلى آخـــره مـــن أنواع وطرق وأساليبِ التَّعَلُّم واكتسابِ المعلومةِ الّتي لايمكن حصرُها هنا.

لا شكَّ أنَّ الطّالبَ يستخدم أكثر من أُسْلُوْبٍ في اكتسابه للمعلومة، لكنْ إذا أدرك المـــدرِّس والطّالب أنَّ هناك فروقاتٍ فرديَّةً بين الطُّلّاب ـليس في مستواهم العلميّ فحسب بـــل في طرقهم وأساليبهم في التَّعَلُّم ـ ساعد ذلك إلى رفع مستوى العمليّة التَّعْلِيْميّة وتحقيق جَوْدَة في التَّعَلُّم أيضاً.

نـــستدلُّ ممّا سبق ذكرُه أنَّ طالبَ العلمِ النّاجح له صفاتٌ وخصائصُ لا بدَّ أن يتميّز بها قبل أن يدعوَ نفسَه طالباً أو تلميذاً أو مُتعلِّماً، وتلخيصاً لهذه الصِّفاتِ والخصائصِ، أذكرُ لك أيُّها القارئ ما يقوله عليٌّ بنُ أبي طالب ﷺ في طالب العلم: "يا طالبَ العلمِ إنَّ العلمَ ذو فـــضائل كثيرة، فرأسُهُ التَّواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصِّدق، وحفظـــه الفحص، وقلبه حسن النيَّة، وعقله معرفة الأشياء والأمور الواجبة، ويده الرَّحمة، ورجلـــه زيارة العلماء، وهمّته السَّلامة، وحكمته الورع، ومستقرّه النَّجاة، وقائده العافية،

ومـركبه الـوفاء، وسـلاحه لينُ الكلمة، وسيفه الرِّضى، وقوسه المداراة، وجيشه محاورة العلمـاء، ومالـه الأدب، وذخيرته اجتناب الذّنوب، وزاده المعروف، وماؤه الـمُوَادَعة، ودليله الهدى، ورفيقُه صحبةُ الأخيار"[1].

وقـال الإمام الشّافعي[2] رحمه اللّه يُلخِّصُ لنا صفات طالب العلم الناجح ببيتين من الشعر الجميل:

أخـي لنْ تَنـال العلم إلاَّ بستَّـة　　　سـأُنبيـكَ عَنْ تَفْصيلَها بِبيانِ
ذَكاءٌ، وَحِـرْصٌ، واجتِهادٌ، وَبُلْغَـةٌ　　　وَصُحْبَـةُ أُسْتاذٍ، وطُولُ زَمَانِ

وأذكـر هنا الشروط التِّسعة الّتي يجب على طالب العلم أن يتحلّى بها كما ذكرها الماوردي في كتابه أدب الدُّنيا والدِّين[3]:

الأوَّل: العقل الّذي يُدرِكُ بهِ حقائق الأمور.

الثّاني: الفطنة الّتي يَتصوَّر بها غوامض العلوم.

والثّالث: الذّكاء الّذي يستقرُّ به حفظُ ما تصوَّره، وفهمُ ما عَلِمَه.

والرّابع: الرَّغبة الّتي يدوم بها الطّلب، ولا يُسرع إليه الملل.

والخامس: الاكتفاء بمادَّة تُغنيهِ عَن كَلَفِ الطّلبِ.

والسّادس: الفراغُ الّذي يكون معه التَّوفُّر، ويحصل منه الاستكثار.

والسّابع: عدمُ القواطع المذهلة من هموم، وأشغال، وأمراض.

والثّامن: طولُ العمر واتّساع المدَّة؛ لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال.

والتّاسع: الظّفرُ بعالِمٍ سَمِحٍ بِعلْمِه، مُتَأَنٍّ في تعليمهِ.

---

[1] الجامع لأخلاق الرّاوي آداب السّامع ج1/ص96

[2] ديوان الإمام الشّافعي، ص 116

[3] أدب الدنيا والدين لأبي الحسن الماوردي، ص 75

فلــو توفَّر لدينا_ أيُّها القارئ_ طلاباً يتحلّون بهذه الصِّفات والخصائص، ويعملون بــرغبة جامحـــةٍ وبجديّة واجتهاد، لحصلنا على جيلٍ متميّز لديه القدرةُ على التَّفْكِيْرِ الُحرِّ، والـــنَّقد البــنَّاء، والتَّحليل الدراسيّ، والتّخيُّل الإبداعيّ، والأخذِ والرَّدّ في القضايا والمسائلِ والتَّطْويْرِ وقَبُول التغيّر نحوَ الأفضل.

وللفائدة فاني راغب أنْ تقرأَ بعمقٍ وفعّاليةٍ هذه القصيدةَ الجامعةَ الشاملة لآداب طلبِ العلـــم، ولخـــصائصِ العمليّةِ التَّعْلِيْمِيَّة، وخصالِ طالبِ العلمِ الناجحِ، والتي يصفها ابن عبد البر القرطبي رحمه الله بأنها أحسن ما رأى في آداب التّعلم[1]:

واعلـــم بـــأنَّ العلـــم بالـــتَّعَلُّم ... والحفـــظ والإتقـــان والـــتَّفهُّم
والعلـــم قـــد يُـــرْزَقُه الـــصَّغيرُ ... في ســـنِّه ويُحْـــرَمُ الكـــبيرُ
فإنمـــا المـــرءُ بأصـــغريه ... لـــيس بـــرجليه ولا يديـــه
لـــسانه وقلـــبه المـــركب ... في صـــدره وذاك خلـــق عجـــب
والعلـــم بـــالفهم وبالمذاكـــرة ... والـــدَّرس والفكـــرة والمناظـــرة
فـــربَّ إنـــسان يـــنال الحفظـــا ... ويـــورد الـــنصّ ويحكـــي اللَّفظا
ومالـــه في غـــيره نـــصيب ... ممَّـــا حـــواه العـــالم الأديـــب
وربَّ ذي حـــرص شـــديد الحب ... للعلـــم والذِّكْـــر بلـــيد القلـــب
معجـــز في الحفـــظ والـــرواية ... ليـــست لـــه عمَّـــا روى حكاية
وآخـــر يعطـــى بـــلا اجـــتهاد ... حفظـــا لمـــا قـــد جاء في الإسناد
يهـــزّه بالقلـــب لا بناظـــره ... لـــيس بمـــضطرٍّ إلى قماطـــره
فالـــتمس العلم وأجمل في الطلب ... والعلـــم لا يحـــسن إلاَّ بـــالأدب
والأدب الـــنَّافع حـــسن السَّمت ... وفي كـــثير القـــول بعـــض المقت

[1] جامع بيان العلم لابن عبد البر القرطبي، ج1/ص146

فكـــن لحـــسن الصَّمت ما حييتا ... مقارفـــا تحمـــد مـــا بقيـــتا
وإن بـــدت بـــين أنـــاس مسألة ... معـــروفة في العلـــم أو مفـــتعلة
فـــلا تكـــن إلى الجـــواب سابقا ... حتَّـــى تـــرى غـــيرك فيها ناطقا
فكـــم رأيـــت من عجولٍ سابقٍ ... مـــن غـــير فهـــمٍ بالخطـــإ ناطق
أزرى بـــه ذالـــك في المجـــالس ... عـــند ذوي الألـــباب والتَّـــنافس
والـــصَّمت فـــاعلم بك حقّ أزين ... إن لم يكـــن عـــندك علـــم متقن
وقـــل إذا أعـــياك ذاك الأمـــر ... مـــالي بمـــا تـــسأل عـــنه خـــبر
فـــذاك شـــطر العلـــم عند العلما ... كـــذاك مازالـــت تقـــول الحكما
إيَّـــاك والعجـــب بفـــضل رأيكا ... واحـــذر جواب القول من خطائكا
كـــم مـــن جواب أعقب النَّدامة ... فاغتـــنم الـــصَّمت مـــع السَّلامة
العلـــم بحـــرٌ منـــتهاه يـــبعد ... لـــيس لـــه حـــد إلـــيه يقـــصد
ولـــيس كـــل العلـــم قد حويته ... أجـــل ولا العـــشر ولـــو أحصيته
ومـــا بقـــي علـــيك مـــنه أكثر ... ممـــا علمـــت والجـــواد يعثـــر
فكـــن لمـــا سمعـــته مـــستفهما ... إن أنـــت لاتفهـــم مـــنه الكلمـــا
القـــول قـــولان فقـــول تعقلـــه ... وآخـــــر تـــــسمعه فـــــتجهله
وكـــل قـــول فلـــه جـــواب ... يجمعـــه الـــباطل والـــصّواب
وللكـــــــلام أول وآخـــــــر ... فافهمهمـــا والـــذّهْن منك حاضر
لاتدفـــع القـــول ولاتـــرده ... حـــتى يـــؤديك إلى مابعـــده
فـــربما أعـــيى ذوي الفـــضائل ... جـــواب مايلقـــى مـــن المـــسائل
فيمـــسكوا بالـــصَّمت عن جوابه ... عـــند اعتـــراض الشك في صوابه
ولـــو يكـــون القـــول في القياس ... مـــن فـــضَّة بيـــضاء عـــند النَّاس
إذا لكان الصَّمت من خير الذّهب ... فـــافهم هـــداك الله آداب الطّلب

الفصل الرابع

المادّة العلميّة وجودتها

الفصل الرابع
المادّة العلميّة وجودتها

الواقع الحاليّ

كمـــا أن جسَدَ الإنسانِ يتأثَّرُ ضعفاً وقوَّة بحَسْب[1] ما يَدخُل إليه من أنواع الأطعمة والأغذيـــة، كـــذلك يتأثَّرُ الإنسانُ ببيئته الثَقَافيّةِ والفكْريّة والعلميّة سلباً وإيجاباً، فكلٌّ مِنْ عقلِـــه، وفِكرِه، وذوقه يتأثَّرُ ضعفاً وقوةً، استقامة وانحرافاً، حقاً وباطلاً بحسب ما يُلقي في وعـــاء رأســـه وقلـــبه مـــن علمٍ ومعرفة، وقيمٍ ومبادئَ وثقافاتٍ، وبالتالي فإن معتقداتِ، وأخلاقـــيّاتِ، وســـلوكياتِ، ومواقفَ الإنسانِ بكافّة أنواعها وأشكالها سواءٌ الموافقُ منها للحقّ أم الموافقُ للباطل ما هي إلا عبارةٌ عن نتاجِ العلم والمعرفة، والقيمِ والمبادئِ والمعتقدات الّتي كان قد تلقّاها من بيئته الثَقَافيّةِ أو البيئة العلميّة والفكْريّة الّتي تُحيطُ به من صِغَره، فإن كانَتْ خيراً فخيرٌ، وإن كانَتْ شراً فشرٌّ، فالوعاءُ ينضَحُ ما فيه، وما يُلْقَى فيه.

لـــذلك ظهـــرَ اهتمامٌ غيرُ مسبوقٍ بوسائلِ التَّلقّي المختلفة؛ المرئيِّ منها، والسمعيِّ، والمقـــروءِ مـــن أجل التأثير بعقلِ وقلب وذوقِ الإنسانِ، ليس لمصلحته في كلّ الأوقاتِ بل لهلاكـــه، فهـــا هي بعضُ القنواتِ التلفازيّة العربيّة-للأسف- تبثُّ شرورَ وسمومَ الإلحاد والإباحيَّةِ للمشاهدين، ويُضاف إليها وحشُ الإنترنتِ وما يُبَثُّ من شرورٍ تكادُ تقتل جميعَ أوقاتِ الإنسان في الحرام، وفيما يغلبُ ضررُه على نفعه، وكذلك المَنَاهجُ التَّعْليْميّة الدِّراسيّة القائمـــة علـــى تكريسِ مفاهيمِ الإلحادِ والإباحية، والّتي تُفرَض على الأبْناء والأجيالِ منذ المـــرحلة الابتدائـــيّة حـــتى يتعوَّد الطُّلّابُ على هذه المفاهيمِ، وإلى ما بعدَ المرحلة الجامعيّة، وغيرهـــا من الكمِّ الهائلِ من الدِّعايات والإعلانات الّتي تُزَيِّنُ الشَّرَّ وتُروِّج له، والّتي تُلاحق الإنسانَ في كلّ مكان وزمان.

[1] الحَسْبُ العَدُّ والإحْصاءُ والحَسَبُ ما عُدَّ (لسان العرب (310/1)

ومنذ بداية القرنِ الحادي والعشرين، ووزارتُ التَّربية والتَّعْليْم في معظمِ البلدانِ العربيّةِ في حَيْرَةٍ من أمرِها، فمنها من يتخبَّط في دوامة التّقليدِ والتبعيّة لما يحصل في مَنَاهِجِ المؤسَّساتِ التَّعْليْميّةِ الغَرْبِيّة، ومنها من يَشْرَعُ في التغيير لمجرد التغيير بدون دراية أو دراسة، ومنها من يخافُ مِنَ التغيير، فتتمسك بالغثِّ والسَّمين من مَنَاهِجِها التَّعْليْميّة، بل أحياناً تعارضُه وتحاربُه بشدّةٍ ولو كان في الاتجاهِ الصحيحِ.

تولَّدَ عنْ هذا الوضعِ المضطربِ نوعان من التربويّين الذين يقومون على سياسةِ التغيير في معظمِ البلادِ العربيّةِ فيما يتعلّق بتحسينِ وتطوير المَنَاهِجِ الدِّراسيّة في كافّة مراحل التَّعْليْم الأساسيّ وحتى في مرحلة الدارسة الجامعيّة:

النوع الأول: هم أناسٌ أنصافُ تربويّين يفضلون سياسةَ "القصّ واللصق" في عَمَليَّة التغـيير لتحسين مَنَاهِجِ التَّعْليْم في مؤسَّساتهم التَّعْليْميّة، فمنهم من يقصّ مِنْهاج تعليمِ مادّةِ اللغةِ الإنجليزيّةِ، على سبيلِ المثال، الذي يُدرَّس في مدرسة لتعليم اللغة الإنجليزيّة في بريطانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية، ويُلصقه كمِنْهاج لتعليم اللغة الإنجليزيّة في مدرسة حكومية في بلـد عـربيّ حيث يُطَبَّقُ المِنْهاج التَّعْليْميّ الوطنيُّ فيها، بدون أخذ أيِّ اعتبارٍ للفروقات البيئية والاجْتمَاعيّة والتَّعْليْميّة والطُّلّابية الّتي تميّزه عن غيره، فيحصل ردةُ فعلٍ سلبية، وفشلٌ لتدريس هذه المادّة.

ومـن هؤلاء من يُغيّر ويحوّل لغةَ المِنْهاج الدِّراسيّ في الـمُؤسَّسة التَّعْليْميّة من اللغة العربيّة إلى اللغة الإنجليزيّة ظناً منهم أنّ ذلك يجعلُ من الضعيف في اللغة الإنجليزيّة قويّاً فيها وذا مكانة اجْتمَاعيّة مرموقة، ومن الجاهل في العلوم الطبعيّة والكونية عالماً فيها، ومن الأحمق في أقـواله وأفعالـه عـاقلاً حكيماً فيها، ينطبق على هؤلاء ـ للأسف ـ قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقر: 61].

ومـن هـؤلاء من بالغ في التغيير، فتراهم يجلبون قِسماً علميّاً كاملاً من مؤسَّسة تَعْليْمِـيّة غَـرْبِيّة ويـضمّونه لبناء الـمُؤسَّسة التَّعْليْميّة الوطنية، حتى أن منهم من جلب

الـــمُؤَسَّـــسة التَّعْلِيْمِــيَّة الغَــرْبِيّة بكاملـــها، فبنوا الــمُؤَسَّسة التَّعْلِيْمِيّة، وأعطوها الاسم الأَكَادِيْمِــيّ الغَرْبِــيّ، ووظفــوا طاقم تدريسي غَرْبِيّ، واستخدوا مَنَاهِجَ تَعْلِيْمِيّةً غَرْبِيّةً ووضعوها جنباً إلى جنب مع الــمُؤَسَّسة التَّعْلِيْمِيّة الوطنية، ظنّاً منهم أنّ ذلك يجعلُهم مثلَ أســيادهِم في المؤسَّسات التَّعْلِيْمِيّة الغَرْبِيّة، وأن ذلك يغني الطُّلّابَ المواطنين من مغادرة البلد للدراسة في الخارج، وأن ذلك يُعَزِّزُ من الانفتاح للعلوم والثقافات الغَرْبِيّة.

صَدَقَ أصدقُ الصَّاديقين، قائدُنا ومــُعَلِّمنا، وخاتم الأنبياءِ والمرسلين، محمّدٌ صلوات اللّــه وســلامه علــيه، عندما حذَّرنا من اتباع اليهودِ والنصّارى أو تلقّي أيَّ شيءٍ منهم، يتعارضُ مع عقيدتنا ومبادئنا وقيمنا وأخلاقنا، فعن أبي سعيدِ الخُدْرِيِّ، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: "لَتَتْــبَعُنَّ ســنَنَ مَــنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْــتُمُوهُمْ" قُلْــنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودُ وَالنصّارَى؟ قَالَ:"فَمَنْ؟"[1]. وفي تفسير هذا التأثُّر بالــيهود والنصّارى، وكيفيّة بدوِّه على علمائنا، ياتي قول سفيان ابن عيينة: "من فسد من عــبّادنا ففيه شبه من النصاري، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، لأن النصارى عبدوا بغير علم، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه"[2].

الــنوع الثاني: أناس ليس هم بأنصاف تربويين ولا علاقة لهم بالتَّربية والتَّعْلِيْم، غير انهم وكّلوا بالقيام بعَمَلِيَّة تغيير المَنَاهِجِ الدِّراسيّة في مؤسَّساقم التَّعْلِيْمِيّة، فدخلوا الــمُؤَسَّسة التَّعْلِيْمِــيّة من فوق الجدران، ومن على السطوح، فحرقوا الكتب وما فيها بحجة انهم جلبوا كتــباً جديــدة لمَنَاهِج جديدة، وتخلصوا من كل ما هو قديم بحجة انهم أصحاب التَّطْوِيْر والحداثـــة، ولم يقــضوا علــى التراث الأَكَادِيْمِيّ للمؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة فقط بل مسحوا من مَــنَاهِجهم أي أَثَرٍ دِيْنِيّ أو ثَقَافِيّ أو اجْتِمَاعِيّ يتعارض مع أهوائهم الفاسدة بحجة التماشي مع سياسة العولمةِ الثَّقَافِيّة.

[1] صحيح البخاري، رقم7320

[2] إغاثة اللهفان لابن القيم (ج 1/ ص24)

فمـــن هؤلاء من تجرأ على اللّه، وبدأ بتغيير مِنْهاج مادة التَّربية الإسْلامِيَّة، على سبيلِ المـــثالِ، فقصَّ ضروريات وأساسيّات المعرفةِ الدِّينيّة، واستبدَلها بما يتوافق مع هواه العَلْمانيّ، وسياسة العولمة في بلده، ومزاجية الطُّلّاب المنحليّن أخلاقيّاً، والمنحرفين سلوكياً، فتَولّد عن ذلك مادةٌ قَزَمةٌ ومشوّهةُ الشَّكلِ والمضمون.

ومن هؤلاء من تجرَّأ على طمس ومحوِ تاريخِ عظماءِ ومرشدي الأُمَّة الإسْلاميَّة، أمثالِ الخلفاء الراشدين الأربعة: أبي بكر وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ رضي الله عنهم أجمعين، والصَّحابة الكـــرام أمـــثالِ خالدِ بنِ الوليد، وعبدِ الله بنِ عُمَرَ، وعبد الله بن عباس، ومعاويةَ بن أبي ســـفيان، رضي الله عنهم أجمعين، والتَّابعين لهم ومَن جاء بعدهم من السَّلَف الصالح، أمثال مالـــكِ بنِ أنسٍ، وأحمدَ بنِ حنبل، وسعيدِ بنِ المسيِّب، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وغيرِهـــم كثير، رحمهم الله أجمعين، ثم عملقوا الأقزام فتراجموا لمـــُفْسدي هذه الأُمَّة، بحجة انه تاريخٌ حديث ! ذلك عندما وافق أهواءَهم ومصالحهم الشّخصيّة، فشوّهوا صورةَ تاريخنا العظيمِ وأفسدوا معناه في عقولِ هذه الأجيالِ من الطُّلّاب.

ومـــنهم مَـــنْ لَعِبَ بقائمة أولوياتِ المعرفة، فأهملوا المعرفةَ المفروضة، وركّزوا على المعـــرفة الواجـــبة، بل أضافوا على أولويات المعرفة مَوَادَّ تَعْلِيمِيّةً ثانوية وكماليّة في شكلها ومـــضمونها، بحجـــة تقليدِ مَنَاهِجِ المؤسَّساتِ التَّعْلِيْمِيّة الغَرْبِيّة، وبحجة التَّطْوِيْرِ والتحديث، فغيّـــروا ترتيب مَوَادِّ المَنَاهِجِ التَّعْلِيْمِيّة، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فعلى سبيلِ المـــثالِ، استبدلوا التَّعْلِيْم باللغة العربيّة بالتَّعْلِيْم باللغة الإنجليزيّة، فاختلط الأمر على المـــُعَلِّم والطالب معاً، وأثّر ذلك بدوره على فعّالية مكوِّنات العمليّة التَّعْلِيْمِيّة بكاملها.

ومـــنهم من فضَّل تعليم مادة على أخرى بحجة انها مطلوبةٌ أو مرغوبة أكثر، فوزعوا ســـاعات الدِّراسة الأسبوعية بمحاباة وظلم، فخصّصوا ساعة أو ساعتين من خمس وعشرين ساعة أسبوعية لتدريس مادة المعرفة الضَّروريّة كمادة التفسير أو الفقه أو النحو والصرف،

وخصّصوا ستة ساعات لتعليم اللغة الإنجليزيّة، فبهذا كسروا ميزان التوازن في توزيع نسب تدريس مَوَادّ المِنْهاج ككُلّ.

ومـــن هـــؤلاء أيـــضاً من يؤمن بالكم والسطحيّة، فزادوا من حجم المادّة العلميّة، وأكثـــروا مـــن الـــمَـــوَادّ التَّعْلِيْمِيَّة، في كافّة المراحلِ التَّعْلِيْمِيّة، فترى طالب الصفِّ الرابع الابتدائـــيّ في معظم مدارسنا، على سبيلِ المثال، يذهب إلى المدرَسَةِ في أول أيام الدِّراسة مـــتفائلاً ونـــشيطاً وخفـــيفاً، فيعود منها مكتئباً، وثقيلاً مُحمَّلاً بثلاثةَ عشَرَ كتاباً ؛ كتاباً للقـــراءة، وكـــتاباً للإنـــشاء والتعبير، وكتاباً للنحو وقواعد اللغة اللعربيّة، وكتاباً للتربية الإسْـــلاميَّة، وكـــتاباً للحساب، وكتاباً للجيولوجيا وعلم الأحياء، وكتاباً للفزياء، وكتاباً للكيمـــياء، وكتاباً للغة الإنجليزيّة، وكتاباً للغة الفرنسية، وكتاباً للجغرافيا، وكتاباً للتاريخ، وكتاباً للقوميّة، وكلُّ كتاب يرافقه دفترُ ملاحظات وواجبات ليليّة! فينتهي الأمرُ بالطالب حـــاملاً ما لا يقل عن سبعة كيلو غرامات على ظهره ذهاباً وإياباً من المدرسة! كل هذا، سببُه الهم يفضلون شراء ثلاث دجاجات مثلجة بثمن شراء دجاجة واحدة بلدية طازجة!!!

إضافةً لـــمَا ذكرتُه أعلاه، نجدُ أن في كل بلد عربيّ مِنْهاجاً دراسيّاً يختلف عن الآخر مـــن حـــيث الشّكلُ والمضمونُ، فترى مكوِّنات مادةِ اللغة العربيّة أو مادة الرياضيات في المغرب، على سبيلِ المثال، تختلف عن تلك الّتي في سوريا أو في عمان أو اليمن، من حيث شموليّتها، وعمقها، ومستواها الأَكَادِيْمِيّ والفِكْرِيّ، مما سبب اختلافاً في مستوى الطُّلّاب المتخرجين من المراحل الابتدائيّة والإعدادية والثانوية، وبالتالي أدى ذلك إلى أجيال متفاوتين في قـــيمة شهاداتهم العلميّة، وشموليّةِ وعمقِ معرفتِهم الأَكَادِيْمِيّة، وقصورٍ في قدراتهم العقليّة والفِكْرِيّة، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

لهـــذا وجدْنا انه من الضَّرورِيّ أن نقدِّمَ للقارئ فصلاً موجزاً نعرِض فيه أهمَّ مصادرِ التَّلَقِّي الّتي ينبغي للمادة العلميّة مهما كان نوعُها أو شكلُها أن يعتمدَها، ونعرِّف فيه أيضاً مفهومـــي المِـــنْهاج الدِّراسيّ والمادّة العلميّة مؤكدين على أهمّيتهما كمصدر للتَّلَقِّي، ودورَ

المادّة العلميّة في نجاح وفعّالية بقيةِ مكوِّنات العمليّة التَّعْلِيْميّة، مع شرحٍ بسيط لأهمّ خصال جَــوْدَة مُقَوِّماتها، لعله يكون دليلاً مختصراً لأهل العقلِ والفضل من التربويين، ولأصحاب الفطــنة والذكاء من الطُّلّاب المجتهدين، ولأولياء الأمور حتى يتبيّنَ لهم الغثُّ من السَّمين مما يتلقاه ويَتَعَلَّمُه أولادُهم.

أهمّ مَصَادرِ التَّلَقِّي

بعد أن عرضنا شريطاً موجزاً عن الواقع المحزن لعَمَلِيَّة التَّلَقِّي عند كثيرٍ من النَّاس في البلاد العربيّة، وبيَّنا كيف يتعامل بعضُ المسؤولين التربويين مع المادّة العلميّة كمصدر مهم في آلــية التَّلَقِّي، نقول انه ينبغي توحيدُ مصادرِ التَّلَقِّي في كافَّة مكوِّنات العمليّة التَّعْلِيْميّة، ولاســيَّما مــايخصُّ شــكلَ ومضمون المادّة العلميّة، فعلى قَدْر ما تنجح الأُمَّة في توحيد مراجعها ومصادرها الّتي تتلقّى منها العلمَ والمعرفة، والعقائد، والقيم، والمبادئ على قدر ما تــتوحَّد كلمــتُها ورسالتها العلميّةُ والثَّقَافِيّة والفِكْرِيّة، وبالتالي تنجحُ العمليّةُ التَّعْلِيْميّة في مهمتها.

إنّ قيادةَ كلِّ أُمّة تحترمُ نفسَها وتريدُ الخيرَ لشعبها تحرِصُ أشدَّ الحِرْصِ على أن تُرَبّيَ شــعبَها بكافَّــة أطيافه وراياته على المنهج العاصمِ الحقِّ الذي يجب اتِّباعُه، والرجوعُ إليه، والاقتصارُ عليه دون غيره، والذي فيه تتحقّقُ السَّلامة والنجاةُ للعباد في الدُّنيا والآخرة، هذا المنهج هو منهج الكتاب، والسّنّة، على ضوء فهم السَّلَف الصالح، من القرون الثلاثة الأولى المشهودِ لها نصَّاً بالخيرية والفضل[1].

لماذا ينبغي أن يكون دينُ الإسلام هو المرجعَ والمصدرَ الذي نتلقّى منه العلمَ والمعرفة والعقائــد والمــبادئ والأخلاق الحميدة والسلوكياتِ الكريمةَ؟ لأنّه الدِّين الحق الذي قد كمل، وبكماله كمل كل ما يُقربنا إلى الله تعالى، وإلى الجنّة، وكلُّ ما يُبعدنا عن الزّلل وعن

[1] صــحيح الــبخاري (171/3) «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»

الـــنار، وقـــد أبَـــان اللهُ تعالى سبيلَ المؤمنِّين، وحضَّ على انتهاجه، كما أبان وجلّى سُبُل المجـــرمين، وحذَّرَ مِنْ انتهاجِها: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: 55]

قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:3]. فالدِّين ليس ناقصاً ليكمل نقصانُهُ من مصادرَ ومشاربَ أخرى، وإنما هو كامل تام غير ناقص، بشهادة اللّه ﷻ: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام:153]. وهذا من معانيه ولوازمه بـــيان الصراط المستقيم، وكذلك بيان سبل أهل الباطل والأهواء بياناً شافياً كافياً وافياً لا لبس فيه ولا غموض.

وقال سبحانه تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [الـــنحل:89]. وقوله تعالى: ﴿ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾؛ عام لكل شيء؛ أي فيه تبيان لكل ما يضرُّ، وكلّ ما ينفع من أمور الدِّين والدُّنيا؛ ما يضر لكي نجتنبَه ونحذرَه، وما ينفعُ لكي نأتيَه ونلتزمه.

وفي الحـــديث، عـــن عبدِ اللّه بنِ مسعود ﷺ انه قال، قال النَّبيّ ﷺ :"انه ليس شيءٌ يقرِّبكم إلى الجنَّة إلا قد أمرتكم به، وليس شيءٌ يقرِّبكم إلى النار إلا قد نهيتُكم عنه "[1].

[1] السلسة الصحيحة، للألباني، رقم2866

لقد كثُرت وتنوَّعت واختلفَتْ مصادرُ ومراجع التَّلَقِّي عند كثيرٍ من النَّاس ، المثقفين منهم وغير المثقفين، لذلك أذكر هنا أهمّ هذه المصادرِ والمراجع لتكون بمثابة الميزانِ أو المعيار الذي يجب استخدامُه في عَمَلِيَّة تقويِّم المادّة العلميّة، سواءٌ كانَتْ مرئيةً أم سمعية أم مقروءة، واللّه الموفق:

كتاب اللّه عزّ وجل

القرآن الكريم هو كلام اللّه عزَّ وجلَّ أنزله ﷻ على المصطفى محمّد ﷺ، بواسطة الملاك جبريل عليه السَّلام، ليكون هدًى وشريعة ومِنْهاجاً للعالمين أُنسِهم وجنِّهم، ومصدراً ومرجعاً لهم في أمور دينهم ودنياهم.

فإذا كان الجاهليون، بكل أطيافهم وتجمعاتهم، يُجاهرون بمراجعهم ومصادرهم، ويُفاخرون بها، ويُقاتلون دونها، على ما فيها من باطل وزور، ويحمِلون الشعوبَ عليها حملاً وقهراً من خلال مكر الليل والنهار، فمن باب أولى أن يُجاهرَ أهل الحق بمراجعهم ومصادرهم، ويتباهوا بها، ويُقاتلوا دونها، فأي الفريقين أولى بالحق والمباهاةِ والافتخار والمجاهرة، من تنتهي مراجعه إلى الله ورسوله ﷺ، أم مَن تنتهي مراجعه إلى الطاغوت والشّيطان؟ لا يستويان مثلاً، ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:81].

إن الأدلة على وجوب الرجوع إلى القرآن الكريم أكثرُ من أن تُحصَر في هذا الموضع، فمنها، قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقر:2]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت:44]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:123].

وفي الحديث، عن أبي مالكٍ الأشعريِّ ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ:" القرآنُ حُجَّةٌ لك أو عليك "[1].

وفي حــثه وترغيبه في الاتباع والتمسك بما جاء به القرآن الكريم، روي عن زيد بن الأرقــم[2] انــه قال: قال النَّبيّ ﷺ:" كتابُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ حَبْلُ اللَّه، من اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَركَهُ كَانَ عَلَى ضَلالَة"[3].

وفي رواية:" كِتَابُ اللَّه فيه الـــْهُدَى وَالنُّورُ، مَن اسْتَمْسَكَ بِه، وَأَخَذَ بِه، كَانَ عَلَى الـــْهـــُدَى، وَمَنْ أَخْطَأهُ ضَلَّ "[4].

سنة الرَّسول ﷺ

للفائـــدة أذكر تعريف السّنّة الشّريفة كما عرفها لي أحد المشايخ العاملين الأفاضل، وهـــي: "كل ما صحَّ عن النَّبيّ ﷺ من قول، أو فعل، أو تقريرٍ، يترتب عليه حكم شَرْعِيّ؛ كالوجوب، والمندوب، والإباحة، والحرمة، والكراهة، وأقوال، وأفعال، وتقريرات النَّبيّ ﷺ كلها يترتب عليها أحكام شَرْعِيّة، إلا ما خرج منها على وجه العادة، كركوبه على الدابة، واستظلاله في ظلّ شجرة، أو أن يفتح عن صدره الشريف ليدفع عن نفسه شدة الحر، ونحو ذلـــك من الأعمال الّتي لها صفة العادة، الّتي لا يُستنبط منها أحكام شَرْعِيّة"، صلوات ربي وسلامه عليه.

---

[1] صحصحح الترغيب والترهيب، للألباني، ج1/رقم189

[2] هـــو ابن زيد بن قيس بن النعمان بن مالك الأغرّ بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنـــصاريُّ الخزرجـــيُّ، نزيلُ الكوفة، ومن مشاهير الصحابة رضي اللّه عنهم أجمعين، شهد غزوة مُؤتة وغيرها، وله عدة أحاديث، مات بالكوفة سنةَ ثمانٍ وستين.(سير أعلام النبلاء، ج3/ ص165)

[3] صحيح مسلم، رقم2408

[4] صحيح مسلم، رقم2408

أمـــا الأدلة على وجوب اتباع السّنّة، والرجوع إليها فهي كثيرة، منها قوله سبحانه وتعـــالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۞﴾ [الحجرات: 1-2]. فإذا كان مجرد رفع الصوت يُخـــشى على صاحبه أن يحبط عمله، ولا يحبط العمل إلا الشِّرْك، فكيف بمن يرفع حكمه وقوله على حكم وقول النَّبيّ ﷺ، لا شكَّ انه أولى بالانتكاس وحبوط العمل، ممن رفع صوته بغير عمد . والعياذ بالله.

وقـــال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب:36]. فمن الله تعالى التتريل، وعلى رسوله ﷺ البيان، وعلينا الاستسلام والالتزام، من غير تقديم بين يديه، أو تعقيب، أو اختيار، وهذا من لوازم صحة الإيمان.

وقال تعالى:﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران:31]. فعلى قدر المتابعة للسنة تكون محبة العبد لربه، وعلى قدر المحبة تكون المتابعة للسنة، فكل منهما لازم وملزوم للآخر.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسول وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْـــتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسول إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء:59].

وفي الحـــديث، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ:" مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَد عَصَى اللَّهَ "[1].

[1] صحيح البخاري، رقم2957

وعــن أبي هريــرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ:" كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الــجَنَّةَ إلا مَنْ أَبَى"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، وَمَنْ يَأْبَى؟ قال:" مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْــجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى"[1].

وعــن أبي سلمة أن أبا هريرة ﷺ، قَالَ لرَجلٍ:" يا ابْن أخي! إذا حَدَّثْتُكَ عَنْ رَسولِ الله ﷺ حَديــثاً فــلا تَــضرِبْ لــه الأمثالَ"[2]. أي لا تستدلّ على قوله ﷺ بقول الحكماء، والفلاسفة، والفقهاء، وكانه بحاجة إلى أن يُعضد قوله بأقوال وموافقة الآخرين، فالنَّبيّ ﷺ لا يحــتاج إلى شيء من ذلك، بل الآخرون هم الذين يحتاجون إلى التماس مدى موافقة كلام الــنَّبيّ ﷺ لكلامهم؛ لأن كلامه، والثابت من سنته هو الحكَم، وهو الميزان الذي به يُعرَف الحق من الباطل، والصواب من الخطأ من كلام ومواقف الآخرين.

آثار الصَّحابة رضوان اللّه عليهم

إذا لم يتوافــرِ الدلــيلُ أو المــرجع في الكتاب والسّنّة، ينبغي اتباع ما جاء في آثار الــصَّحابة رضي اللّه عنهم، واعتبارُ أقوالهم وأفعالهم مصدراً ومرجعاً لنا في حياتنا العلميّة والعمليّة، وذلك لفضلهم ولفضل التَّابعين لهم بإحسان في القرون الثّلاثة الأولى،كما ينبغي تقديمُ قولهم وفهمِهم على قول وفهم من جاء بعدهم.

وفي فــضلهم قال اللّه سبحانه وتعالى:﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالــدِّين فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة :100]. فإذا كان اللّه عزّ وجلّ قد رضي عنِ السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، فهو سبحانه وتعالى رضــي عنهم لسلامة دينهم واعتقادهم، وفهمهم، والتزامهم، فمن باب أولى أن نأخذهم قدوة لنا ونعتدّ بأقوالهم وأفعالهم مصدراً ومرجعاً لنا، مادامت في إطارها.

[1] صحيح البخاري، رقم7280

[2] سنن ابن ماجة،رقم22

وعـــن جابر ﷺ قال: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَة أَلْفاً وأَرْبَعَمائَة، فَقَالَ لَنَا النَّبِيّ ﷺ:"أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ"[1].

وعـــن حُذَيْفَةَ ﷺ قال: كُنَّا جُلُوساً عند النَّبِيّ ﷺ، فقال:"إني لا أدري مابقَائي فِيكُم، فاقتَدُوا باللَّذينِ من بَعْدي"[2]؛ وأشار إلى أبي بكرٍ وعُمرَ.

وعـــن العـــرباض بن سارية[3]، وهو ممن نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة :92]. قال: قال رسول اللّه ﷺ: "فانه مَنْ يَعِـــشْ منْكُمْ بَعْدي فَسَيَرى اختلافاً كَثيراً، فعليكُم بِسُنَّتي وسُنَّة الخُلَفاء المَهديينَ الرَّاشدينَ تَمَـــسَّكُوا بِها، وعَضُّوا عَلَيها بِالنَواجذ، وإِيَّاكُم ومُحدَثاتِ الأُمورِ فَإنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وكُلَّ بِدعَةٍ ضَلالَةٌ"[4].

وعن عبد اللّه بنِ عُمَرَ انه كان يقول:" لا تسبُّوا أصحابَ محمّد ﷺ، فلَمَقامُ أَحدِهم ساعةً (يعني مع النَّبيّ ﷺ) خيرٌ من عملِ أحدكِمْ عُمْرَه"[5].

وعـــن عبدِ اللّه بنِ مسعودٍﷺ قال: "إن الله تعالى نظرَ في قلوب العباد، فوجدَ قلب محمّـــد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمّـــد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يُقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيءٌ"[6].

---

1 صحيح مسلم، رقم1856

2 صحيح سنن الترمذي، رقم3663

3 هو العِرْباضُ بن سارِيَة السُّلَمي ﷺ، من أعيان أهل الصُّفَّة، سكن حمص، وروى أحاديث عن الرسول ﷺ، تُوفِّي سنةَ خمسٍ وسبعين هـــ. (سير أعلام النبلاء، ج3/ص419)

4 سنن أبي داود، رقم4607

5 سنن ابن ماجة، رقم162، صحيح ابن ماجة (1/ 32): كان ابن عمر يقول لا تسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره * (حسن)

6 الفروسية، لإبن قيمّ الجوزية، ص299

وفي حال غياب الدليل من الكتاب والسّنّة، وحصول الخلاف فيما بين الصَّحابة على مسألة من المسائل، فمن عوامل الترجيح بين الأقوال والأفهام تقديم قول وفهم السابق في الإسلام والنصّرة على اللاحق، هذا الذي دلت عليه أدلة الكتاب والسّنّة، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد :10]. فلا يستويان في المترلة والفضل والأجر، كما لا يستويان في الدِّين، والفهم والإيمان.

لذا نجد أن الالتزام بتقييد الأفهام بفهم الصَّحابة فيما اختُلف فيه من شؤون الدُّنيا والدِّين، إضافةً إلى دلالة النصّ عليه، هو دلالةٌ على وحدة المصدرِ والمرجعيّة، وبالتالي يكون ذلك عاصماً ومانعاً يمنع من دخولِ أفكارٍ وعقائدَ وقيَمٍ وأخلاقيّات وسلوكيات ما أنزل اللهُ بها من سلطانٍ إلى مصادرِ ومراجعِ التَّلَقّي لدينا، ورادعاً لكلّ من تُسوِّل له نفسُه بالتفرقة بين أبناء الأُمَّة الواحدة.

آثار التَّابعين والسَّلَف الصالح

بعد الصَّحابة رضوان اللّه عليهم، تأتي الأفضليةُ في المرجعيّة للتابعين من القرن الأول، ثم القرن الثاني، ثم القرن الثالث، لما أخبرنا نبيّنا المصطفى ﷺ بأفضليتهم على ممن يأتي من بعدهم، فعن عبد اللّه ﷺ عن النَّبيّ ﷺ قال:" خَيرُ النَّاس قَرْنِي، ثُمَّ الذينَ يَلونَهُم، ثُمَّ الذينَ يَلونَهُم، ثُمَّ يَجيءُ أَقْوَامٌ: تَسْبِقُ شَهَادةُ أحَدِهم يَمينَهُ ويَمينُهُ شَهَادَتَهُ"[1]. والقرنُ الأوّل هو قرنُ الصَّحابة، ثم القرن الثاني؛ وهو قرن التَّابعين، ثم القرن الثالث؛ وهو قرن تابعي التَّابعين.

لذلك عند استخدام مصادر ومراجع التَّلَقّي في كافّة مجالات العلم والمعرفة، وفيما يخصُّ أمورَ الدُّنيا والدِّين، ينبغي أن يُقَدِّم قولَ واجتهادَ علماءِ القرن الأول، على قول

[1] صحيح البخاري، رقم2652

واجـــتهاد علماء القرن الثاني، وقول واجتهاد علماء القرن الثّاني على قول واجتهاد علماء القرن الثالث، وقول واجتهاد علماء القرن الثالث على من يأتي بعدهم.

آراء واجتهاداتُ العلماءِ الصالحين

يـــأتي بالمـــرتَّبة الخامسة في تسلسل مصادرِ ومراجعِ التَّلَقِّي آراءُ واجتهادات العلماء الذين يلتزمون بالكتاب والسّنّة على فهم الصَّحابة، والسَّلَف الصالح بحسب التسلسل الوارد أعلاه. إن العلماء الذين يدعون إلى شيء من الشِّرْك، أو يناصرون الشِّرْك، أويوالون الشِّرْك والمـــشركين على الإسلام والمسلمين، ليسوا بعلماءَ، ولا يُستَفتون، ولا يُستأمَنون على دينٍ ولا دنـــيا، وذلك لأن قدرَهم ونفعَهم يقلُّ ويضعف بمقدار بعدِهم عن المنهج الحق، منهج كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ.

إن المـــرجعيّةَ للعلمـــاء الذين يلتزمون بهذا المنهج الوارد أعلاه، وهم الذين ينبغي أن يُقصدوا بالفتوى والسّؤال في مسائل الدِّين والدُّنيا، وهم المعنيون في قوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل :43].

هذه هي أهمّ مصادر التَّلَقِّي الّتي ينبغي أن نتبناها في كسب العلم والمعرفة، وفي تعزيز عقائد التَّوْحِيْد لدى أبْناء الأُمَّة الإسْلامِيَّة، وفي ترويج مبادئ وأخلاقيّات وسلوكيات منهج الكتاب والسّنّة الحق، وما سواه من مَنَاهِجَ، الغثّ فيها أكثر من السَّمين.

لذلك ينبغي الحذر من مصادر ومراجع المادّة العلميّة الّتي تُروِّج الإلحاد والإباحية بين طلـــبة العلم أو تُفرض على بعض المؤسَّسات التَّعْلِيْمِيّة، بحجة الحداثة والتَّطْوِيْر أو من أجل التماشي مع متطلبات العولمة بشتى أشكالها ومضامينها المزيفة الأغراض والأهداف.

تَعريفا "المِنْهاج الدِّراسيّ" و"المادّة العلميّة"

تعـــدّدَت التسمياتُ، واختلفتِ المصطلاحاتُ، فاختلط الأمر على كثير من التربوين والطُّلّـــاب معـــاً، فبعضهم يستخدم مصطلح 'المــَنْهَج' بدل 'المِنْهاج'، وبعضهم يستخدم مـــصطلح 'المِـــنْهاج' الدِّراسيّ مكان مصطلح 'المادّة العلميّة'، وبعضهم يشير إلى 'الوحدة العلمـــيّة' بانها 'مساق' دراسيّ، وغيرها من المصطلحات كثير، لذا اجتهدت في أن أعرف مـــصطلَحَي 'المِنْهاج' الدِّراسيّ و'المادّة العلميّة' لشيوع وشموليّة استخدامهما في مؤسَّسات التَّربية والتَّعْلِيْم:

تعريف المِنْهاج الدِّراسيّ

هـــناك خلط لغوي وعرفي بين استخدام كلمة 'مَنْهَج' وكلمة 'مِنْهاج'، فالمــَنْهَج كلمـــة أصـــلها 'نَهَجَ، يَنْهَجُ، نَهْجَاً'، سَلَك، يَسْلكُ، مسلكاً، فهي تدل على االطَّرِيْقَة أو الأُسْـــلُوْب الذي يتبعه المـــُعَلِّم، مثلاً، في شرحه لمِنْهاج مادة اللغة العربيّة، وهناك مايسمى بـــ'منهج اختباري' و'منهج استقرائي'.

أمـــا 'المِـــنْهاج' فهي كلمة تدل على كافّة الـــمَوَادّ العلميّة الّتي تظهر على برنامج الدِّراسيّ اليومي وكل النشاطات الأكَادِيْمِيّة والفعّاليات الثَقَافِيّة والترفهية الّتي تحصل خلال ســـاعات الدِّراســـة في الـــمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة. كقولنا مِنْهاج الصف السادس الابتدائيّ أو 'مِنْهاج الشهادة الثانوية'.

ويمكننا أيضاً أن ننظر إلى مصطلح كلمة 'الـــمِنْهاج' بأنّه يدل على كافّة التجارب التَّعْلِيْمِيَّة النَّظَرِيَّة والعمليّة الّتي يمرّ بها الـــمُتَعَلِّم، سواء كانَتْ أكَادِيْمِيّة أو ثَقَافِيّة أو ترفهيّة أو سلوكية انضباطية.

وينقـــسم الـــمِنْهاج الدِّراسيّ عادة إلى مَوَادّ تَعْلِيْمِيّة أساسيّة، كمادة التَّربية الدِّينيّة، واللغة العربيّة، والحساب أو الرياضيات، وإلى مَوَادّ فرعية أو إضافية أو حتى مواضيعَ متنوعة ومخـــتلفة تساعد في فهم الـــمَوَادّ الأساسيّة، وتُعدُّ مهمّة جداً بالرَّغْمِ من انها لا تدخل في

متـضمنات المـادّة العلميّة. فمن هذه المواضيع والعناوين البيئة، العناية الصحيّة، المواطنة، وغيرها.

ينبغـي أن يتضمن الـمِنْهاج الدِّراسيّ في مراحل التَّعْلِيْم الأساسيّ على ما يلي من مكوِّنات، وبما يتناسب مع الثقافة الدِّينيّة والاجْتِمَاعيّة للبلد:

أ- مادةً علميّةً أساسيّة نافعة تحتوي على المعرفة والمهارات والعمليّات التَّعْلِيْميّة الّتي يحتاجها الـمُتَعَلِّم في دراسته كمادة التَّربية الدِّينيّة، واللغة العربيّة، والحساب.

ب- عناصـرَ منهجيةً أخرى تتضمن معرفةً اقتصادية، وصناعية، وصحية، وتربوية، وبيئية، ومواطنة، وتقنية معلوماتية، وغيرها من العلوم الأخرى، بمقدار يتناسب مع النسبة المئوية المعطاة لتدريس المادّة العلميّة الأساسيّة.

ت- عناصـرَ الـرعاية العَامّـة الّتي تتعلق بمبدأ تساوي الفرص، والتَّربية الشّخصيّة والاجْتِمَاعيّة.

ث- عناصرَ منهجيةً خفيَّة تهتم بالقيم والعلاقات، ومواقف الطُّلّاب من العلم، ونظام المكافئات ونظام الضبط.

ج- عناصـر منهجية إضافية تضمن الفرص لتطوير مواهب الفرد، وإنشاء النوادي الاجْتِمَاعيّة، والقيام بفعّاليات ثَقَافيّة ورحلات ترفيهية، وخدمات المجتمع.

هذا النوع من المَنَاهِج ــ اضافة لتعلم المادّة العلميّة المرجوَّة - يُعَزِّز لدى الطُّلّاب تعلُّمَ واكتسابَ الخبراتِ التالية:

1. خبراتٍ لغويةٍ (كتعلم لغة أو أكثر)
2. خبراتٍ علميّة
3. خبرات حسابية
4. خبرات إبداعية وجماليّة تفتح المجال لإطلاق مُخَيِّلة الطالب للتعبير عن نفسه أو للتعبير عن مدى فهمه للمادة العلميّة.

5. خبرات اجْتِمَاعيّة وسياسية
6. خبرات بدنيّة
7. خبرات روحيّة
8. خبرات أخلاقيّة

وهــذا مايــساهم في تطوير ونموّ شخصيّة الطالب، فيدرك الغرض من هذه الحياة، ويستوعب مكانَتَه في المجتمع، ويعمل على خدمة وبناء مجتمعه بفاعلية وعن حب ورغبة.

تعريف المادّة العلميّة

يعتقد بعض التربويين أن 'المادّة العلميّة' هي جزء من المِنْهاج الدِّراسيّ ككُلٍّ، كقولنا مادة اللغة العربيّة أو مادة الحساب من مِنْهاج الشهادة الثانوية، وأن هذه المادّة تحتوي على معرفةٍ ومهارات وعمليات تَعلميّةٍ يكتسبها الـمُتَعَلّم خلال دراسته لهذه المادّة.

هــذا مفهوم بسيط وقاصر _ للأسف_ يحتاج إلى شرح وتفصيل وذلك لأهمّية دور المادّة العلميّة في العمليّة التَّعْليْميّة، كما سيأتي تفصيله، إن شاء اللّه.

إن مــصطلح 'المــادّة العلميّة' متعدّد الجوانب شكلاً ومضموناً، فمن حيث الشَّكل يُمكن أن تأخذ شكل كتبٍ دراسيّة، كقولنا 'كتاب مادة التاريخ'، أو موارد أخرى يُعدُّها أو يستعين بها المـُعَلّم: منها المراجع والمجلات والجرائد المتوفِّرة في المكتبات الّتي يستخدمها الــمـُعَلّم والــمُتَعَلّم في تعليم وتعلُّم المادّة العلميّة إضافة للكتاب. وظهر مؤخراً أشكالٌ أخــرى للمــادَّة العلميّة: منها الإنترنيت وماتحتويه من الغثّ والسَّمين من المعرفة، وأجهزة الحواســيب بأشكالها المتنوعة ووظائفها المتعدّدة، والمختبرات وما يجري فيها من تجاربَ لها علاقــةٌ بالمــادّة العلمــيّة الْمقــرَّرة، ووســائل الإيــضاح عبر استخدام البرامج المكتبية، كالميكروسفت، وغيرها كثير.

أما من حيث مضمونُ المادّة العلميّة، فهو كل ما تحتويه من علم أو معرفة أو مهارات أو غيرها من العمليّات التَّعْلِيْمِيَّة سواءٌ كانَتْ أساسيّة أو فرعية، ظاهرة أو خفيّة، نصاً كتابياً أو شفوياً، يقدّمه الـمُعَلِّم للطالب أو يَتَعَلَّمُه الـمُتَعَلِّم من المـُعَلِّم أو المادّة العلميّة.

والمادّة العلميّة هي أيضاً كل ما يحصل في الصف من تعليم وتعلُّم، ومن ممارسات وحوارات أَكَادِيْمِيّة وثَقَافِيّة واجْتِمَاعِيّة بين المـُعَلِّم والـمُتَعَلِّم من جهة وبين الـمُتَعلِّمين فيما بينهم من جهة أخرى.

المادّة العلميّة كل ما يَتَعَلَّمُه ويكتسبه الـمُتَعَلِّم في الصف أو خارجه من معرفة علميّة، وحسابية، وأَكَادِيْمِيّة، ومهارات لغوية، وخبرات إبداعية وجماليّة، وتجارب اجْتِمَاعِيّة، ومواقف سياسية، ومبادئ أخلاقيّة، وتجارب روحيّة وعاطفيّة.

تسهيلاً لعَمَلِيَّة الطرح والنّقاش، ومن أجل تقريب الشرح والتّفصيل للقارئ، سأستخدم- إن شاء اللّه- عند الضرورة كلمة 'الكتاب' عوضاً عن مصطلح 'المادّة العلميّة'، لما للكتاب من دلالات تَعْلِيْمِيّة وتعلمية، فهو آلة التحصيل العلميّ.

مكانة المادّة العلميّة ودورها

تُعتبر المادّة العلميّة عنصراً ثالثاً لعناصر مكوّنات العمليّة التَّعْلِيْمِيّة الأربعة: المـُعَلِّم، والطالب، والمادّة العلميّة، والـمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة، وهي مهمّة وضرورية لتحقيق عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم الحاصلة بين المـُعَلِّم والـمُتَعَلِّم، وتلعب دوراً فعّالاً في نجاح العمليّة التَّعْلِيْمِيّة شكلاً ومضموناً.

مكانة المادّة العلميّة

منذ أن خلق اللّه سبحانه وتعالى القلم وطلبة العلم مشغولون بنسخ وكتابة العلم، لأن القلم آلة العلم والكتاب آلة التحصيل العلميّ، فتعظيماً للقلم ومكانَتِه، أقسم اللّه سبحانه تعالى به وبما يُسطر به من أنواع الكلام، ويُكتب به من أنواع العلوم، فقال ﷺ:

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم:1]. وقال ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق:1-5].

وحفظاً للدّين، واحتياطاً عليه، وإشفاقاً من دخول الشك والريب فيه، أمر اللّه تعالى بكتابته، فقال جلّ جلاله: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ [البقرة :282].

وتقييداً للعلم، وللتذكرة عند النسيان، وخوفاً من دخول الشك والريب فيه، ولاسيّما في هذا الزمان حيث كثرت السرقات العلميّة، وضاعت مبادئ الإسناد والرواية، أمر رسول اللّه ﷺ بكتابة وحفظه بين طيات الكتب، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ :"قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ"[1].

مهما تعدّدت طرقُ وأساليب طرح المادّة العلميّة، ومهما اختلفت وتنوعت أشكالها ومضامينها، يبقى الكتاب أفضلها وأكثرها فعّالية في حفظ وعرض وتعليم المادّة العلميّة، فقد رُوي عن عبد اللّه بن عباس ﷺ انه قال: "خَيْر ما قُيد به العِلمُ الكتاب"[2]. وعن الحسن البصري انه قال: "ما قُيِّد العِلْمُ بمثل الكِتَاب"[3].

وفي فضل الكتاب وما يحمله بين طياته من مختلف أصناف العلوم والمعرفة، قيل الكثير من الشعر الموزون، والكلام المنثور، ليكون مناراً يستنير به طالب العلم الناجح، وعبرة لمن توسوس له نفسه من طلبة العلم الكسالى، ومن الجهلاء من النَّاس الذين إذا ذُكر مجرد اسم

[1] تقييد العلم، للخطيب البغدادي، رقم117 /ص69. صحيح وضعيف الجامع الصغير (17/ 31)الألباني: (صحيح)

[2] تقييد العلم، للخطيب البغدادي، رقم173 /ص93

[3] تقييد العلم، للخطيب البغدادي، رقم201/ص103

'الكـــتاب'، اشمــأزّت قلوبهم، واسودّت وجوههم، عافاني اللّه وإياكم من كره الكتاب والحقد عليه.

فما أحلى قول الشاعر الذي يعدُّ الكتاب خليلاً صادقاً صدوقاً يدردش معه، ويحدثه ويفشي له أسراره، ويستشيره إذا دارت فيه الدوائر وتخلى عنه الأصدقاء[1]:

نعم المحدث والرفيق كتاب   تلهو به إن خانك الأصحاب
لا مفشياً للسرّ إن أودعته   ويُنال منـــه حكمة وصواب

وهـــذا شاعر آخر يذمُّ من لايحب الكتاب وما يحتويه، ويعدّه أكثر جهلاً من الثور، لذلك، ينصح باجتناب صحبة الجهلاء وأعداء الكتاب، يقول سليمان جليس ثعلب[2]:

لقد ضلت حلوم من أناس   يـــرون العلم إفلاساً وشوما
كسانا علمنا فخراً وجوداً   وبالجهل اكتسوا عجزاً ولوما
هم الثيران إن فكّرت فيهم   فكيف بأن تـــرى ثوراً عليما
فجانبهم ولا تعتب عليهم   وكـــن للكتب دونهم نديمـــا

وفي وصـــفه للكتاب، قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ[3]: "الكتاب نعم الذُخر والعقدة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم القرين والدخيل، والوزير والنزيل". وقال أيضاً: "ولا أعلـــم جاراً أبرّ ولا خليطاً أنصف ولا رفيقاً أطوع، ولا مـــُعَلِّماً أخضع، ولا صاحباً

[1] تقييد العلم، للخطيب البغدادي، رقم263/ص119

[2] جامع بيان العلم وفضله، لإبن عبد البر القرطبي، ج1/ص58

[3] هـــو أبـــو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي الملقب بالجاحظ، ولد في مدينة البصرة سنة 159هـــ ومات فيه سنة 255هـــ، يُعَدُّ من كبار أئمة العلم باللغة والأدب ومن رؤوس نحلة الاعتزال، من كتبه المشهورة: البخلاء، البيان والتبيين، والمحاسن والأضداد والحيوان.

أظهـــر كفايـــة، ولا أقـــل خـــيانة، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً، ولا أقل صلفاً وتكلفاً من كتاب"[1].

وفيه قال الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد:"لا شيء آثر للنفس، ولا أشرح للصدر، ولا أوفر للعرض، ولا أذكى للقلب، ولا أبسط للسان، ولا أشد للجنان، ولا أكثر وفاقـــاً، ولا أقـــل خلافاً، ولا أبلغ إشارة،، ولا أكثر عبارة، من كتاب تكثر فائدته، وتقل مؤونـــته، وتسقط غائلته وتحمد عاقبته، وهو محدث لا يُملّ، وصاحب لا يخلّ، وجليس لا يتحفظ، ومترجم عن العقول الماضية، والحكم الخالية، والأُمم السالفة، يحيي ما أماته الحفظ، ويجـــدد مـــا أخلقه الدهر، ويبرز ما حجبته الغباوة، ويصل إذا قطع الثقة، ويدوم إذا خان الملوك"[2].

فالكـــتاب وعاء المادّة العلميّة، كَبُر حجمه أم صَغُر، وجد على رفوف المكتبات أم نُـــزِّل في مواقع الإنترنت، فمنه يُشرب العلم، وتُسقى المعرفة، فإن كان الوعاء نظيفاً خالياً من الدرن الظاهر والخفي، كان العلم نقياً صافياً نافعاً، استساغه واستذوقه طالب العلم، أما إذا كان وسخاً تفوح منه راحة قذرة، وتسيل منه سموم الأفاعي، اشمأزّت نفس طالب العلم وفسدت قابليته إن أدركها، وتشوّهت أراؤه وأفكاره، وسمَّت فكره وعقله، وسوَّدت قلبه، ودمرت مستقبله.

لـــذا يمكننا أن نقول إن "المادّة العلميّة" بشَكْلٍ عام، وبما فيها الكتاب بشَكْلٍ خاص تحتل مكانة رفيعة وتُعدُّ عنصراً فعّالاً ومكمِّلاً لمكوِّنات العمليّة التَّعْليْميّة، فالمـُعَلِّم والطَّالب بحاجة لمادَّة علميّة تساعدهما في تحقيق التَّعْليْم والتَّعَلُّم، سواء كانَتْ هذه المادّة نصاً كتابياً أم شـــفوياً، كي يتحقق الاتِّصَال الفعّال بينهما من جهة وبين الـــمُؤسَّسة التَّعْليْميّة من جهة أخرى كما سيأتي ذكره في الفصل الخامس من هذا الكتاب، إن شاء اللّه.

[1] تقييد العلم للخطيب البغدادي، ص119

[2] تقييد العلم للخطيب البغدادي، ص121

دور المادّة العلميّة

تلعـب المـادّة العلميّة دوراً هامّاً في نجاح العمليّة التّعْليْمة بين المـُعَلِّم والطالب في الـمؤسَّسة التَّعْليْميّة، وتساهمّ أيضاً في حفظ العلم والمعرفة ضمن طيات كتاب أو غيره من الـمَـوَادّ التَّعْليْميَّة من جهة، ونشر العلم والمعرفة بين الطُّلّاب خلال دراستهم وتحصيلهم العلميّ من جهة أخرى.

وتـشكل المادّة العلميّة حلقة وصل بيت العبد وربه، وبين العالم والـمُتَعَلِّم، وبين المـدرّس والطالب، فإذا كانَتْ المادّة العلميّة نافعة وقيمة وفيها الخير للْمُتَعَلِّم، كانَتْ حلقة الوصـل قـويّة ومتينة ومستمرة، وتنجح بها العمليّة التَّعْليْميّة، أما إذا كانَتْ غير نافعة أو مضَّرة، ضعَّفت حلقة الوصل، وبالتالي تفشل العمليّة التَّعْليْميّة.

اعلـم ـعزيـزي القـاري ـ إن أكمل وأصدق وأنفع وأجمل مادَّة علميّة عرفتها الإنـسانية هو القرآن الكريم،كتاب اللّه وكلماته ﷺ أنزله على نبيّنا محمّد بن عبد اللّه خاتم الأنبـياءِ والمرسـلين، ليكون وسيلةَ وصلٍ بين العبد وربه، فالقرآن الكريم هو هدًى ورحمةٌ للعالمين، وكتابُ علمٍ نافع لا شكَّ ولاريبَ فيه، قال اللّه تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۞﴾ [الرحمن:1-4]. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقـرة :2]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء82] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء:89].

وأن المـادّة العلمـيّة الّتي تحتويها سنةُ نبيّنا محمّد ﷺ من أقوال وأفعال هي مادة حق وصدق وعدل، وفيها النفع والخير الكثيرين للإنسان، لأن كل ماجاء به من مادة علميّة هي بوحـي مـن الواحد الأحد، سبحانه وتعالى، فقال جلّ وعلا: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۞ مَا ضَلَّ

صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۞ ﴾ [النجم:1-4].

ورُوِي عن عبد الله بن عمرٍو، قال: كنتُ أكتب كل شيءٍ أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله بشر، يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ :"اكتب؛ فوالذي نفسي بيده، ماخَرَجَ منِّي إلاَّ حَقٌّ"[1].

ما أجمل وأنفع الدّور الذي يلعبه مبدأ التَّلَقِّي ـ سواء كانَتْ مادته العلميّة شفوية أم كتابية ـ إن كان مصدره كتاب الله وسنة رسوله العظيم ﷺ، لما في ذلك من نفع وصلاح للإنسان في حياته وآخرته. والمقصود بمصدر التَّلَقِّي هنا ليس بالضرورة أن يكون جملة وتفصيلاً من الكتاب والسّنّة الشّريفة، وإنما الأصول الّتي تقوم عليها مادة التَّلَقِّي يجب أن تكون مبنية على أصول 'قال الله وقال الرَّسول'، فما أجمل مادة الأحياء، مثلاً، عندما نجد أن مادتها العلميّة تنبذ وتذم نظرية 'داروين الضّال المـُضل' في خلق الإنسان، وتؤكد على عقيدة التَّوْحِيْد ووحدانية الله عزّ وجلّ، وتقوم على أسس هذه الآيات القرآنية العظيمة، الّتي يقول الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۞ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۞ ﴾ [الحج:5-8].

[1] تقييد العلم للخطيب البغدادي، رقم141/ص81

وبهذا تلعب المادّة العلميّة دوراً تَعْلِيْمِيّاً مباركاً فيه ودورَ تعزيزٍ للمبادئ العَقَدِيَّة الّتي يعتنقها طالبُ العلمِ العاقل.

إن النَّفس الذي يستشعره طالب العلم من المادّة العلميّة الّتي يدرسها، ونوعيّة الرسائل الخفيّة الّتي يقرأها المـُتَعَلِّم من خلال اضطلاعه على مادّة علميّة ما، يلعبان دورهما في تشكيل عقليّة وأخلاقيّة وثقافة المـُتَعَلِّم العلميّة والاجْتمَاعيّة والدِّينيّة والاقْتصاديَّة والسّياسيّة، وهذا يقوم على مصدرين للمادة العلميّة؛ مصدرٍ يُصدِّر عقيدةَ التَّوْحِيْد والهداية والعلم النافع، ومصدرٍ يُصدِّر عقيدةَ الشِّرْك والفسقِ والضلال والتجهيل والتعاسة. لذا احرصْ على صفاء ونقاوةِ مصدر المادّة العلميّة الّتي تأخذُ منها أو تتعامل معها، واحذر من مصادر التَّلَقِّي الّتي تتعارض مع تعاليم وأصول ومبادئ وقيم وأخلاقيّات ديننا الإسلام الذي رضيه الله ﷻ لنا، حيث قال جلّ جلاله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة :3].

وبما أن ديننا الحنيف كاملٌ تام، وفيه كل شيءٍ يحتاجه الإنسانُ لدينه ولدنياه، وقد كمَّله الله ﷻ ورضيه لنا، فلمَ لا ننهل منه ونحرص عليه!؟

مُقَوِّمات جَوْدَة المادّة العلميّة

كبقية مكوِّنات العمليّة التَّعْلِيْميّة، ينبغي أن تتصف المادّة العلميّة بجَوْدَة الخصائصِ والخصالِ الّتي تجعلها مُمَيَّزةً من حيثُ الشَّكلُ والمضمون، من أجل تسهيلِ وتفعيل عَمَلِيَّة التَّعْلِيْمِ والتَّعَلُّم بين المـُعَلِّم والطالب.

إن جَوْدَة خصائص المادّة العلميّة تختلف وتتنوع باختلاف وتنوع طرائق وأساليب عرضها أو طرحها لجمهور المـُتَعلِّمين شكلاً ومضموناً، فعلى سبيلِ المثال، خصائص المادّة العلميّة الّتي تُعرض على السَّبُّوْرَة التَّقْلِيْديَّة تختلف عن تلك الّتي تُعرض أو تُطرح بواسطة 'برنامج البور بوينت الكتروني' أو في نشرات تَعْلِيْمِيّة، أو كتب دراسيّة، لذلك

فضلت أن أقدم مجموعة من الخصائص المتعلقة بشَكْلٍ ومضمون المادّة العلميّة بشَكْلٍ عام مع ذكر بعض الأمثلة، لتكون دليلاً مختصراً عن مُقَوِّمات جَوْدَة المادّة العلميّة.

جَوْدَة الخصائص الشَّكْلِيَّة للمادّة العلميّة

لا شكَّ أن الشَّكل أو المظهر الخارجي لأي شيء من الأشياء أو لأي أمرٍ من الأمور مُهِمٌ ويلعب دوراً إما إيجابياً أو سلبياً في توصيل رسالة ما، فالشَّكل الحسن يدل على مقدار صـــاحب الرســـالة وعلـــى أهمّية محتواها، والشَّكل الجميل يجلب السعادة والسرور لمتلقّي الرســـالة، والشَّكل الواضح الـــمُـــنظم يساعد ويُعَزِّز عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم لدي المـــُعَلِّم والـــمُتَعَلِّم.

وبالعكس نجد انه إذا كان الشَّكل لأي شيء من الأشياء أو لأي أمر من الأمور سيئاً أعطـــى دلالات وضيعة ومخزية عن حامل الرسالة ومضمونها، فالشَّكل الرديء منَفِّر ومقلق لمتلقّـــي الرسالة، والشَّكل المخلوط المشوَّه وغير الواضح يعرقل عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم لدى المـــُعَلِّم والطالب.

فمـــن أجل نجاح العمليّة التَّعْلِيْميّة وتحقيقِ أكبر قدرٍ من التَّعَلُّم لدى الطالب في كافّة مراحله الدِّراسيّة، ينبغي أن تتميّز المادّة العلميّة بخصائص شكلية مُمَيَّزة مهما كانَتْ نوعيّة عرض وطرح المادّة العلميّة، نذكر بعضها هنا على سبيلِ المثالِ وليس الحصر:

أ. استخدام السَّبُّوْرَة

بالـــرَّغْمِ مـــن انتشار استخدامِ برامجِ ووسائلِ الإعلام المتعدّدةِ وأنظمةِ 'الملتي ميديا والهيـــبر تاكـــست' المختلفةِ في عرض المعلومة، وطرحِ الرسالةِ لجمهور الـــمُتَعلِّمين، تبقى الـــسَّبُّوْرَةُ الوســـيلةَ التَّقْلِيْديَّة والأكثرَ انتشاراً واستعمالاً في عرض أوطرح أوشرح المعلومة للْمُتَعَلِّم في الـــمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة، لذلك يجب أن تتميّز هذه الوسيلةبالتالي:

1. أن تكـــون الـــسَّبُّوْرَة وسيلةً لكتابة المصطلحات والعبارات والتعاريف والأفكار الرَّئيسة ولبعض الرسومات المهمّة فقط، وليس لتسجيل نصوص مطوَّلة لينسخها الطُّلَّاب.
2. أن تكـــون الكـــتابة على السَّبُّوْرَة كبيرة وواضحة بحيث يستطيع الطُّلَّاب قراءهما بسهولة.
3. أن لا تكـــون الكتابة على السَّبُّوْرَة مكتوبة بالطباشير أو بأقلام باهتة اللون، وأن تكون الأقلام المستخدمة جيدة وبألوان واضحة حتى لا يواجه الطُّلَّاب صعوبة في تميّز الألوان والقراءة.
4. أن تـــبدأ عَمَلـــيَّة طـــرح وشرح المعلومة للطلاب بعد الانتهاء من كتابتها على السَّبُّوْرَة، وليس ووجه المـــُعَلِّم نحو السَّبُّوْرَة وهو يكتبها.
5. أن تُترك السَّبُّوْرَة نظيفة عند مغادرة الصف الدِّراسيّ.

وقـــد ظهـــر مؤخراً أنواعاً مختلفة من السبورات المستخدمة في التَّعْلِيْم في المؤسَّسات التَّعْلِيْمِـــيَّة، وأكثـــرها شـــيوعاً وفائدة هي 'السَّبُّوْرَة التفاعلية البيضاء' الَّتي تُسمى باللغة الإنجليـــزيّة 'ـــــــــInteractive Whiteboard'، لهذه السَّبُّوْرَة السحرية خصائص مُمَيَّزة لاتصالها بالحاسوب واستخدامات متنوعة ومختلفة لاضرورة لذكرها هنا.

ب. استخدام برنامج 'البوربوينت' Powerpoint

أصـــبح كـــثير من المـــُعلـــِّمين والمحاضرين في المؤسَّسات التَّعْلِيْمِيّة يستخدم برنامج 'البوربويـــنت' لعرض أو طرح المعلومة لجمهور الـــمُتَعلِّمين، لما فيه من خصائص مُمَيَّزة أفـــضل مـــن تلك الموجَوْدَة في 'الكواشف الضوئية' التَّقْلِيْدِيَّة. لكن من شروط استخدامه بفعّالـــية تامـــة ليس فقط أن يكون المـــُعَلِّم متمكّناً من استخدام برامج الميكروسوفت في

الحاسوب الآلي، وإنما ينبغي عليه أن يعلم كيف يتعامل مع المادّة العلميّة الّتي يريد أن يعرضها على المـتعلّمين من خلال استخدامه لبرنامج 'البوربوينت'.

لأهمّيته في التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم يهتمّ مقوِّمو الجَوْدَة بجَوْدَة عَمَلِيَّة عرض المعلومات الشَّكْلِيَّة عن طريق استخدام برنامج 'البوربوينت'، لذلك ينبغي على المادّة العلميّة المطروحة من خلاله أن تتميّز بالخصال التالية:

1. أن يكون الغرض من استخدام برنامج 'البوربوينت' وعرض الصورة الشفافة 'السّلَيدْ = slide' واضحاً بالنسبة للمـعَلِّم، فيما إذا كان للمناقشة، أو لعرض معلومات أو رسومات، أو لطرح أسئلة، أو لتبيان مهامّ أو نشاطاتٍ أو ملخصات، الخ......، ولِلْمُتَعَلِّم فيما إذا كان ينبغي عليه نسخُها، أو إكمال نشاط في النشرة لديه، أو تدوين بعض الملاحظات، الخ....
2. أن تكون كميّة المادّة العلميّة -من نص أو معلومات أو رسومات - الموضوعة في كل 'سليد' معقولة الحجم وبشَكْلٍ غير مزدحم، والخط المستخدم واضحاً وكبيراً.
3. أن تكون كافّة 'السّليدات' مكتوبة بخط مألوف وبحجم كبير يمكن مشاهدته بوضوح وقراءته بسهولة من مؤخرة الصف أو القاعة، حتى في ضوء النهار، لذلك يُنصح بتجنّب استخدام الألون الباهتة مثل اللون الأصفر أو اللون البرتقالي، أو غيرهما من الألون الباهتة.
4. أن تكون اللغةُ المستخدمة في عرض المادّة العلميّة من خلال السليدات واضحةً وخالية من الغموض وانها مناسبة للمجال المستخدمة فيه.
5. أن يتم عرض 'السّليدات' واحدةً تلوَ الأخرى بأُسْلُوْب مَشُوْقٍ وماتعٍ للعين المجردة وللأذن الصاغية. وينبغي عدم الانتقال من 'سليد' إلى أخرى قبل انتهاء المـتعلّمين من قرائتها أو أخذ بعض المعلومات منها.

6. أن تكــون 'الــسّليدات' معروضــة بتسلسل رقمي ومنطقيّ بحيث لا تختلط ببعضها، ومن أجل الرجوع إليها في عروض أخرى مختلفة.
7. أن يكون محتوى 'السّليدات' مسجلاً في نشرات ورقية تُعطى للْمُتَعلِّمين، بحيث لايضيع وقتهم في نسخ كميات إضافية أثناء الدرس أو المحاضرة.
8. أن يكــون جهــاز العرض 'Projector' والشاشة والكمبيوتر النَّقال في مكان يــسمح لكافَّــة جمهور الــمُتَعلِّمين برؤية جيدة للمادة العلميّة المعروضة على الشاشة أو الجدار.
9. أن تكــون المعلــومات أو الرسومات معروضة على كافَّة مساحة الشاشة أو الجدار بحيث يستطيع أن يراها الــمُتَعلِّمين الذين يجلسون في مؤخرة الصف أو القاعة.
10. أن يكــون المــُعَلِّم مواجهاً للطلاب وليس الشاشة عند مناقشته للمادة العلميّة المعروضة على الشاشة أو الجدار.

ت. استخدام النشرات التَّعْلِيْمِيّة 'Handouts'

بعــد ظهور برامج الكمبيوتر المتعدّدة، وانتشارها على نطاق واسع بين المــُعلــِّمين والــمُــتَعلــِّمين، أصبح من السَّهل عرض المادّة العلميّة في نشرات تعلميّة وتوزيعها على الطُّلَّاب قبل أو بعد الدرس، يعتمد ذلك على الأهداف السلوكيِّة المتوقَّعة والمتعلقة بموضوع النشرة.

مهما كان الغرض التَّعْلِيْميّ من النشرات، سواء كان من أجل تجنّب الطُّلَّاب نسخ ما يقوله المــُعَلِّم في الدَّرس، أم من أجل تجنُّب الطُّلَّاب كتابةَ المعلومات الّتي يذكرها المــُعَلِّم على 'السليدات' مرة ثانية، أم إعطائهم معلومات مُعيَّنة، أم تزويدهم بأسماء كتب ومراجع، ينبغــي على شكل المادّة العلميّة المعروضة في هذه النشرات أن يتميّز بالخصائص التالية حتى تتحق الجَوْدَة المرجوة في العمليّة التَّعْلِيْميّة:

1. أن تكــون النــشرات جاهزة قبل الدرس أو المحاضرة بوقت كاف بحيث يتم تصويرها قبل الشروع في الدرس أو المحاضرة.
2. أن يكون في النشرات مكان كاف يستخدمه الطُّلّاب من أجل إضافة تعليقاتهم وملاحظاتهم وأسئلتهم أثناء تقديم الدرس أو المحاضرة.
3. أن تكــون النشرات جذابة المنظر باستخدام أدوات الطباعة الّتي تجعلها مقروءة ومفيدة وماتعة في الوقت نفسه.
4. أن تكــون النشرات مرقمة بوضوح وانتظام بحيث يستطيع الطُّلّاب وضعها في إضبارة بسهولة.
5. أن تكون خالية من النصّوص الطويلة الّتي لا علاقة لها بموضوع النشرة.

ث. استخدام الكتاب

مــا زال الكــتاب يُعَدُّ من أهمّ الوسائل التَّعْلِيْمِيّة الّتي تُعرض فيها المادّة العلميّة على الطالب خلال كافّة مراحل التَّعْلِيْم الأساسيّ وما بعده على حد سواء، ولا شكَّ أن شكل وطــريقة عرض أو طرح المعلومات في الكتاب يلعب دوره في عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم، فإذا حقَّــق شكلُ الكتابِ وكيفيّة طرحِ المعلومات فيه قبولاً إيجابياً عند المــُعَلِّم والطالب، كان التَّعْلِــيْم ناجحاً وفعّالاً من جهة، وحصل التَّعَلُّم المرجو من المادّة العلميّة بفعّالية وعمق من جهة أخرى.

لــذلك نجــد أن مقوِّمــي جَوْدَة شكل المادّة العلميّة يولون اهتماماً خاصاً للنواحي الشَّكْلِيَّة للكتاب كمصدر أساسيّ للعلم، فحرصاً منا على أهمّية شكل الكتاب وعلى المادّة العلميّة المطروحة فيه، نذكر أهمّ الخصال الشَّكْلِيَّة الّتي ينبغي أن يتميّز بها:

1. أن يكــون شــكل غــلاف الكتاب جذاباً وجميلَ التَّصميم، ومناسباً للطالب وللمرحلة الدِّراسيّة التي هو فيها.

2. أن يكـــون عنوان الغلاف معروضاً على الغلاف بشَكْلٍ متناسق ومنسجم مع شكل وحجم الكتاب.
3. أن يكـــون شكل الخط المستخدم مناسباً للمرحلة الدِّراسيّة الّتي فيها الطالب، وأن يكون حجمه كبيراً وواضحاً ومرسوماً بالخط المألوف لدى الطُّلّاب.
4. أن يكون الغلاف مصمَّماً بالألوان المريحة للبصر، وفيها نوع من الإبداع الفني التَّعْلِيْميّ.
5. أن تكون فصول الكتاب ابتداءاً من المقدمة وانتهاءاً بفهرسه مقسمة ومعروضة بشَكْلٍ واضح وبتسلسل علميّ ومنطقيّ.
6. أن تكون العناوين الرَّئيسة والثانوية في الفصل أو الجزء في الكتاب مكتوبة بخط كـــبير، وواضـــحٍ، ومألوف، كما يُفضَّل استخدام اللون الأحمر أو الأزرق في كتابتها لتمييزها عن النصّ.
7. أن تكـــون الأشـــكالُ والرسومات الموجَوْدَة ضمنَ النصّ مصممةً بشَكْلٍ فني وبالألوان.
8. أن تكـــون بعـــض ألوان وأحجام الخط مستخدمةً في نصوص الكتاب لإظهار أهمّية معنى مصطلح علميّ أو أدبيّ أو فقهي، أو اسم شخصيّةٍ أو موقعة تاريخيّة، أو غيرها من الأمور الهامَّة في النصّ.
9. أن تكون مساحة الهوامش مناسبة وكافية لكتابة بعض الملاحظات والتعليقات إذا أحـــبّ الطالب أن يسجّلها، بالرَّغْمِ من أنني لست من أنصار من يجعل من كـــتابه لـــوحة من الخطوط والألوان و'الخرابيش' هنا وهناك مدّعياً انه يأخذ ملاحظاتٍ ويضع الخطوط الطويلة والقصيرة تحت وحول الكتابة!

ج. استخدام مواقع الإنترنيت

المقـــصود هنا بمواقع الإنترنيت المواقعُ التَّعْلِيْمِيّة النَّافعة فقط، وليس ما هبّ ودبّ من المواقـــع المحرَّمة شَرْعِيّاً، والمواقع الـــمُفسِدة أخلاقيّاً واجْتِمَاعِيّاً، والمواقع الـــمُضيِّعة للوقت، والّتي لا يمكن ذكرها ولا حصرها بعدد، لأنها تشكِّل - حسب التّقدير الشّخصيّ وبدون محايـــدة- نسبةً تعادل أكثر من 70% من حجم المواقع الموجَوْدَة على الإنترنيت. لذلك أنـــصح أولياء الأمور من أباء وأمهات، ومسؤولين في المؤسَّسات التَّعْلِيْمِيّة أن لا ينخدعوا بـــبريق الإنتـــرنت الـــذي أوَّله بَهَرٌ وبهجة وآخره حسرة وظلمة، وأن يُحْسِنوا ويرشِّدوا استخدامَه لما فيه لمصلحة الإنسان في دنياه وآخرته.

مـــن الصعب ضبط شكلُ وكيفيّة طرحِ المادّة العلميّة في موقع من مواقع الإنترنيت، لـــتعدد الأغراض والأهداف من عرضها ونوعيّة الرسالة الّتي تريد أن توصلها للْمُتَعَلِّم، لكن للحكم على جَوْدَة شكل موقع من المواقع، ينبغي أن يتحلى بالخصال التالية:

1. أن يكـــون الموقـــع خالياً مِن الدِّعايات والإعلانات المحرّمة شَرْعِيّاً والمرفوضة أخلاقيّاً وعرفيّاً واجْتِمَاعِيّاً.
2. أن يكـــون الموقـــع خالـــياً من أي عامل بصري أم سمعي يعرقل عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم.
3. أن يكون الغرض من الموقع واضحاً وسهلاً لدى الـــمُتَعَلِّم.
4. أن تكون آلية استخدام الموقع سهلة وعلميّة ومنطقيّة في حركاتها واجراءاتها.
5. أن يكون شكل الموقع والمادّة العلميّة المطروحة فيه جذاباً وماتعاً.
6. أن يكون شكلُ الكلامِ والأشكالُ والرسوماتُ المطروحةُ في المادّة العلميّةِ كبيرةً نوعاً ما وواضحةً وبالألوان أيضاً.

فشكل المادّة العلميّة المطروحة على السَّبُّوْرَة في الصف، أو في النشرات التَّعْلِيْمِيّة الّتي يـــوزعها المـــــُعَلِّم على طلابه، أو في الكتب الدِّراسيّة، أو في مواقع الإنترانيت النَّافعة، أو

غيرهـــا الّـــتي لم أذكرها لعدم الضرورة، مهم جداً في تحسين جَوْدَة المادّة العلميّة وبالتالي العلمـــيّة التَّعْلِيْمِيَّة، لذلك ينبغي الحرص على عرضها وطرحها بشَكْلٍ جميل وماتع ومألوف لدى طالب العلم، والله الموفق.

جَوْدَة الخصائص الضمنِيَّة للمادّة العلميّة

لا شكَّ ــ كما تبيّن معنا أعلاه ــ أن "الشَّكل" في عرض وطرح المادّة العلميّة مهم ويلعـــب دوراً إيجابياً في عمليتي التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم، غير انه غير كاف لتحقيق الغرض المطلوب من دراسة المادّة العلميّة، لأن مضمونها وما تحتويه من معلومات هو أصل المادّة العلميّة الّتي تـــشكّل المعرفة أو العلم الذي يحصل عليه الطالب من جرّاء دراسته أو مطالعته لها، لذلك ينبغـــي على مقومو الجَوْدَة أن يهتمّوا بمعايير تقويّم جَوْدَة مضمون ومحتوى المادّة العلميّة من الأوجه التالية:

أ. المحتوى والمادّة العلميّة أو المساق العلميّ

ســـواء كانَتْ المادّة العلميّة أو المساق العلميّ مادّة نظرية أم عَمَلِيَّة، يُعَدُّ محتواها أهمّ العناصـــر الـــضمنِّية الّـــتي ينبغي أن تعتدَّ عند صناعتها أو اختيارها لأن فيها العلم والمعرفة والمهارات وما ينطوي عنهم من رسائل ظاهرة أوخفيّة على حدٍّ سواء، لذلك يهتمّ مقومو جَوْدَة مضمون المادّة العلميّة بأن يتميّز محتواها بالخصال التالية:

1. أن يُبـــتدئ كـــل كتاب بكتابة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، لأن ذلك يجلب الـــبركة للمـــادة العلميّة ويُسهِّل عَمَلِيَّةَ التَّعْلِيْمِ والتَّعَلُّم، ولاسيَّما إذا ابتدأ بها المـــُعَلِّمُ درسَه والطالبُ قراءةَ المادّة العلميّة المعنية، ولأهمّيتها ذكرها العزيز الحكيم في القرآن الكريم، حيث قـــال ﷻ : ﴿انه مِنْ سُلَيْمَانَ وَانه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل :30]. هذا الأُسْلُوْب

اعـــتمده الأولـــون والآخرون من أجلّة العلماء من الصّحابة، وأئمة التّابعين وكبار الكتّاب والمصنفين من السّلف الصالح لما فيه من بركة في نشر العلم وتحصيله.

ولـــو توقفـــنا قليلاً، ونظرنا في عادة الصّحابة رضي الله عنهم أجمعين في كيفيّة بدء الكـــتابة وطرح المسألة، لوجدنا انهم يبدأون كتبهم بالبسملة، وتسمية المعني، والتحميد ثم يطـــرحون مسألتهم في أُسْلُوْب يتحلى بأعلى درجات الجَوْدَة في صياغة الخطاب، فعن عبد اللّـــه بن دينار أن عبد الله بنَ عُمَرَ رضي الله عنهما كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه فكـــتب إليه:"بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الملك أمير المؤمنّين من عبد الله بنِ عُمَرَ، سلام علـــيك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأقر لك بالسمع والطاعة على سنّة الله وسنّة رسوله فيما استطعت."[1]

2. أن يُبـــتَدأ في مقدمة كل كتاب أو مادة علميّة بخطبة مختصرة تُذكّر القارئ بأن الحمـــد والـــشكر والنعمة للّه وحده لاشريك له، وأن محمّداً عبد الله ورسوله ﷺ، كما في المـــثال التالي:"إنا الحمد للّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لاشريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:1].

---

[1] صحيح الأدب المفرد، رقم 856

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝﴾ [الأحزاب:70-71]."[1]

3. عــندما يُذكر اسم اللّه في الكتاب أو المادّة العلميّة، ينبغي أن يُكتب اسم اللّه تعــالى بالتعظيم مثل:'تعالى، أو: سبحانه، أو عزّ وجل، ونحو ذلك'، وكذلك كلما كُتب اســم النّبيّ محمّد ﷺ، ينبغي كتابة بعده 'الصّلاة والسَّلام عليه' ويُصلى عليه باللسان أيضاً، لقــول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].، ويُحذَّر من الاختصار فيها ولو وقعت في السطر مراراً وليس كما يفعل بعض الجهلاء من الكتّاب والمحريرين فيضعون:'صلع، أوصلم، أو صلعم'، كل ذلك لا يجوز وغير لائق بحق نبيّنا المصطفى محمّد عليه الصّلاة والسَّلام.

4. عــندما يُذكر اسم صحابيٌّ، ولاسيَّما كبار الصَّحابة، ينبغي أنْ يُكتَبَ بعده: 'رضي اللّه عنه'، وإذا كان الصحابيُّ ابناً لصحابيٌّ، كُتبَ بعده: 'رضي الله عنهما' ويُكتب ' عليه السَّلام' للأنبياء والملائكة، وإذا ذُكر أحد من السَّلَف الصالح، يُكتب بعد اسمه 'رحمه اللّه'، ولا سيما الأئمة الأعلام منهم.

5. أن يحــتويَ علــى قائمــة من الأهداف والعمليّات التَّعْلِيْميّة الّتي تتعلق بالمادّة العلميّة.

6. أن يحــتوي علــى دلــيل أو برنامج دراسة المادّة العلميّة، وفيه إشارة واضحة للفــصول والعناوين الرَّئيسة والفرعيّة للنّصوص والتمارين، ولترتيب النشاطات والفعّاليات التَّعْلِيْميّة فيه.

7. أن يحتوي على المعرفة اللازمة، وعلى المهارات الضَّروريّة حسب مستوى المادّة العلميّة والمرحلة الدِّراسيّة المناسبة للطالب.

---

[1] مدارج السالكين لابن قيم الجوزيّة، ج1/ص3

8. أن يحتوي على مادة علميّة قابلة للاختبار الكتابي أو الشَّفَوِيّ للتأكّد من حصول التَّعَلُّم لدى الطالب.

9. أن يكون المحتوى فيه اتّساع وشموليّة للمادّة العلميّة بشَكْلٍ معقول ومنطقيّ.

10. أن يكون هناك توازنٌ في محتوى معلومات المادّة العلميّة كمّاً ونوعاً.

11. أن يكون هناك تلاؤم وتناسب في المعلومات المطروحة.

12. أن يكون هناك اختلافٌ وتنوُّع في محتوى المادّة العلميّة المطروحة.

13. أن يكون المحتوى مكتوباً بلغة واضحة وسهلة لتسريع عَمَلِيَّةِ التَّعْلِيْمِ والتَّعَلُّم.

14. أن يحتويَ المحتوى على ذكرِ لله والرَّسول محمّد ﷺ عندما يتطلب الأمر،لأن ذلك يجلب البركة والسعادة للمُعَلِّم والطالب على حد سواء.

15. أن يكون المحتوى خالياً من أيَّة معلومة تسيء بسمعة ديننا الحنيف أو تتعارض مع مبادئه السمحاء.

ب. المحتوى والمُعَلِّم

إضافةً لأهمّية خصائص محتوى المادّة العلميّة الّتي سبق ذكرها، ينبغي أن يتوفر فيه رسائل خاصة بالمُعَلِّم، وما ينبغي عليه أن يفعله خلال عَمَلِيَّة تدريس محتوى مادة علميّة ما، فبعض المَوَادّ العلميّة توضّح رسالتها للمُعَلِّم من خلال تزويده بدليل المُعَلِّم لتدريس محتوى المادّة العلميّة أو ذكر بعض الإرشادات والتوجيهات في مقدمة محتوى المادّة العلميّة، وبعض المَوَادّ العلميّة لا تهتم بذلك وتترك الأمر لفهم وتقدير واستيعاب المُعَلِّم لمحتوى المادّة العلميّة.

في كِلْتَي الحالَين يبقى الأمر ناقصاً وبحاجة لتوضيح حتى يتثنى للمُعَلِّم من تدريس محتوى مادته العلميّة بعمق وبفعّالية، ويحصل الطالب على الفائدة المرجوّة من دراسته لتلك المادّة، لذلك ينبغي على المُعَلِّم أن يدرك أن محتوى المادّة العلميّة يحتوي على رسائل ظاهرة وضمنيّة ينبغي عليه أن يوصلها لطالب العلم، ومنها مايلي:

1. انـــه يحـــتوي علـــى نسبة الإنجاز الأَكَادِيْمِيّ، أو التَّطوُّر الشّخصيّ أو التَّطوُّر الاِجْتِمَاعِيّ الذي ينبغي أن يوصله المـــُعَلِّم للطلاب شفوياً أم كتابياً.

2. انـــه يحـــتوي علـــى قضايا خاصة بتساوي الفرص الخاصة بالجنس أو الطبقة الاِجْتِمَاعِـــيّة، أو الجماعات الثَّقَافِيّة، أو القدرات العقليّة والجسدية، معروضة في النصّ على شكل صور وأشكال وأرقام لكي يوصلها المـــُعَلِّم للطلاب بوضوح وفعّالية.

3. انه يحتوي على رسائل خفيّة تتعلق بما يلي:

أ- أين يقف المـــُعَلِّم أثناء الدرس.

ب- هل ينظر إليهم عندما يتكلم إليهم وينظرون إليه؟

ت- هل تنسجم معالم وسمات وجهه مع كلامه؟

ث- هل يضحك عندما يعاقب الطُّلَّاب؟

ج- هل يؤدِّب الطُّلَّاب ويتابع هذا الإجراء بجديّة.

ح- إلى آخره...

4. انه يحتوي على مَوَادّ خفيّة صعبة التقويّم من قبل المـــُعَلِّم، نذكر منها ما يلي:

أ- التَّطوُّر والنُّموّ الرُّوحيّ والأخلاقيّ والاِجْتِمَاعِيّ والثَّقَافِيّ عند الطُّلَّاب.

ب- مبدأ تساوي الفرص والمساواة والعدل بين الطُّلَّاب.

ت- التوجيه والإرشاد ورعاية الطُّلَّاب.

ث- العناية بالطُّلَّاب ذوي الاحتياجات التَّربويّة الخاصة.

5. انه يحتوي على مَوَادّ خفيّة تؤثر بالطُّلَّاب أكثر من الرسائل الأَكَادِيْمِيّة الواضحة في المحتوى عادة، ومثال على ذلك:

أ- كيف يتعامل المـــُعَلِّم مع طالب يريد أن يطرح فكرة أو موضوعاً جديداً خارجـــاً عن موضوع المادّة العلميّة المُقرَّرة في المِنْهاج الدِّراسيّ؟ تخَيَّلْ أحد الطُّلَّـــاب جلـــب إلى الصف مشكلةً شخصيّة أو مسألة أَكَادِيْمِيّة جديدة

وحـــاولْ أن تجـــد حلاً مُرضياً له، ولبقيّة الطُّلّاب الذين يختلفون في ردود فعلهم لمثل هذا الموقف التَّعْليْميّ.

ت_ المحتوى والطالب

يُعَـــدُّ محتوى المادّة العلميّة موجَّهاً بشَكْلٍ رئيس إلى الطالب الذي تدور حوله العمليّة التَّعْليْميّة، فبقدر ما يكون المحتوى بمستوى الطالب الأَكَاديْمِيّ والفِكْرِيّ والعقليّ والثَقَافِيّ، والمرحلة الدِّراسيّة الّتي هو فيها، يكون مناسباً وملائماً ومنسجماً مع الموقف التَّعْليْميّ.

إنّ محتوى المادّة العلميّة لا يلعب دوراً إيجابياً وفعّالاً في تزويد الطالب بما يحتاجه من معـــرفة خاصـــة بالمـــادّة المفروضة أو المساق المُقرَّر فقط، بل يزوِّده أيضاً بمهاراتٍ تتعلق بالاتِّصَال، ومهاراتِ حلِّ المسائل والمعضلات، ومهاراتِ الدِّراسة والتَّعَلُّم العميق الفعّال.

فعلـــى ســـبيلِ المثالِ، وليس الحصر، ينبغي على المحتوى أن يحتوي تدريس المهارات وتعزيز القدرات التالية، وفقاً لمستوى الطالب الأَكَادِيْمِيّ والمرحلة الدِّراسيّة الّتي يمر فيها:

1. مهـــارات الاتِّصَال بشَكْلٍ عام: القراءة والكتابة والاستماع والتّكلُّم، والقدرة على استخدامها بشَكْلٍ عميق وفعّال.
2. مهارات التّكلُّم من خلال تصوير الطُّلّاب يتحدّثون ويلقون محاضرات أو أبحاث شفوية، سواء كان ذلك باللغة العربيّة أم بالإنجليزيّة.
3. مهارات الدِّراسة الأَكَادِيْميّة ومهارات التَّفْكِيْر والتحليل النَّقْديّ العميق الفعّال.
4. مهـــارات الاســـتماع والقـــدرة على متابعة المحاضرات الأَكَادِيْميّة في الجامعة وتدوين الملاحظات خلالها.
5. القـــدرة علـــى المساهمة في حلقات البحث والنّقاش والحوار المبني على مبدأي العقل والنقل.
6. القدرة على اختيار ما يقرأ وعلى القدرة على القراءة بشَكْلٍ نقديٍّ وفعّال.
7. القدرة على التحليل والاستنباط.

8. القدرة على نقد الحجج ودحضها والتعبير عن وجهات النَّظَر.
9. القدرة على الكتابة بشَكْلٍ عميق وفعّال.
10. القدرة على صياغة تركيبيّة وذكر المراجع.
11. القدرة على كتابة بحث مطوّل أو رسالة تخرُّج.

ث_ المحتوى وإدَارَةُ الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة

إن علاقة محتوى المادّة العلميّة بإدَارَة الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة كعلاقة السيد بالعبد، فالسيد يحدد مايتناوله العبد من طعام وشراب، ومتى يُسمح له باللعب والراحة، وأين ينام ليلته، وغيرها من الأمور الّتي تعتمد حياة العبد عليه، وإدَارَة المؤسَّسسة التَّعْلِيْمِيّة الّتي تُعدُّ من أهمّ مصادر التَلْقِيْن الأساسيّة للعَمَلِيَّة التَّعْلِيْمِيّة، تحدّد ماهيَّة، ونوعيّة، وكميّة محتوى المادّة العلميّة الّتي تريد أن يَتَعَلَّمَها الطالبُ، فإذا كان الـمُتحكِّم بالمصدر جاهلاً ومتكبراً وعَلْمانِيّاً بأفكاره وقيمه ومبادئه، جاء بمحتوًى ناقصٍ ومشوَّه وشائب، مما يؤدي إلى انتشار الضعف العلميّ والقصور الفِكْرِيّ وظهور المبادئ والقيم السَّامَّةِ بين الـمُتَعلِّمين، والعكس صحيح.

لذلك ينبغي على إدَارَة الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة، سواءاً كانَتْ ممثلة بإدَارَة المدرسة، أو الكُلِّيَّة، أو الجامعة، أو بمديرية التَّربية والتَّعْلِيْم أن تعمل على التَّأكُّد أن محتوى الـمَوَادّ التَّعْلِيْمِيّة بشَكْلٍ عام يقوم بالأمور التالية:

1. أن المحتوى ملتزم بتعاليم ديننا الحنيف، وانه خال من أي شيء يحطُّ من عاداتنا وتقاليدنا، وانه مُلْزِمٌ قانونيّاً لكافَّة الأطراف المشتركة في العمليّة التَّعْلِيْمِيّة، من مُعَلِّم وطالب ومؤسَّسة تَعْلِيْمِيّة.
2. أن المحتوى يروّج للتَّطوُّر والنُّموِّ الرُّوحيّ السَّليم، ومكارمِ الأخلاق ومحاسنها، والقيم الثَقَافيّة الجميلة، والنشاطات البدنيّة الصحيّة، والتقدم العقليّ والفِكْرِيّ والعلميّ الحرّ لدى الـمُتَعلِّمين ضمن الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة.

3. انـــه يَعدُّ هؤلاء الطُّلّاب لتناول الفرص، وتحمل المسؤوليات، وممارسة الخبرات العلميّة والعمليّة في حياتهم المستقبلية عندما يتخرُّجون من الـــمُؤسَّسة التَّعْليْميّة إلى سوق العمل.
4. انـــه يُعَـــزِّز ويُنمّي لدي الـــمُتَعلِّمين كافّة المساقات التَّعْليْميّة والتجريبية الّتي يأخذونها خلال دراستهم في تلك الـــمُؤسَّسة.
5. يُنَمّي لدى الطالب الشعورَ بالمسؤولية كعنصر فعّال في المجتمع، ويشجعه ليقوم بدوره الإيجابي في تحسين وتطوير المجتمع.

خلاصة

من خلال ما ذكرنا أعلاه تبين لدينا أن الوضع الحاليّ في معظم البلاد العربيّة للمادَّة العلمـــيّة كمكـــوِّن أساسيّ من مكوِّنات العمليّة التَّعْليْميَّة بحاجة لإعادة نظر في مفهومها، ومكانَتِها، ودورها في تعزيز وترويج عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم.

كمـــا تـــبين لدينا أن مصادر ومراجع التَّلَقِّي مهمّة جداً في تحديد عقيدة، وهوية، ومـــبادئ، وأخـــلاق، وسلوك الفرد في المجتمع، لذلك ينبغي أن نهتم بمصادر ومراجع تلقّي تقـــوم علـــى عقيدة التَّوْحِيْد الّتي جاء بها كتاب اللّه عزّ وجلّ والسّنّة المطهرة الّتي نشرها رســـول اللّـــه ﷺ ودعـــى إليها الصَّحابة الكرام رضوان اللّه عليهم أجمعين، والتَّابِعين لهم بإحسان الى يوم الدِّين .

وعلـــى هـــذا الأساس تم تقديم تعريفي المِنْهاج الدِّراسيّ والمادّة العلميّة مع ذكر أهمّ مُقَـــوِّمات جَوْدَة المادّة العلميّة الشَّكْلِيَّة والضمنِّية، لتكون دليلاً لمن أراد الحفاظ على عقيدة التَّوْحِيْد وتبنّي مبادئ وأخلاقيّات وسلوكيات أكّد عليها ديننا الحنيف وحثّ عليها رسولنا الكريم محمّد بن عبد الله ﷺ.

وفي ختام هذا الفصل الموجز عن المادّة العلميّة وجودتها، أُلخِّص أهمّ الخصائص الّتي يجب أن يعتدّ بها عند كتابة أو إعداد أو اختيار أيّة مادّة علميّة مهما كان نوعها أوشكلها أو حجمها:

1. أن تكون مُعدّة بشَكْلٍ مشجّعٍ للدِّراسة.
2. أن تكون مواضيعها معروضةً ومقسَّمة بشَكْلٍ منطقيّ ومنظَّم.
3. أن تكون واضحةَ الغرض والهدف.
4. أن تكون لغتها واضحةً، وسهلة، ومختصرة، ومفيدة.
5. أن يكون حجمها مناسباً للفترة الزَّمنِّية المخصّصة له
6. أن تكون مناسبةً لمستوى الطُّلّاب اللُّغوي.
7. أن تكون مناسبة لمستوى الطُّلّاب العلميّ والفكْرِيّ.
8. أن تتحدَّى القدرات الفكْرِيّة والعلميّة عند الطُّلّاب.
9. أن تساعد على تطوير القدرات الفكْرِيّة والخياليَّة عند الطُّلّاب.
10. أن تساعد الطُّلّاب في اكتشاف معنىً للأشياء.
11. أن تساعد الطُّلّاب في فهم الواقع المحيط بهم.
12. أن لا تتعارض مع عقيدة التَّوْحِيْد ومبادئ الدِّين والقيم الثّابتة والأخلاق الحميدة.

لهذا يمكننا أن نقول انه إذا اتبعنا مصادر ومراجع التَّلَقِّي المذكورة أعلاه في صياغة وصناعة مادة علميّة تتميّز بالمُقَوِّمات والخصائصِ الّتي سبق بيانها أعلاه، نحصل بإذن اللّه على مادة علميّة مُتميّزة شكلاً ومضموناً، فيها الفائدة والنفع للمُعَلِّم والمُتَعَلِّم في حياتهما العلميّة والعمليّة وفي آخرتهما إن شاء اللّه.

وقال الشّاعر[1] في وصف الكتاب:

نِعْمَ المُؤانس والجَليس كِتــاب | تخلــو بِــهِ إنْ مَلَّــكَ الأصْحــابُ
لا مُفشياً سِـــرّاً وَلا مُتَكَبِّـــراً | وَتُفَادُ مِنْــهُ حِكمَـــــةٌ وَصَــوابُ

[1] جامع بيان العلم وفضله 203/2

الفصل الخامس

المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة ودورها

في العمليّة التَّعْلِيْميّة

الفصل الخامس
المُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيَّة ودورها في العمليّة التَّعْلِيْمِيَّة

بين يدي الحديث عن المؤسسة التعليمية، لنا كلمة، وقد كانت الخطة أن ننطلق من التأصيل الشرعي لكل الفصول، منطلقين من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعمل السلف، ومن ثَمَّ نثنّي بالحديث عن المفاهيم والنظم التربوية الناظمة للموضوع كما هو واضح من قبل. ولما كان المسجد في حضارتنا الإسلاميّة، هو مناطَ المؤسسة التعليمية، يرسم للعملية التعليمية أهدافها ووسائلها وتحرُّكها وكل مايتصل بها! لنتساءل اليوم ماالذي أفقد المسجد هذا الدور أو كاد؟!

مع ضعف الدولة العثمانية[1]، والتي أُطلق عليها 'الرجل المريض' ومع اشتداد الهجمة الصليبية، وعلى التحديد أكثر، مع حملة نابليون [2] بونابرت على مصر والشرق، أحسّ المسلمون بحاجتهم إلى نبذ الضعف، وإلى التجديد في فكر المسلمين، وفي واقعهم، والانطلاق من جديد. وهنا كان اتجاهان في التغيير:

---

[1] ليس من شأننا هنا أن نبيّن أسباب الضعف وليس من صلب بحثنا لكن للمزيد : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (2/ 191، بترقيم الشاملة آليا) لقد كان التعصب المذهبي منحرفاً عن منهج الله تعالى وزاد هذا الانحراف عمقاً في حجر العقول، وجمود العلوم، وتفتيت الصف الاسلامي مما كان له أعظم الأثر في ضعف الدولة العثمانية وانحطاطها، وانشغالها بمشاكلها الداخلية في الوقت التي كانت المؤمرات قد احاطت بها وشرع الصليبيون في الأجهاز على الرجل المريض.

[2] موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة (ص: 16، بترقيم الشاملة آليا) جاءت الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م، وفيما يخص الأزهر أدرك نابليون بونابرت قائد الحملة مدى أهمية الأزهر، وقوة تأثير شيوخه فى نفوس الشعب المصرى، فحاول -ونجح- فى التودد إلى طائفة منهم، وجعل ينتهز الفرصة تلو الفرصة للاجتماع بهم، ويتحدث إليهم فى موضوعات علمية حول بعض آى القرآن، ويشعرهم باحترامه لنبى الإسلام، فيخرجون من عنده وكلهم لسان ثناء عليه، يشيعونه فيمن يخالطونهم.

الأول يتمـــثل في حـــركة الـــتجديد والإصلاح في نجد، والتي قادها محمد بن عبد الـــوهّاب1، واتجهـــت في الإصلاح إلى محاربة البدع والفساد العقدي، والعودة بالدين إلى أصالته النابعة من كتاب الله وسنة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم .

والثاني يتمثّل في محمد علي باشا2، في مصر . فقد اتّجه إلى الغرب فأرسل البعثات التعليمية، لدراسة ما عند القوم من نظم تعليمية ومدارس وقوانين، وراح يطبّقها في البداية بـــنوع من المزج مع ما لدى الأزهر. ولكن العَجَلة كانت أكثر سرعة في مغادرة المدرسة للأزهر، لأسباب منها؛ موقف الدولة العثمانية من حركة محمد بن عبد الوهاب، إذ سمحت لمحمـــد علـــي بـــل شجّعته على القضاء عليها في أكثر من حملة بقيادات أولاده طوسون وإبراهيم3. مما أتاح له خلو الساحة من مناهض حقيقي لمشروعه التغريبيّ . وكذلك ضعف الأزهر في نظمه وفي عموم رجاله.

وكذلك انبهار المصريين بالتقدّم الذي رأوه لدى الفرنسيين في حملة نابليون، ولاسيما في المجـــال الـــثقافي فقـــد جلب معه مطبعة إلى مصر، بهرت عيونهم وهم يقارنون سرعتها الخيالية، بأقلامهم الكليلة والبطيئة، في عمق الزمان، وعلى صفحات الأوراق، ومع تغريب المؤســـسة التعليمية في الشكل، وهي في صورة 'المدرسة' كان هذا التغريب قد أخذ طريقه إلى المضامين الفكرية والحضارية، فطبعها ببعض الألوان التغريبية.

---

[1] محمـــد بـــن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي: زعيم النهضة الدينية الاصلاحية الحديثة في جزيرة العـــرب. ولد ونشأ في العيينة (بنجد) ورحل مرتين إلى الحجاز، فمكث في المدينة مدة قرأ بها على بعض أعلامها. وزار الشام. ودخل البصرة فأوذي فيها. وعاد إلى نجد، فسكن (حريملاء) وكان أبوه قاضيها بعد العيينة. ثم انتقل إلى العيينة، ناهجا منهج السلف الصالح، داعياً إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع وتحطيم ما علق بالاسلام من أوهام. (1115 – 1206 هـ = 1703 – 1792م) (انظر الأعلام للزركلي (6/ 257))

[2] محمد علي (باشا) (1184 – 1265 هـ = 1770 – 1849 م) (انظر الأعلام للزركلي (6/ 298))

[3] إبراهيم باشا (1204 – 1264 هـ = 1790 – 1848 م) إبراهيم (باشا) بن محمد علي (باشا): قائد، بعيد المطـــامح، مـــن ولاة مصر. ولد في (نصرتلي) بالقرب من قولة (بالروملي) وقدم مصر مع طوسون بن محمد علي، سنة 1220 هـ فتعلم بها. الأعلام للزركلي (1/ 70):

لكـــن للحـــقّ نقول: إن محمد علي باشا، استطاع أن يقضي عسكريا على الدعوة الإصلاحية بنجد، لكنه لم يستطع أن يقضي على الحركة الإصلاحية من حيث الفكرةُ، فقد كانت أصيلة أصالة الدعوة الإسلامية ذاتها، وتجديداً لما اندرس منها، أو تبدّل فكيف يمكن هـــزيمتها وهي دعوة للعودة إلى الأصول والمنابع!؟ ولذا نحن نراها تعود بقوة، فيما يسمى اليوم ب'الصحوة الإسلامية'. ولاسيما مع وعي الأمة لذاتها ولدورها الحضاري والدعوي. ومـــع الشعور بالتحديات المعاصرة والمحن والأحداث التي باتت معها الأمة تحنُّ إلى ماضيها العريق الذي قادت فيه الركب الإنساني إلى أرقى درجاته أخلاقا وفكرا وعقيدة ودعوة.

والسّؤال الأقرب إلى بحثنا أما كان للمؤسسة التعليمية 'المسجد' أن تتابع المهمّة !؟ ونحـــن نقـــول وبكل الثقة : نعم، نعم. ولو كان الأمر استمرّ متلازما، لكان العلم في كل مناحـــيه مقتـــرنا بالأخلاق، لا يشتطُّ عنها، وساعيا في رفعة البشر وفي تجنيبهم لوَهَدَات الشرور وهمزات الشياطين البشريّة وغيرها.

والسّؤال الأكثر قرباً هل يمكننا العودة إلى مانطمح ؟

فنجـــيب بواقعية شديدة، إنه في الواقع الراهن، وفي المدى المنظور غير ممكن. لكن، لكـــن لن يبارح هذا المطمحُ آفاقَنا! ولا ينبغي له أن يبارح. ولا بد من عودة الإسلام إلى الـــسبورة وإلى المقعـــد وإلى المدرِّس والمدير وإلى ال 'نت' لا بد من العودة إلى كل مبانيه الحجرية والفكرية والحضارية روحيّة وماديّة.

والآن .. ولـــيس قبل الآن، أسمح لنفسي أن أتابع البحث في المؤسسة التعليمية وفق ماتناولـــته في بقية الفصول من بيان الجودة في كل عناصرها، وبالكشف عن جلّ المفردات الـــتي نلتقي فيها مع تنظيم الغرب للعملية التعليمية ومن بينها المؤسسة. فنحن نلتقط الجودة مـــن حـــيث جاءت. ولكن الجودة في جانب تنظيمي ليس لها أن تنسينا أنفسنا وهويتنا، لاســـيما ونحـــن الأعلـــى: ﴿وَلَـــا تَهِـــنُوا وَلَـــا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139].

المؤسسة التعليميّة والواقع الحاليّ

لا شكَّ أن الـــمُؤسَّسة التَّعْليْميّة سواءٌ كانَتْ مدرسةً، أم معهداً، أم كليَّة، أم جامعة تُعـــدُّ عنـــصراً أساســـيّاً من عناصر العمليّة التَّعْليْميّة، فلا بدَّ للمـــُعَلِّم والطَّالب من مكان يمارســـان فـــيه التَّعْليْم والتَّعَلُّم بالرَّغْمِ من توفُّر التَّعْليْم الافتراضي [1] مؤخراً، "فالـــمُؤسَّسة التَّعْليْميّة" مصطلحٌ يدلُّ على المكان الذي تَجري فيه العمليّة التَّعْليْمية بشَكْلٍ رسميّ.

كثُر مؤخراً إنشاءُ المؤسَّسات التَّعْليْميّة في معظم البلاد العربيّة، فمنها ما أُسِّس لتعزيز مكانة السُّلْطان أو الحاكم، ومنها ما أُنْشئ لكسب سمعة وشهرة لشخص ما، ومنها ما بُني لتحصيل مكاسبَ ماليّة واستثمارات عقارية، ومنها من أُنْشئ لترويج فكر مُعيَّن أو إظهار بدعـــة مُعيَّـــنة، ومـــنها القليل القليلُ الذي أُنْشئ من أجل توفير فرصِ كسب العلم النّافع والمعـــرفة الـــصحيحة، وللتَّحَقُّق من وجود هذه الظاهرة يمكن للقارئ أن يقارن بين وضع المؤسَّسات التَّعْليْميّة في القرى وتلك الّتي هي في المدن!

باستثناء دول الخليج العربيّ الغنية بثرواتها وكثرة استثماراتها في مجال التَّربية والتَّعْليْم، ما زال هناك نقص في عدد المؤسَّسات التَّعْليْمية في معظم البلدان العربيّة، وإن وجدت فهي تعاني من ضعف وفقر في بنيتها التحتية ونقص في المرافق والخدمات الّتي تسهل عَمَليَّة التَّعْليْم

---

[1] كلمة "افتراضي" هي ترجمة للمصطلح الأجنبي "Virtual" أما التعليم الافتراضي فهو طريقة لإيصال العلم وللتواصـــل والحصول على المعلومات والتدريب عن طريق شبكة الإنترنت، فهو طريقة للتعليم باستخدام آلـــيات الاتـــصال الحديثة من حاسب وشبكاته ووسائطه المتعددة من صوت وصورة، ورسومات، وآليات بحـــث، ومكتبات إلكترونية، وكذلك بوابات الإنترنت سواء كان عن بعد أو في قاعة الدراسة. اذن كما أن التعليم التقليدي يشمل الطالب والمعلم والمادة العلمية والقاعة الدراسية، فان التعليم الافتراضي يشمل جميع هـــذه العناصر بالاضافة الى القاعة الافتراضية virtual class الذي يناظر القاعة في التعليم التقليدي وأصـــبح على طالب التعليم الافتراضي حضور محاضراته on linc بانتظام واداء واجباته وتقديم الابحاث المطلـــوبه منه في مواعيدها واذا تغيب يعاقب ...وهكذا نجد أنه يشبه التعليم التقليدي جدا بالاضافة لمزايا أخرى كثيرة لا تتواجد في التعليم التقليدي.

والتَّعَلُّم لدى المعَلِّم والطالب معاً. فهناك من يضع الإناث والذكور في مدرسة مختلطة مدَّعياً انه لايوجد مدارس كافية أو لأنّه أوفر مادياً وأصلح اقتصادياً، وغيرهما من الأعذار الأقبح من ذنب!

تذكّرْتُ مدرستي الثانوية الّتي تخرَّجت منها في صيف عام 1976، فحننت إليها وإلى جدرانها، مما جعلني أستخدم نظام "غوغل" لأطّلع عليها وأرى ما حلَّ الدهر بها وبأهلها، فإذا بي أرى جدراناً قد أكلتها السنون، والساحة الّتي كنا نقضي فترة الاستراحة فيها محفرة وأكوام من الأوساخ هنا وهناك، ثم نظرت إلى دورة المياه في الزاوية الشماليّة الشرقية، فرأيت خليطاً من المياه والعشب عند مدخلها، فحزنت كثيراً وتساءلت هل يا ترى أن داخلها مثل خارجها!

المشكلة أكبر من ذلك، والقضيّة أعقد وأَمَرُّ لأن الأَمْرَ لايتعلّق بشَكْلِ المؤسَّسة التَّعْلِيْميّة وما تحتويه من مرافقَ وخدماتٍ فقط، بل بعقليّات ومعتقدات وثقافات القائمين عليها، فمن المديرين من هو الأنانيّ المستغلٌّ لمركزه لا يهتمّ إلا بمصلحته وما يطيل بقاءه جالساً على كرسي الإدَارَة، ومن هو غير مؤهل أكَاديْميّاً أو إداريّاً لكنه موالٍ للسلطة ومنتسباً لحزب ما أو فئة ما، وهناك من يُعين مديراً أو مسؤلاً "بالواسطة" والرشوة والمحسوبية فيقع شرّ هذا المدير على أعضاء هيئة التدريس من جهة وعلى الطُّلّاب من جهة آخرى.

يُعَدُّ هذا الوضع الفاسد في كثير من المؤسَّسات التَّعْليْميّة في البلدان العربيّة دلالة واضحة على فشل العمليّة التَّعْليْميّة، وتراجعٍ في المستوى التَّعْليْميّ لدى أعضاء التدريس، وقصورٍ في تحقيق التَّعَلُّم الفعّال والعميق لدى المتَعلِّمين، لأن نجاح إِدَارَة المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة هو نجاح للعَمَليَّة التَّعْلِيْميّة، وفشلها هو فشل العمليّة التَّعْليْميّة.

لذلك أقدم للقارئ شرحاً مبسَّطاً لمفهوم مصطلح المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة، ثم أناقش أهمّ مُقَوِّمات جَوْدَة خصائص المُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة كعنصر رابع وجزء لا يتجزأ من

الأجـــزاء الأربعـــة المكـــوِّنة للعَمَلِيَّة التَّعْلِيميّة، لعله يكون دليلاً يستعين به مديرو المدارس، ويـــستأنس به عمداء الكليات، وغيرهم من القائمين على إِدَارَة المؤسَّسات التَّعْلِيْميّة، واللّه الموفق.

مفهوم الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة

قـــبل الشُّروع في إنشاء أية مؤسَّسة تَعْلِيْمِيّة لابدّ من التَّأكُّد أنَّ هناك صدقَ نيَّة لدى المـــتولّين والقائمين على إنشائها وإدارتها، وأنها لن تُبنى على أسس مظلمة أو خبث نية، أو إظهـــار فكـــر ضالّ مضلّ أو ترويج بدع وسلوكيات مبتدعة تخالف مبادئ وتعاليم ديننا الحنـــيف، وأن يكـــون مفهوم الـــمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة والغرض من إنشائها واضحين لجميع الأطراف من إداريّين ومـــُعلِّمين ومتعلِّمين وأولياء الأمور حتى تحلَّ البركة ويتحقق الغرض التَّعْلِيْميّ والهدف الإنساني منها بنجاح.

1. تعريف الـــمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة

مـــن حيث الشَّكل يُستخدم مصطلح "الـــمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة" هنا للدلالة على المكان الـــذي تَجري فيه العمليّة التَّعْلِيْميّة بشَكْلٍ رسمي، كما هو الحال في المدرسة كمكان للتعليم الأساســـيّ، والمعهد أو الكُلِّيَّة للتعليم المهنيّ والحرفي أو للتعليم الأكَادِيْميّ، والجامعة بصفتها مؤسَّـــسة تهـــتمّ بالتَّعْلـــيْم الجامعـــيّ والدراسات العليّا، لكنْ كلٌّ من هذه المؤسَّسات لها خصائصها الشَّكْلِيَّة والمكانية بما يتناسب مع حجمها والغرض من رسالتها التَّعْلِيْميّة.

ومـــن حيث المضمون تُعدُّ الـــمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة عضواً حيّاً يعمل بواسطة مكوِّنات داخلـــيَّة كـــإداريّين ومدرِّسين وطلاّب، ومكوِّنات خارجيَّة كالقوانين والعادات والتَّقاليد المعمول بها، فلنجاح العمليّة التَّعْلِيْميّة في أيَّة مؤسَّسة تَعْلِيْمِيّة لا بدَّ أن يعتدّ بدور المكوِّنات الدَّاخليَّة وعلاقتها ببعضها بعضاً والمكوِّنات الخارجيَّة وأثرها على سير العمليّة التَّعْلِيْميّة.

فالمدرسة بصفتها مؤسّسة تَعْليميّة لها مكانَتْها القانونيَّة، وفيها مجلس إداريّ يدير شؤونها، ومـعَلّمون وطلاب يمارسون التَّعْليْم والتَّعَلُّم، فهي تخضع لنظامٍ داخليٍّ محدَّد، له عاداتــه وتقاليده وأحكامه وطرق اتِّصال خاصَّة به وتكنولوجيَّة مُعيَّنة يستخدمها الإداريّون والمـعَلّمون في عملهم، أمَّا على مستوى خارج المدرسة فهي على اتِّصالٍ دائم بالمجتمع، كوزارة التَّربية والتَّعْليْم، وأولياء الأمور، وثقافة وحضارة المجتمع.

2. مهمّة المـؤسَّسة التَّعْليميّة

مثل إنشاء أية مؤسَّسة تَعْليْميّة سواء كانَتْ مدرسة، أم معهداً، أم كليَّة، أم جامعة كمثل إنشاء بيت من بيوت اللّه أُسس بنيانه على تقوى من اللّه ورضوان منه، وذلك لعظمة المكان ورفعة هدف وغرض الرسالة الإسْلاميَّة، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:109]. فتعمير المؤسَّسات التَّعْليْميّة كتعمير المساجد لأنها "مهد للصبيان، ومعهد للشبان، ومرصد للكهلان، ومسند للشيوخ، ومعبد للمعمرين، فكانها منازل الأقوام ومعارج الأمم وينابيع الحكم، يغرف منها كل ماش وراكب، ويهتدي بها كل مرتحل وواصب، ويزين بعلومها كل ساكن وواقف، فعليها أساس التقوى وبناء التزكية"[1].

فمهمّة المـؤسَّسة التَّعْليْميّة بشَكْلٍ عام تزويد المجتمع بالعلم النافع والمعرفة الصحيحة، ومهمّة المجتمع تزويد المـؤسَّسة التَّعْليْميّة بالطُّلّاب والمدرِّسين والقيم العَامّة، فعلاقة المدرسة –على سبيلِ المثال– مع المجتمع علاقة متداخلة ومُتَكاملة، ولاستمرار هذه العلاقة بنجاح وفعّاليَّة، لا بدَّ من تحديد طبيعة عمل كلّ إداريّ ومسؤول في المـؤسَّسة التَّعْليْميّة، فبدون تحديد هذه المسؤوليَّات والأعمال تعمُّ الفوضى وعدم المبالاة، وبالتَّالي

[1] تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، إبن جماعة الكناني، ص173

تــؤدّي إلى فــشل العمليّة التَّعْلِيْمِيَّة، لكن عندما يعلم المــُعَلِّم دوره والطَّالب دوره وإدَارَة المدرســة دورها ويعملون بجديّة وإخلاص من أجل تنفيذ أدوارهم، عند ذلك نستطيع أن نقول بأنّ احتماليّة نجاح العمليّة التَّعْلِيْمِيّة في هذه الوحدة الاِجْتِمَاعِيّة كبيرة وفعّالة.

لا ينبغي أن تكون الــمُؤَسَّسة التَّعْلِيْمِيّة مكاناً للّهث وراء الشهرة الذاتيّة، ولتحقيق المطامع الشّخصيّة والمصالح الماديّة، ولنشر الفكر الفاسد الضال المضل، وإنما ينبغي أن تكون صــرحاً شامخاً لنشر العلم النافع والمعرفة الصحيحة بين النَّاس، ومنبراً للدعوة لحفظ الدِّين ومكــارم الأخــلاق، ومنصَّةً عالية لترويج سنن السَّابِقين الأَوَّلين من أصحاب الرَّسول ﷺ والــتَّابِعين لهم من السَّلَف الصالح، وذلك لإعداد جيل من الــمُتَعلّمين عالم في أمور دينه ودنياه حتى يشمل الخير والمنفعة كافّة أفراد المجتمع.

إن مــا يميِّز المؤسَّسات التَّعْلِيْمِيّة بعضها عن بعض، ولاسيَّما مدارس مراحل التَّعْلِيْم الأساسيّ، هو قدرتها على تعليم طلابها ليكونوا مــُعلمي أنفسهم، ولديهم الرغبة والقدرة علــى أداء عملــهم النافع البنَّاء بفعّالية، ولا تعلّمهم ليكونوا قدوة في أخلاقهم وسلوكهم وانــضباطهم فقط، إذْ لابدّ أن يعلموهم ليكونوا رجالاً يخافون اللّه بالغيب، وليسوا بحاجة لمــراقبة يومية من قبل أحد. إن هذا الأُسْلُوْب التحرري في التَّربية والتَّعْلِيْم يؤدي بدوره إلى تحرير الــمُتَعَلِّم ليقوم بتعليم نفسه بنفسه.

مُقَوِّمات جَوْدَة خصائص الـمُؤَسَّسة التَّعْلِيْمِيّة

مــنذ إنــشاء أقدم المدارس في البلدان العربيّة أمثال المدرسة النظامية الّتي بناها نظام الملك الطوسي في بغداد الذي استُشهد سنة 485 هــ[1]، والمدرسة الحنبلية الّتي بناها الفقيه

[1] الــبداية والنهاية (11/ 357) : سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة .." ابتاع الوزير أبو نصر سابور بن أزدشير دارا بالكرخ وجدد عمارتها، ونقل إليها كتبا كثيرة، ووقفها على الفقهاء، وسماها(دار العلم). وأظن أن هذه أول مدرســة وقفــت على الفقهاء، وكانت قبل النظامية بمدة طويلة.". نقلنا هذا النص التاريخي من البداية لمن رغب في معرفة السبق التاريخي ولو لم يكن لها ذلك الأثر المستمر في التاريخ كما هو شأن غيرها.

شـــرف الإســـلام عبد الوهّاب بن عبد الواحد الشيرازي في دمشق المتوفي في 536هـــ، والمدرسة البهائية الّتي أنشأها بهاء الدِّين في القاهرة سنة 654 هـــ[1]، والقائمين على إنشاء المؤسَّسات التَّعْليْميّة يهتمّون بالمظاهر الخارجيّة والدّاخليّة للمدرسة أو الكُلّيَّة أو الجامعة حتى يجذبوا طلبة العلم إليها ويرَّغبوا أولياء الأمور بها، ولهذه المؤسَّسات التَّعْليْميّة خصائص منها:

خصائص شكلية خارجية

لاشـــك أن لمظهر الأشياء دورَه في جذبٍ أو تنفير النَّفس البشريّة، فالإنسان بفطرته يمـــيل إلى الـــشَّكل الحسن الأنيق وينفر من الشَّكل البشع الأغبر، ويظهر هذا جلياً بهتمامه بالمنـــشآت العمـــرنية والابْنية السكنية، ففي عصرنا هذا تتسابق الأمم في إبداع التصاميم العمرانية والأشكال الهندسية لتجعل من الوحدة العمرانيّة لوحة فنية تنبض فيها الحياة بشتى عناصرها.

رغـــم اتّساع رقعة هذا الانفتاح العمرانيّ في العالم بشَكْلٍ عام وبالعالم العربيّ بشَكْلٍ خاص، نجد انه مازال ينحصر في القطاعات الصّناعيّة والتّجاريّة والسّكنيّة لما لهذه القطاعات من ردود استثماريّة سريعة، وبهذا بقيت أبْنية قطاع التَّربية والتَّعْليْم تعاني من ضعف شديد في جَوْدَة خصائصها العمرانية الخارجيَّة والدّاخليَّة، ونقص في العدد والعدة في معظم البلدان العـــربيّة –باستثاء دول مجلس التعاون الخليجي- وهذا بدوره يؤثر سلبياً على نجاح العمليّة التَّعْليْميّة.

لـــذا ينبغي على المسؤولين وصنَّاع القرار في الدولة والقائمين على إنشاء أية مؤسَّسة تَعْليْمـــيّة، خاصة تلك الّتي تخص التَّعْليْم الأساسيّ في مراحله الابتدائيّة والإعدادية والثانوية، أن يعتدّوا بالأمور التالية:

أ. الإكـــثار من بناء المدارس الحكومية والمدارس الخاصة المعتمدة بما يتناسب مع عدد سكان البلد وعدد الطُّلّاب المفروض التحاقهم بالتَّعْليْم، بحيث يمكن تطبيق

[1] تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، إبن جماعة الكناني، ص174

المعادلـــة القائلة انه "كلما كثُرَت المدارس قل عدد الطُّلّاب فيها وأخذ الطالب حظاً أكبر من الاهتمام والعناية وتحقق التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم بعمق وفعّالية".

ب. اختـــيار المواقـــع المناســبة لبناء الـــمُؤَسَّسة التَّعْلِيْمِيّة، بحيث يُراعى فيها نسبة الـــتجمع السكاني، وتوفُّر أساسيّات البِنْيَة التَّحتيّة، وصلاحية البيئة الطبعيّة الّتي تحيط بها.

ج. إعـــداد تصاميم معماريّة خاصة بأبْنية المؤسَّسات التَّعْلِيْمِيّة، بحيث تحتوي على كافَّـــة المـــرافق الّـــتي تساعد في نجاح العمليّة التَّعْلِيْمِيّة، نذكر أهمّها القاعات الدِّراسيّة الواسعة والمكيَّفة، ودورات مياه كافية ومتناسبة مع عدد الطُّلّاب فيها، وقاعـــات اســـتراحة واســـعة ومجهزة بكل مايحتاجه الطُّلّاب خلال قضاء فترة الاســـتراحة، وتوفير حديقة كبيرة حول المبنى الدِّراسيّ بحيث يلجأ إليه الطُّلّاب في أوقات الاستراحه، فهذا يُعَزِّز في نفوسهم حبَّهم واحترامهم للبيئة ويُشجِّعهم للمساهمة في الحفاظ على البيئة الطبعيّة الجميلة، وغيرها من الخدمات.

د. إعطـــاء المبنى الخارجي خصائص معمارية من تصاميم وأشكال وألوان تضفي علـــى الـــمُؤسَّـــسة التَّعْلِيْمـــيّة شخصيّتها المُمَيَّزة مما يجعلها مهنيّة في شكلها، وجذابـــة في طلعـــتها، وقريبة على قلب الناظر عليها، حتى تغدوَ محبّبة للطالب والمـــعَلّم والإداريّين.

خصائص شكليّة داخليّة

هـــناك بعـــضٌ مـــن القائمين على بناء المؤسَّسات التَّعْلِيْمِيّة يعطي اهتماماً للمظهر الخارجي للمؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة أكثر مما يعطيه للتركيبة الداخلية للمبنى، بل أحيانا يحصل إهمالٌ وتجـــاوزٌ عـــن بعـــض العناصر الأساسيّة في تشغيل وتسيير العمليّة التَّعْلِيْمِيّة في داخل المبنى التَّعْلِيْمـــيّ، فعلى سبيلِ المثالِ، تجد في كثير من المدارس في البلدان العربيّة الّتي تمتاز بفصلي شتاء وخريف باردين انه لم يُركَّب فيها نظامُ تدفئة مركزية أو غيرها.

إن الخـــصائص الـــشّكْليَّة الدَّاخليَّة للمؤسَّسة التَّعْليْميّة لا تقلّ أهمّية عن خصائصها الـــشّكْليَّة الخارجـــيّة، فـــبقدر ما يتوفّر فيها من مرافق وخدمات ووسائل ترفيهية، يتحقق النجاح لسير العمليّة التَّعْليْميّة، لذلك ينبغي على القائمين على إدارة الـــمُؤسَّسة التَّعْليْميّة، العمـــلُ علـــى تأمين الأمور التالية الّتي تؤمن للطلاب الظروف المناسبة الّتي تساعدهم على التحصيل الدِّراسيّ الجيد وتساعد في نجاح عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم بشَكْلٍ غير مباشر:

أ- توفير مكتبة مزوَّدة بالكتب والمراجع الأكَادِيْمِيّة والفنيَّة، وذلك لمساعدة الطّالب للحـــصول على المعلومات الَّتي تفيده في مجال دراسته بسهولة ويسر، كما ينبغي أن تحتوي على كتب وقواميسَ وقصصٍ باللغة الإنجليزيّة تساعد الطُّلّاب في تحسين مستواهم اللغوي.

ب- توفير مركز للحاسوب الآلي والإنترنت يكون مزوداً بأجهزة كمبيوتر مربوطة بـــشبكة الإنتـــرنت، ومـــزودة بطابعـــات حديثة، وذلك لمساعدة الطالب للحصول على المعلـــومات الّتي تفيده في مجال دراسته بسهولة ويسر، وينبغي التنبيه على مراعاة الآتي عند استخدام هذا المرفق:

1) التقيد بالتواقيت والهدوء والنظام.
2) الاستفادة القصوى من المركز.
3) يمنع منعاً باتاً الدخول إلى المواقع الممنوعة.
4) يمـــنع منعاً باتاً الدخول إلى برامج الـــ Chat 'الدردشة' بكل أنواعها، ومواقع التواصل الاِجْتِمَاعِيّ 'كالفيس بوك، والتويتر'.
5) استخدام الطابعات الاستخدام الجيد وطبع ما هو مهم فقط.
6) في حالة إساءة استخدام الإنترنت يعرض المستخدِم للمسائلة.
7) عند الرغبة في استخدام هذا المرفق يجب التَّسجيلُ لدى الإدَارَة.

ت- تــوفير صــالة رياضــيَّة وملاعب رياضيَّة ضروريّة لتنمية لياقة الطُّلّاب وشغل فــراغهم بالنــشاطات الرياضيَّة المفيدة، وينبغي التنبيه على مراعاة الآتي عند استخدام هذا المرفق:

1) المحافظة على المعدات الرياضيَّة.
2) اتباع قواعد السَّلامة للحد من الإصابات.
3) اللباس الرياضيّ المناسب مع الحذاء الرياضيّ عند استخدام المرافق الرياضيَّة.
4) مراعاة التواقيت.
5) عند استخدام أيَّة مُعَدَّة إرجاعها إلى مكانها بعد الاستخدام.
6) مراعاة النظام والهدوء في المرافق الرياضيَّة.
7) يمــنع مــنعاً باتــاً إدخال الأطعمة والمشروبات أو التدخين[1] داخل الصالات الرياضيَّة.

ث- تــوفير كفيتــرية أو قاعة طعام حيث تُستخدم لتناول طعام الغداء أو أثناء فترة استراحة الطُّلّاب وينبغي التنبيه على مراعاة الآتي عند استخدام هذا المرفق:

1) يمنع دخول قاعة الطعام في غير الأوقات المخصّصة.
2) التحلي بآداب الطعام.
3) عدم الإسراف والتبذير.
4) وضع صينية الطعام في مكانها المخصّص بعد الانتهاء من الأكل.
5) الهدوء والنظام.
6) المحافظة على النظافة العامّة للمكان.

[1] بــل يمــنع التدخــين في كل نواحي المؤسسة التعليمية . وجاء تأكيدنا هنا، لأنه أكثر مظنّة للانفلات من القوانين والنّظم .

ج- تـــوفير مـــسجد أو مكـــان تقام به الصلوات الخمس للعاملين في الـــمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة أو الـــمُتَعلِّمين كي يؤدي فرائضه الدِّينيّة خلال وجوده فيها.

ح- تـــوفير عـــيادة طبية تقوم بعلاج الحالات الطارئة وإصابات الرياضين، وإعطاء الأدوية المناسبة لكل حالة، وإرسال الحالات الّتي تستدعي إشرافاً وعلاجاً خاصّاً إلى أقرب مستشفى، وذلك عن طريق سيارات الـــمُؤسَّسة أو استدعاء الإسعاف عند الضرورة.

خ- توفير إجراءات سلامة ووقاية وتوضيح اتباع تعليمات مكافحة الحريق الموجودة في الـــمُؤسَّسة العليّمية، والمحافظة على أدوات مكافحة الحريق وعدم العبث بها، وفي حالة الحريق يتوجَّه جميع الموجودين في الـــمُؤسَّسة إلى ساحة التَّجمُّع خارج الـــمُؤسَّسة.

فمـــا أجمـــل من يسعى وينفق الأموال في إنشاء المؤسَّسات التَّعْلِيْمِيّة، ويعتنى بتعمير المـــدارس والمعاهـــد التَّعْلِيْمِيّة، والمكتبات العلميّة، ويعمل على توفير المنح الدِّراسيّة للطلبة الجادين الراغبين، والوظائف للمــُعلـــِّمين المؤهلين الأكْفَاء، وللعلماء المخلصين العاملين في المـــدن والقرى لنشر العلوم الشَّرْعيّة، وإحياء المعارف القديمة، وتدوين العلوم العصريَّة، فقد قـــال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:105].

مُقَوِّمات جَوْدَة إِدَارَة الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة

إن المظاهر الشَّكْليَّة الخارجيّة والدّاخليّة في الـــمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة ليست كافية لتحقيق نجـــاح حقيقـــي للعَمَلـــيَّة التَّعْلِيْمـــيّة مهما كانَتْ مُمَيَّزة في شكلها، ومُتعدِّدةً في مرافقها وخدماتها، لأن الـــدّور الفعلي للمؤسَّسة التَّعْلِيْمِيّة يتمثل بجَوْدَة عمل وصفات القائمين على إدارتهـــا، وكيفـــيّة تعاملهم مع الـــمُتَعلِّمين وأعضاء هيئة التدريس وأولياء الأمور ومدى تفاعلهم مع قضايا المجتمع ككُلّ.

تعريف إدَارَة الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة

إدَارَة الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة هي المنظومة الإداريّة الّتي تنظّم وتدير وتشرف وتراقب سير العمليّة التَّعْلِيْميّة بكافّة مكوّناتها من أعضاء هيئة تدريس، وإداريّين، وطلاب، ومَنَاهِج تَعْلِيْمِيّة، تُستخدَم في المدارس أو المعاهد أو الكليات أو الجامعات. فالإدَارَة في المدرسة، على سبيلِ المثال، هي البيئة المُنظّمة لسير عمل المدير، والموجهة لتعليم أعضاء هيئة التدريس، والمشرفة على تعلّم وتعليم الطّلّاب، والمتابعَة لرغبات واحتياجات أولياء الأمور، وذلك بأُسْلُوْب مهنيّ مُمَيَّز فيه المنفعة لجميع مكوّنات العمليّة التَّعْلِيْميّة من جهة، وللمجتمع من جهة أخرى.

صفات مدير الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة الناجح

منذ عقود وتتحكم "المحسوبية والواسطة" حيناً والانتماءات السّياسيّة أو الحزبية حيناً آخر في اختيار وتعيين المسؤولين أو القائمين على إدَارَة المؤسَّساسات التَّعْلِيْميّة في معظم البلاد العربيّة، مما جعلها متأخرة في إنجازاتها الأَكَادِيْمِيّة والعلميّة على المستوى العربيّ من جهة، والمستوى الدولي من جهة أخرى، فقائمة أفضل 200 مؤسَّسة تَعْلِيْمِيّة في العالم الّتي نشرتها مجلة 'التايمز للتعليم العالي' بتاريخ 8 أكتوبر 2009 لا تحتوي على اسم جامعة عربيّة واحدة للأسف!

هذا الوضع المحزن له أسبابه السّياسيّة والاقْتِصاديَّة والاجْتِمَاعيّة والفِكْرِيّة والعلميّة والثَقَافِيّة والأخلاقيّة والإداريّة، الّتي تقف حاجزاً منّيعاً أمام أي تقدم أو تطوير أو تحديث يمكن أن يرفع من مستوى الأداء العلميّ والنتاج الفِكْرِيّ لأي بلد يسود فيها الفساد بشتى أشكاله وأنواعه.

لو نظرنا مليّاً في وضع القائمين على إدَارَة المدارس في مراحلها التأسيسية الثلاث، على سبيلِ المثال، لوجدنا أن معظمهم يعانون من نقص في أخلاقيّات وأدبيّات التعامل مع

الموقف التَّعْلِيْميّ، وبحاجة لأخذ دورات تدريبية مهنيّة في كيفيّة إِدَارَة الشؤون الإستراتيجية والتَّعْلِيْميّة للمدرسة، وفي كيفيّة التعامل مع المجتمع المحيط بهم من مدرسين وإداريّين وأولياء أمور وغيرها من الأمور الّتي تتعلق بالمجتمع ككُلّ.

حتى يتحقق التّقدُّم والتّطوُّر والنجاح في إِدَارَة الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة، ينبغي أن يتوفّر في مدير المدرسة صفات شخصيّة وخصائص مهنيّة مُعيَّنة تساعده في أداء عمله بعمق وفعّالية من جهة، وبحب ومتعة وإخلاص من جهة أخرى، ومنها:

أ. صفات شخصيّة أخلاقيّة

إن الصفات الشّخصيّة لمدير أيّة مؤسَّسة تَعْلِيْميّة هي نفسها الصفات الشّخصيّة الّتي ينبغي أن يتحلى بها المـُعَلّم العاقل الناجح، والّتي سبق ذكرها بشيء من التّفصيل في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وللاستفادة والتركيز على أهمّية هذه الصفات أذكر أهمّها، مضيفاً لها بعض الخصال الّتي تميّزه عن المـُعَلّم والّتي لها علاقة مباشرة في عَمَلِيَّة إِدَارَة الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة:

أ. توفُّر النية الصادقة لديه والإخلاص في عمله وتعامله مع كافّة العاملين في المدرسة من أعضاء هيئة تدريس، وإداريّين، وطلاب وأولياء أمور.

ب. التحلّي بمحاسن ومكارم الأخلاق من حمد وشكر لله أولاً، ثم لكل من يقدم من العاملين في المدرسة من عمل أو خدمة له أو لغيره، وصبر على أداء عمله بنجاح، وتواضع لمن يأتي إليه في طلب أو مشكلة أو توجيه نقد له.

ج. التميّز بالصدق في قوله وعمله، والعدل في تطبيق قوانين إِدَارَة المدرسة الإداريّة والأكَادِيْميّة، والعمل على حلّ القضايا والمشاكل الّتي قد تنجُم بين المدرسين والطُّلّاب من جهة، والإِدَارَة وأولياء الأمور من جهة أخرى بعدل وإنصاف.

د. التميّــز بــالحلم والرأفة بالمــعلــمين والإداريّين والطّلاب، وتفهّم أوضاعهم الاجْتمَاعيّة ومشاكلهم التَّعْلِيْميّة والأكَاديْميّة، بحيث تقع ثمرة هذا الحلم والرأفة على المدير أولاً وعلى بقية الأطراف ثانياً.

ه. التميّــز بالزّهد بما في أيدي المدرسين والإداريّين، والعفّة عن استغلال الطّلاب وأولياء الأمور، والتّرفّع عن البغض والحسد، والتحلّي بحبّ الخير لجميع العناصر المشاركة في العمليّة التَّعْلِيْميّة.

ب. صفات أكَادِيْمِيّة ومهنيّة

هــناك اخــتلاف بخــصوص المــؤهلات الأكَاديْميّة أو الفنية الّتي ينبغي على مدير الــمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة أن يكون حاصلاً عليها، فمنهم من يقول انه ينبغي أن يكون حاصلاً على درجة جامعية، ومنهم من يقول انه يكفي أن يكون لديه مؤهل في الإِدَارَة، ومنهم من يقــول انــه يكفــي أن يكون لديه خبرة عَمَلِيَّة في إِدَارَة المدارس، لذلك أقترح قائمة من المتطلــبات الأكَادِيْمِــيّة وغــير الأكَادِيْمِيّة الّتي ينبغي مراعاتها حين اختيار أو تعيين مدير مدرسة، على سبيلِ المثالِ.

إضافة للخصال الشّخصيّة الأخلاقيّة المذكورة أعلاه، والّتي ينبغي أن يتحلى بها مدير المدرسة، عليه أن أن يلبِّيَ كل المتطلبات التالية أو معظمها حتى يكون مؤهلاً لإِدَارَة مدرسة ما:

- أن يكــون حاصــلاً على درجة الليسانس أو الباكالوريوس من جامعة معترف عليها، والأفضل من ذلك أن يكون حاصلاً على درجة الماجستير.
- أن يكون حاصلاً على مؤهل أكَادِيْمِيّ في التدريس والتَّعْلِيْم معترف عليه، أو قد أخذ دورة تأهلية في ذلك.
- أن يكون حاصلاً على مؤهّل أكَادِيْمِيّ في الإِدَارَة التربويّة معترف عليه أو قد أخذ دورة تأهلية في ذلك.

- أن يكـــون لديـــه خبرةٌ عَمَليَّة في التَّدريس لا تقل عن 3 سنوات، والأفضل 5 سنوات أو أكثر.
- أن يكـــون لديه مؤهلٌ لغويٌّ أجنبيٌّ كاللغة الإنجليزيّة، لايقل مستواه عن 5.5 في اختبار الـــIELTS الأكَاديْمِيّ والّذي يتألف من 9 مستوايات، أو أي مؤهل آخر يعادله كاختباري كامبردج FCE,CAE أو الاختبار اللغوي الأمريكي TOEFL.
- أن يكـــون لديه القدرة على استخدام مهارات الاتِّصَال بشَكْلٍ مهنيّ وبأُسْلُوْب متميّز.
- أن يكـــون لديـــه القدرة على استخدام برامج الكمبيوتر بشَكْلٍ فعّال وبأُسْلُوْب متميّز.

دور المدير الناجح

تخـــتلف وتتعدد الأدوار الّتي يلعبها مدير الـــمُؤسَّسة التَّعْليْميّة وفقاً للإستراتيجيات التَّربويّة والتَّعْليْميّة والإداريّة الّتي تحددها الـــمُؤسَّسة في خطتها ورسالتها التَّربويّة والتَّعْليْميّة، فعلـــى سبيلِ المثالِ، يظهر الـــدّور الأساسيّ لمدير الـــمُؤسَّسة التَّعْليْميّة، من خلال تقديم قـــيادة حكيمة وإِدَارَة مهنيّة للمدرسة، بحيث يضع الأسس الّتي تُبنى عليها معايير ومقاييس عمـــلٍ وأداء المدرسة في كافّة المجالات المتعلقة في سير وإِدَارَة المدرسة لتنهض فيها إلى أعلى مستويات الأداء التَّعْليْميّ والتَّربويّ.

لتحقيق النجاح الإداريّ المطلوب في المدرسة، ينبغي على المدير أن يدير عَمَليَّة التَّعْليْم والتَّعَلُّم بحيث يثير كافّة الإمكانيات والقدرات عند المـــعلـــمين والـــمُتَعلـــمين على حد ســـواء لتحقـــيق جَوْدَة في التَّربية والتَّعْليْم، كما عليه أن ينشئ ثقافة تروّج الأداء المتميّز، والجَوْدَة العالية، والتوقعات السامية بين أعضاء هيئة التدريس الطُّلّاب.

يُعَـــدُّ المدير في المدرسة كربان سفينة يقود سفينته وفقاً لخطة يضعها لها، فهو يحدّد الـــوجهة الّـــتي يريد أن يسير بالمدرسة إليها، ويضع لها رؤية واضحة تتضمن أهدافاً بعيدة

وقــريبة، ويرسم إستراتيجيات وآليات تمكّن المدرسة والعاملين فيها من إداريّين ومــعلمين وطلاب من تحقيق العمليّة التَّعْلِيْميّة بفعّاليّة ونجاح.

بالــتعاون مــع العاملين في المدرسة، ينبغي على المدير أن يقوِّم أداء المدرسة بشَكْلٍ مــستمرّ ليحدّد الأولويَّات من أجل التَّحسين ورفع مستوى الأداء في المدرسة، كما ينبغي علــيه أن يقــوم بتطويــر سياسات وممارسات وخطط المدرسة، ويضع مرافق ومدخرات ومــصادر تَعْلِيْمِــيّة في المدرسة في خدمة العاملين في المدرسة وفي خدمة العمليّة التَّعْلِيْميّة بكافّة عناصرها.

كمــا ينبغــي على مدير المدرسة العاقل الناجح أن لا يهمل علاقة مدرسته بالعالم الخارجي، فلا بد أن يهتمّ بقضايا المجتمع المحيط به، ويحرص على مواكبة تطلعاته فيما يتعلّق بقضايا التَّربية والتَّعْلِيْم، وعليه أيضاً أن يشارك أولياء الأمور ويطلعهم ليس فقط على وضع أبْــنائهم التَّعْلِيْمــيّ، وإنما يشاركهم في السماع إلى آرائهم من خلال إنشاء لجان تتضمن أعضاء من أولياء الأمور لمناقشة قضايا المدرسة التعيليمية وغيرها من القضايا.

مهامّ مدير الـمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة الناجح

تختلف مهامّ مدير الــمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة من مؤسَّسة إلى أخرى، فمهامّ مدير مدرسة ابتدائــيّة غــير مهامّ مدير معهد، ومهامّ عميد كلية ما غير مهامّ رئيس جامعة ما، وذلك بــسبب اخــتلاف طبيعة عمل، ورسالة، وحجم الــمُؤسَّسة التَّعْلِيْميّة، فلكل مؤسَّسة لها ثقافــتها الإداريّــة، لهــذا ينبغي على مدير كل مؤسَّسة أن يكون قادراً على تطبيق الثقافة الإداريّة للمؤسَّسة الّتي يعمل فيها إذا أراد النجاح له ولمؤسَّسته.

أ. مهامّ قياديّة

يتميّز القائد النّاجح عن غيره من النّاس بخصائص مهنيّة، ومعرفة واسعة وعميقة، ومهارات قيادية متنوعة، تجعله يؤدي عمله بفعّالية، كما تجعل تعامله مع الموقف الإداريّ عَقلانيّاً ومهنيّاً، لذلك ينبغي على مدير المدرسة، على سبيلِ المثال، أن :

- يملك رؤية واضحة لعناصر العمليّة التّعْليْميّة ولاسِيَّما فيما يتعلّق بعَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم للنهوض بها إلى أعلى المستويات.
- يؤمِّن البيئة المناسبة لتحقيق أهداف وتطلعات المدرسة، من خلال صياغة خطط تطوير لأداء العاملين فيها، وآليات لتقويّم هذا الأداء، والاستخدام الفعّال والمفيد للموارد التِّكنولوجيّة كأدوات للتعلُّم عند الطُّلّاب.
- يملك المعرفة بمعظم قضايا التَّعْلِيْم على المستوى المحلّيّ والوطنيّ، وبعضاً من القضايا الدَّوليّة في التَّربية والتَّعْلِيْم، حتى يتمكّن من القيام بنشاطات وفعّاليات مهنيّة تطويريّة للمدرسين ليُعَزِّز لديهم الوعي التربويّ ويطوِّر فيهم معرفتهم بالقضايا الجارية الخاصة بعَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم.
- يتفهَّم دور وسائل التِّكنولوجيا الحديثة في تعزيز العمليّة التَّعْلِيْميّة، ويعمل على استخدامها في عَمَلِيَّة التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم.
- يملك إستراتيجيات وآليات للاتصال والتواصل داخل وخارج المدرسة، وذلك من أجل عقد اجتماعات مع المدرسين، وأولياء الأمور، وممثلين عن المجتمع المحيط بالمدرسة، وتحضير جدول أعمال وخطط تنفيذ وتوصيات.
- يملك القدرة على التغيير الإيجابي والإبداع والابتكار حتى ينهض بالمدرسة إلى أعلى مستويات التقدُّم التَّعْلِيْميّ والتَّعلميّ والإداريّ.
- يملك المهارات المهنيّة الّتي تساعده لتطبيق الأفكار النَّظَريَّة ووضع الإستراتيجيات قيد التنفيذ على أسس علميّة ومنطقيّة.

- يملـــك مهـــارات الاتِّـــصَال الفعّالة الّتي تثير حب المعرفة والعمل لدى المدرسين والعاملين في المدرسة، من خلال تشجيعهم، وقيادتهم بحكمة، والاعتراف بأدائهم المميَّز وإنجازاتهم العلميّة.
- يملـــك مهـــارة محاسبة النَّفس، وإعادة النَّظَر في جَوْدَة أقواله وأفعاله، فهو بحاجة للعمل باستمرار على تطوير ذاته أخلاقيّاً وعلميّاً وإداريّاً، حتى يكون مديراً عاقلاً ناجحاً.

ب. مهامّ منظَّمية

يــتعين لمديـــر أية مؤسَّسة تَعْلِيْمِيّة أن يهتمّ بمؤسَّسته كمنظمة لها هيكلها التنظيمي، وبنيــتها الإداريّــة، ومكوِّناتها البشريّة حتى يستطيع أن يقوم بعمله بنجاح، ويحقق أهدافها بفعّالــية، وينهض بها إلى أعلى مستويات الأداء الإداريّ، لذلك ينبغي على مدير المدرسة، على سبيلِ المثالِ، أن :

- يــسعى جاهــداً وجاداً من أجل جعل المدرسة بيئة جذابة فيها الأمن والأمان والصّحّة والعافية لكل العاملين فيها من إداريّين ومدرسين وطلاب، حتى يتيح لهم فرص العمل والدِّراسة بشَكْلٍ مريح وماتع ومثمر.
- يتــبنى مبدأ "الشورى الإداريّة" بقدر ما يستطيع لأن مشاركة الإداريّين وأعضاء هيــئة التدريس وأولياء الأمور في إِدَارَة المدرسة وصناعة القرار يجعلهم يشعرون بالمــسؤولية اتجــاه عملــهم، ويثير لديهم حبَّ المشاركة والمساهمة في نشاطات وفعّاليات المدرسة.
- يمــارس ثقافة المشاركة العمليّة في فعّاليات ونشاطات المدرسة حتى يكون قدوة حسنة لكافّة العاملين في المدرسة ولاسيَّما الطُّلّاب، فلا حرج على سبيلِ المثالِ أن يقوم بأعمال يدويَّة بسيطة أمام الطُّلّاب، أو أن يرحِّب ويودِّع أولياء الأمور عند

قـــدومهم للمدرسة، وغيرها من الأعمال البسيطة الّتي تدل على زهده وتواضعه، فبالتّوضع رفعةٌ ومحبة وبالتكبر سفالة وبغضة، فقد قال الشاعر[1]:

وكفى بملتمس التّواضع رفعةً   وكفى بملتمس العلوِّ سفالا

- يملـــك المعـــرفة الكاملة بمبادئ ونماذج التقويّم الذاتيّ للمدرسة، والإستراتيجيات والآليات الّتي يمكن تطبيقها لتحسين المدرسة وتطوير قدرات الإداريّين والمدرسين على حد سواء.
- يقـــوم بـــصياغة سياسات وخطط إداريّة وماليّة وأكَادِيْمِيّة من خلال تفعيل مبدأ الشورى على كافّة المستويات بحيث تكون واضحة للجميع ويساهم في صياغتها الجميع.
- يملك الخبرات والمهارات الّتي تساعده في تدبير الموارد الماليّة والبشريّة والخدمية في المدرسة، بحيث يقوم بإدارتها بشَكْلٍ يوميّ وبأُسْلُوْب مهنيّ فعّال.
- يملك القدرة على إِدَارَة وتنظيم البيئة المدرسيّة بشَكْلٍ فعّال، ووضع الأولويّات قيد التنفيذ، ومراقبة جَوْدَة واستخدام موارد المدرسة.
- يملك القدر على التّفْكِيْر والتّحليل الناقدين، واستخدام مهارات الاتّصَال بأُسْلُوْب مُمَيَّـــز، والعمل على إنشاء وترويج ثقافة حب التّعْلِيْم بين المـــُعلـــّمين والتعلم بين الـــمُتَعلّمين.

ث. مهامّ أكَادِيْمِيّة

كغـــيره مـــن المديرين في الكليات أو الجامعات، يقوم مدير المدرسة بمهامّ أكَادِيْمِيّة هـــدفها تحقـــيق الأهداف التّعْلُّمِيّة والتّعْلِيْمِيَّة في المدرسة، ويعمل في الوقت نفسه على رفع مـــستوى جَوْدَة التّعْلِيْم والتّعَلُّم في المدرسة، فمن المهامّ الأَكَادِيْمِيّة الّتي ينبغي عليه أن يقوم بها ما يلي:

---

[1] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم البستي، ص52

- يسعى جاهداً وجاداً من أجل تأمين بيئة أَكَادِيْمِيّة فعّالة في المدرسة، بحيث يحصل فيها كافّة الطُّلّاب على التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم الفعّالين.
- يستخدم ويروّج أساليب التقويّم المعتمدة ويعمل على رفع مستويات الطُّلّاب كل حسب حاجته الأَكَادِيْمِيّة.
- يشجع استخدم أساليب وطرائق جديدة للتَّعليم والتَّعَلُّم، وينشئ ثقافة الترغيب وحبِّ التَّعَلُّم لدى الطُّلّاب.
- ينظّم ويحسن استخدام الموارد التَّعْلِيْمِيّة في المدرسة، ولاسيَّما تلك المتعلقة بوسائل التِّكنولوجيا من أجهزة الكمبيوتر، والإنترنيت، وغيرها من الأساليب.
- يضع إستراتيجيات لتطوير الأداء التَّعْلِيْمِيّ لدى المدرسين، ويزّكي المدرسين ذوي الأداء المُمَيَّز في تعليمهم ومعاملتهم مع الطُّلّاب.
- ينظم برنامج الدِّراسة، ويشرف على تطبيق المِنْهاج الدِّراسيّ في المدرسة، ويراقب ويقوِّم فعّالية أساليب التدريس في الفصول، وإلى أيّ مدى يستفيد منها المتَعلِّمين.
- يقوم بالإشراف على الامتحانات وبتحليل النتائج وتفسيرها والاستفادة منها في رفع مستويات التَّعْلِيْم والتَّعَلُّم.
- يشرف على تطبيق إستراتيجيات حضور وغياب الطُّلّاب، ويُعَزِّز السلوكيات الحميدة بين الطُّلّاب.
- ينظم ويشرف على كافّة الفعّاليات الثَّقَافِيّة والنشاطات الترفيهيّة داخل وخارج المدرسة.

ج. مهامّ مجتمعيّة

إضـــافة للمهـــامّ القـــياديّة والتنظيمية والأكاديميّة الّتي يقوم بها مديرو المؤسّسات التّعْليميّة، يقومون بمهامّ تتعلق بالموارد البشريّة وبالعلاقات العَامّة داخل وخارج الـــمُؤسّسة ومدير المدرسة كغيره من المديرين، ينبغي عليه أن يقوم بما يلي:

- إنـــشاء ثقافة العمل الجامعيّ في المدرسة من خلال تقسيم العاملين إلى فرق عمل يقـــوم كل فريق عمل بمهمّة ما، ويشجع أعضاء هيئة التّدريس لنشر هذه الثّقافة بين الطّلّاب.
- إنشاء جوٍّ عمل تسود فيه علاقات تقدير واحترام بين فرق العمل والّتي بدورها تؤدي إلى نتائج إيجابية على كافّة المستويات في المدرسة.
- حـــل كافّـــة الخلافات والصراعات الّتي قد تحصل بين العاملين في المدرسة بعدل وبفعّالـــية، وتجـــنُّب المحاباة لأيّ طرف، والعمل على ترويج ثقافة الرأي والرأي الآخر.
- إنـــشاء ثقافـــة الـــتّعلُّم التعاونيّ داخل المدرسة والعمل على إنشاء علاقات بهذا الخصوص مع مدارس أخرى، فتبادل الآراء والخبرات بين مديري وأعضاء هيئات التدريس في المدارس يُعَزِّز من جَوْدَة العمليّة التّعْليميّة.
- إنشاء شبكة اتِّصال فعّال مع أولياء أمور الطُّلّاب، والمسؤولين في مديرية أو وزارة التّـــربية والتّعْلـــيم، وكافّة الوكالات أو الشّركات التي لها علاقة في سير العمليّة التّعْليميّة في المدرسة.
- العمـــل علـــى مشاركة وكالات، ومنظمات، ووزارات في فعّاليّات ونشاطات المدرســـة من أجل تأمين البيئة التّعْليميّة المـــميَّزة للطلاب وطمأنة أولياء أمورهم على مجريات العمليّة التّعْليميّة في المدرسة.

- العمــل علــى الاستفادة من موارد المجتمع في تعزيز العمليّة التَّعْلِيْميّة من خلال اســتخدام المــتاحف، والمكتبات، ونوادي الرياضة، وغيرها الّتي تساعد في رفع مستوى العلم والمعرفة لدى الطُّلّاب.
- الاســتماع لــلآراء ووجهات نظر أولياء الأمور، وممثلي المجتمع، والاعتداد بها، والاستفادة من نقدهم بشَكْلٍ إيجابيّ.
- اســتخدام إستراتيجيات وتبنّي آليات تشجيع أولياء الأمور للمشاركة في العمليّة التَّعْلِيْميّة، ولدعم عَمَلِيَّة التَّعَلُّم عند الأبْناء داخل وخارج المدرسة.

لــذا يمكننا القول أن مدير الــمُؤسَّسة التَّعْلِيْمِيَّة بشَكْلٍ عام ومدير المدرسة بشَكْلٍ خــاصّ الــذي يدير مؤسَّسته ضمن الإطار التالي، يكون قد أدى مهمّته التَّعْلِيْميّة بفعّالية ونجاح:

أ- **ذاتيّ**: أي يمــتلك خصائص شخصيّة: مخافة اللّه وحسن خلق، ومؤهلاً علميّاً، ومعــرفة إداريّة، وخبرة عَمَلِيَّة، ومهارات اتصال مُمَيَّزة، والقدرة على التَّفْكِيْر الانعكاسيّ، أي مبدأ إعادة النَّظَر بما يقول ويفعل.

ب- **منظّمــي**: أي يمتللك القدرة على إِدَارَة المدرسة من حيث؛ توزيعُ مهامّ العمل بــين العاملين وأعضاء هيئة التدريس، وتبنّي ثقافة التشجيع وإعطاء الحوافز، وتبني وسائل اتصال تكنولوجية حديثة، والتصرف بماليّة المدرسة بحكمة وتعقل، واستخدام مرافق المدرسة لمصلحة العاملين فيها وللطلاب، وتحمل مسؤولية كاملة عن إِدَارَة المدرسة.

ت- **أكَادِيْمِــيّ**: أي يقوم بالإشراف على: إعطاء المَنَاهِج الدِّراسيّة بشَكْلٍ فعّال، والأداء التَّعْلِيْميّ للمدرسين، وأداء الطُّلّاب التَّعلميّ، وتنظيم نتائج العمليّة التَّعْلِيْميّة، وتبيان الإنجازات الّتي تخدم العمليّة التَّعْلِيْميّة في المدرسة.

ث- **مجتمعــيّ**: أي يبني علاقة وطيدة مع النَّاس داخل وخارج المدرسة؛ بترويج ثقافــة العمل الجماعي المتعاون، وإنشاء فرق عمل، وتعزيز ثقافة توزيع العمل بين العاملين،

وإنشاء علاقات جيدة وبنائة مع أولياء الأمور، وممثلي مديريات ووزارات التّربية والتّعليم، وممثلـــي الوكالات والشّركات والمنظمات الخاصة لما في ذلك من فوائد مباشر وغير مباشر لجميع مكوّنات العمليّة التّعليميّة.

خلاصة

مـــن خــــلال مـــا ذكرنا أعلاه تبين لدينا أن الوضع الحاليّ في معظم البلاد العربيّة للمؤسّـــسة التّعليميّة كمكوّن أساسيّ من مكوّنات العمليّة التّعليميَّة بحاجة لإعادة نظر في مفهومها، ودورها في تعزيز ونجاح العمليّة التّعليميّة.

ليـــست الـــمُؤسَّسة التّعليميّة متحفاً لعرض الموارد التّعليميّة والأجهزة الإكترونية، وليست سجناً لمعاقبة أو لتأديب الطُّلّاب، وليست شركة عمل هَمُّ القائمين عليها الكسبُ والـــرِّبح المـــاديّ، وإنمـــا هي صرح أكَاديْميّ هدفه بناء شخصيّة طلابية تقوم على عقيدة التّوْحـــيْد، وحرية التَّفْكيْر والإبداع، والتحليل النَّقْديّ البنّاء، والشُّعور بالمسؤولية، ليكون عنصراً عاملاً وفعّالاً في بناء مجتمع إسلاميّ متحتضر.

وحـــتى تنجح الـــمُؤسَّسة في لعب دورها في العمليّة التّعْليْميّة، ينبغي على القائمين عليها أن يكونوا أهلاً لها، فلا بدّ لمدير الـــمُؤسَّسة أن يكون متقياً للّه في عمله وتعامله مع الآخرين، ومؤهلاً علميّاً، وأن يكون قيادياً ومربياً ومرشداً ومـــعَلّماً يعمل على تحرير طلّابه مـــن التّبعيَّة والروتينيّة في التَّعَلُّم، ويفتح لهم أبواب جديدة في كيفيّة التَّعَلُّم الذاتيّ المستقلّ، وحرية التَّفْكيْر والإبداع، والعمل الجاد الفعّال.

المدرسة ليست تحضير الطُّلّاب للحياة العمليّة فقط، بل هي الحياة نفسها حيث يختبر الطُّلّـــاب قدراتهم العلميّة والعمليّة، ويتحررون من الاتكاليَّة والروتينيّة في تعلُّمهم ليصبحوا طلاباً أحراراً في تفكيرهم، ودراستهم، وتطلعاتهم المستقبليّة.

إِدَارَة المدرســة الْمُمَيَّزة في شكلها ومضمونها هي الّتي تؤمِّن بيئة جذّابة حيث يسود فيها الترحيب والاحترام للطلاب وأولياء الأمور، والعدل والمساواة بين الطُّلّاب والمدرسين والإداريّــين، والمــوعظة والحكمــة في تعاملها مع القضايا التَّعْلِيْميّة المتعلقة بكافّة العناصر التَّعْلِيْميّة.

وآخر دعوانا أن الحَمْدُ للّهِ رَبِّ العَالَمِيْن

أهمّ المراجع والمصادر المعتمدة في الكتاب

- القرآن الكريم
- إحـــياء علوم الدِّين، للإمام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي، المكتبة العصرية، بيروت، 2007م.
- إغاثـــة اللـــهفان من مصائد الشيطان، شمس الدِّين أبي عبد اللّه محمّد بن قيّم الجَوْزِيّة، المكتبة العصرية، بيروت، 2009 م.
- أدب الدُّنـــيا والـــدِّين، لأبي الحسن علي بن محمّد بن حبيب البصري الماوردي، المكتبة العصرية، بيروت، 2009 م.
- أخـــبار الأذكياء، الحفاظ جمال الدِّين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الغدادي الشهير بـــ ابْن الجَوْزِيّ، المكتبة العصرية، بيروت، 2008 م.
- أخـــبار االحمقـــى والـــمُغفّلين، الحافظ جمال الدِّين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي الشهير بـــ ابْن الجَوْزِيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 2006 م.
- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هــ)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر 2002 م.
- الـــداء والدواء، شمس الدِّين أبي عبد اللّه محمّد بن قيّم الجَوْزِيّة، مكتبة ابْن القيّم والدار الدمشقية، دمشق، الطبعة الأولى 2004م.
- الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنَّة، محمّد رضا، المكتبة العصرية، بيروت، 2005م
- العقـــد الفـــريد، الفقيه أحمد بن محمّد بن عبد ربه الأندلسي، المكتبة العصرية، بيروت، 2009 م.
- الـــمُـــستطرفُ في كُلِ فَنٍ مُستَظرف، بهاء الدِّين أبي الفتح محمّد بن أحمد بن منصور الأبشيهي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 2004 م.
- الموطَّأ، الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.

- المِلَـــلُ والـــنِّحَلُ، أبي الفتح محمّد بن عبد الكريم الشهرستاني، المكتبة العصرية، بيروت، 2007م.
- الفوائد، الإمام ابْن قيّم الجَوْزِيّة، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.
- الفروسية، الإمام ابْن قيم الجَوْزِيّة، دار الحديث، القاهرة.
- المصباح المـــنِير في تهذيب ابْن كثير، الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير، دار السَّلام للنشر والتوزيع، الرياض، 2000م.
- الآداب الـــشَرْعِيّة، للإمـــام الفقيه المحدث أبي عبد الله محمّد بن مفلح المقدسي، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، 2005م.
- الرَّســـول المــــُعَلِّم ﷺ وأســـاليبه في التَّعْلِـــيْم، عبد الفتاح لأبي غدة، المكتبة الغفورية العاصمية، باكستان، 1416 هـــ
- النَّبيّ الكريم ﷺ مـــُعَلِّماً، أ.د. فضل إلهي،مكتبة بيت السَّلام، الرياض، 2003م.
- الرَّسول ﷺ والعلم، د. يوسف القرضاوي، مؤسَّسة الرسالة، بيروت، 1995م.
- السِّيرة النبوية، الدكتور علي محمّد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، 2006م.
- السِّلسلة الصحيحة، محمّد ناصر الدِّين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، 1996م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء : 15
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى 2007م.
- بَهجَـــة المجَـــالِس وأنسُ الـــمُجَالِس وَشَحذ الذَّاهِن والهَاجسُ، الامام حافظ المغرب أبي عمـــر يوســـف بـــن عبد البَرِّ النّمري القُرطُبي الأندلسي، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2008م.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، العلامة الشَّيْخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي- الرياض، دار المغني ودار ابْن حزم ـ بيروت، 1999م.
- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والـمُتَعَلِّم، الشَّيْخ الإمام بدرالدِّين محمّد بن إبراهيم بن سعد الله ابْن جَمَاعَةَ الْكِنَانِيّ الحموي الشافعي، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الثانية 2005م.
- تقييد العِلم، للحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، المكتبة العصرية، بيروت، 2005م.
- تحفة الذاكرين، شرح الإمام محمّد بن علي الشوكاني، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.
- تغليق التعليق على صحيح البخاري، ابْن حجر العسقلاني 858هـ، تحقيق سعيد القزقي، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، 1405 هـ .
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني،أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، الناشر دار الهداية، عدد الأجزاء / 40.
- تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، سنة الولادة 773/ سنة الوفاة 852، تحقيق محمد عوامة، الناشر دار الرشيد، سوريا، 1986.
- التعليقات الحسان، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ)، الناشر: دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م
- جواهر الأدب في أدبيّات وإنشاء لغة العرب، السيد أحمد الهاشمي، المكتبة العصرية، بيروت، 2008 م.
- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، الامام حافظ المغرب أبي عمر يوسف ابْن عبد البَرِّ النمري القرطبي الأندلسي، دار الكتب العلميّة، بيروت.

- حياة الصَّحابة، الشَّيْخ محمّد يوسف الكاندهلوي، المكتبة العصرية، بيروت، 2007م.
- ديـــوان الإمام الشافعي، الإمام أبو عبد الله محمّد بن إدريس الشافعي، المكتبة العصرية، بيروت، 2007م.
- رائق الشهد من شعر الدعوة والرقائق والزهد وإسلاماه، الدكتور سيد حسين العفاني، مكتبة معاذ بن جبل، الطبعة الأولى، 2001م.
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، الإمام أبي حاتم محمّد بن حبان البستي المكتبة، العصرية، بيروت، 2005 م.
- ســـير أعـــلام النـــبلاء، للإمام شمس الدِّين محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسَّسة الرسالة، الطبعة الحادية عشرة 2001م
- ســـنن أبي داوود، الإمـــام الحـــافظ المتقن أبي داوود سليمان ابْن الأشعث السجستاني الأزدي، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.
- ســـنن ابْن ماجه، أبي عبد الله محمّد بن يزيد القزويني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى
- سنن النسائي، الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن احمد بن شعيب النسائي، المكتبة العصرية، بيروت، 2010م.
- ســـنن التّـــرمذي، الجامع الصحيح لأبي عيسى محمّد بن عيسى بن سورة، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 2002م.
- ســـنن الدَّارمـــي، الإمام أبي محمّد عبد الله بن بهرام الدّارمي، المكتبة العصرية، بيروت، 2008م.
- شرح المعلقات السبع، للحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني،:دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1423هـــ - 2002م.

- صيد الخاطر، الحافظ جمال الدِّين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي الشهير بابْن الجَوْزِيّ، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الثانية 1999م.
- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، بتحقيق محمّد ناصر الدِّين الألباني، دار الدليل الأثرية للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة 2007م.
- صحيح البخاري، الإمام الحافظ أبي عبد الله محمّد بن اسماعيل البخاري، الرياض، 1998م.
- صحيح مسلم، الإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، بيت الأفكار الدولية، الرياض، 1998م.
- صحيح الترغيب والترهيب، محمّد ناصر الدِّين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى 2000م
- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمّد ناصر الدِّين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة 1988م.
- ضعيف الترغيب والترهيب، محمّد ناصر الدِّين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، 2000م
- فضل العلم وآداب طلبه وطرق تحصيله وجمعه، أبي عبد الله محمّد بن سعيد رسلان، دار الفرقان، دار أضواء السَّلَف، القاهرة، 2008م.
- كتاب عيون الأخبار، لأبي محمّد عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة الدِّين وري، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.
- كتاب العلم، محمّد بن صالح العثيمين، دار الغد الجديد للنشر والتوزيع
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري (المتوفى: 975هـ)، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الخامسة، 1401هـ/1981م.

- مفتاح دار السعادة ونشور ولاية أهل العلم والإرادة، الإمام ابْن قيم الجَوْزِيّة، المكتبة العصرية، بيروت، 2005م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، شمس الدِّين أبي عبد اللّه محمّد بن قيّم الجَوْزِيّة، مكتبة دار البيان، الطبعة الثانية 2007م.
- معجم المُنجد في اللغة العربيّة المعاصرة، دار المشرق، بيروت، الطبعة الأولى 2000م.
- منازل السائرين، عبد الله الأنصاري الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة طبعة جديدة، 1415 – 1995.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق / مجمع اللغة العربية عدد الأجزاء / 2.
- مشكاة المصابيح، محمّد بن عبد اللّه الخطيب التبريزي، تحقيق محمّد ناصر الدِّين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة 1985م.
- مكارم الأخلاق، لشيخ الإسلام تقي الدِّين أحمد بن تيمية، المكتبة العصرية، بيروت، 2007م.
- مقدمة ابْن خلدون، العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، دار الجبل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، 2005م .
- مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1993م.
- مهارات الاتِّصَال وأثرها في حياتنا العلميّة والعمليّة، د. أحمد مصطفى حليمة، دار ابْن كثير/ مؤسَّسة علوم القرآن، الشارقة، 2005م.
- معايير لتقويم جَوْدَة التَّعْلِيم لدى المُدَرِّسين في الجامعات والمَعَاهِد العليّا، د. أحمد مصطفى حليمة، دار البيارق، بيروت،1997م.

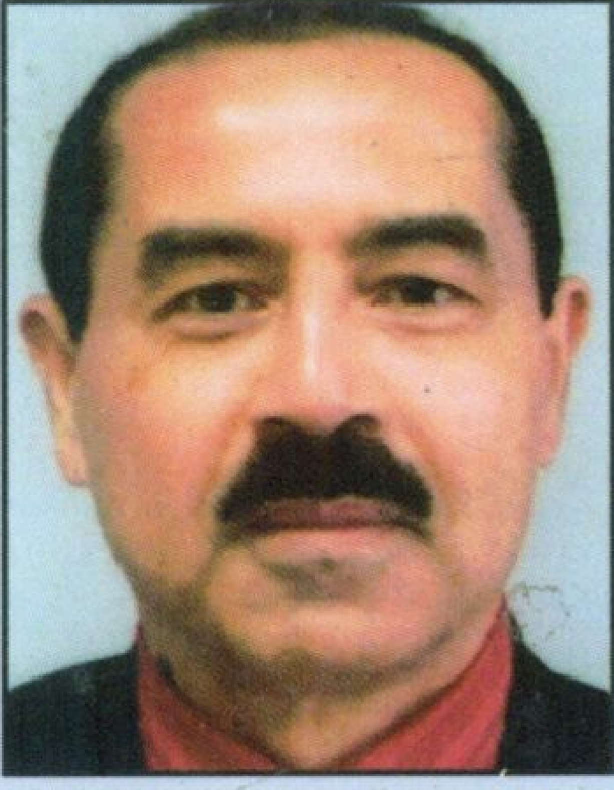
- هكـــذا علمـــتني الحـــياة، د. مصطفى السّباعي، دار الورّاق للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى 1990م.

المراجع الأجنبيّة

Gibbs, G	(1992) *Improving the Quality of Student Learning*, Oxford Centre for Staff Development.
Race Phil	(2001) *The Lecturer's Toolkit*, Kogan Page Limited, second edition.
Richards & Lockhart	(1994) *Reflective Teaching in Second Language Classroom*, Cambridge University Press
Richards & Rodgers	(1986) *Approaches and Methods in Language Teaching*, Cambridge University Press
Paul & Elder	(2001) *Critical Thinking: Tools for Taking Charge of your Learning and Your Life*, Prentice Hall, USA
'Pamphlet'	(2010) *Professional Standards for Principals*, Abu Dhabi Education Council, Abu Dhabi
Wright, T	(1987) *Roles of Teachers & Learners*, Oxford University Press.

جَوْدَةُ الْعَمَلِيّةِ التّعْليمِيّةِ

آفاقٌ جَديدَةٌ لِتَعْليمٍ مُعَاصِرٍ



هذا الكتاب

العقلُ.. التّفكيرُ النقديُّ.. العلمُ.. المعلمُ.. الطالبُ.. المادةُ العلميّةُ.. المؤسّسةُ التعليميّةُ. كلُّ هذه المكوّنات، كانتْ مدارَ البحثِ لدى الدكتور أحمد مصطفى حليمة في هذا الكتاب: "جودةُ العمليّةِ التعليميّةِ: آفاقٌ جديدةٌ لتعليمٍ معاصرٍ".

ولقد كان له مِن ثقافتِه الإسلاميةِ، ودراستِه في الجامعاتِ البريطانيةِ، وتواصلِه معها، وتدريسِه في الجامعاتِ العربيةِ.. كلُّ هذا، كان له رافداً في طبيعةِ، وفي عمقٍ، وفي سعةِ تناولِه لهذه المكوناتِ، فجاءَتْ تنهلُ مِن مَعينِ ثقافتِنا العربيةِ الإسلاميةِ الثّرةِ في المضامينِ الفكريةِ والثقافيّةِ والعَقَديّةِ، وتأخذُ مِن النظرياتِ الغربيةِ الحديثةِ التّقْنِيَةَ التعليميّةَ والخططَ التنظيميّةَ، فكان مزيجاً معاصراً وتراثياً، في وحدةٍ متكاملةٍ، ونسقٍ متميّزٍ.

وفي هذه العجالةِ، نحبُّ أنْ نُلفِتَ الانتباهَ إلى الجهدِ المصاحبِ في الحواشي، فقد عرّفَ بعشَراتِ الشخصياتِ، واهتمَّ بتاريخِ وفاتِها، لِمَا له من أهميةٍ في التأريخِ الفكريِّ، ومرجعيةِ هذه الأفكارِ. كما شملَ اهتمامُه، المصطلحاتِ، والشروحَ اللغويةَ، والنظراتِ المتنوعةَ، في شتى المجالاتِ التاريخيةِ والحضاريةِ والاجتماعيةِ والثقافيةِ وغيرِها.

وكلُّ هذا لإغناءِ البحثِ، بخلفياتٍ إضافيةٍ، تُوَسِّعُ، وتُغْني، وتعمّقُ صلتَه بالبحثِ.

أما عن قرّاءِ هذا البحثِ.. فكلُّ مَنْ كان في موطنِ التّعليمِ والتّعلّمِ والتّدريسِ، والإشرافِ التربويِّ.. وأولياءُ الأمورِ.. وكلُّ مَنْ كان على صلةٍ بالتوجيهِ العامِّ.



Design By Majdalawi



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع

Dar Majdalawi Pub.& Dis



تليفاكس : ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩

Telefax : 5349497 - 5349499

ص.ب : ١٧٥٨ الرمز ١١٩٤١

P.O.Box : 1758 Code 11941

عمان - الاردن

Amman - Jordan

www.majdalawibooks.com

E-mail:customer@majdalawibooks.com